

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المجلة العربية للعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبد العزيز

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

قسم التاريخ

٢٢٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... بِرَأْسِيَّ وَسَيَّاسِيَّ وَعَقْدَارِيَّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



١٠٢٣
١٤٠٩ هـ

٤٤٤ هـ

الشيخ الدكتور محمد بن عبد العزيز آل سعود

٤٤٤ هـ

المحرر: الدكتور السيد ...

المحرر: الدكتور السيد ...

((بسم الله الرحمن الرحيم))

(مقدمة)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . .
وبعد /

فقد كنت ومازلت ذا كلف شديد بالدراسات الاندلسية والشغف بها ، ومن وحي هذه الرغبة الذاتية جاء اختياري لهذه الدراسات الاندلسية محالا رحبا لرسالتى فى الماحسستير . والدراسات الاندلسية ما زالت ميدانا بكارا لم تسطع الدراسات التاريخية والادبية التى تمت حتى هذه اللحظة أن تستوعبه وتحتويه وتكشف عن أهم دقائقه وتفصيله ، ذلك لأن الدراسات الاندلسية لم تبدأ على يد المستشرقين الا منذ منتصف القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى ، كما أنها لم تبدأ على يد الكتاب والمؤرخين العرب مشاركة أو مفاربة الا فى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى .

ومن المستشرقين الذين كان لهم دور ملحوظ فى الكشف عن خبايا الروائع الاندلسية المؤرخ الهولندى راينهرت دوزى ، وخليان ربيرا ، وفرانسسكو كوديريه ، وآسين بلاجيوس ، وجامينجوس ، ثم المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال الذى كان ذا حظ عظيم فى اكتشاف كثير من المخطوطات الاندلسية القيمة ، ثم معاصريه من أمثال رامون مندث بيدال وأمبروس هويسى ميرانده ، وأميليو غرسيه غومس وأنخل جنثالت بالنثيا وغيرهم .

وقد دفعت هذه الجهود العلمية كثيرا من الباحثين العرب المشتغلين بالادب والتاريخ مشاركة بدرحة أوسع ومفاربة على نطاق أقل الى الاهتمام بالدراسات الاندلسية وغوص ميدانها الرحب . وكان ذلك ابتداء من مطلع القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى أمثال أحمد زكى ، وشكيب أرسلان ، وعبد الحميد العبادى ، ثم جاء جيل آخر من المشاركة ليدفع بالدراسات الاندلسية شوطا بعيدا . ومن هؤلاء حسين مؤنس ، أحمد مختار العبادى السيد محمود عبدالعزيز سالم ، حسن أحمد محمود ، عبدالعزيز الالهوانى ، لطفى عبد البديع ، محمود على مكى وغيرهم ، وكان لجهود محمد عبد الله عنان التى قام ومازال يواصلها دورا كبيرا فى تقدم الدراسات الاندلسية والكشف عن مكوناتها .

ومع هذا فيتراءى لى بحكم ما توافر لى من خبرة متواضعة فى هذا المجال أن الدراسات الاندلسية بشقيها التاريخى والحضارى ما زالت بحاجة الى البحث والتقيب والدراسة والتحليل . ويتراءى لى ايضا أن هناك صفحات من التاريخ الاندلسى لم تشر بعد بفعل الظروف الدقيقة التى عاشتها المصنفات الاندلسية ، وخاصة بعد اجلاء المسلمين عن أسبانيا ، ومحاكم التفتيش وطمس آثارهم .

وبوحى من هذا المفهوم ، وتحقيقا لرغبة ذاتية محضة عن لى أن اشارك فى مسيرة الدراسات الاندلسية التى نشطت فى النصف الثانى من القرن العشرين نشاطا كبيرا ومؤثرا

علمنى قد أتمكن من نشر صفحة مطوية ، أو تصحيح فكرة ، أو مفهوم خاطئ . . . إلى غير ذلك .
ولقد اجتزت من ذلك السجل ، وذلك التاريخ الاسلامى المشرق فى أحيان ،
والقائم فى أحيان أخرى موضوعا جعلته عنوانا لرسالتى فى الماجستير هـ :
• بنو عباد فى اشبيلية دراسة سياسية وحضارية (٤١٤-٤٨٤هـ / ١٠٢٣-١٠٩١م) .

ولقد كان هذا الاختيار فى واقع الامر نابعا عن رغبة دفينة فى النفس تطمح الى
تحسس الاسباب التى أدت الى زوال الوجود الاسلامى فى الاندلس من جهة ، وتطمح فى
الوقت نفسه الى الفوص معيدا فى تلمس الاسهامات الحضارية التى أهداها الاجداد بالاندلس
لمسيرة البشرية العلمية والحضارية ارتواء من معين من المجد التالذ أولا ، وحفز اللهم
والمعقول الاسلامية والعربية ثانيا .

ولملى أزعم أن هذا الموضوع الذى انتقيته من التاريخ الاندلسى ذو أهمية بالغة
فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى الاندلس . فدولة بنى عباد ظهرت فى
التاريخ الاندلسى بعد انتشار وحدة الدولة الاموية ومعد سقوط الخلافة لابل فى سنوات
احتضارها الاخيرة . بل يمكن أن نقرر أنها كانت هى وغيرها من ممالك الطوائف الأخرى
نتيجة مباشرة لذلك السقوط ، كما كانت دولة بنى عباد هى وغيرها من ممالك الطوائف سببا
أساسيا فى تصدع الوجود الاسلامى فى الاندلس كلية . وكان ظهور تلك الممالك وما مارسته
من ثم من سياسة ، وما ارتكبه من أخطاء استراتيجية فادحة ايذانا بضياح الاندلس . ذلك
لأن القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى كان مسرحا لمنعطف تاريخى بارز ومهم فى
تاريخ اسبانيا الاسلامية والنصرانية على السواء . إذ شهدت اسبانيا الاسلامية فى هذا القرن
انهيار الخلافة الاموية ومن ثم تصدع وحدتها وما تلا ذلك من تفتت وتمزق سياسى شهدت فيه
الاندلس نشوء حكم دويلات المدن أو ممالك الطوائف كما سماها معظم المؤرخين أو دول الفرق^(١)
والتي بلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة ، وقد مارست هذه الدول سياسة اقليمية ضيقة
الأفق ودخلت فى منازعات ضد بعضها البعض وكادت هذه الممارسات الخاطئة أن تعجل فى
انهاك الوجود الاسلامى لو لم يقبض الله للأندلس قوة فتية مدت فى عصر الوجود الاسلامى
أربعة قرون أخرى ، أعنى بذلك المرابطين . وفى نفس الوقت شهد ذلك القرن صحوة
اسبانية نصرانية انتقلت باسبانيا المسيحية من مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم . ونمت وترععت
خلال سنوات ذلك القرن خمس دول نصرانية ، استقرت أحوالها فى الأغلب الأعم واستتفظ
عودها وانتهجت مستغلة الأوضاع الحرجة للمسلمين آنذاك ، سياسة تهدف الى انتزاع أراضي
الآبساء والأجداد كما كانوا يصرحون دائما . هذه السياسة هى التى عرفت تاريخيا بحركة
الاسترداد الاسبانية . ولقد اضطلعت مملكة قشتاله الاسبانية آنذاك بالدور الرئيسى فيها ،

(١) : وردت هذه التسمية على لسان ابن الكردبوس فى كتابه الاكتفاء ، ص ٧٨ .

وكان لملوكها ابتداءً من عهد الملك فردناند الأول الدور الأساسي في تلك السياسة ، اذ كان فردناند هو أول من بلور حركة الاسترداد وأعطاهما الشكل الذي سارت عليه وقتذاك ، كما سيوضح لنا في ثنايا الرسالة .

وفي ظل هذه الاوضاع في اسبانيا الاسلامية والنصرانية معا واجهت الكثير من المضاعف ، اذ لا يمكن فصل تاريخ دولة بني عباد عن تاريخ ممالك الطوائف الاخرى . وكيف يمكن أن يحدث ذلك وهم القوة السياسية الكبيرة المؤثرة في التاريخ الاندلسي في القرن الخامس الهجري بحكم ما توافر لهذه الدولة من مقومات قوية ؟ اذ أنه ليس خفياً أن نؤكد بأن مملكة بني عباد كانت وقتها قطب رحي ممالك الطوائف وواسطة عقدها . وكانت معظم احداث الاندلس وقتذاك قد ارتبطت بهذه الدولة قليلاً أو كثيراً وكان بنو عباد القوة السياسية المؤثرة سلباً وإيجاباً في مجريات الأمور السياسية والادبية أيضاً في الاندلس في تلك الفترة موضوع بحثنا .

ومن هنا كان لا بد لي لمعرفة تاريخ بني عباد ، ومن ثم التحدث عنه من الالمام بتاريخ الممالك الاسلامية والنصرانية معا . ذلك أن تسلسل الاحداث ومقتضيات الاشياء تدفع الى معرفة القوى السياسية الاخرى التي كانت تموج بها أرض اسبانيا بشقيها المسلمة والمسيحية آنذاك . ولعل من المسلمات التاريخية التي كثيراً ما تصدق في كل زمان ومكان أن نجد في مقابل الانحلال والتمزق السياسي الذي تشهده منطقة ما نجد في المقابل تطورا وازدهارا حضارياً مميّزا . فالقرن الخامس الهجري بقدر ما يعتبر قرن تدهور وانحلال وتمزق سياسي بقدر ما كان نقطة مضيئة في تاريخ التمدن والحضارة الاندلسية . اذ شهدت الاندلس أدبا رفيعا وتعدنا ثقافيا وعلميا كبيرا ، كما شهدت الحياة الاجتماعية والمعاشية ترفا حضاريا راقيا . ذلك شئ مسلم به ، فالشرق الاسلامي شهد ما يطال هذا الوضع في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

بقي أن أشير الى أن هذه الدراسة المتخصصة عن بني عباد لم تكن الاولى من نوعها ، فقد سبقني الى الولوج في هذا الموضوع بعض من الباحثين المحدثين . وكان منهم من انصب اهتمامه على الحياة السياسية للدولة كعبد السلام الطود ، وكان هناك من انصرف اهتمامه الى النواحي الاقتصادية والاجتماعية في دولة بني عباد كمحمد بركات البيلي الذي أعد رسالته للماستير بهذا العنوان ، وكصلاح خالص الذي كتب مؤلفا بهذا العنوان ، وهناك من تناول شخصية ملك من ملوك بني عباد ، وهو المعتمد بالذات فتناولوا بالحد يث شخصيته بدرجته أساسية وركزوا على الجانب الادبي فيها ومن هؤلاء صلاح خالص نفسه وعلى أدهم ، وعبد الوهاب عزام ، ورضا الحبيب السويسي ، وأحمد أحمد بدوي ، وحامد عبد المجيد ، وأما دراستي هذه فتتناول التاريخ السياسي لدولة بني عباد منذ كانت حلما راود مؤسسها القاضي أبي القاسم محمد بن عباد حتى سقوطها بيد المرابطين أخيراً ، فضلا عن

أبرز مظاهر التطور الحضاري بها ومعنى أنني تابعت الاحداث السياسية لهذه الدولة طوال مدة حكمها التي تاهت بعضها وسبعين سنة برؤية جديدة وطرح جديد بحكم ما زخرت به الدراسات الاندلسية أخيرا أى فى الثلث الأخير من القرن الميلادى الحالى . إذ شهدت الدراسات الاندلسية حديثا نشاطا تاريخيا وأدبيا مهما واضطلع بعض الباحثين من العرب والاجانب بكشف الستار عن كثير من المصادر النفيسة وأخرجوها اخراجا ضحيجا دقيقا أتاح الفرصة للكشف عن مزيد من تفاصيل الحياة السياسية والحضارية فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى مثل كتاب ابن حيان : المقتبس وكتاب ابن الكردبوس : الاكفاء ، وكتاب ابن الأبار : الحلة السيرة الذى حققه حسين مؤنس أخيرا تحقيقا تاريخيا وأدبيا ، ثم المصدر المعاصر والمهم جدا وهو مذكرات الملك عبد الله بن زبيرى ما غرناطة احدى دول الطوائف آنذاك والذى عشر عليها المستشرق الفرنسى ليجى بروفتال كما شهد القرن العشرين الميلادى اهتماما ملحوظا من جانب المؤرخين العرب المشارقة والمفارقة . فظهرت مصنفات جديدة ساعدت الباحثين كثيرا فى فهم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الاندلس كما سيتضح بعد قليل .

ومن هنا أحسب أنى قد شاكلت الصواب ، كما أحسب أنى قد استطعت رسم صورة تكاد تكون موضوعية للحياة السياسية فى الاندلس فى القرن الخامس الهجرى على وجه التخصص فى الاماع مشيئ من أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية خاصة وفى الاندلس عامة كما يرمى الى ذلك عنوان رسالتنا .

وفىما يتعلق بخطة الموضوع هذا لى أن تكون على النحو التالى :

تمهيد وخمسة أبواب ، ثم الملاحق . فقد رأيت اقتضاء المنهجية البحث العلمى أن يسبق حديثى عن دولة بنى عباد باشبيلية تمهيد تاريخى يوضح الظروف التى نشأت فى ظلها ملكة بنى عباد . ولذلك فقد عنونت التمهيد بالمعنوان التالى : حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الاموية . وقد قسمته الى فقرتين هما الفقرة الأولى بعنوان : سقوط الدولة الاموية وعرضا فى هذه الفقرة الاحداث والحقائق التاريخية التى شهدتها الاندلس منذ قيام دولة بنى أمية بصورة مقتضبة بتوسعنا فى الحديث عن الاحداث التاريخية التى شهدتها الاندلس منذ وفاة الخليفة الحكم المستنصر وتولى ابنه الخليفة هشام السلطة من بعده وما تلا بعد ذلك من وقائع أدت الى قيام دولة بنى عامر التى أسسها المنصور بن أبى عامر أحد رجالات الدولة البارزين فى قلب الخلافة الاموية ثم انتهاء الدولة المامرية وبداية الفتن التى عرفت اصطلاحا بالفتنة البربرية وما تبع ذلك من ظهور خلفاء ضعاف فى الدولة الاموية ثم ظهور دولة بنى حمود التى أسسها على بن حمود أحد رجالات الدولة الاموية آنذاك فى قلب الخلافة الاموية ثم سقوط الدولة أخيرا عام ٤٢٢ هـ ثم عقبنا بمعد

بتحليل الأسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوط الدولة وعرضنا في ثنايا ذلك لنشوء ممالك النصارى .

أما الفقرة الثانية من التمهيد فقد عنوانها بالعنوان التالي : قيام ممالك الطوائف وأشهرها . تحدثنا فيها عن كل دولة في اقتضاب من حيث موقعها ومؤسستها ونهايتها ، وعقبنا من بعد ببندة وافية عن العناصر التي كونت هذه الممالك والظروف التي هيأت لها ذلك . أما الباب الأول فقد اخترنا له العنوان التالي : قيام دولة بني عباد وقد قسمناه الى أربع فقرات ، الفقرة الاولى : أصل بني عباد . وسطنا الحديث في هذه الفقرة عن أصل بني عباد والأقوال التي قيلت في ذلك ثم مساكهم وداية ظهور أمرهم . والفقرة الثانية تحدثنا فيها عن الموقف السياسي في الأندلس قبيل قيام دولة بني عباد . وعرضنا للموقف السياسي في إقليم الأندلس وعاصمة الخلافة قرطبة بالذات ، والموقف مع خلفاء بني حمود . ثم رسمنا صورة للموقف السياسي في ممالك النصارى . وفي الفقرة الثالثة وعنوانها: اشبيلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها . تعرضنا فيها للأسباب والظروف التي هيأت للقاضي أبي القاسم محمد ابن اسطعيل بن عباد الاستبداد بالأمر في اشبيلية بحكم منصبه القضائي العالي الذي جعله الشخصية الاشبيلية البارزة في ذلك الوقت ، وتحدثنا عن مقومات تكوين الدولة التي ستنشأ على التو .

والفقرة الأخيرة من الباب الاول خصصناها للحديث عن دولة القاضي أبي القاسم محمد (٤١٤-٤٣٣هـ/١٠٢٤-١٠٤٢م) وفرغنا الى نقاط عدة مثل: تكوين مجلس الرئاسة الذي اضطلع بحكم اشبيلية بعد تخلصها من نفوذ بني حمود ، ثم شرحنا أبعاد الموقف السياسي غداة استقلال اشبيلية في الممالك الاسلامية والنصرانية معاً ثم خطوات القاضي أبي القاسم في الاستئثار شيئاً فشيئاً بالحكم لنفسه ، والخطوات التي قام بها الى أن استطاع أن يؤسس دولة بني عباد ويصبح حاكمها المطلق ثم تحدثنا عن سياسته الداخلية والخارجية حتى وفاته .

أما الباب الثاني فقد خصصناه لثاني ملوك دولة بني عباد واخترنا عنوانه على النحو التالي: الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله . وقسمناه بدوره الى فقرات خمس : الفقرة الاولى : تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه ، حللنا فيها شخصية هذا الملك التي دعت بكثير من صفات الذم والقدح . ثم تحدثنا في الفقرة الثانية عن: الموقف السياسي في اسبانيا الاسلامية والنصرانية غداة تولى المعتضد السلطة ، والفقرة الثالثة خصصناها للحديث عن سياسة المعتضد الخارجية فيما عواناها ب : التوسع العسكري على حساب امارات عربية غربية مجاورة لمملكة بني عباد . ثم اقتضانا التسلسل المنطقي للأحداث أن نقطع حديثنا عن السياسة الخارجية ، فنورد فقرة عن حدث داخلي مهم

وقع في الدولة وهو انشقاق اسماعيل بن المعتضد على أبيه وتمرد عليه وما أفضى ذلك من القضاء عليه ثم عدنا الى التحدث عن السياسة الخارجية للدولة ، فتحرضنا بالحدث عن التوسع العسكري على حساب الامارات البربرية في جنوب الاندلس ، وتحدثنا في الفقرة ما قبل الاخيرة من الباب عن نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله . وقد استفاضينا الحدث في هذه النقطة ، ورسما صورة نزرع أنها دقيقة للأوضاع ولنشاط تلك الحركة التي استهدفت انتزاع أراضي الاباء والاجداد كما كانوا يصرحون ومواقف كل مملكة من ممالك الطوائف الكبرى من تلك الحركة كمملكة سرقسطة أو طليطلة وطليوس وأشبيلية وغيرها من الممالك الأخرى .

وقد ختمنا الباب بفقرة خصصناها لحياة المعتمد العائلي والشخصية ثم وفاته واستأثرنا ثلث ملوك هذه الدولة بالباب الثالث وأطلقنا عليه العنوان التالي : الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله ، وقسمناها الى خمس فقرات ، تحدثنا في الفقرة الأولى منه عن تولي المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وأقوال المؤرخين فيه التي حملت طابع المدح والثناء دونما موضوعية في كثير من الاحيان ، ثم تعرضنا للموقف السياسي في اسبانيا الاسلامية والنصرانية غداة تولي المعتمد السلطة ، ثم تحدثنا عن السياسة الخارجية للمعتمد وظهور أمر الوزير محمد بن عمار الاشبيلي والدور الذي اضطلع به في تلك السياسة وبعد ذلك أسهبنا في فقرة مستقلة عن خروج الوزير ابن عمار على المعتمد وما جرى بعد ذلك من احداث أدت في النهاية الى مقتله على يد المعتمد نفسه ، وخصصنا الفقرة الاخيرة من الباب عن الحياة العائلية والسمات المميزة لشخصية المعتمد بكل ما لها وما عليها .

أما الباب الرابع فقد عنونته بالعنوان التالي : تطور الاوضاع السياسية في الاندلس ونهاية دولة بني عباد . وأحسب أنني قد بذلت جهداً شاقاً في هذا الباب ، بل أستطيع أن أقرر بأنه لسب الرسالة ومركز الثقل فيها . وقد قسمته الى أربع فقرات : الفقرة الاولى : تحدثت فيها عن اشتداد نشاط حركة الاسترداد المسيحي الذي قابل في الممالك الاسلامية ضعفاً وتمزقاً وحرماً أهلية أتاحت لتلك الحركة أن تقوى وتمتد ثم ما أدى ذلك الى احداث خطيرة أهمها سقوط طليطلة ، وتحول حركة الاسترداد من حركة اسبانية محلية الى حركة صليبية نصرانية بعد تدخل البابوية وبعض الامارات الأوروبية . وفي الفقرة الثانية تحدثت عن تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو بن فرديناند ملك قشتاله الذي اضطلع بالدور الرئيسي بالإضافة الى الشخصية القشتالية الأخرى وهو السيد القمبيطور . ثم بسطنا الحدث عن ردهود فعل سقوط طليطلة عاصمة

ملكة بنى هود وواسطة عند مالك الطوائف فى الاندلس وفى العالم الاسلامى
وما ادى ذلك من خطوات سياسية مهمة ونعنى بها قضية التفكير بالاستعانة
بالمرابطين القوة الفتية التى بسطت سيطرتها على المغرب الاقصى والوسط ، والجهود
الشعبية والرسمية التى تمت بشأن ذلك وجهود المعتمد بالذات ، وما قيل حول
هذا الموضوع . ثم تعرضنا بالحدث عن اقتناع المرابطين بضرورة التدخل فى الاندلس
ومن ثم جوازهم الى الاندلس ليسانعوا وسلوك الطوائف ضد النصارى . وتحدثنا
فى فقرة خاصة عن تسارع الاحداث فى الاندلس ، وما ادى ذلك الى اللقاء المباشر
بين النصارى والمسلمين فى موقعة الزلاقة ، وأسهبنا كثيرا فى النهاية فى الحديث عن
الظروف والاسباب التى جعلت المرابطين يقررون خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد
بن عباد ، وما تم بعد ذلك فعلا من خطوات لتحقيق هذا الهدف .

أما الباب الخامس فقد خصناه برمته للجانب الحضارى فى الدولة العبادية
واخترنا عنوانه على النحو التالى : أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية فى عهد
بنى عباد . أما الفقرات فقد نسقناها على النحو التالى : الفقرة الاولى خصناها
للحديث عن نظم الحكم وفرعناها الى نقاط عدة مثل نظام الحكم الرئاسى ، وهو النظام
الذى استحدثته بعض ملوك الطوائف فى نظم الحكم ثم نظام التفويض الخلاقى الذى
ميز الحياة السياسية فى اشبيلية عن مثيلاتها فى ملوك الطوائف الاخرى ، وهو النظام
الذى زعم العباديون أنهم يشلون به الخلافة الأموية والخليفة هشام المؤيد بالذات .
وفى هذه الفقرة أيضا شئ يسير عن بعض نظم الحكم فى اشبيلية كالنظم الادارية
والنظام المالى ، والنظام القضائى ثم عن الجيش والبحرية الاشبيلية .

والفقرة الثانية من الباب الخامس فرعناها الى فرعين : أهم مظاهر الحياة الاجتماعية
لدى العامة ، وأهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة وذلك داخل عنوان هذه الفقرة
وهو : الحياة الاجتماعية . أما الفقرة الثالثة فقد تحدثنا فيها عن الحياة الاقتصادية فى
الدولة ، وعرضا فى هذه الفقرة للحديث عن أهم النشاط الاقتصادى كالتجارة والزراعة ثم
ألمعنا بشئ من الحديث عن النقود العبادية .

والفقرة الرابعة من الباب الخامس كانت عن الحياة العلمية والادبية فى الدولة
العبادية ، وسطنا الحديث فيها عن المجالات العلمية والادبية فى الدولة بحكم أن
الحركة العلمية والادبية هى أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية على عهد بنى عباد .
والفقرة الأخيرة من الباب خصناها لأهم مظاهر العمران فى الدولة .

بحث في أهم مصادر ومراجع الرسالة

لعل لا أضيف جديدا إذا ما قلت بأن أول مصدر تاريخي مهم لكل باحث في الدراسات الاندلسية هو تاريخ ابن حيان المعروف : بالمقتبس من انباء اهل الاندلس . ومع ذلك فان هذا السجل التاريخي العظيم بقطعه الخمس التي نشر عليها تباعا ، وتولى نشرها وتحقيقها غير واحد من المؤرخين والباحثين العرب والاجانب ليس له صلة ببحثنا من قريب او بعيد اللهم الا نتفعا للخاتمة في القطعة الخامسة المتعلقة بعصر الحكم المستنصر والد الخليفة هشام المؤيد والتي حققها ونشرها عبدالرحمن على الحجى . ذلك لان الكتاب بقطعه الخمس عبارة عن مدونة تاريخية على نظام الحوليات ويتناول الفترة من بداية الفتح العربي حتى بداية الدولة العاصمية في أواخر القرن الرابع الهجرى .

على أننا قد أفدنا جل الافادة من نقولات المؤرخين القدامى الذين حفظوا في كتبهم ذلك الاثر النفيس الذي كتبه ابن حيان عن سقوط الدولة العاصمية وظهور الفتنة وقيام ممالك الطوائف ، أعنى بذلك كتاب : المتين الذي فقد للأسف ، بيد أنه من حسن الحظ أن المؤرخين القدامى نقلوا لنا في كتبهم مادة مهمة جدا من هذا الكتاب وهي التي تتعلق بعصر الطوائف ، وذلك في كتب ابن بسام ، وابن عذارى ، وابن الخطيب ، وابن الأبار ، كما أن هناك كتبا أخرى غير المتين ، منها الدولة العاصمية ، والبطشمة الكبرى .

أما عن اهتمامات المؤرخ ابن حيان وطريقته في الكتابة ، ووزنه العلمي وأمانته العلمية فقد كفانا مؤنتها محمود على مكي في مقدمته الطويلة الرصينة الدقيقة . غير أن ما يجب أن أوكده أن ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ) يعتبر أعظم مؤرخ اندلس أنجبته الاندلس ، لابل يعتبر من المؤرخين الأفاضل القلائل في التاريخ الاسلامي كله قد يما وحد يثنا ، وهو بحق شيخ مؤرخي الاندلس يدون منازع كما أشار الى ذلك معظم المؤرخين القدامى والمحدثين ، كما يكفي أن نشير أخيرا الى أنه بالنسبة لكتاب المتين موضوع بحثنا قد عاصر الاحداث معاصرة دقيقة يوما بعد يوم حتى وفاته بثقة المؤرخ وأمانته .

أما المصدر التاريخي الآخر الذي صاحبنا في معظم أجزاء الرسالة فهو كتاب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي (ت ٦٩٥ هـ) وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والاندلس من الفتح العربي حتى عصر بني (مرين) حكام المغرب في أعقاب سقوط الدولة الموحدية . ويقع في ثلاثة

أجزاء ، حقق الجزء ان الاول والثانى منهما ونشرهما كلا من ج - س كولان وليشى بروفنسال وانفرد بروفنسال بتحقيق الجزء الثالث ، وقام احسان عباس اخيرا بتحقيق قطعة من كتاب البيان المغرب وتتعلق بمصر المرابطين ونشرها مع تعليقات موجزة عام ١٩٦٠ م .

ومن حق النزاهة التاريخية علينا أن نشير الى أنى قد استفدت استفادة عظيمة من هذا الكتاب وكان رفيقى الدائم فى معظم أبواب الرسالة بحكم ما توفر فيه من المادة التاريخية الغزيرة التى جمعها المؤرخ من الكتب التى كانت موجودة فى عصره ، والتى فقدت بعد ذلك . ومن هنا جاءت قيمة كتاب البيان المغرب . ومن أمثلة الكتب التى نقل منها : المتين لابن حيان والمقباس لابن الوراق ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان . وابن عذارى مؤرخ ناقل وليس ناقدا ، وقد سار فى كتابه على نظام الحوليات وقد أرقمه ذلك فى عدة أخطاء تاريخية .

ويحيب كتابه أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته ، فتختلط تلك النقولات بكلامه هو ذاته ، وعلاوة على ذلك كان ينتزى على المادة العلمية التى ينقلها عن بعض المؤرخين بالحذف والاضافة ابتغاء للاختصار . ولم تكن له تعليقات خاصة وآراء شخصية الا فيما ندر .

بيد أنه رغم كل شئ فهو كتاب مهم للغاية بالمادة النفيسة التى جمعها المؤرخ فيه . أما المصدر الثالث الذى أفدنا منه جل الافادة ، فهو كتاب : الحلة السيرة لابن الابار القضاى . وابن الابار (ت ٦٥٨هـ) مؤرخ اندلسى عاش فى مدينة بلنسية فى عصر الموحدين . وكتابه الحلة السيرة يعتبر من أحسن كتبه على الاطلاق ، ويعتبر ولا سيما فى جزئه الثانى ذو أهمية كبيرة إذ هو رصد موجز فى بعض الأحيان وموسع مفصل فى أحيين أخرى لسير وحياة أمراء ووزراء وعلماء كان لهم شأن فى تاريخ الفترة التى يدور حولها بحثى . وهى فترة ملوك الطوائف والأخص مملكة بنى عماد والكتاب نسخة مطبوعة عن مخطوط وحيد وجده حسين مؤنس فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٦٥٤ مكتومة بخط مفسرى . وقد حققه فى جزئين منفصلين . والتحقيق ذاته تحفة تاريخية وأدبية وجغرافية رائعة استفدنا منها أعظم استفادة . وكان جهده فى مقابلة الأسماء الصربية للمدن والقرى الاندلسية بالأسماء الاسبانية قديما وحديثا ، كان جهده فى ذلك شائقا لاتفيه عبارات المدح والثناء ، فجزاه الله خيرا .

أما عن المؤلف فبفض النظر عن حياته السياسية التي
عاشها على مدار نصف قرن بين العزة القعساء مرة ، وبين مرارة
السجن وذل القيد مرات أخرى • وفض النظر عن سلوكه الشخصي
الذي أفضى الى مقتله طعنا بالرماح عام ٦٥٨ هـ على يد حاكم افريقية
أبي عبدالله محمد بن أبي زكريا الحفصي • نقول بفض النظر عن ذلك ،
فان الكتاب مهم للغاية في بحثنا لم نستغن عنه اطلاقا في معظم أجزاء
الرسالة • فقد قسم المؤلف كتابه الى ستة قرون ، وانضوى تحت كل
قرن أشهر رجالات الاندلس والمغرب وأفريقية من خلفاء ووزراء وقواد
وعلماء • وزاد من قيمة الكتاب أنه خلا - وهو شئ نادر في ذلك
الوقت - من السجع المتكلف الرخيص • فكان أسلوبه مشرقا قويا
رصينا ، فهو أقرب للكتب التاريخية الواقعية التي تعطى المترجم له
حقه في غير ما إطالة ولا إسفاف أو تكلف • على أنه يلاحظ أن هذا
الاسلوب قد تغير عندما بدأ يتحدث عن سلاطين بني حفص الذين
استوطنوا دولتهم في افريقية ، ثم مات على أيديهم كما ذكرنا •

وأخيرا لا يسعنا انما شئنا معرفة وزن المؤلف العلمي
الا أن نشير الى أنه يعتبر بحق كاتباً ومؤرخاً واسع الاطلاع بتاريخ
المسلمين العلمي والادبي ، وأنه كان ذا نظرة استشراقية للمستقبل ،
كما كان ناقدا تاريخيا ينقل بعقل متزن ، وقلم يقظ ، رصين في
حكمه • وكل هذه المميزات علت به في نظر الأدباء والمؤرخين الذين
تلوا عصره • ونظر اليه الكتاب المحدثين الآن بنفس النظر •

وأخيرا فقد كان للمؤرخ كتب أخرى مثل التكملة
لكتاب الصلة ، وكتاب أعتاب الكتاب وغيرهم •

أما المصدر الرابع حسب الأهمية لبحثي فهو كتاب
الذخيرة لابن بسام (ت ٥٤٢ هـ) • وقد أطلق ابن بسام على كتابه
ذلك : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة • وهو كتاب أدبي في
المقام الأول • وقد ألفه المؤلف للتأكيد على أن الاندلس لا تخلو من

(١) : أنظر مثلا : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٤٨ •

رجال رفعوا آرايات الأدب والثقافة ، واحتلوا مكانهم المخصص والمناسب في الأدب العربي كله ، وهو كتاب يضاهاه به المؤلف كتاب الثعالبى : تيمية الدهر ، ويسير على منهجه ويترسم خطاه . والكتاب ينقسم الى أربعة أقسام تتاول فيه بالحديث الحياة الأدبية فى أقاليم الأندلس الثلاثة : الشرق والغرب والوسط . ثم قسم يتعلق بالطائرين على الأندلس ومن هاجر اليها من المراق والشام . وهو كتاب أدبى كما ذكرنا أساسا الا أنه يعتمد فى بعض المرات التى تتداخل فيها الاحداث الأدبية بالتاريخية الى طرح الاحداث التاريخية باستفاضة فى كثير من الأحيان .

أما من حيث منهجه فانه فيما يتعلق بالوقائع التاريخية يسير سيرا تاريخيا زمنيا مطلقيا ، أما عن أسلوبه فى الكتاب ، فيميل الى استخدام السجع بكثرة مملّة وتصنع ملحوظ مع ولعه بالفريب والمجوج من الكلمات . وأما عن أمانته العلمية فهو يعتبر فى الحقيقة أديبا وليس مؤرخا ولذلك فان فيما يختص بالاحداث التى شهدها القرن الخامس الهجرى . نراه يعتمد على كتب ابن حيان والذات كتابه الثمين اعتمادا كليا ، ثم يضيف ملاحظاته وتسجيلاته التى تلت وفاة ابن حيان حتى وفاته هو أى ابن بسام .

ويعتبر ابن بسام كاتباً أدبياً بمعنى الكلمة ، وهو موسوعة أدبية تلتقط كل شئ وترصده فى ذاكرة قوية أفرزت ثقافة أدبية واسعة تناقلتها ذخيرته الثمينة . وتظهر شخصيته وثقافته الواسعة فى كل أجزاء كتابه فهو لا ينقل نقلا حرفيا عندما يتحدث عن كاتب أو أديب ، بل ينقل نقطة أو عبارة أو كلمة من حديث هذا الأديب ثم يقف فجأة ويسرد أحداثا ومواقفا مشابهة استخدمت فيها هذه الكلمات من قبل أدباء آخرين . ولا يمر عليه بيت من الشعر دون أن يشرحه ويترجم لصاحبه . ونراه فى أحيان كثيرة يخرج من القناة التى كان يصب فيها حديثه الى قنوات أخرى تعود هى الأخرى الى قنوات أخرى تابعة .

على أن هذا لا يشتت ذهن القارئ ويجمع به بل
يميده ابن بسام الى الحديث الاصلى فى لطف ورقة ^(١) .

والمصدر الخامس حسب أهميته لبحثنا هو مذكرات
الامير عبد الله بن زيرى ، أو كتاب التبيان . وأهمية الكتاب جاء من كونه
عبارة عن مشاهدات واسهامات وملاحظات ورصد وتسجيلات تكاد تكون
يومية لسير الحوادث التى شهدتها الاندلس فى القرن الخامس الهجرى .
وأهمية الكتاب فوق هذا فى أن مؤلفه أحد ملوك الطوائف المهمين آنذاك .
والذى مارس دورا مهما فى سير الحوادث آنذاك . وقد ألفه المؤلف
بعد خلعته ونفيه عن ملكه وتوجهه الى مدينة أغمات القريبة من مراكش .
وذلك فى عهد المرابطين وفى عهد يوسف بن تاشفين الذى قضى على
استقلال ممالك الطوائف . وجاء هذا المصنف عبارة عن مذكرات كتبها
المؤلف فى ساعات فراغه الكبير فى المنفى ، تطرق فيه الى معظم
الحوادث التى دارت فى ملكه وغيرها من ممالك الطوائف حتى تدخل
المرابطين ، فموقعة الزلاقة ، فالاحداث التى أعقبتها حتى قضاء
يوسف على استقلال كل ممالك الطوائف .

هذه هى أهمية الكتاب ، أما المنهج ، أما الأسلوب ،
أما الطريقة ، فالمؤلف لم يكن مطبوعا على أن يكون مؤرخا أو أديبا
ولذلك جاء كتابه مفككا ليس فيه تركيب منطقى أو حتى ذوقى ،
أما أسلوبه فركيك للغاية ، استخدم المؤلف فيه كثيرا من الكلمات
العامة الاندلسية والبربرية .

أما عن أمانته العلمية ، فلم يترك المؤلف موطننا يتعلق
بشخصه أو أسرته أو جماعته البربر دون أن يؤكد على وجهة نظره
ونظرهم ، وإن كان قد حاول فى كثير من الاحيان أن ينقى عن نفسه التحيز
والأثرة .

(١) : انظر للدلالة على ذلك : القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١١٣ -

أما المصدر الرئيسي السادس لبحثنا هذا فهو كتاب
الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية لمؤلف مجهول الاسم ،
اعتنى بنشره وتصحيحه ي . س . علوش . مطبوعات معهد العلوم
العليا المغربية ، ويعتقد أن المؤلف عاش في القرن الثامن الهجري .

وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة للبحث وخاصة فيما يتعلق
بجواز يوسف بن تاشفين الى الأندلس . ولقد تناول المؤلف موضوع
جواز يوسف التكرار الى الأندلس في شيء واسع ومفصل وتقصى كبير
ثم تتبع ظهور الموحدين ، وقضاءهم على المرابطين . وقد
استفدت جل الاستفادة منه في تتبع أخبار المرابطين في الأندلس .
والكتاب لا غنى عنه لكل باحث عن شؤون المغرب والأندلس في عهدي
المرابطين والموحدين ، رغم ما يفهم من عنوانه من أنه خاص بذكر
مراكش وأخبارها وتخطيطها . . . الخ .

واسلوب المؤلف سهل وأهح لا غموض فيه ،
يسير فيه المؤلف على طريقة التذييل أي الاحداث المترتبة على بعضها .

وقد اختلف في معرفة أو تحديد اسم مؤلفه ، فقيل
ان مؤلفه أديب مالقي اسمه أبو عبد الله بن أبي العالی بن السطاك
العامري . غير أنه ليس هناك دليل على ذلك . وقد ظهرت في تونس
طبعة لهذا الكتاب نشرها سنة ١٩١٠ م البشير الفيزني تحمل
خطأ اسم لسان الدين بن الخطيب كمؤلف لهذا الكتاب ، ثم صدر
ضمن مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط طبعة
حدیثة سنة ١٩٣٦ م ، وكان الناشر لها الاستاذ ي . س . علوش .

هذه هي أهم المصادر التي صاحبنا بحثنا هذا .
وهناك مصادر تاريخية أخرى مهمة لم تخل رسالتنا من فائدتها ككتاب
عبد الواحد المراكشي (ت ٦٤٧ هـ) وهو كتاب يتناول تاريخ دولته
الموحدين ، ولكنه على سبيل الاستطراد قدم لكتابه بمقدمة موجزة
في تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العرس . والكتاب يعتبر رديفا
بالنسبة للبحث بمعنى أنه ليس رئيسيا لبحثنا ، ولكنه لا يمكن

الاستغناء عنه ، وهو في أجزاءه الأولى يهتم بالحديث عن الأندلس منذ الفتح حتى بداية دولة الموحدين . وفي هذا الجزء يبدو المؤلف ناقلا ملخصا دونما تحقيق وتمحيص الا فيما ندر ، وأسلوبه سهل واضح خلا من السجع المتكلف والعبارات الغامضة الغريبة . أما فيما يتعلق بالتاريخ لدولة الموحدين فقد أسهب المؤلف في ذكر دولتهم انطلاقا من كونه شاهد عيان وكمقتبع للأحداث وذى صلة شخصية بأمراء الموحدين . وقد حقق الكتاب ونشره محمد سعيد العريان .

ومن المصادر التاريخية الرديفة الأخرى ، نفع الطيب

من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقرئ (ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . وهو عبارة عن موسوعة تاريخية وأدبية واجتماعية للمجتمع الأندلسي منذ الفتح وحتى نهاية الوجود الاسلامي في الأندلس . ولا يخلو من حادثة تاريخية مهمة ، أو نبذة جغرافية ، أو طرفة مستلمحة ، أو قصة طريفة خالف فيه المؤلف ما رسمه لنفسه في العنوان فجاء حديثه عن الوزير الأندلسي ابن الخطيب كشيء مجتزأ من التاريخ الأندلسي ، أي بمعنى آخر جاء كفرع من فروع اهتماماته وليس اهتماما أصيلا كما رسم لنفسه . ولا يمكن البتة لأي باحث في الدراسات الأندلسية من العودة اليه والنقل منه .

ومن المصادر الأخرى التي أنارت لنا الطريق في بحثنا

كتاب ابن الكردبوس (عاش في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) : الاكتفاء في أخبار الخلفاء . وقد حققه أحمد مختار العبادي ونشره في مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الثالث عشر ، ١٩٦٥/١٩٦٦ م . وهو كتاب تاريخي نفيس ساير فيه المؤلف منهج المؤرخين القدامى في التسلسل التاريخي الزمني للأحداث ، فقد اهتم بالاحداث السياسية بالأندلس منذ الفتح العربي حتى عصر الموحدين . وهو كتاب لا غنى عنه لأي باحث في الدراسات الأندلسية . وقد حققه كما ذكرنا أحمد مختار العبادي تحقيقا تاريخيا دقيقا . واستفدنا نحن من ذلك

التحقيق في تحقيقنا للأعلام والمدن والقرى وغير ذلك كثيرا .

ومن المصادر المهمة في التاريخ العام : كتاب مشرقى
هو الكامل لابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ويكاد ابن الأثير يكون من قلائد
المؤرخين المشاركة الذي اهتم بالاندلس وتاريخها . وليس خافيا أنه
كان يسير على نظام الحوليات ، وكان يمرض في كثير من السنوات الى
الاحداث المهمة التي شهدتها الاندلس آنذاك . ويجب أن نلاحظ
أنه كان ينقل مادته التاريخية نقلا حرفيا من كتب المغاربة والاندلسيين
حسبما كان يصل الى سمعه من أخبار العدوتين .

وفيما يتعلق بكتب الأدب ، فضلا عن كتاب ابن بسام
السالف الذكر فقد أفدنا من كتابي : قلائد المقيان ، ومطمح الأنفس
ومسرح التأنس للفتح ابن خاقان الاشبيلي (ت ٥٢٨ هـ أو ٥٢٩ هـ
على الأرجح) . وهما مصنفان مهمان لرصد الحياة الادبية والعلمية
والاجتماعية في المجتمع الاندلسي ، ويمكن اعتبارهما من كتب التراجم
والطبقات ترجم فيهما المؤلف لمديد من الرؤساء والوزراء والقضاة والقواد
في الاندلس . ويهتم المؤلف بصفة أساسية بإيراد آثار
مترجميه النثرية والشعرية فقط . ولذلك جاء الكتابان خلوا من
الناحية التاريخية والتسجيلية لتسلسل الاحداث وتتبع المواقع .
الا ما استطعنا استخلاصه من بعض الاشارات الخاطفة . والمصنفان
كتبا بأسلوب لحيته السجع والجناس ، وسداه المدح والميلق حتى
الاغراق أو الحظ حتى الاقذاع رصف فيهما المؤلف مكتونات حفظه
للفريب من الكلام رصفا .

ولا يمكن بأي حال من الاحوال مقارنة ابن خاقان بابن بسام

الذي يعتبر ناقدا متينا ومحللا أدبيا لامعا .

ومن كتب التراجم والطبقات التي عدنا لها : جذوة المقتبس
في ذكر ولاية الاندلس للحميدى (ت ٤٨٨ هـ) ، ثم كتاب بغية الملتبس
في تاريخ رجال أهل الاندلس للضبى (ت ٥٩٩ هـ) . ثم كتاب الصلة
لابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ) . وهي كتب تشكل حلقة في سلسلة كتب

التراجم والطبقات التي أخذت طابعها يكاد يكون مشابهها ابتداءً من كتاب أبي الوليد الفرضي (ت ٤٠٣ هـ) : تاريخ علماء الأندلس ، مروراً بالحميدى فى جذوة المقتبس والضبى فى بنية المناس ، وانتهاءً بكتاب التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ، وكتاب الموصول والصلة لعبد الملك المراكشى (ت ٧٠٣ هـ) ، وكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهى (عاش فى القرن التاسع الهجرى) .

وتحتوى هذه الكتب على معلومات مقتضبة لا بأس بها عن تراجم واسعة لرجال الأندلس فى شتى مناحى اهتماماتهم التى درجوا عليها ولا سيما الدينية منها .

أما كتب الجغرافية الإسلامية فقد اعتمدنا على كتب الجغرافيا الأندلسية المحضة ككتاب الحميرى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الاقطار ، نشر وتصحيح وتعليق أ . ليفى بروفنسال . وهو كتاب جغرافى تناول فيه المؤلف مدن وقرى الأندلس بالوصف والتعليق حسب الترتيب الأبجدى ، على أنه من المهم أن نشير هنا الى أن استفادتنا من هذا الكتاب إنما جاءت من المادة التاريخية التى احتواها وتضمنها ، ذلك لأن المؤلف عندما بلغ فى حديثه لوصف مكان موقعة الزلاقة خالف منهجه فى الحديث عن النواحي الجغرافية وقدّم لنا مادة تاريخية غزيرة عن الاحداث التى سبقت وصاحبت تلك موقعة الزلاقة ، والمفيد حقاً أنه قد نقل معلوماته الوافرة تلك عن كتب أصبحت فى حكم المفقود . ومن هنا كان للمادة التاريخية التى أوردها أهميتها الفائقة .

ومن كتب الجغرافيا الأندلسية اعتمدنا على كتاب البكرى (ت ٤٨٧ هـ) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك . وقد حققه عبد الرحمن على الحجى . وأود أن أشير الى أن معظم تحقیقات المدن والقرى والانهار ، وكذلك بعض تحقیقات الاعلام إنما استمدتها من تحقیقات التى حقق بها الباحثون المحدثون من أمثال حسين مؤنس ، وأحمد مختار العبادى ، وعبد الرحمن الحجى الكتب التى حققوها ونشروها سالفة الذكر .

أما المراجع العربية والمعربة فهي في الواقع كثيرة أضاعت ولا شك الطريق أمام الباحثين لاسيما وانها قد جاءت معتمدة على مصادر ووثائق أندلسية ومغربية عشر عليها على فترات متتالية في الثلاثين سنة الاخيرة من هذا القرن . ومن هنا جاءت معظم تلك المراجع دقيقة موضوعية ، ومفهوم ورؤية شاملة غالبا . ولقد استفدت استفادة كبيرة من بعض تلك المراجع العربية والمعربة ، وكان اعتمادي على بعضها شيئا أساسيا في توضيح ما أشكل وصعب العثور عليه في المصادر القديمة ، أو في الاستفادة مما كتب عن الممالك النصرانية في إسبانيا وغيرها .

وتأتى موسوعة محمد عبدالله عنان (دولة الاسلام في الاندلس) على رأس تلك المراجع العربية . ولا أكتف القارئ الحقيقية في أن كتب محمد عبدالله عنان قد يسرت لى مهمة البحث . وكنت في كثير من المواضع عالية عليه وخاصة في كتابه : دول الطوائف . وهو كما يدل عليه عنوانه يختص بالحدث عن كل دولة من دول الطوائف إذ بحث محمد عبدالله عنان في كتابه هذا معلومات مهمة عن نشوء ممالك الطوائف ، ونشوء حركة الاسترداد ، وتحدث في كتابه هذا عن التدخل المرابطى وموقعة الزلاقة . . . الخ . وكانت استفادتي من بقية مصنفاته الأخرى كتاب : الخلافة الأموية والدولة العباسية ، وتراجم اسلامية ، ومواقف حاسمة ، والآثار الاندلسية الباقية وغيرها أقول كانت استفادتي من تلك الكتب لاحقة لكتاب دول الطوائف .

على أن مما يعيب كتب عنان هو أن المؤلف أخذ على نفسه كتابة تاريخ الاندلس منذ الفتح حتى زوال الوجود الاسلامي . ومن هنا اضطر في مرات عديدة الى ضغط الوقائع والاحداث ضغطا أثر فيه البتر والاختصار . ولحقت موسوعته العيوب التي تصاحب كتب التاريخ العام عادة .

والمراجع الأخرى المهمة التي صاحبت بحثي وواكبته حتى النهاية مجموعة صلاح خالص المتخصصة في استطلاع أحوال ملكية

بنى عباد من الناحية الادبية والعلمية والتاريخية ، فقد كتب صلاح
خالص ثلاثة كتب هي : اشبيلية لى القرن الخامس الهجرى ، دراسة
سياسية وحضارية لنشوء دولة بنى عباد باشبيلية وتطور الحياة
الادبية فيها ٤١٤ هـ - ٤٨٤ هـ . والكتاب الثانى بعنوان : محمد بن عمار
الاندلسى ، حياته وشعره . والكتاب الثالث بعنوان : المتمد بن عباد
الاشبيلى ، دراسة ادبية وتاريخية .

وكلها كتب أفدت منها حقا ، وحتى وان كانت تركز
على النواحي الادبية فى الدولة ، الا انى قد استطعت استخلاص
المديد من النقاط . أما فيما يتعلق بالناحية الادبية ، فكان اعتمادى
عليها رئيسيا . والحق أن المؤلف عالج الحياة الادبية فى اشبيلية
من خلال كتبه الثلاثة معالجة موضوعية أدبية شائقة على عكس
معالجته للنواحي التاريخية التى جانبت فى بعضها جادة الصواب .
وقد أشرنا فى تضاعيف الرسالة لتلك المآخذ . كما أن من الملاحظ
أن المؤلف يبدى تماطفا ملحوظا مع المتمد بن عباد ويتفاضى عن
سيئاته ، كما أشرنا فى ثنايا الرسالة .

والمرجع المهم الرئيسى الآخر فى بحثنا هو كتاب
على أدهم : المتمد بن عباد . وهو كتاب صغير الحجم جم الفائدة ،
الا أنه يصنف فى قائمة الكتب الادبية . ومع هذا فقد خلصنا منه
بنقاط عديدة لم يقح لنا العثور عليها فى مظانها الأصلية .

وأفادنا كتاب خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا
(جمهورية بنى جهور) فى توضيح بعض الأحداث وان لم يفتنا أن
نسجل ملاحظتنا على بعض النقاط كما سيلاحظه القارئ فى ثنايا الرسالة .

ومن المراجع المهمة التى اعتمدنا عليها فى فهم أحداث
الاندلس بعد تدخل المرابطين كتاب حسن محمود : قيام دولة
المرابطين . وهو كما يدل عليه عنوانه مختص بقيام دولة المرابطين ،
وقد شمل بالضرورة التدخل المرابطى فى الاندلس وجواز يوسف المتكرر
لها حتى اقصائه لملوك الطوائف جملة . وهو كتاب تاريخى مهم مدغم

بالمصادر الأصلية ، والمراجع العربية والأوربية ذات الصلة بمادته العلمية .
وكانت استفادتنا من هذا الكتاب كبيرة في شرح أبعاد التدخل
المرابطى فى الاندلس وغير ذلك .

وأفدت من كتاب عبد الحق حموش : ابن تاشفين ،
وخاصة فيما يتعلق بشرح الدوافع العسكرية التى حتمت على الفريقين
المقاتلين فى الاندلس آنذاك : المسلمين والنصارى اختيار بطحاء
الزلاقة مكانا مناسباً للمعركة ، كما أفدت من تحليله العسكرى لقوات
الفريقين المقاتلين وخطتهما الحربية فى القتال مما عزز شك وقر
فى ذهنى من أن المؤلف ربما كان رجلاً عسكرياً .

وهناك مراجع أخرى تأتى فى المرتبة التالية من الأهمية
بالنسبة لموضوع رسالتي ، وأهمها كتاب : أحمد مختار العبادى : فى تاريخ
المغرب والاندلس ، وكتاب حسين مؤنس : شيوخ العصر ، وكتاب أحمد
هيكل : الأدب الاندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة ، وكتاب
مصطفى الشكعة : الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه ، وكتاب
محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، وكتاب احسان عباس :
تاريخ الادب الاندلسى ، الى غير ذلك .

وأفدت كثيراً من الرسائل الجامعية التى أعدت لثبيل
درجة الماجستير فى فهم طبيعة تركيب المجتمع الاندلسى ، كرسالة
عبادة كحيل : المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى
نهاية عصر الامارة ، المقدمة الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
كما استفدت من رسالة رجب محمد عبد الحليم : دولة بنى حمود فى مالقة
بالاندلس ، وخاصة أنها رسالة تختص بشرح وقائع قيام الأسرة العلوية
فى قلب الخلافة الأموية . وهذه الرسالة مقدمة الى كلية الاداب جامعة
القاهرة سنة ١٩٧٦ م . وأفدت أيضاً من رسالة محمد بركات البيلى
فى فهم الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة العبادية المقدمة الى
كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م . وأخيراً استفدت من رسالة
هشام سليم أبو رميلة : رسالة عن نظم الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة المقدمة

أيضا الى كلية الاداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

أما بالنسبة للكتب المعربة فعلى رأسها كتب ليفي بروفنسال . وأهمهم هذه الكتب لبحثي : الاسلام في المغرب والاندلس ، وقد استندت منه فيما يتعلق بقضية زائدة (ابنة المتمد) التي تقول الروايات النصرانية أن المتمد قد مها لالفونسو السادس ملك قشتاله ليساعده في حربه ضد مناوئيه ، فقد توصل المستشرق الفرنسي الى خلاصة تاريخية منطقية تنفي نفيا قاطعا حدوث ذلك ، كما استندت أيضا من كتاب ليفي بروفنسال هذا فيما يتعلق بسقوط طليطلة والتاريخ الصحيح لذلك السقوط .

وأعدت من كتاب راينهارت دوزي : ملوك الطوائف ، وهذا الكتاب هو الجزء الرابع المعرب والمترجم بقلم كامل كيلاني عن كتابه : تاريخ مسلمي اسبانيا SPANISH ISLAM . ويتعلق بأحوال معظم ممالك الطوائف . على أنه يجب ملاحظة أن هذا الكتاب فيه شيء من المغالطات والتفسيرات غير المقبولة كما أشرنا الى ذلك في الرسالة .

ومن الكتب المعربة الأخرى التي أفادتنا في فهم الحياة السياسية في اسبانيا المسلمة والنصرانية معا كتاب يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تحقيق محمد عبدالله عنان .

أما بالنسبة للمراجع الأجنبية فقد استفدنا من كتاب :

— J. B. BURY, M.A., F.B.A. : THE CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY. VOLUME VI, CAMBRIDGE 1929.

— JAN READ : THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL , كتاب : LONDON. 1974 .

— ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BENABOUD : ومن الدوريات الأجنبية اعتمدنا على : AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR DHU -L- MILLATAYN ' in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY OF EDINBURGH .

— MUHAMMAD BENABOUD Y ANGUS MACKAY : THE AUTHENTICITY OF ALFONSO VI's LETTER TO YUSUF B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII, 1978, FASC,I.

أما الدوريات العربية والمصرية ، فقد استفدت عظيم الاستفادة من البحث الذى نشره حسين مؤنس فى المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٥٠ م ، بعنوان : السيد القميطور وعلاقته بالمسلمين ، واستطعت من خلال هذا المقال فهم طبيعة هذه الشخصية القشتالية النصرانية التى علت بها الأساطير والملاحم الاسبانية الى مرتبة القد يسين رغم ما أثبتته البحث العلمى من تفنيده لذلك الادعاء .

واستفدت أيضا من البحوث التى كتبت فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ، كالبحت الذى نشره حسين مؤنس أيضا بعنوان : سبع وثائق جديدة عن عصر المرابطين ، وكذلك البحث الذى كتبه محمود على مكي : وثائق تاريخية جديدة عن دولة المرابطين ، وذلك فى المجلدات : الثانى ، والسابع والثامن ، سنة ١٩٥٤ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ م على التوالى .

كما استفدت أيضا من الابحاث التى كتبت فى مجلة تطوان المغربية مثل البحث الذى نشره احمد مختار العبادى بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، وكذلك البحث الذى كتبه محمد الفاسى بعنوان : المؤرخان ابن أبوزرع وابن عبد الحليم . وذلك فى العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠ م .

كما استفدت من البحث الذى كتبه مصطفى القصرى فى مجلة مركز البحث العلمى المغربى بعنوان : الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، العدد الاول ، السنة ١٩٣٤ م . وغير ذلك .

بقى أخيرا أن أتقدم بالشكر الجزيل الخالص لأستاذى الدكتور أحمد السيد دراج ، الذى ما كنت لأضع قدمى فى مضممار الدراسات العليا المتخصصة لولا دعمه وتشجيعه وتأثيره . ومن حق النزاهة والأمانة على أن أشير الى أنه لم يأل جهدا فى مساعدتى ولم يبخل على بالمساعدة والملاحظة والمتابعة فيما عظم ودق وفيما كثر وقل . فله خاصة ولجميع من مدّ يد العون لى الشكر والثناء والعرفان بالجميل .

والله أسأل أن يوفقنا الى سواء السبيل .

* * * * *

* * *

*

((تمهيد))

حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية

- سقوط الدولة الأموية •
- قيام ممالك الطوائف وأشهرها •

سقوط الدولة الأموية :-

تأسست الدولة الاموية في الاندلس عام ١٣٨هـ / ٧٥٦ م
عندما فر أحد أبناء الامويين من الشام ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام
بن عبد الملك بن مروان الى المغرب فالاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية على يد
العباسيين طم ١٣٢هـ / ٧٥٠ م ، وقد ظل يحكمها حتى وفاته . ثم تعاقب على
حكم هذه الدولة أو الامارة الاموية ابناءؤه وأحفاده : هشام ، الحكم ،
عبد الرحمن (الاوسط) ، ومحمد بن عبد الرحمن ، والمنذر بن محمد ،
وعبد الله بن محمد حتى عام ٣٠٠هـ / ٩١٢ م .

ثم تولى الامارة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن
عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل) . وذلك في عام ٣٠٠هـ
ثم أعلن الخلافة بعد ذلك في عام ٣١٦هـ / ٩٢٨ م ، وتلقب بالناصر . وقد ظل
يحكم الدولة الاموية حتى وفاته عام ٣٥٠هـ / ٩٦١ م بعد أن ارتقى بها الى درجة
بلغت فيها الاندلس الأوج قوة وحضارة وازدهارا ، حتى لقد اطلق على عصره
المصر الذهبي دلالة على ذلك التقدم (١)

(١) : عن الدولة الاموية في الاندلس منذ عهد عبد الرحمن الداخل وحتى عهد
عبد الرحمن الناصر انظر ،
ابن حيان : قطعة من كتاب المقتبس من انباء اهل الاندلس ، تحقيق وتقديم
وتعليق محمود على مكي . - ابن غفاري : البيان المغرب في اخبار
الاندلس والمغرب ، ٣ أجزاء ، ج ٢ كاملا تحقيق ج . س كولان ،
ول . ليفي بروفنسال . - ابن الأبار : الحلة السيرة ، جزآن تحقيق
وتعليق حسين مؤنس ، ط ١ ، ج ١ ، ص ٣٥ - ٤٣ ، وص ١١٣ - ١٣١ هـ
وص ١٩٧ - ٢٠٠ . - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ،
٧ مجلدات ، المجلد الرابع ، القسم الاول ، ص ٢٥٢ - ٣١٢ . - ابن الاثير :
الكامل في التاريخ تحقيق نخبة من العلماء ، ٩ أجزاء ، ج ٥ - ٩ ، في صفحات
متفرقة . - المقرئ : نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها
لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ١ ، ج ١ ،
ص ٣٠٦ - ٤٠٠ . - محمد عبد الله غان : دولة الاسلام في الاندلس : من الفتح
الى بداية عهد الناصر ، العصر الاول - القسم الاول ، ط ٤ ، ص ٤٠٠ - والخلافة
الاموية والدولة العامرية ، العصر الاول - القسم الثاني ، ط ٤ ، ص ٣٧٢ -

٣٨٢ .
وهناك مؤلفات اخرى تناولت نشأة وحياة الدولة الاموية ، وقد رأينا أن نكتفي
بهذا القدر فقط .

وبعد وفاة الخليفة عبدالرحمن الناصر ، خلفه في الحكم ابنه وولي عهده الحكم المستنصر ، فقام بالأمر خير قيام حتى توفى عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م . ثم خلفه ابنه القاصر هشام الذي ولاه عهده قبل موته ، وهو لما يبلغ الحادية عشرة من عمره بعد ، وتلقب بالمؤيد بالله .

غير أن السلطة الفعلية أصبحت بيد محمد بن ابي طاهر المعافى . وهو رجل من عامة الناس كتب له ان يتصل بمحض الصدفة بالبلاط الأموي في عهد الخليفة الحكم المستنصر . ثم قاده ذكائه وأطماعه وطموحاته الى تأليف القلوب حوله ، فلم يلبث كثيرا حتى سطع نجمه وعلا شأنه داخل القصر وخارجه . وقد غدا غداة وفاة الحكم ثانيا أبرز شخصيتين قويتين في الدولة الأموية بعد جعفر المصحفي . واستطاع بعد لآي أن يتخلص من خصومه ومنافسيه شيئا فشيئا حتى تمكن من الاستئثار بالسلطان كله داخل دولة الخليفة القاصر هشام المؤيد ، فاستبد بالأمر دونه مقيالاه على السلطة الاسمية فقط ، وقد تلقب بالمنصور بالله . واستمر يحكم الدولة حتى توفى عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م بعد أن وضع نواة الدولة التي عرفت في التاريخ الاندلسي بالدولة العامرية نسبة له ، فخلفه ابنه عبدالملك الذي قام بالأمر خير قيام حتى وفاته عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م (١)

(١) : عن الدولة الاموية في الاندلس في عهد الحكم المستنصر وابنه هشام ، ثم الدولة العامرية انظر :

- ابن حيان : قطعة من المقتبس في انباء اهل الاندلس ، وتتناول السنوات الاخيرة من عصر الحكم المستنصر . نشر عبدالرحمن علي الحجى .
- ابن غزاري : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ - آخر الكتاب ، وج ٣ ، ص ١ - ٣٧ .
- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الاول - المجلد الاول ، عن بطبعه وتصحيحه ونشره لجنة من طلبة واساتذة جامعة القاهرة ، قدم له طه حسين .
- ابن الابار : الجلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٥ ، و ص ٢٦٨ - ٢٧٧ .
- الحميدى : جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس وقسمان ، القسم الاول ص ١٣ - ١٨ ، و ص ٧٨ - ٧٩ .
- عبدالواحد المراكشى : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد الصريان ، ص ٥٩ - ٨٥ .
- ابن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام (تاريخ اسبانيا الاسلامية) تحقيق وتعليق . ليفي بروفنسال ، ص ٤١ - ٨٣ .
- المقرئ : نفع الطبيب ، ج ١ ص ٣٨٠ - ٤٠٠ . وغير ذلك من المؤلفات الأخرى .

ونستطيع أن نحدد بداية سقوط الدولة الاموية وتفكك
وحدتها بالفترة التي خلف فيها عبدالرحمن بن المنصور بن ابي عامر أخاه
الحاجب عبدالملك الملقب بالمظفر . فلم يك عبدالرحمن في حقيقة الأمر رجل
الموقف أو أهلا لتولى الحكم ، إذ افتتح حكمه باكراه الخليفة هشام على
أن يوليّه عهده ويسند له الخلافة من بعده . وهو أمر خطير لم يقدم
عليه أخوه ولا أبوه من قبله ، الأمر الذي أثار عليه نفوس العامة والخاصة
من بنى أمية الذين عظم لديهم أن يخرج ارثهم من بين أيديهم .
وقد تصادف أن تلاقى حقد بنى أمية مع حقد والدته أخيه
عبدالملك التي وقر عندها انه قد سمم ابنها ، فلوحت لبني أمية عن
رغبتها في الانتقام من عبدالرحمن ، فدلوها على محمد بن هشام بن
عبدالجبار بن الناصر . فعرضت عليه المساعدة اذا ما ثار على عبدالرحمن ،
ولاقى هذا العرض هوى في نفس محمد ليثار لأبيه قتيل بنى عامر
من جهة ، وليثار لحق وتراكم بنى أبيه المروانية من جهة ثانية
الذي سلبهم اياه آل المنصور^(١) . فعمل على الثورة بعد أن جمع حوله
قلوب بنى أمية الموتورين ، كما جند الكثير من المرتزقة من البربر والصقالبة^(٢)
وعامة أهل قرطبة .

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧ . — ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الاول — المجلد الاول ، ص ٥٩ . —

ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) : عن الصقالبة أنظر فيما بعد ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

واستطاع محمد بن هشام بعد خطوب كثيرة أن يستولى على قرطبة
في نفس العام الذي تولى فيه عبد الرحمن الحُكم ، وهو عام ٣٩٩ هـ ، مستغلا
خروج عبد الرحمن الى جليقية غازيا ^(١) . وقد عمل فيورد دخوله القصر على استدعاء
ال خليفة المحجور عليه هشام وتقريعه لموافقته على اخراج الأمر من آل بيته الى
ذلك الدعي ، ثم طلب منه خلع نفسه والاعتراف به هو خليفة . وغدا محمد
بن هشام من يومها الخليفة الشرعي ، وتلقب بالمهدي ^(٢) .

أما عبد الرحمن فما أن بلغت تلك الاخبار المزعجة حتى انفض من
حواله الانصار ، ولم يصل الى أبواب قرطبة الا بعدد ضئيل جدا من الانصار
والجنود . وأخيرا قبض عليه وذبح وذبح النعاج ، وحمل رأسه الى المهدي .
وانتهى بذلك حكم آل بني عامر الذي أقامه المنصور بالكـ والجد ،
والحيللة والجبروت ^(٣) . وقد عمل المهدي بعد أن تخلص من العامرين على أن يوتب
تمثيلية طريفة زعم فيها أن الخليفة المعزول هشام بن الحكم توفي ، وأثبت ذلك في
محضر رسمي عقد في القصر ^(٤) .

بيد أن الخليفة المهدي لم يكن رجل تلك المرحلة المناسب ، فهو
وان استطاع أن يقضى على نفوذ بني عامر بتلك السهولة ، الا أنه لم يكن يملك بعد
هذا رؤية سياسية أو خطة مدروسة . فكل ما كان يملكه هو التصميم على القضاء على
آل بني عامر ، وعندما تمكن من ذلك تبين أنه لم يكن رجل تلك المرحلة الخطرة .
واتضح ذلك بسرعة عندما بدأ يتخبط في اخطاء سياسية متعددة : كمدائه المكشوفة
للبربر الذين ساعدوه ، وخلعه لولى عهده سليمان بن هشام ، وتمثيلية
موت الخليفة هشام ٠٠٠ الخ ^(٥) .

- (١) : جليقية منطقة في الاندلس (تمتد من نهر دويوه Duero جنوبا حتى الساحل
الشمالى لشبه الجزيرة الايبيرية ، ومن الساحل الغربى لها حتى قشتاله
أنظر ، ابوعبيد البكري : المسالك والممالك (جغرافية الاندلس واوروبا
Castille (Castilla
تحقيق عبد الرحمن على الحجى ، حاشية رقم ١ ص ٧١ .
- (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٩ - ٦٠ . — عبد الواحد المراكشى :
المعجب ، ص ٨٦ - ٨٧ .
- (٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٧١ - ٧٣ .
- (٤) : ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٧ - ٧٨ .
- (٥) : ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٧٥ - ٨٣ .

كل هذه الأمور جعلت النفوس تغلى حقدا عليه وتعمل على الثورة
ضده ، فثار والد ولي العهد المخلوع سليمان ، الا أنه قتل هو وابنه
وهزم البربر . وقام بعد ذلك ابن أخيه أي ابن أخ والد ولي العهد ، وهو
سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ودعا لنفسه وتلقب بالمستعين .
واستعان بالبربر الحاقدين على المهدي ، وبالنصارى . وسنتبين
بعدئذ خطورة الاستعانة بهذين المنصرين على الدولة الأموية ،
بل وعلى الوجود الاسلامي في الأندلس .

وكان من جراء ذلك أن وقعت معركة " قنتش "

في ربيع الأول ٤٠٠ هـ / نوفمبر ١٠٠٩ م . وقتل فيها من أهل قرطبة
نحو عشرين ألف رجل ، ودخل سليمان على إثرها قرطبة بعدما
فر منها المهدي الذي لحق بمدينة طليطلة التي كانت لا تزال
تقع تحت طاعته . ومن هناك اتصل بالنصارى طالبا مساعدتهم ،
وقادهم نحو قرطبة حيث دارت بينه وبين سليمان معركة " عقبة البقر "
في ١٦ شوال ٤٠٠ هـ / ٢ يونيو ١٠١٠ م . وهزم فيها سليمان
وجنوده . (١)

وعاد المهدي ثانية لقرطبة لتتجدد بيعته ، غير أن

البربر استطاعوا بعد ذلك بقليل خذلانه وهزيمته في مكان يدعى
" وادي آره " فانصرفوا مخذولا الى قرطبة . وأظهر هشام المؤيد
مدعيا أنه قائم دونه ، ولكن الأمر قوسل بالازدراء والاستهجان من البربر
وغيرهم . فلم تفده تلك اللعبة ، وما لبث أن قتل على يد واضح
الفتي العامري أحد فتيان الخليفة هشام في ذي الحجة ٤٠٠ هـ /
يولييه ١٠١٠ م . (٢)

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٩ - ٩٥ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٩٥ - ١٠٠ .

وعادت الخلافة مرة أخرى لهشام الذي تجددت بيعته ، إلا أن البربر وسليمان رفضوا هذا الأمر ، وادعى المستعين أنه أحق بالخلافة (١) من هشام وحدثت وقتها خطوب كثيرة من غداة مقتل المهدي حتى دخول المستعين قرطبة في شوال سنة ٤٠٣هـ / مايو ١٠١٣ م منها : مقتل واضح الفتى المدبر الحقيقي لدولة هشام الثانية ، ومنها تنازل المؤيد عن كثير من الحصون لأمير قشتاله سانشو غارسيا لقاء مساعدته له ضد البربر ، ومنها المراسلات الفاشلة بين هشام وسليمان . . . الخ . (٤)

وأخيرا دخل المستعين القصر واستدعى المؤيد هشام فأنبه على ما حدث منه ، وطلب إليه أن يخلع له نفسه ، ففعل ذلك وأقر له بالخلافة (وتلقب من اول وقته باللقاب السلطانية) . (٥) وابتداءً من تلك اللحظة بدأت اسطورة هشام المؤيد كما سنرى لاحقا ، وقد بدأت هذه الاسطورة عندما اختلفت الآراء حول مصيره بعد دخول سليمان القصر ، فبعضها يقول أن سليمان قد أخفاه ، والبعض الآخر من تلك الروايات يقول بل فر من محبسه

-
- (١) : انظر ، ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٠ - ١١٢ .
 - ابن يسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٤ - ٢٥ .
 - ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١١٦ - ١٢٢ .
 - المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧ .
 - (٢) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٨٨ - ٩٩ .
 - المصدر السابق ، ص ١٨ - ١٩ .
 - (٣) : محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العباسية ، القسم الثاني ، ص ٦٥١ .
 - (٤) انظر ، ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
 - (٥) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(١) وتوجه نحو مدينة المرية ، حيث طش في فاعة وفس وخمول (٢) وسرى انه سيظهر
بعد ذلك مرة اخرى كما زعم ابن عباد .

على ان سليمان بعد ان استتب له الامور في قرطبة لم يظن الى تفادي
خطأ المهدي الذي فجز عن التوفيق بين عناصر الشعب المختلف الاجناسه
رغم محاباته للبربر وتوزيعه الاقاليم عليهم ، مما اثار حفيظة المقالة الذين
ينتمون بالولاء والطاعة للعاميين ، اذ كان معظم رؤساؤهم من اتباع المنصور
ابن ابي طمر وقتلانه ، فعمد هؤلاء الى تكوين امارات خاصة بهم يمارسون فيها
سياستهم المستقلة . وسنتبين بعد ذلك الدور الذي قاموا به في الاندلس .

كما ان سليمان لم يظن ايضا الى خطورة اسناد حكم مقاطعات طنجة وأصيلا
وسبته التابعة للدولة الاموية آنذاك ، الى اثنين من الادارة العلويين الذين
ينتمون الى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب ،
لم يظن وهو الاموي الى خطورة اسناد بعض اعماله الى علوي طالبي ، وهو
مالامه عليه احد قادته البربر (٤) وكانت النتيجة ان سقطت دولته على يد احد هما
وهو علي بن حمود الذي ولاه حكم مدينة سبته ، فقد رأى هذا بثاقب بصره
ان الخلافة يمكن انتزاعها من يد الامويين وتسييرها لبني عصبته العلويين

(١) : (المرية Almeria ميناء هام على ساحل البحر الابيض المتوسط
في جنوب شرق اسبانيا بناها الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥م
وكانت في العصر الوسيط احدى القواعد البحرية الهامة للاسطول الاسلامي)
انظر ، ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، تحقيق احمد
مختار العبادي ، منشورات مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ،
المجلد الثالث عشر ، سنة ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م ، ح ٣ ، ص ٨٩ .

(٢) : علي ادهم : المعتمد بن عباد ، ص ٢٣ .

(٣) : علي ادهم : المعتمد بن عباد ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) : انظر ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) : انظر في هذا :
رجب عبد الحليم : دولة بني حمود في مالقة بالاندلس (رسالة ماجستير مقدمة
لقسم التاريخ كلية الاداب جامعة القاهرة) ١٩٧٦ م ، ص ٥٣ - ٥٤ .

بقليل من الحسنكة والذكاء . فأدعى ان الخليفة هشام عهد اليه بولاية
عهده واخذ ثأره له من خالعه المستعنين ، وتحين الفرص للوثوب على سليمان ،
شاهرا هذا السلاح . والتقت كلمته مع خيران العامري احد الصقالية من
الفتيلن العامريين البارزين الذي استقل بمدينة المرية ، ونسق جهوده مع
على بن حمود ، وتبنى دعوته وخاض معه معركة همد سليمان المستعنين الذي^(١)
قامت عليه ثورة اخرى بقيادة مجاهد العامري احد الصقالية البارزين ايضا ،
والذي استقل بمدينة دانية ، وتبنى هناك دعوة احد الاشراف القرشيين من
دانية ولقبه المعيطي ، ودعا له بالخلافة .^(٢)
^(٣)

واستطاع على بن حمود ان يضيق الدائرة على سليمان ، وان يهـ خـل
قرطبة ظافرا . وقد حاول ان يلقي تهمة قتل سليمان على المستعنين ، لكـ
يمهد الطريق نحو مطامعه . وعلى الرغم من ان سليمان واباه الحكم نفيا ذلك
نفيا قاطعا ، الا ان عليا عجل بقتلهم .^(٤)

-
- (١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ١١٤-١١٦ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٤-٢٥ .
عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٩٠ - ٩١ . ابن الاثير
الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .
(٢) : (دانية Denia تقع على ساحل البحر الابيض المتوسط جنوبي بلنسية
شرقي اسبانيا ، وهي الان مركز اداري في مديرية لقنت Alicante واسمها
العربي والاسباني مشتق من اسمها الروماني القديم دانيوم *Danium* ولقد
لعبت دانية في العصر الاسلامي دورا هاما خصوصا بعد ان استقل بها
القائد الصقلبي ، ابو الجيـشـ مجاهد العامري الذي تسميه المصادر
الاوربية (*Mugelo*)
انظر ، ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ج ٢ ، ص ٩٦ .
(٣) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ١١٥ - ١١٦ .
(٤) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ١١٤ - ١١٦ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٤-٢٥ .

وهكذا تولى على بن حمود الخلافة ، وهو العلوي في قلب الخلافة
الأموية . وقد امل أن تصفو الأمور له ، إلا أن خيران العامري رفيقه
في الكفاح ضد المستعين خاب أمله عندما لم يجد الخليفة هشام حيا ،
فسارع إلى الميرة في شرقي الأندلس ، ومن هناك تبني أحد بني أمية
ودعا له هو وغيره من الأندلسيين ، وتلقب بالمرتضى . وهو عبدالرحمن
ابن محمد بن عبدالله الناصر .

وتقابل هؤلاء مع البربر في غرناطة قبل أن يتوجهوا إلى

ملاقاة على بن حمود . غير أنهم هزموا شر هزيمة وقتل المرتضى المذكور ،
وتفرق شمل جيشه وانكسرت شوكة الأندلسيين ، وكان على بن حمود
قد توفي قبل قليل من المعركة في ذي القعدة ٤٠٨هـ / مارس ١٠١٨ م^(١)

خلافة القاسم بن حمود ونزاعه مع ابن أخيه يحيى بن علي :

وتولى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود الذي

لم تصف له الأمور هو الآخر ، بسبب سياسته التفريقية بين عناصر
جيشه . فثار عليه البربر وثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي حاكم العدو
المغربية بمساعدة البربر . ولم يجد القاسم بدا من الفرار عن قرطبة^(٢)
إلى اشبيلية في ربيع الآخر سنة ٤١٢هـ / أغسطس ١٠٢٢ م .

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٠ - ١٢٧ .
عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٩٨ . الضبي : بغية
الملتبس في تاريخ رجال الأندلس ، ص ٢٧ .
(٢) : المقصود بها ثغر سبته المطبل على البحر المتوسط في المغرب
الاقصى .

ودخل يحيى قرطبة فبايعه البربر والسودان فى صدر جمادى الآخرة من نفس العام ، وتلقب بالمعتلى . لما عمه القاسم فقد ذهب الى اشبيلية داعيا لنفسه بالخلافة ومنتظرا الفرصة السانحة للوثوب على ابن اخيه يحيى . وقد وهبه يحيى تلك الفرصة عندما اسهم بسوء سياسته مع السودان رجال عمه القاسم الموالين له ، ومع بربره الذين اهل شأنيهم ، فاختلفت عليه الحال ولم يجد مفرًا هو الآخر من مغادرة قرطبة ، وطاد القاسم بسرعة الى قرطبة مرة اخرى فخطب له فى اواخر عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م .

غير انه لم يتمتع طويلا بخلافته الثانية ، فثار عليه اهل قرطبة واجمعوا على خلعه ، وحاصروه فى القصر مدة شهرين حتى هزم . وخرج مرة اخرى الى اشبيلية فسدت ابوابها فى وجهه بتدبير القاضى محمد بن اسماعيل ابن عباد . وقد كانوا قد احتفظوا بابنيه اى ابنى القاسم بن حمود رهينة لديهم .

وقد اقتنع القاسم اخيرا ان لا جدوى من حصاره للمدينة ، فوافق على رفع الحصار عنها بعدما تعهد الاشبيليون باخراج ابنه له . والفصل
(١)
تم ذلك وانصرف القاسم وجماعته عن المدينة .

- (١) : عن هذه الاحداث المتعلقة بخلافة القاسم ويحيى الحمود بين يراجع :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٥ - ١٣٩ .
 - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٧٨ - ٨٣ .
 - و القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١٣٥ - ١٣٦ ونشره لجنة من اساتذة وطلبة جامعة القاهرة ، وقدّم له عبدالوهاب عزام وعبدالحميد العبادى ، ص ١٣ - ١٤ .
 - ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٣٠ - ١٣٤ .
 - عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
 - المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ ، ج ٢ ، ص ٢٩ - ٣١ .
 - رجب عبدالحليم : دولة بنى حمود فى ملقة بالاندلس ، ص ٦١ - ٦٥ .

عودة الامر ثانية لبني امية :

اما بالنسبة لاهل قرطبة ، فقد قر رأيهم على عودة الامر لبني امية مرة اخرى ، عليهم يكونون اهلا لذلك . فتصدر لهذا الامر ثلاثة منهم . ووقع الاتفاق في النهاية على تأمير عبدالرحمن بن هشام بن عبد الجبار شقيق المهدي المذكور سابقا ، وتلقب بالمستظهر .

وكان في الواقع شابا قويا سديد الرأي ، غير انه كان الرجل المناسب في غير الوقت المناسب ، فلم تتح له الفرصة لظهار مواهبه . فثار عليه ابو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر ، وقتل عبدالرحمن المستظهر ولما يتجاوز سبعة واربعين يوما من حكمه بعد (١)

وتولى الخلافة بعده هذا الناصر ، وتلقب بالمستكفي . الا ان امره انتهى بعد ذلك بالخلع والنفي ، ثم الاغتيال وذلك في ظم ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م . (٢)

(١) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٢) : ارتبط اسمه ايضا باسم ابنته الاديبه ولاده ، صاحبة الشاعر الاندلسي

المشهور الوزير ابن زيدون الذي صاغ فيها اجمل قصائده

(٣) : عن المستظهر والمستكفي يراجع :

ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٣ . ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٣٧٩ - ٣٨٣ .

عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٨ . ابن سعيد

المغربي : وشي الطرس في حلى جزيرة الاندلس ، جزاءن ، وهذان

الجزءان خلاصان بالاندلس ضمن كتابه الاوفى المعنون بمعنوان :

المغرب في حلى المغرب ، تحقيق وتعليق شوقي ضيف ، ج ١ ،

ص ٥٤ - ٥٥ .

اما يحيى بن على الحمودى فان اشياؤه فى قرطبة تبينوا دعوته مرة اخرى
فى نفس العام الذى خلع فيه المستكفى الاموى ، الا انه لم يدخل
قرطبة ، بل اكتفى بتولية احد رجاله امرها . وفى هوبدنة "قرمونه"^(١)
ثم خلعت طاعته عن قرطبة ثانية فى العام التالى ، فتوجه الى مدينة مالقه
التي كان يتولاها قبيل قيامه على عمه القاسم .
عودة الامر لثالثه لبني امية ، ثم خلعهم نهائيا :-

ورأى اهل قرطبة ان يعطوا بني امية الفرصة الاخيرة لاثبات وجوده—
واستعادة عرشهم النافر . فاجمعوا اثر خلع يحيى بن على فى طم ٤١٧ هـ
كما قلنا على رد الامر لهم . وتولى ذلك كبير قرطبة وشخصيتها النافذة
ابوالخزم جمهور بن محمد بن جمهور الذى راسل غيره من الرؤساء المنتزعين
على الثغور والمدن فى ذلك . فتم رأيهم على تقديم ابى بكر بن هشام
ابن محمد بن عبد الملك بن الناصر الذى كان يقيم عند آل قاسم القاسم
المغلبين على حصن " البنت "^(٢) . فبايعوه فى طم ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م .

(١) : قرمونه : فى التقسيم الادارى الاندلسى كانت عبارة عن كورة كبيرة
واسعة ، تضم عددا من المدن والحصون ، وقاعدتها تسمى بنفس
الاسم اى قرمونه . واسمها لاتينى الاصل Carmona . وقد دخلت
قرمونه فى حوزة المسلمين طم ٩٢ هـ / ٧١٢ م وسقطت بيد الاسبان
نهائيا طم ٦٤٤ هـ / ١٢٤٧ م . وهى الان Carmona . وهى
مركز ادارى تابع لمديوية اشبيلية ، على بعد ٣٥ كيلومترا شمالى شرقى
اشبيلية .

انظر ، ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ١٨٣ .
(٢) : البنت او البنت Alpuente ، كما ينقل شكيب ارسلان عن
ياقوت الحموى (قال ياقوت : حصن " البنت " بالضم والواو والتون
ساكان ، والتاء فوقها نقطتان ، حصن بالاندلس ، وربط قاله
البنت) .

انظر ، شكيب ارسلان : الحلل السندسية فى الاخبار الاندلسية ، ٣ اجزاء
الجزء الاول ح ٤ ، ص ١٨٠ .

وتلقب بالمعتد بالله ، واخذ يتأهب للوصول الى قرطبة حتى دخلها فسى
ط م ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م .

على ان الخليفة الجديد لم يك على مستوى ذلك التطلع الشعبى الكبير
كما لم يسك جديرا بعقد الآمال عليه طيلة مدة انتظاره التى بلغت طميين
اذ تكشف عن شخصية ضعيفة متهاككة خبيث الآمال . فقد تخبط فى كثير
من الاخطاء السياسية التى افقدته صفة رجل الدولة المطلوبة فى تلك المرحلة
العصية من تاريخ دولة بنى امية ، ما جعل اهل الراى والمشورة فى قرطبة
وعلى رأسهم ابن جمهور يقطعون كل امل فى صلاحية بنى امية للامر . فخلع
فى ذى الحجة ٤٢٢ هـ / نوفمبر ١٠٣١ م . كما استقر رأى اهل قرطبة على
خلع بنى امية اجمعين ، وطرد المعتد من المدينة ، وتولية الامر للوزراء
واهل الحل والعقد فسى قرطبة^(١) .

اسباب سقوط الدولة الاموية :-

هكذا سقطت الدولة الاموية على هذه الصورة المؤسسية المحزنة . وقصد
رسم سقوطها اكثر من علامة استفهام كبيرة فى مخيلة المؤرخين والمفكرين
قد يما وحديثا ، وعلى درجات متفاوتة فى التحليل والتفسير والتعليل والاستنتاج .
ومما يؤسف له ان هذا السقوط المريع بما كان له من انعكاسات وابعد
خطيرة لم يلق من بعض المؤرخين القدامى تفسيراً وتحليلاً دقيقين ، يكشف
لنا الستار عن الاسباب المباشرة وغير المباشرة لسقوطها .

(١) : يراجع فى انتهاء الدولة الاموية وانقطاعها :

— ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٥ - ٢٥٢ .

— عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

— الضبى : المصدر السابق ، ص ٢٧ - ٢٨ .

— ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

— ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

فقد اكتفوا بالاسباب الظاهرة المباشرة^(١) والتي مهما بلغت من القوة فلن تستطيع ان تقضى على دولة بلغت اوج مجدها وعظمتها حتى عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٩ م ، وهو العام الذى بدأت نذر السقوط تظهر تباط فيه .
انه لامر مشير حقا ان تسقط دولة عشت مجدها الذهبى فى عهد :
عبدالرحمن الناصر ، والحكم المستنصر ، والحاجب المنصور بن ابي ظمر ، وولده
عبدالملك المظفر . دولة أم بلاطاتها ملوك النصارى ورسل الدولة
البيزنطية طلبا للمساعدة ضد منافسيهم ولتبادل العلاقات وتحسينها مع هذه
الدولة المتعظمة القوة^(٢) . دولة غشى بلاطاتها العلماء والادباء رغبة فى
المجد والصيت لذائم السدى . كانت تسبغ على كل من يؤمها . دولة استطاعت
الحد من هجمات مالِك النصارى التى لم تنقطع ابدا ، بل جعلت لفرط
استقرار الامر فيها الهاد ضد مالِك النصارى فى عهد اولئك الحكام
المعظم شغلها الشاغل .

-
- (١) : كجعلهم سبب قيام محمد بن هشام المهدي هو رغبة والدة عبدالملك
المظفر الانتقام من ابن زوجها عبدالرحمن لشكها من انه قد قتل ابنها
بالسم . وهو فى رأينا سبب ظاهرى لم يكن الا الوسيلة التى تذرع
بها محمد بن هشام ، بل واستناد منها للخروج على الدولة العامرية
التي سلبت بنى امية خلافتهم وارثهم المشروع .
انظر فى هذا ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٥٢ .
- (٢) : عن العلاقات الدبلوماسية التى نشأت بين الدولة الاموية والمالِك النصرانية
فى الاندلس واوروبا انظر ، ليفى برونفسال : الاسلام فى المغرب
والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين
حلى ، مراجعة لطفى عبدالبديع ، ص ٩١ - ١١٨ . — احمد
ابراهيم الشعراوى : الامويون امراء الاندلس الاوّل ، ص ٣٢٤ - ٣٢٧ .
— عبدالمنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والمغرب فى العصور
الوسطى ، ص ٧٢ - ٨٢ . — محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية
والدولة العامرية ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ ، و ص ٥٨٣ - ٥٨٤ .

ومهما يكن من امر فاننا نعتقد انه كان لسقوط هذه الدولة اسبابا مباشرة ،
واخرى غير مباشرة ، نتناول شرحها على التو .

١ - ولعل اول ما نستطيع ايضا حه من تلك الاسباب المباشرة ، هو ما اقدم عليه
الخليفة الحكم المستنصر عندما عهد بالخلافة من بعده الى ابنه القاصر
هشام والبالغ من العمر احد عشر عاما كما مر بنا سابقا ^(١) . وقد كان هذا
امرا خطيرا ، وسابقه خطيرة في بلاد الاندلس ، اذ لم يحدث ان تولى
الحكم في عصر الولاة ^(٢) ثم الامارة ثم الخلافة صبي لما يتجاوز الحادية عشرة
من عمره بعد كما حدث هنا . وكان من الممكن بعد ذلك وبسهولة التكهن
بخطل رأى الحكم المستنصر وافتقاره الى الحنكة السياسية والحكمة . فكل
المؤشرات كانت تؤكد ان الامور سوف لن تصفو لطفل قاصر تحيط به
اطماع رجال دولته وفتيان قصره لاحتوائه وجعله دمية في ايديهم .
وهذا ما حدث بالفعل بعد وفاة الحكم المستنصر ، اذ انقسم رجال
الدولة الى جناحين ، جناح يدعو لخلق هشام وتولية عمه المغييرة
الاكبر سنا للتأثير عليه ، والتطلع الى تولى المناصب الكبيرة في الدولة
لقاء ايصاله الى الحكم وعلى رأس هؤلاء فتیان القصر من العقابيه ،
وجناح آخر يدعو الى تنفيذ رغبة الحكم المستنصر بتولية ابنه هشام الخلافة ،
ومن ثم الاستفادة من هذا التعيين . وكانت الغلبة لهذا الجناح ^(٣)

(١) : انظر قبل ، ص ٣

(٢) : المقصود بعصر الولاة هي الفترة التي تولى حكم الاندلس فيها امراء
من العرب بالتعيين من خلفاء بنى امية في دمشق حتى سقوط دولتهم
ط ١٣٢ هـ . واول هؤلاء الولاة العرب هو عبد العزيز بن موسى بن نصير ،
وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن القهري ، الذي قتله عبد الرحمن بن معاوية
ابن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل . واسس في الاندلس امارة
اموية مستقلة .

(٣) : محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ،

ولقد قوبل اسناد الحكم المستنصر المهدي لابنه هشام من بعده انتقاصا
(١)
المؤرخين والمفكرين قدامى ومحدثين على السواء . وكان نتيجة ذلك هــ
ما اصاب الخلافة على يد المنصور بن ابي طاهر وابنائهم من بعده ، من
استبداد بالامر وزوال هيبة الخلافة (عندما اتقدي " ابي المنصور بن ابي طاهر "
على الصفة الشرعية للخلافة واطف شعور رجالات الاندلس بالولاء لها ،
ونصب لهم القدوة وضرب لهم مثلا شرودا في الاعتداء عليها والاستخفاف بها)
(٢)
وكان من نتيجة ذلك ايضا ان فقد اهل الاندلس الثقة من يومها بالتقهاء
والعلماء الذين انما كانوا في مسابرة الحكم المستنصر مدفوعين في ذلك بغراض
(٣)
شتمى .

على ان اخطر ما ترتب على ذلك — تلاوة على زوال هيبة الخلافة — هــ
ما حدث من اختلال في نظام الحكم نفسه من فصل بين السلطتين السياسية
والروحية . فالحقيقة ان الاندلس لم تشهد منذ فتحها فصلا بين السلطتين
سواء اكان ذلك في عصر الولاة ، ام في عصر الامارة ، ام في بداية عصر
الخلافة وحتى ايام الخليفة الحكم المستنصر . كان والى ومن ثم الامير
فالخليفة يقبض بكلتا يديه على السلطتين السياسية والروحية

-
- (١) : محمد عبدالله عنان : الخلافة الاموية والدولة العباسية ، ص ٥١ (نقلا
عن ابن حبان) . — حسين مؤنس : شيوخ العصر في الاندلس ،
ص ٧٤ — ٨٠ . — على ادهم : المرجع السابق ، ص ٢٣ .
(٢) : على ادهم : نفس المرجع السابق ، ص ٢٣ .
(٣) : حسين مؤنس : نفس المرجع اعلاه ، ص ٧٤ ، و ص ٧٦ — ٧٧ .

وكان الناس ينظرون الى هذا بعين الرضا والقبول ، اذ لا فرق عند المسلمين بين السلطتين ابدا ، فالحاكم اميرا او خليفة هو في نفس الوقت الامير المنصوب ، يجيء الحاجب المنصور فيغطي بكل ما اوتى من جبروت على الخليفة الشرعي الذي تعودت النفوس على اجلاله ، ويحجبه عن رعيته ويتأثر بالحكم لنفسه مقيلا على المظهر الشكلي للخلافة ، فان الناس ستصاب بصدمة نفسية شديدة ، فلم يكن المجتمع في الاندلس يوتاح الا لخليفة قرشي اموي يحكم ظنا ، ويخرج للناس ويقابلهم ويصلى بهم . وعلى هذا فاننا نستطيع تفسير شوق الناس الشديد الى رؤية الخليفة الشرعي المحتجب قسرا ، بل وتلفيقهم للشائعات المختلفة المبنية على الوهم والتضليل حول خليفتهم (١) .

ومن هنا ايضا نفهم خضوع الحاجب المنصور لهذا التطلع الشعبي الكبير عندما اظهر الخليفة هشام ، وخرج معه في موكب هائل من قصره الى الزاهر قصر الحاجب (٢) . بل ان هذا الموقف الشعبي ازاء الخليفة المحجور طيه جعل المنصور يتراجع عما طاف بمخيلته في وقت من الاوقات عن الرغبة في التمسك بالخلافة ، بل ويتراجع نهائيا عن ذلك بعد ان نصحه الفقهاء بالابقاء على الخلافة الاموية (٣) .

(١) : من الشائعات التي تردت في الاندلس ، ما صيغ على لسان الخليفة هشام

نفسه من شعر يشرح فيه حاله مع حاجريه ، ويقال انه ينسب المشندر العباسي :

ليس من العجائب ان مثلني . . يري ما قل متنعا عليـــــــــــــــــه

وتملك باسمه الدنيا جميعا . . وما من ذاك شيء في يسره

انظر ، محمد عبدالله غان : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية ،

الجزء الثالث من كتاب دولة الاسلام في الاندلس ط ١ ، ص ٥٠

(٢) : محمد عبدالله غان : نفس لمرجع ، ص ٦٢ .

(٣) : انظر ، ابن حزم : نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، مجلة كلية الآداب

القاهرة ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثاني ، ديسمبر ١٩٥١ م ،

ص ٧٦ - ٧٧ .

وهذا هو الذي جعله يشدد في وصيته لابنه عبد الملك على ان يراعى الخليفة
ويحافظ على الخلافة وقدرها ، ولا يحاول الانفراد بالتدبير دونه ولو مظهرها
(١)
وعلى هذا فاننا نستطيع القول بان اسناد الخليفة الحكم المستنصر ولاية
الصهد لابنه ، واستئثار المنصور بن ابي ظمر وولده من بعده بالسلطة كان احد
اسباب سقوط الدولة الاموية وزوال هيبتها ، ان بزوال هيئة الخلافة زالت
هيئة الدولة .

٢ - وثاني الاسباب المباشرة لسقوط الدولة هو اكراه عبدالرحمن بن المنصور
الخليفة هشام على توليته عهده واسناد الخلافة له من بعده . وكان
هذا الامر شىء بالغ الخطورة ، ان هو الذي عجل بسقوط الدولة
سرا . وترتب عليه جميع النتائج بعد ذلك سواء ما حدث من وثوب
محمد بن هشام المهدي وتولى الخلافة خلفاء ضعاف ، وقيام ممالك الطوائف
..... الخ .

(١) : اوصى المنصور ابنه عبد الملك بوصية سياسية وطائفية جامعة . واهم
ما ورد فيها هي وصيته له بحراطة الخلافة والخليفة مما ، ان يقول :
(.....) وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وانه لا يأتيك من قبله
شىء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويتلمس الوثوب باسمه . فلا تتم عين
هذه الطائفة جملة ولا ترفع عنها سوء الظن ، وطجل بها من خفتها
على اقل بادرة ، مع قيامك بحق صاحب القصر على اتم وجه . فليس لك
ولا لاوليائك شىء يقيكم الحنث في يمين بيعة الامام تقيمه لوليها من
النفقة . واما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ،
فانى ارجوانى واياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة .
كما جاء فى هذه الوصية ايضا (واياك ان تضع يدك فى يد مروانسى
ما طاوتك بنانك فانى اعرف ذنبى اليهم) .
انظر ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ٨١ - ٨٢

فقد ادعى عبدالرحمن بن المنصور ان الخليفة هشام لم يجد افضل منه لتولى
الخلافة من بعده . وهو شئ خطير كما قلنا ، فحتى ذلك التاريخ لم يجرؤ
احد من المتغلبين على الخلافة الاسلامية على الدعوة لنفسه بالخلافة . فلا
البويهيون فعلوا ذلك ، ولا السلاجقة ايضا من بعدهم ، ولا اسرة بـدر
الجمالى التى كانت تمثل نفس الدور مع الخلافة الفاطمية التى كان قد ضعف
امرها .^(٢)

وقد حرك هذا الامر الشعور لدى بنى امية خاصة والمسلمين عامة فسى
الاندلس . فخرجت الخلافة عن قریش مثله فى بنى امية يعتبر مخالفة لشروط
الامامة ، ومناهضة لشعورهم الدينى نحو الخلافة الاموية . فليس الامر بتلك
السهولة التى تصورها عبدالرحمن بن المنصور بقلة تبصره ورعوته عندما
استغل ضعف الخليفة هشام ابشع استغلال . فقد جرب بهذا التصرف الارعن
على نفسه وعلى دولته من الصائب والمشكلات ما عجل بسقوطها .
ولقد كان فى امكاننا ان نتكهن بان الوضع كان سيستمر كما كان فى ايام
المنصور وابنه عبدالملك مع الخليفة هشام ومن يأتى بعده تماما مثل وضع بنى
العباس فى بغداد مع البويهيين والسلاجقة ، وان يصبح ذلك امرا مألوفنا
لو لم يقم عبدالرحمن بتلك الخطوة . اذ ان يأتى هو فينسف كل الجسور مع
بنى امية واتباعهم فى الاندلس ، فتلك الداهية التى ليس بعدها داهية .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٣ وما بعدها . —

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ،
ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) : من الواضح اننا نقصد فى هذه النقطة بالذات الاشارة الى استمرار
المتغلبين على تلك الخلافات المذكورة على مراعاة هبة الخلافة ،
والمحافظة على سلطانها الروحى ، سواء اكانت عباسية او فاطمية .

واما ما فسر به الامر بعد ذلك من ان انتقال الخلافة من بنى امية الى بنى ظمر انما هو انتقال لها من القيسية الى اليمينية ، فانه في رأينا قد بولغ فيه كثيرا ، فالقضية تتصل بما اجمع عليه فقهاء السنة من ان الخلافة فسي قریش ، وليست قضية قيسية ويمينية .^(١)
^(٢)

ومرة اخرى نستطيع ان نؤكد ان ما حدث بعد ذلك من احداث سياسية انما هو نتيجة لهذا السبب سواء اكان ذلك قضية الانتقام التي تحدثنا عنها فيما يتعلق بوالدة عبد الملك المظفر ، او خروج محمد بن هشام عن الدولة العامرية ، او الفتنة البربرية كما كان يطلق عليها ، او ما تبع ذلك من تولى خلفاء ضعاف ، ثم سقوط الدولة اخيرا وقيام مالک الطوائف فسي الاندلس .

الاسباب غير المباشرة لسقوط الدولة :-

اما الاسباب الاخرى التي اسهمت في سقوط الدولة ، فقد كانت اسبابا غير منظورة اثرت ببطء في هدم بناء الدولة منذ تكوين الدولة الاسلامية في الاندلس ، واثرت ايضا في تشكيل تحركات الاحداث التاريخية في الاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية ، وهو ما نحاول الان ايضاحه في شيء من الايجاز .

-
- (١) : من بين شروط الامة التي انعقدت عليها كلمة الفقهاء ان يكون الخليفة قرشيا لما ورد في ذلك من الاحاديث .
انظر في ذلك ، حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظام الاسلامية ، ص ٢٤ - ٢٥ .
- (٢) : من القدامى الذين يرون هذا الرأي : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
ومن المحدثين احمد مختار المبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

كانت التركيبة أو البنية الاجتماعية للمجتمع عاملاً رئيسياً
في تصدع أركان الدولة . فالمجتمع الاندلسي كان مزيجاً من عناصر عرقية
ودينية شتى يسود علاقاتها التشاحن والتصادم أبداً ، فقوام المجتمع
الاندلسي عناصر رئيسية خمسة هي :^(١)

- العرب : على اختلاف قبائلها القيسية (المضرية) ، اليمينية
- البوير : وهم الذين لم تنقطع هجرتهم منذ وطئت أقدام المسلمين
بلاد الاندلس ، والذين ازدادت أعدادهم في الجيش على
يد المأمريين بصفة خاصة .

- المسالمة :^(٢) وهم الذين اعتنقوا الاسلام ، وأصبح لهم ما للمسلمين
و عليهم ما عليهم ، وتسمى هذه العناصر المسالمة
بالإضافة الى المسالمة ، بالمولدين . فأطلق على
الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام المسالمة ، وأطلق
اسم المولدين على نسلهم . فنشأ هؤلاء في ظل
الاسلام وترسوا بترسيخه وقد أصبحوا كثرة كثيرة
في الاندلس وقتها .

(١) : عن المجتمع الاندلسي وعناصره العرقية والدينية راجع :

احمد هيكل : في الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ط ٢ ،
ص (٣١ - ٤٧) . - لطفى عبدالبديع : الاسلام في اسبانيا ص ١٧ -
٣٦ . - عادة كحيلية : المولدون في التاريخ الاندلسي ، ص ٦١ - ١٠٧ .
- جودت الركابي : في الادب الاندلسي ، ص ٣٤ - ٤٢ . -
صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري " دراسة
أدبية وتاريخية لنشوء دولة بني عماد في اشبيلية وتطور الحياة
الادبية فيها ٤١٤/٤٦٤هـ " ص ٣١ - ٣٣ .

(٢) : عده عادة كحيلية في رسالته المذكورة سابقاً فقرة باسمه حلل فيها
مصطلح المولدين ، كما تطرق في الحديث الى معنى المسالمة
أو الأسالمة .
انظر ، ص ١١٣ - ١٢٠ .

- المستعمرون (Mozarab) وهم الاسبان الذين بقوا على دينهم المسيحي وكان لهم الحق في ممارسة عبادتهم والتقاضى فيما بينهم امام قضاة منهم ، وادارة شئونهم . وكان يطلق عليهم في الاندلس ايضا اسم المعجم .

- الصقابة : الذين بدأوا يتلمسون طريقهم نحو القوة منذ القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

- اليهود : ويكونون هم الآخرون قسما مهمما من سكان المدن ، وكان لهم نشاطهم الادارى والتجارى فى الاندلس .

تلك هى عناصر المجتمع الاندلسى الذى لم تكن تجمعه لا وحدة عرقية ، ولا وحدة دينية ، وتسيطر على فئاته التناقضات والخلافات . ومع هذا فقد كانت هذه العناصر المتناحرة تشكل فى مجموعها ماعدا الطارئىن كالبربر الذين استقدمهم المنصور بن ابي طمر الى الاندلس ما يمكن ان نطلق عليه المجتمع الاندلسى بكل خصائصه ومميزاته . ويلاحظ هنا ان هذا المجتمع لم يكن مجتمعا طبقييا عسريا ينقسم الى ثلاث طبقات جنسية او اكر ، بجمضى انه لم يكن هناك طبقة عربية ارستقراطية ، ووسطى ، ودنيا ، وطبقة بربرية ومستعربة ومولدة بذات الانقسام . بل يمكن ان نقول انه كان هناك طبقة اندلسية ارستقراطية ، واخرى وسطى ، وثالثة دنيا ، وان كان هذا لا يفغل مكانة العرب كعنصر اشاد صرح حضارة جعلت من قرطبة المركز الثانى للحضارة الاسلاميه (١) بعد بغداد .

اما العرب فقد تناسوا عصبيتهم القبلية بين قيسية ويمنية ، لا لانها قد استلت من نفوسهم ، وانما اجلت ونحت ليحل محلها فى المرتبة الاولى الخوف المشترك من المصير المشترك .

(١) : صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٣٤-٣٥ .

بعد أن دأب أمراء ثم خلفاء بني أمية ثم المنصور بن أبي عامر على اهتمام
العصبية العربية بقسميها ، وتحجيم وجودها في الجيش ، ولذلك فقد
انكفأت على نفسها . ولم تعد تلك القوة المهيمنة التي كانت عليها في
عهد الولاة وداية عهد بني أمية . ومالت - كأختها في المشرق - إلى
الاهتمام بمصادر دخلها وتنويعها وتوزيعها لتبلغ به للمصرف على ملذاتها
ورغباتها ، وأصبح وجودها في بلاطات بني أمية ذا بعد ترفيهي أو قل
تشريفي كتولى الوزارة أو القضاء وغير ذلك . وغدا نفوذهم أي العرب
اقتصادي وثقافي بعد أن اضمحل نفوذهم السياسي . ومن هذا المنطلق
فرضوا أهميتهم على حياة المجتمع الأندلسي اليومية ، وخلدت كثير من
الاسر العربية أسماءها في حياة المجتمع الأندلسي ، وانصبت جهود
هؤلاء العرب في محاربة نفوذ الطائرين على البلاد كالبربر الذين
استقدمهم المنصور بأعداد كبيرة .

أما البربر وهم العنصر الثاني من عناصر المجتمع الأندلسي ،

فقد كانوا يشكلون كثافة سكانية كبيرة جدا ، ولم تنقطع هجرتهم منذ الفتح
وتدفقت أعدادهم من المغرب نحو الأندلس من القرن الأول وحتى نهاية القرن
الرابع الهجري / العاشر الميلادي لأسباب عديدة منها : تشابه المناخ
والأحوال الزراعية والجغرافية بين العندين المغربية والأندلسية ،
ومنها أسباب أمنية انتهجها بعض أمراء وخلفاء الدولة الأموية تهدف إلى
استخدام أعداد كبيرة منهم لمقاومة العناصر العربية وغيرها من المناوئين للدولة .
بيد أنه يجب أن نذكر بأن البربر الذين قدموا إلى الأندلس إبان الفتح
ما لبثوا أن اندمجوا مع غيرهم من العناصر الأخرى كالعرب والمسالم وغيرهم .
وشكلوا جميعا المجتمع الأندلسي أو القومية الأندلسية بكل خصائصها ومميزاتها
المعروفة في كتب التاريخ والأدب .

(١) : السد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح حتى
نهاية الخلافة ، ص ٢٦٦ - ٣٦٧ .

وفي عهد المنصور بن ابي عامر قدمت اعداد كبيرة من البربر الى الاندلس
وكانت هذه العناصر الطارئة تثير استياء الاندلسيين بسبب ساركها المعوج ،
اذ كانوا كغرق مرتزقة لا يهجمها الا مصالحها الخاصة لا تتورع عن نقل ولائها
لمن يدفع لها اكثر . واتضح هذا الدور السيء لهم عندما بدأت الخلافة
تتهاوى اذ ظهر مدى فسادهم وانعدام اى شعور بالصلاح لديهم ، حتى
لقد سميت الفترة التي اعقبت سقوط الدولة بالفتنة البربرية .
(١)
اما المولدون فعلى الرغم من انتمائهم الى الاسلام ، وعلى الرغم من
انهم ولدوا في ظل الاسلام وثقفوا بثقافته . الا انه ارضعوا في معظمهم
الحقد والبغضاء للعرب منذ نشأتهم . وكانوا يفعلون ذلك للتعبير عن
شعورهم بالغبين والاجحاف ، فقد كانوا يشعرون بانهم يتحملون وحدهم
المفارم المتمثلة في الضرائب دون ان يكون لهم الحق في المنافع والمناصب
الرئيسية التي كانت وفقا على فئات من المجتمع بعينها . ومن ثم فقد هبوا
الى الثورة على الدولة الاموية كلما امكنتهم الفرصة وسنح لهم السانح . وقد
تسموا امعانا في الاعداد باسمولهم الاسبانية باسماء قوطية كابن القوطية ،
وابن غارسيا ونحوهما .
(٢)
وكانوا يقومون منذ عهد الامير الحكم بن هشام
المعروف بالرضي وحتى عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر بثورات متتالية
في معظم الاندلس ، وقد استطاع عبدالرحمن الناصر القضاء على خطرهم عندما

(١) : السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ،

ص ٥٦٦ - ٥٧٠ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ٦ ص ٧٦ .

(٣) : احمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ٣٣٨-٣٣٩ .
وانظر كذلك عمارة كحيلية : المولدون في التاريخ الاندلسي منذ

الفتح العربي حتى نهاية عصر الامارة . (رسالة ماجستير مقدمة

لقسم التاريخ كلية الاداب جامعة القاهرة) ١٩٧٨ م ، ص ٩٥ - ٦٤ .

(٤) : احمد مختار العبادي : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٣٨ .

أخذ الثورة الكبرى التي قام بها عمر بن حفصون ^(١) أحد زعماء المولدين الذي استقل بجماعه بالمرتفعات الجنوبية الإسبانية الممتدة بين مدينتي رنדה غربا ، ومالقه شرقا ، وكانت قاعدتهم قلعة بيشتر ^(٢) .

ولم يخلل المجتمع الأندلسي من مضايقات المستعربين أو المستعربة . فقد ظلت هذه الطائفة محافظة على مسيحيتها فلم يعترضها معترض ، وكانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية ويتحاكمون فيما بينهم إلى قضاة منهم ، ويدبرون شؤونهم بأنفسهم . إلا أنه عُرِّضَ على هذه الفئة وخاصة رجال الدين والقساوسة انصراف أبناء جلدتهم إلى الاهتمام باللغة العربية . لغة الثقافة العالمية آنذاك ، وعزوفهم عن لغتهم اللاتينية لغة كتابهم المقدس ، فعملوا ^(٣)

-
- (١) : عن عمر بن حفصون وثورته التي شغلت الفترة من إمارة الأمير الأموي المنذر بن محمد ، وحتى عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر انظر ، ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٤ - ١٩٧ على صفحات متفرقة . - عبادة كهيسة : المولدون في التاريخ الأندلسي ، ص ١٩٦ - ٢٥٠ .
- (٢) : حصن بيشتر هو كما يقول ابن غالب الأندلسي ، في كتابه قطعة من كتاب فرحة الأنفس - تحقيق لطفى عبد الهدى (الحصن المنفرد بالامتياز والواحد في الحصانة والانقطاع ، صخرة صماء من جميع النواحي ، وإذا توصل المتوصل إلى أعلاه الفاه منفسح ورجبا منفسط) .
- انظر ابن غالب الأندلسي : فرحة الأنفس ، ص ٢٦ .
- (٣) : انظر في هذا كامل كيلاني : نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٦٣٦ - ٣٤٠ .

جاءه ين على تعبئة الشعور القومي والديني لديهم وحقنهم بالحق والكرهينة ،
والانتقاص من الاسلام والاستخفاف بالرسول صلى الله عليه وسلم . وكانوا أى المستعربين
عنصر شغب منذ عهد عبدالرحمن بن الحكم (الأوسط) وحتى بداية الفتنة (١) .
أما العنصر الرابع من عناصر المجتمع ، فهم الصقالبة الذين كتب عنهم الكثير
قد يما وحد يثا ، وقد لعبوا دورا هاما فى حياة المجتمع الاندلسى السياسية والاجتماعية والثقافية .

(١) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٨ . - محمد

عبدالله غان : دولة الاسلام فى الاندلس من الفتح الى بداية عهد الناصر ،

ص ٢٦٧ - ٢٧٣ .

وكذلك ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) : الصقالبة شعب كتب عنهم الكثير قد يما وحد يثا ، وسنجزء من كتاب :

فى تاريخ المغرب والاندلس ل احمد مختار العبادى ما يعنى فى شئ

من الايجاز على معرفة ما تعنيه هذه الكلمة : الصقالبة (اطلق الجغرافيون

العرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر

قزوين شرقا الى البحر الادرياتي . وهى البلاد التى كانت تسمى

فى العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى . ولقد دأبت بعض القبائل

الجرمانية على سبى تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونساءها الى

عرب اسبانيا ، ولذا اطلق العرب عليهم اسم الصقالبة . ثم توسع

العرب فى استعمال هذا الاسم فأطلقوه على ارقائهم الذين جلبوهم

من اية امة مسيحية . واستخدموهم فى القصر الخلفى ، ويذكر أن

الصقالبة كانوا يجلبون أيضا من سواحل البحر الاسود ومن لبارد يه

وكلابريا فى ايطاليا ، ومن قطلونيا وجليقية فى شمال اسبانيا

كما يقول ابن حوقل فى كتابه : صورة الارض الذى ينقل عنه العبادى .

وجاء اغلب هؤلاء الصقالبة اطفالا الى اسبانيا الاسلامية حيث ربوا تربية

اسلامية ، ودرخوا على اعمال القصر والحرس والجيش . واستطاع عدد كبير

منهم أن يحتل مكانة عالية فى المجتمع القرطبى ، فصار منهم الأدباء

والشعراء واصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة .

ومارسوا دورا مماثلا للدور الذي لعبه الاتراك في عهد الدولة العباسية في عصرها الثاني ،
ومماثل للدور الذي لعبته الانكشارية في الدولة العثمانية ، بل جاءت الانكشارية على صورة
ماثلت الى حد ما اسلوب حياة الصقالبة المميز داخل القصور سواء أكان ذلك من ناحية الاسلوب
التربوي ، ام من ناحية الاسلوب العسكري الذي خضع له اولئك الصقالبة في قصور الدولة الاموية
وخارجها . وقد تعاضم نفوذ هؤلاء الصقالبة في عهد عبدالرحمن الناصر ، ثم المنصور بن ابي
عمر وابنه عبدالملك ، حتى لقد عرفوا بالعالميين .
وبجانب هذه العناصر كان اليهود يشكلون كما ذكرنا قسما مهما من السكان ، اضطلعوا
بالتجارة والمهاتلات المالية في معظم الاحيان .

هذا المجتمع بكل عناصره الرئيسية المكونة له كان من المستحيل توحيد صفوفه ، بل
قل توحيد قلوب سكانه نحو شعور قومي موحد ، وذلك لان كل منهم كان يهتم اهتماما مباشرا
بعصبيته الدينية والعرقية قبل اي شئ آخر ، فاذا دهمه داهم انشغل في الدفاع
عن مصالحه الشخصية أولا ، ثم عصبيته الجنسية ثانيا .
على أن من المهم أن نشير هنا الى أنه بالرغم من ذلك التناحر السياسي ، إلا أن
هذه العناصر العرقية والدينية المكونة للمجتمع الاندلسي لم تتحرج عن الاخذ ببعضها
البعض في باقى مناحى الحياة الثقافية والفكرية والعلمية والادبية .

== ويبدو أن بدء استخدام الصقالبة في الاندلس كان منذ أيام الامير الحكم الربضي ، ثم اخذ
عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ على عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر حوالي ٣٧٥٠ من الرجال ،
٦٥٠ من النساء . وهذه الارقام مختلف في تقديرها ، ولكنها تدل عموما على وجود طبقة جديدة
في المجتمع الاندلسي مثل المماليك الاتراك في المشرق الاسلامي .
ويرى بعض المؤرخين أن اعتماد الامويين في الاندلس على هؤلاء الصقالبة في الجيش
والحكومة ، كان هدفه الحد من نفوذ الارستقراطية العربية في الحكم واضعاف سيطرة الجند من
العرب والبربر)) .

انظر ، ص ٢١١ - ٢١٣
كما كتب احمد مختار العبادي في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بجريد ، المجلد
الثالث عشر ، ١٩٥٣ م . بحثا مطولا عن الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية . كما
كتب سعيد طشور في كتابه : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٩٦ - ٦٠٢ . بحثا عن السلاف
أو الصقالبة وحركتهم التوسعية .
أما من القدامى فقد كتب ابو عبيد البكري في كتابه المذكور سابقا فقرة واسعة عن
الصقالبة من ص ١٥٤ - ١٩١ .

٢ - ولعل ثانياً الأسباب غير المباشرة لسقوط الدولة الأموية هو جغرافية اسبانيا وما لعبته من دور في عدم استقرار البلاد تحت وحدة سياسية منذ أيام القوط إلى الآن دون مبالغة . فشبّه جزيرة ايرريا تغلب عليها الطبيعة الجبلية الوعرة ، وجبّتها العناية الإلهية بأودية وهضاب وسلاسل جبلية ضخمة ، وأماكن نائية كانت ملاذاً للشائرين والخارجين على النظام^(١) . وانعكست هذه الطبيعة القاسية على الوضع السياسي في شبه الجزيرة الأيبيرية . فلم تستطع أية حكومة مركزية سواء أكان ذلك في عهد ملوك القوط الأسبان ، أم في عصر ولاية الأندلس ، أم في عهد أمراء وخلفاء بني أمية . ومن خلفهم إلى وقت قريب من العصور الحديثة . نقول لم تستطع تلك الحكومات أن تحقق وحدة سياسية تضم شبه الجزيرة كلها أو معظمها إلا بالقوة المسلحة الشديدة ، وبفضل مميزات ذاتية فريدة لملوك أقوياء غير عديدين . فإذا ضعفت هذه الحكومة المركزية أو تولى أمرها ملوك ضعاف طادت عوامل التفكك الجغرافي تلعب دورها . وهكذا فإن التاريخ السياسي لاسبانيا القوطية ثم المسلمة فالنصرانية كان يتأثر دائماً بهذا الواقع الجغرافي الطبيعي . فإذا تيسرت السلطة المركزية القوية في يد أي حاكم مسلم أو مسيحي ، استطاع أن يفرض الوحدة السياسية والعكس بالعكس . رأينا ذلك في عهد الولاة ، وفي عهد عبدالرحمن الداخل وخلفائه : هشام ، الحكم ، عبدالرحمن الأوسط ، وفي عهد عبدالرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، وسانشو غارسيا الكبير ، وابنه فرديناند الأول ، والفونسو السادس ، والفونسو المحارب ، والفونسو السابع وغيرهم من الملوك الأقوياء الذين وحدوا معظم شبه الجزيرة بقوتهم الشخصية والعسكرية .

٣ - وأخيراً فإننا لانستطيع أن نخفل سبباً مهماً غير مباشر كان له دور ليس في سقوط الدولة الأموية فقط ، بل والدولة الإسلامية في الأندلس كلية . هذا السبب هو : نمو ممالك الطوائف واشتداد حركة الاسترداد الاسبانية (Reconquista) التي بلغت ذروتها في عهدي ملكي قشتالة وأرغون فرديناند وإيزابيلا ، عندما انتهى الوجود الإسلامي في الأندلس عام ١٤٩٢م / ١٤٩٢م .

(١) على أدهم : المرجع السابق ، ص ١٩ .

والحقيقة ان اسبانيا كانت من الامصار التي لم يكتمل افتتاحها . فقامت فيها بالتالي مقاومة نصرانية مسلحة ضد المسلمين منذ عهد الولاة وتطورت الى قيام ممالك النصراري . فقد تكونت بذور هذه الممالك ههنا عجز العرب المسلمون الفاتحون عن استكمال فتح اسبانيا كلها بفعل ظروف جغرافية قاسية وهي التي اشرنا اليها سابقا ، وفعل ظروف سياسية وعرقية اخرى ساعدت كلها في تكوين امارتين صغيرتين احدهما بقيادة القائد القوطي بلاجيوس اوبلاي عند المؤرخين المسلمين ، وهي التي قامت في منطقة استوريش (استورية) في ولاية جليقية القديمة في شمال غرب شبه الجزيرة اليبيرية . وثانيهما هي امارة كانتا برياً في شمال البلاد في مقاطعة بسكونيه أو البشكش قرب منطقة نبره (نافار) بقيادة قائد يدعى بتروس احد ابناء ملوك القوط القدامى . فقد اضم هذا القائدان بمقاطعتيهما بعد معركة (شريش) في ظم ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وكونا هاتين الامارتين مستغلين طبيعة المنطقة الجبلية ، وخلافات المسلمين ومنازعاتهم . ثم توحدت هاتان الامارتان في مملكة واحدة هي مملكة جليقية او استوريش بعد زواج ابن الدوق بتروس من ابنة بلاجيوس .

ولا يهمننا في هذا المجال ظروف تكوين ممالك النصراري الا بالقدر الذي يفيدنا في القاء الضوء على ممالك النصراري في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . الذي رافق سقوط الدولة الاموية . فقد اطل هذا القرن على اربع ممالك نصرانية هي مملكة نبره (نافار) وطصتها مدينة بنبلونه ، وتمتد من بلاد البشكش حتى حدود مملكة ليون أو جليقية او استوريش كما كان يطلق عليهما ، وظهرت امارة نبره كامة مستقلة في عهد الامير غارسيا اليجيز انجو اريستا . وقد غدت بعد ذلك ذات اهمية فائقة في عهد احد احفاده سانشو غارسيا الملقب بالكبير الذي كان يحاصر سقوط الدولة الاموية .

ثم مملكة جليقية او استوريش او ليون وقد يتنبى أن مر بنا انها كانت تقوم في المناطق الشطالية الغربية من اسبانيا . وقد استمر خلفاء بلاجيوس وبتروس يحكمونها حتى سقوطها نهائياً في يد ملك قشتاله فرديناند ابن سانشو غارسيا الكبير ، وانتهى بذلك وجودها كدولة مستقلة حيث انضوت تحت حكم ملك قشتاله (١) .

(١) : عن ملكتي جليقية ونبره انظر ، محمد عبدالله خان : دولة الاسلام في الاندلس ، من الفتح الى بداية عهد الناصر ، ص ٢٠٨ - ٢١٢ ، ص ٢١٣ ، ص ٣٥٣ - ٣٦١ . - الخلافة الاسبانية والدولة العاصرية ص ٤٠١ ، ص ٥٩٩ - ٦١٠ .

أما المملكة الثالثة فهي مملكة قشتالة التي تكونت في المناطق التي تعرف في الجغرافيا الإسلامية بولاية ابنه أو البسه ، والقلاع^(١) ، وفي الجغرافيا الإسبانية كانت تندرج ضمن منطقة برودوليا ، ثم سميت قشتالة بعد ذلك لكثرة الحصون فيها . ثم غدت بعد ذلك دولة مستقلة مارست دورا أساسيا في حياة إسبانيا ، وحتى زوال الوجود الإسلامي بها ، وتمتد هذه المملكة شرقا حتى مضاب نهره (نائار) ، وغربا حتى مملكة ليون أو جليقية ، وجنوبا حتى أريوخا ونهر دويره . وقد أسسها زعيم من زعمائها البشكش وهو (فرنان كوثالت) فاستقل بها . ثم دخلت ضمن أملاك سانشو غارسيا الكبير بالوراثة والمصاهرة ، فولى عليها ابنه فرديناند .

أما الإمارة الرابعة فهي إمارة برشلونة (قطالونيا) في الشمال الشرقي من إسبانيا والتي خضعت لحكم اسرتين قوطيتين هما آل بوريل ، ثم آل برنجير المعاصرين أيضا لسقوط الدولة الأموية . ولم تظهر إمارة أرغون (أراجون) التي كانت تقوم في منطقة شيزروا ، والتي ضمت لها منطقة سورايس القريبة منها إلا بعد وفاة سانشو غارسيا الكبير الذي عهد بحكمها إلى ابنه راميرو ، ثم ما لبثت بعد ذلك أن أصبحت أقوى الممالك النصرانية ، وذابت بينها وبين مملكة قشتالة مملكة نبره المستقلة^(٢) .

-
- (١) : البه والقلاع علمان جغرافيان يستعملان عادة معا في النصوص العربية .
أما البه : Alava فهي الاقليم الواقع عند منابع نهر ابروه على الضفة اليمنى (الشمالية) للنهر ، واصل الاسم غير معروف . أما القلاع فيراد بها المنطقة التي تعرف اليوم بقشتالة القديمة (Castilla Vieja) سماها العرب كذلك لكثرة قلاعها وقد يكون العرب ترجموا بذلك اسمها القديم (Castelle) .
والبه اليوم إحدى المديريات الثلاث التي يتكون منها اقليم (Vascongadas) وقاعدتها سان سباستيان وسكايبة (Vizcaya) وقاعدتها بالبوا و Alava و Bilbao وهي أكبرها مساحة وطقتها Vitoria .
انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ح ٢ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .
- (٢) : محمد عبد الله خان : الخلافة الأموية والدولة العباسية ، ص ٥٩٠ - ٥٩٢ .
دول الطوائف ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

هذه الممالك النصرانية مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد ، ولم تتوقف للحظة من التفكير في انهاء الوجود الاسلامي ، وساعدتها في ذلك الظروف الجغرافية ، كما واتتها ايضا فرص الخلافات والمنازعات بين المسلمين منذ الفتح وحتى نهاية الدولة الاسلامية في الاندلس . وازداد الامر خطورة . عندما بدأ الشائرون على الدولة الاسلامية يطلبون مساعدة هذه الممالك ضد اخوانهم المسلمين ، فاستغل هؤلاء العرض ابشع استغلال حتى لقد باتت المساعدات الورقة الراححة في ايد يهم يلوحون بها بل يبتزون بها حكام المسلمين .

على ان اخطر ما في القضية هو طلب الخلافة الاموية في اثناء تولى خلفائها الضعاف السلطة ، المسلحة العسكرية من هذه الممالك النصرانية ضد بعضهم البعض . وهي سابقة خطيرة تجرقت فيها الخلافة وهوت معها كرامتها وهيبتها الى الحضيض . فلا يجب ان نفاجا (١) اذا ما رأينا الخليفة سليمان المستعين يطلب مساعدة سانشو غارسيا امير قشتاله ضد ابن عمه الخليفة محمد المهدي . ولا نعجب اذا ما رأينا المهدي يقوم بدوره بطلب مساعدة امير برشلونه الكونت رامون بوريل وأمير اورقله الكونت آرمينجو (٢) . وكل هذه المساعدات كانت مقابل ثمن باهظ هو التخلي عن كثير من الاراضي والحصون لأمرأء هذه الامارات الاسبانية . بل رأينا للأسف الشديد الخليفة الشرعي هشام المؤيد يتهالك ويستجدي في طلب مساعدة سانشو غارسيا . وتأكد ما قلناه من أن أمرأء وملوكا نصارى كانوا يلعبون بورقة المساعدة لبيتزوا بها من يدفع لهم اكثر او بمعنى آخر من يتنازل لهم عن الكثير من اراضيه وحصونه ، وفي نفس الوقت كرامته وعزته . فقد رأى سانشو غارسيا أن مصلحته تقتضى رفض طلب سليمان المستعين الذي رفض خلافة هشام المؤيد الثانية ، ومساعدة هشام الخليفة الشرعي لقاء تنازل ضخم عن عدد كبير من الاراضي والحصون (٣) .

وهكذا فقد اصبحت عملية الاستعانة بالنصاري خطة اساسية في سياسة ملوك الفتنة بعد ذلك . وهذا ما ادى في النهاية الى سقوط الدولة الاسلامية في الاندلس كلها . وهكذا سقطت الدولة الاموية صريعة اخطائها السياسية الآنية ، وصريعة ظروفها وأوضاعها الاجتماعية والجغرافية والسياسية ايضا .

- (١) : حدث ذلك عند لقاء سليمان المستعين مع المهدي في معركة قنتش المذكورة سابقا انظر محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص ٦٤٦ .
- (٢) : حدث ذلك عند لقاء المهدي مع المستعين في معركة عقبة البقر المذكورة سابقا .
- (٣) : محمد عبدالله غان : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥٠ - ٦٥١ .

قيام ممالك الطوائف

أدى سقوط الدولة الاموية الى نتائج فورية مباشرة ، وهي افتراق كلمة الاندلس وتفرقتها شيئا واحزابا ودولا . واستأثر كل من لمس في نفسه القدرة والجرأة في آحاين كثيره ، والكفاءة والجدارة في احيان قليلة بمنطقة من المناطق التي كان يعيش فيها او بالقرب منها . وتكونت من هؤلاء المنتزين دويلات المدن والتي عرفت بممالك الطوائف والتي بلغ تعدادها بضعا وعشرين دولة . ودامت مدة حكم هذه الدويلات بضعا وسبعين عاما ، وان كان بعضها قد استمر بعد ذلك حتى بداية الثلث الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي كدولة آل هود حكام سر قسطه . ونعرض الان في ايجاز بالغ لكل دولة من هذه الدول او معظمها بالاحرى ، من حيث الموقع وتوسعها ونهايتها ، على أن تفصل بعد ذلك علاقات هذه الدول مع دولة بني عماد موضوع بحثنا هنا .

١ - مملكة اشبيلية :-

لن نمضي طويلا في الحديث عن مملكة اشبيلية وذلك لانها بداية هي موضوع بحثنا هذا ، ولكن ما نستطيع ايجازه في هذا المقام هو الاشارة الى ان هذه المملكة تكونت في مدينة اشبيلية احدى الحاضرات الاندلسية الكبرى آنذاك . وقد تأسست على يد القاضي محمد بن اسماعيل بن محمد بن عماد احد ابرز البيوتات الاشبيلية العريقة وقتذاك . الذي ينسب الى قبيلة لخم اليمنية الشهورة . وقد تأسست هذه المملكة في اشبيلية عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، واستمرت حتى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م عندما سقطت على يد المرابطين كما سنعرف لاحقا . وقد شهدت هذه المملكة حكم ثلاثة ملوك من بني عماد هم : القاضي ابوالقاسم محمد ابن اسماعيل مؤسس الدولة ، ثم ابنه المعتضد عماد الذي وسع رقعة الدولة ، ثم المتمد بن المعتضد الذي بلغت الدولة في عهده ذروة قوتها وحضارتها ورفيها ، الى أن سقطت على يد المرابطين كما سنرى بعد ان شاء الله .

٢ - مملكة قرطبة :-

الموقع : تقع هذه المدينة في الجزء الأوسط الجنوبي من الأندلس ،
وتضم عاصمة الخلافة القديمة وما إليها من الأراضي المتوسطة .
مؤسسها : بعد إلغاء الخلافة الأموية نهائيا عام ١٥٢٢/١٥٢١ م ،
قرّر رأي سراًة قرطبة ووجهاءها على أن يهدوا بحكمها إلى الوزير
أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور الذي كان ينتسب إلى بيت رئاسة
وزارة طوال عهد الدولة الأموية . وقد قاد الدولة بنظام رئاسي
شبه بمجلس الرئاسة المعاصرة ، وإن كانت السلطة العليا قد ظلت في يده ،
واستمر يحكم الدولة حتى وفاته . ثم تولى ابنه أبو الوليد الحكم بعده .
نهايتها : سقطت هذه المملكة نهائيا في يد المعتمد بن عباد عام ١٤٦٢/١٤٦٠
م وقد غدت من يومها جزءا من مملكة اشبيلية ، وذلك على أثر
الانشقاق المائلي الذي يكن للمباد بين هذه الفرقة (١) ، وهو ما
سنتاوله بالشرح والتفصيل في فقرة قادمة إن شاء الله .

٣ - مملكة سرقسطة :-

الموقع : كان يطلق عليها أيضا الثغر الأعلى ، وتضم هذه الولاية :
سرقسطة وأعمالها (تطيلة ، ووشقة ، وبرشتر ، ولاردة ، وانراغة ،
والطركونة ، وطروشوة) (٢) .

- (١) : يراجع في ظروف قيام دولة بني جهور وموقعها ومؤسسها وسقوطها المصادر
والمراجع التالية :- ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٥ - ١٨٧ ،
ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ ، ابن بسام : المصدر السابق ، القسم
الاول - المجلد الثاني ، ص ١١٤ - ١١٦ ، ابن خاقان : مطمح الأنفس ومسوح
التأني في ملح أهل الأندلس ، ص ١٦ - ١٧ ، ابن بشكوال : الصلة في تاريخ
علماء الأندلس ، قسمان ، القسم الاول ، ص ١٣١ ، ابن الأبار : الحلة المبراة ،
ج ٢ ، ص ٣١ - ٣٣ ، ابن سعيد المغربي : وشى الطرس في حلى جزيرة
الأندلس ، ج ١ ، ص ٥٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٢٧ - ١٥١ ،
- خالك الصوفي : تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بني جهور) .
(٢) : عن الثغر الأعلى وغيره من الثغور أنظر فيما بعد ، ح ٢ ، ص ٣٧ .
(٣) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٦٥ .

أهميتها :- كانت مملكة سرقسطة اعظم ممالك الطوائف وأهمها ، اذ كانت تجاور ممالك النصرى الاسبانية الشمالية • وتقع بين برشلونه من الشرق ونبره من الشمال الغربى وقشتاله من الجنوب والغرب •^(١)

مؤسسها :- شهدت هذه الممالك منذ بداية الفتنة حكم اسرتين عربيتين هما : بنو تجيب الذين كانوا يلوها من قبل المنصور بن ابي طمر ، ثم انتهت هذه الاسرة بمقتل منذر بن يحيى الذى ولاه سليمان المستعين أحد خلفاء الفتنة سرقسطة • ثم اسرة بنى هود الجذاميين الذين ينتسبون الى روح بن زنباع الجذامى أحد مستشارى الدولة الاموية فى المشرق • وقد تولى اول هولاء الجذاميين وهو سليمان بن هود حكم سرقسطة بعد فرار قاتل منذر ابن يحيى التجيبى عنها ، فضبتها أحسن ضبط حتى توفى •

نهايتها :- استمرت هذه الدولة منذ ذلك التاريخ حتى سقوطها نهائيا فى طم ٥٣٤ هـ / ١٢٣٩ م^(٢)

- ٤ - مملكة بلنسية :-

الموقع :- تقع فى منطقة شرقى الاندلس وتتبعها مدينة شاطبة^(٣) •

مؤسسها :- كان يلى هذه المدينة من قبل الدولة الاموية الوزير عبدالرحمن ابن يسار ، ثم ما لبث أن غلب عليها اثنان من الفتيان الصقالبة •

- (١) : محمد عبدالله خان : دول الطوائف ، ص ٢٦٤
(٢) : يراجع فى اخبار قيام دولة بنى هود فى سرقسطة وسقوطها والاحداث التى مرت بها : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، و ص ١٧٨ - ١٧٩ ، و ص ١٧٩ - ١٨٠ ، ص ٢٢١ - ٢٢٩ • ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، ص ١٥٦ - ١٥٨ • ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبدالله خان ، ٣ مجلدات ، مجلد ٣ ، ص ٢٨١ - ٢٨٤ • واعمال الاعلام ، ص ١٧٠ - ١٧٦ ، و ص ١٩٦ - ٢٠١ •
(٣) : مدينة شاطبة Jativa مأخوذ اسمها من الاسم الرومانى Suetabis ، وهى مدينة تقع فى شرقى اسبانيا من اعمال بلنسية على بعد ٥٦ كم فى الجنوب الغربى منها • وكانت دائما تتبع اداريا مدينة بلنسية •
انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ح ٣ ، ص ٩٦ - ٩٧ •

وهما مبارك ومظفر اللذين توليا أمرها • ثم تولاهما بليب الصقلي بعد مبارك •
وعندما سعى الفتيان العامريون وعلى رأسهم خيران ومجاهد في تقديم ابن مولاهم
عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، اسندوا اليه اى لعبد العزيز امر المدينة
بعد ان ثار اهلها بليب الصقلي ، وتلقب بالمؤمن والمنصور •
نهايتها :-

استمر عبد العزيز فى حكم مدينة بلنسية حتى وفاته عام ٤٥٢ هـ /
١٠٦٠ م ، فخلفه ابنه عبد الملك الى أن خلعه عنها المأمون بن ذى المنون
فى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م • وانتهى بذلك وجود تلك المملكة (١) وتولى حكمها
فعليا نيابة عن المأمون ، آل عبد العزيز من أعيانها ، ثم آل جحاف ، حتى
سقطت فى يد القبيطور عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م (٢)

٥ - مملكة بطليوس :-

الموقع :- تقع الى الشمال من مملكة اشبيلية ، وتمتد من غرب مملكة
طليطلة ~~عند~~ مثلث نهر وادى يانة غربا حتى المحيط الاطلنطى ، وتشمل
أراضى البرتغال الحالية كلها تقريبا حتى مدينة باجه فى الجنوب •
والعاصمة بطليوس تتوسط هذه الرقعة ، ويتبعها مدن هامة مثل :
مارده ، يابره ، أشبوننه ، شنترين ، شغتره ، قلمورية ، بازو ،
وغيرها (٣) •

(١) : يراجع فى اخبار دولة بلنسية المصادر التالية :- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ،
ص ١٥٨ - ١٦٧ ، وص ٣٠٣ - عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٥ -
ابن سعيد المغربى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ - ابن الخطيب :
الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٣ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٧ ، واعمال الاعلام ، ص ١٦٣ -
١٦٦ ، وص ٢٢٢ - ٢٢٦ - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ،
ص ٣٤٨ •

(٢) : عن القبيطور انظر بعد الباب الرابع ، ص ٣٠٤ - ٣٠٦

(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٨١ •

مؤسسها :- كان يلى هذه المنطقة رجل يدعى سابور الفارسي العامري ،
أحد اتباع فائق الخادم مولى الخليفة الحكم المستنصر . وقد استقل بها
سابور استقلالا تاما بعد انتشار سلك الخلافة ، وكان يساعده فى حكم
الدولة رجل يدعى ابو محمد عبدالله بن مسلمة المعروف بابن الاقطس ،
وهو من اصل بربرى من مكناسه بالفرب . غير أن نفوذ ابن مسلمة
ما لبث أن استطال حتى على سابور نفسه ، وعند ما توفى سابور استبد
بالامر دون ابيه اللذين طردهما .

نهايتها :-
استمر ابن مسلمة هذا فى حكم بطليوس وتلقب بالنصور
حتى توفى طم ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . فخلفه ابنه محمد بن عبدالله
وتلقب بالمظفر . وفى عهده بلغت الدولة أوج عظمتها . ثم توفى
طم ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، فخلفه ابنه عمر الذى تلقب بالمتوكل والذى
سقطت الدولة فى عهده فى ايدي المرابطين طم ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .^(١)

٦ - مملكة طليطلة :-

الموقع :-
تحتل مكانا استراتيجيا على مشارف الاندلس الشمالية وتمصرف
بالشفر الاوسط وتشمل رقعة كبيرة فى قلب الاندلس ، وتمتد شرقى بطليوس^(٢)

(١) : يراجع فى اخبار مملكة بطليوس المصادر التالية :
- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ٢٢١ - ٢٢٥ ، و ص ٢٥٠ - ٣٠٢ تقريرا
ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٦ - ٤٣٧ . ابن الخطيب
اعمال الاعلام ، ص ١٧٠ - ١٧٦ . ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ،
ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .

(٢) : الشفر وجمعها ثغور . هو فى الواقع اصطلاح اطلق على كل موضع قريب من ارض
الاعداء فيقال له ثغر . وقد استعمل الاندلسيون هذا الاصطلاح للدلالة
على حدودهم المجاورة للممالك النصرانية ، فكان هناك ثلاثة ثغور هى :
١- الثغر الاعلى : ويضم مدينة سرقسطة وأعمالها : تطيلة ولارده وطرشوشه ووشقه
وغير ذلك . وهو يواجه امارة برشلونه ، ومملكة نبره (نافار) كذلك ،
ويمثل هذا القطاع الان منطقة اراغون .
٢- الثغر الاوسط : ويضم مدينة طليطلة وأعمالها : كمدينة سالم ووادي الحجارة
وقونقه وغيرها . وهو يواجه مملكتى ليون وقشتاله .
٣- الثغر الادنى : ويشمل المنطقة التى تقع بين نهر دويره ، ونهر التاجه .
ويضم مدن قورية ومارده وقلمورية وغيرها .
انظر ، ابو عبيد البكري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي حتى قلعة ايوب ، وشمترية الشرق ،
وجنوب غربي مملكة بنى هود في الثغر الاعلى . وتمتد شمالا فيما وراء نهر
التاجه ، متاخمة لقسثاله القديمة ، وجنوبا حتى حدود مملكة قرطبة عند مد ينتى
المعدن والمدور ، وتتوسطها عاصمتها طليطلة . ومن أعاليها مدينة سالم ، ووادي
الحجارة وقونقة ، وومدة ، واقليش ، ومورة ، طليبره ، ترجالة وغيرها .
مؤسسها :-

اسسها بنى ذى النون البربر ، وهم من قبيلة هواره على اختلاف
نسبهم بين المؤرخين ولم يكنوا ذوى شأن ونباهة الا فى دولة المتصور
بن ابي عامر عندما بدأ نجمهم يسطع . وتولوا حكم (شنت برية)^(١)
أما طليطلة فقد كان يليها القاضى ابوبكر بن يعيش الاسدى الذى استقل بها
وكان يعاونه مجموعة من الرؤساء . ثم عزل وتولى مكانه عبدالرحمن بن متيوه
ثم قام عليه اهل طليطلة ، وحثوا لابن ذى النون حاكم (شنت برية) فأرسل
لهم ابنه اسماعيل بن عبدالرحمن .
نهايتها :-

استمر اسماعيل يحكم طليطلة حتى توفى ، فخلفه ابنه يحيى
وتلقب بالمأمون . وقد بلغت الدولة فى عهده أوج مجدها ، ثم توفى المأمون
وخلفه اثر ذلك حفيده القادر الى أن سقطت طليطلة فى عهده بيد الفونسو
السادس ملك قسثاله عام ١٠٨٥ / ١٠٨٥ م .^(٢)

(١) : شنت برية او (شنت برية) Santavay بلده تقع الى شمال شرقى طليطلة . وكانت
كورة كبيرة فى ايام الامارة والخلافة الاموية بل كانت قاعدة هذه الكورة المسمية
باسمها .

انظر ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

(٢) : يراجع فى اخبار دولة بنى ذى النون الصادر والمراجع التالية :
ابن عذارى المصدر السابق والجزء ، ص ٣٥٢ - ٣٠٣ فى صفحات متفرقة .
ابن سعيد المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١ - ١٣ . ابن خلدون :
المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ . ابن الاثير : المصدر السابق ،
مجلد ٩ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ . محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٩٥ .

٧- مملكة غرناطة :-

الموقع :- تقع في الجنوب الشرقي من مملكة اشبيلية ، وتضم مدينة جيان ، وريه . وكان يطلق عليها ولاية البيرة .

مؤسسها :- عرفنا فيما سبق ان المنصور استقدم عددا كبيرا من البربر الى الاندلس وادخلهم في جيشه . ومن هولاء البربر الذين استقدمهم المنصور عشيرة بربرية من قبيلة صنهاجه يعرفون ببني زيوي . وعندما بدأ تفكك الدولة الاموية ، اقطع سليمان المستعين المذكور سابقا ، بني زيوي الصنهاجين هولاء ولاية البيرة ، ثم . ما لبثوا ان استبدوا بحكمها تحت زطمة رجل منهم يدعى زاوي بن زيوي وخاض هولاء البربر احداث تلك الفتنة التي سميت باسمهم وعندما هزم الاندلسيون في لقاءهم مع البربر في خلافة القاسم بن حمود كما مر بنا وقتل خليفتهم المرتضى المذكور ، آثر زاوي العودة الى افريقية بعدما رأى استحالة التوفيق بين البربر والاندلسيين ، غير أن اهل البيرة طلبوا منه البقاء ، فرفض فاتجهوا الى ابن اخيه جوس بن ماكسن حيث تولى امرهم وقد ظل جوس يحكمهم حتى طم ٤٢٨ هـ . وهو الذي مصرت في عهده مدينة غرناطة ، ثم خلفه ابنه بهاديس في الحكم طويلا الى ان توفى ، فخلفه حفيده عبد الله ابن بلقين .

نهايتها :- استمر عبد الله بن بلقين يحكم غرناطة حتى قدوم المرابطين الى

الاندلس ، حيث انزلوه هو واخوه تميم ملك مالقه من جملة ما انزلوا
(١)
من ملوك الطوائف عن حكمهم

- (١) : يراجع في اخبار دولة بني زيوي المصادر التالية :
- عبد الله بن بلقين بن زيوي : التبيان او مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بني زيوي بغرناطة ، تحقيق ونشر . ليفي بروفنسال ، ص ١ - ١٠٣ على صفحات متفرقة .
 - ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٢٨ ، و ص ٢٢٢-٢٢٦
 - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول ، المجلد الاول ، ص ٤٠١-٤٠٣ .
 - ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٨ . - مجهول : نبت تاريخية جامعة في اخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، اعني بنشرها وتصحيحها ، ليفي بروفنسال ، ص ٤٣ .
 - ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ٤٣١ - ٤٤٢ .

١- مملكة مالقة والجزيرة الخضراء :-

الموقع :- تقع مالقة الى الجنوب من اسبانيا وتطل على البحر المتوسط ،
وتقع في احواز اشبيلية • اما مدينة الجزيرة الخضراء^(١) فتقع على البحر المتوسط
مقابل ثغر طنجة المغربي على البحر نفسه وقريبة من مدينة جبل طارق •
مؤسسها :-

تقلص نفوذ دولة بني حمود بعد خلع طاغهم في قرطبة كما مر
بنا سابقا ، ثم تقلص نفوذها ايضا بعد مقتل يحيى بن علي واقتصر فقط على
مدينة مالقة والجزيرة الخضراء ، بالاضافة الى مدينة سبتة المغربية • وقد
نشبت بين الاخوة من آل حمود وابناء العم كذلك الخلافات التي لم تنقطع ابدا
حتى سقوط دولتهم •

نهايتها :-
انتهت امارة مالقة على يد باديس الصنهاجي امير غرناطة
في طم ٤٢٩ هـ / ١٠٥٧ م • وانتهت امارة الجزيرة الخضراء على يد المعتضد
ابن عباد طم ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م^(٣) •

٩- مملكة مرسيه :-

الموقع :- تقع مدينة مرسيه في شرقي الاندلس ، وهي مدينة اسلامية بحتة
بنيت حديثا بالقرب من مدينة تدوير التي كانت تنسب الى تدوير أو تيودوير

- (١) : (تسمى اليوم Algeciras ، وهي ميناء في اقصى جنوب اسبانيا بجوار
جبل طارق ، وتسمى ايضا في المراجع العربية بجزيرة ام حكيم ، وهي جارية
لطارق بن زياد كان قد حملها معه عند فزوه لاسبانيا ، ثم تركها في هذه البلده
فنسبت اليها) •
انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٤٥ •
(٢) : انظر قبل ، ص ٣٠ - ٣٤ •
(٣) : يراجع في اخبار الدولة الحمودية المصادر والمراجع التالية :
ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٠ - ٢٤٣ • ابن خلدون :
المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٦ • ابن الاثير : المصدر
السابق ، مجلد ٩ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ • القلقشندي : صبح الاعشى في
صناعة الانشاء ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ • محمد عبدالله غان : دول الطوائف ،
ص ١٧٤ • رجب عبد الحليم : دولة بني حمود في مالقة بالاندلس ، ص ٧٠ - ١٠٠ •

حاكم هذه الناحية القوطى فى ايام فتح العرب لاسبانيا . وقد حول عبد الرحمن
الداخل كورة تدمير الى كورة عادية ، وكانت قاعدتها بلدة اوربوله^(١)
وفى عام ٢١٦ هـ / ٨٣١ م اخططت فى عهد الامير عبد الرحمن بن الحكم
(الاوسط) مدينة مرسية ، ثم نقلت اليها القاعدة ، وسميت الكورة
كلها بكورة مرسية^(٢) .

مؤسسها :-

توجه خيران العامرى احد الفتيان العامريين كما مر بنا
الى شرقى الاندلس بعد نزاعه مع على بن حمود ، فاستولى على مدينة
مرسية طم ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م ، وقد ولى عليها من قبله زهير العامرى
احد رفاقه ، ولما حدثت الوحشة بين خيران العامرى ومحمد بن
عبد الملك بن المنصور حاكم مرسية بعد زهير أنزله عنها ، وعهد
بها الى زميله زهير مرة اخرى . وعندما توفى خيران ، خلفه زهير
على المرية ايضا بالاضافة الى مرسية ، ولكنه عهد بحكمها الى ابي بكر
بن طاهر احد وجهائها نائبا عنه ، ثم لما توفى زهير خلفه عبد العزيز
ابن عبد الرحمن بن المنصور على المرية ، فأقر ابن طاهر على مرسية
واكتفى بالسلطة الاسمية عليها .

نهايتها :-
استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلا حتى توفى عام
١٠٦٣ هـ / ١٠٦٣ م ، فخلفه عليها ابنه ابو عبد الرحمن بن طاهر ، واستمر
يحكمها حتى تطلع محمد بن عمار وزير المتمدن بن عباد الى ضمها

(١) : الكور مفرد ها كورة : مصطلح يطلق على الاقسام الادارية فى الاندلس

(ربما شبه باللواء ، او المدينة ، المحافظة) . وكان هذا التقسيم

الادارى متبعاً فى الاندلس عدا الثغور .

انظر ، ابو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٤ .

(٢) : ابن البار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٦٢ . وج ٢ ، ص ٢٠٢ .

ص ١١٦ .

ابن عباد كما سيربنا ، فأنزل ابن طاهر عنها ، ولكن نائبا
ابن عمار فيها ما لبث أن غدر به واستقل بالمدينة حتى انزله عنها
المرابطون طم ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م^(١)

١٠- مملكة المرية :-

الموقع :- تقع في جنوب شرق اسبانيا . وكانت امانة المرية تضم
مدينة جيان وسطه واوريهله واوريلوه ، وتحتل المنطقة الممتدة
من ساحل اسبانيا الشرقى الجنوبى حتى وادى آش ، وحدود مملكة غرناطة ،
وشمالا حتى بسطة وجيان^(٢) .
مؤسسها :-

عندما اظلم الافق بين الصقالبة والبربر بعد استيلاء
سليمان المستعين على الخلافة ، وما حدث بعد ذلك من تولى على بن حمود
الخلافة ، توجه الفتيان العامريون الى شرقى الاندلس ، وتوجه
خيران احد زعمائهم الى مدينة المرية فاستبد بها وأنزل واليها
عنها . وعندما توفى طم ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م خلفه فى حكمها نائبه
زهير . واستمر يحكمها حتى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م عندما قتل
على يد باديس بن جوس امير غرناطة ، فعهد اهلها الى
كبيرهم ابى بكر الرميمى الذى ضبطها . وراسل اهل المرية
بعد ذلك عبدالعزيز بن ابى طمر ملك بلنسية ، فقد مها واستولى عليها ،
ثم عين عليها صهره ابى الاحوص ممن بن صيادح نائبا عنه .
وقد استقل بها بعد ذلك استقلالا تاما عن ابن ابى طمر ، ثم لما
توفى ، خلفه ابنه محمد بن ممن وتلقب بالمعتصم .

- (١) : يراجع فى اخبار مملكة مرسيه المصادر التالية :
- ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، و ص ١٣٢-١٣٨
و ص ١٤٠ - ١٤٨ . - ابن خاقان : قلائد العقيان فى محاسن الاعيان ،
قدم له ووضع فهارسه محمد العنابى ، ص ٦٨ - ٦٩ ، و ص ٧٢ .
و ص ١٠١ - ١٠٣ . - عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٠-١٨٢ .
(٢) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ١٦١ .

نهايتها :- استمر محمد بن معن بن صمادح المعتصم الواثق
يحكم المرية حتى قدوم المرابطين الذين انزلوا خلفاءها عام
٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

١١- مملكة دانية والجزائر :-

الموقع :- تقع مدينة دانية في شرقي الاندلس كما ذكرنا وهي تقع
في شمال اللسان المثلث الممتد من ولاية القنت على البحر المتوسط
ويتبعها الجزر الشرقية : ميورقه ، منورقه ، يابسه المعروفة بجزر
البليار .^(٢)

مؤسسها :- مجاهد العامري احد القتيلان العامريين البارزين كما مر بنا ،
والذي كان يتولى حكم الجزر الشرقية من قبل المنصور بن ابي طمر ، ثم استبد
بحكمها واستقل بها استقلالاً تاماً . ومن اهم اعماله غزوته لجزيرة سردانية
وتغلبه على جزء كبير منها .

(١) : يراجع في اخبار مملكة المرية الصادر التالية :-

- ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ١٦٦ - ١٦٨ . ابن الابار :
الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٧٨ - ٨١ ، و ص ٨٢ - ٨٤ . ابن سعيد
المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٤ - ١٩٦ . عبد الواحد
المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٢٧ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ،
ص ١٨٩ - ١٩٢ ، و ص ٢١٠ - ٢١٧ .

(٢) : ميورقه Mallorca ، ومنورقه Menorca ، وجزيرة يابسه Ibiza .
تعرف بالجزائر الشرقية في الجغرافيا الاندلسية (Balearic Islands)
Islas Baleares ، وتقع في شرقي اسبانيا في البحر الابيض المتوسط ،
وتتبع اسبانيا اليوم .

انظر ، ابو عبيد البكري : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٦ .

نهايتها :-
بعد خطوب كثيرة في عهد مجاهد وابنه علي الملقب
باقبال الدولة ، سقطت دانية نهائيا في يد القشتاليين بن هود
(١)
ط م ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م .

تلك هي أهم ممالك الطوائف ، وهناك كثير غيرها نعرض لها عند
الحديث عن علاقة بني عماد بملوك الطوائف ، وهي امارات : شنتمرية الغرب ،
ولبله ، وولبه وجزيرة شلطيش ، وقرمونه ، ورنده ، ومورور ، وأركش
وغیرها .

وفي الحقيقة أن هذه الممالك لم تتألف الا من تلك العناصر المتنازعة
التي ذكرناها سابقا ، والتي أثرت في حياة البلاد السياسية والاجتماعية والثقافية .
هذه العناصر التي تكونت منها ممالك الطوائف هي : العرب ، البربر ،
الصقالبة .

أما العرب أو الارستقراطية العربية بالاحرى ، فقد كان لبعضها
من المكانة الاجتماعية والمالية هيا لها الاستئثار بالزعامة والتفرد بالرئاسة
كبني جمهور في قرطبة . او كان لبعض الاخر علاوة على ذلك مكانة دينية
مرموقة هيا لها هي الاخرى التفرد بالرئاسة كبني عماد باشبيلية ، في
حين كان لبعض الاخر مكانة عسكرية أو سياسية في بعض النواحي ايام الدولة
الاموية وخلال الفتنة فاستغلت سقوط الدولة وأعلنت استقلالها بما كانت
تقيم فيه أو تحكمه من بلاد . ثم سعت في توسيع رقعتها بعد ذلك كدولة بني هود
في سرقسطة . وهناك من وجد نفسه بمحض الصدفة نائبا في حكم مدينة

- (١) : يراجع في اخبار مملكة دانية المصادر التالية :-
- ابن خباري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٣ - ١٥٨ . الحميدي :
المصدر السابق ، ص ٣٣١ ، و ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . عبد الواحد المراكشي :
المصدر السابق ، ص ١٢٣ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ،
ص ٢١٧ - ٢٢٢ . ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ،
ص ٣٥٣ - ٣٥٦ .

أو ناحية كآل ظاهر في مرسية أو نائباً لبعض اقربائه في ناحية من النواحي ، فابتهل الفرة واستقل بتلك الناحية كبنى صراح في ألمرية الى غير أولئك من المنتزين على الثغور والمدن .

أما البربر فقد استقلوا بحكم النواحي التي ولاهم عليها النصور بن ابي عامر . ثم الخليفة سليمان المستعين وفاء لمساعدتهم له ، وفي نفس الوقت ابعاد لهم . فاستقلوا بتلك النواحي مهقين على السلطة الاسمية للدولة ، ومن هذه الامارات والممالك التي تأسست غرناطة ، مالقة ، الجزيرة الخضراء ، ورنده ، قرمونه ، مورور ، وأركش .

أما الصقالبة الذين بلفوا بلفنا عظيماً من القوة ، فعندما شعروا برياح الانتزاع والاستقلال التي هبت في سماء البلاد بعد انتشار سلك الدولة ، وشعروا في نفس الوقت بأن دولة هشام الخليفة الشرعي الثانية لن يستقر لها قرار كما أسلفنا ، وأنهم بالتالي لن يستطيعوا تحقيق مآربهم . فقد فكروا بالانتزاع على مابتحت ايديهم من مقاطعات أو على ما يظنهم الانتزاع عليه ، فاستقلوا بالجانب الشرقي من البلاد ، وكونوا تلك الممالك التي ذكرناها وهي : ألمرية ، ثم دانية . واستمر بعضها حتى قدوم المرابطين ، وذاب البعض الاخر أو انضوى تحت سلطة دولة اخرى ناشئة كما حدث في مملكة ألمرية .

هذه الدويلات التي تأسست اختلفت الواحدة منها عن الاخرى قوة وضعفاً ، واهمية وهوان شأن ، وثراء وفقراً حسب شخصيات قادتها ومواردها الطبيعية . وقد انفتحت الدويلات القوية الغنية منها الكثير من مواردها للتوسع وسط السيطرة على الدويلات الاقل منها شأناً ، وأنفتحت أيضاً الكثير من الجهد والوقت والمال في حرك المؤامرات والفتن ضد بعضها البعض . وشاهدنا بكل أسف انقلاب الحليف على حليفه ، ومصادقة عدو الأعداء ونما وازع من ضمير الا ضمير المصلحة البحتة .

على أن أخطر ما وقعت فيه دول الطوائف هو استمرارها في اتباع سياسة خلفاء الفتنة الهادفة الى الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض ، وتناسوا قضية الصراع بينهم وبين النصارى على الوجود الاسلامي في البلاد .

(١) واهتموا بمشكلاتهم وخلافاتهم الشخصية فقط كما سيتضح لنا لاحقاً .
بيد أنه على الرغم من هذا التفسك والانحلال السياسي للاندلس
في عصر ملوك الطوائف ، إلا أنه يعتبر في المقابل وكما سيتضح لنا لاحقاً أيضاً ،
(٢) أرهق العصور الإسلامية في الأندلس في شتى مناحي الحياة الاجتماعية
والاقتصادية والعمرانية والعلمية والأدبية . بمعنى أن الحضارة الإسلامية
بلغت ذروتها ، وأوجها بفضل هؤلاء الملوك الذين تنافسوا للارتقاء بممالكهم ،
والبهاة بها أمام الممالك الأخرى .

(١) : انظر بعد الباب الرابع ، ص ٣٤٦ - ٣٥٠ .

(٢) : انظر بعد الباب الخامس ، ص ٣٩٨ - ٤٠٤ .

الباب الأول

((قيام دولة بني عباد))

- أصل بني عباد
- الموقف السياسي في الأندلس قبل قيام دولة بني عباد
- اشبهلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها
- دولة القاضي أبي القاسم محمد (٤١٤ - ٤٣٣هـ / ١٠٢٤ - ١٠٤٢م)

أصل بنى عباد

ينتسب العباديون الى قبيلة لخم اليمنية المشهورة التي فخرت وعزت بانتساب المناذرة ملوك الحيرة لها قبل الاسلام ، ثم فخرت وعزت بانتساب بنى عباد اليها مرة اخرى . ويقول ابن الخطيب فيما يقوله عن ابن حيان مؤرخ تلك الفترة ومعاصرها في نفس الوقت (جاز الى الاندلس بعد الفتح رهط من لخم تفرقوا في اقطارها ، وانحاز منهم الى غربيها اخوان نعيم وعطاف . ونزل احدهما بقريّة ^(٢) يومين ، وتنازل ولده بها مدة من الزمان ، ثم انتقلوا الى اشبيلية ، فنموا وتصدروا للوجاهة والنباهة في دولة الحكيم المستنصر بالله ودولة ابنه هشام وحاجبه المنصور . وقد كان نشأ فيهم اصدربيتهم ومؤسسهم مجدهم اسماعيل بن عباد ، فقدّمه المنصور على خطة القضاء بها ، فاتصل استعماله الى زمن انقراض الامامة الاموية) ^(٣) .

(١) : ينتسب العباديون الى قبيلة لخم بن عدي (وهو بطن عظيم ينتسب الى لخم واسمه مالك بن عدي بن الحارث بن موه بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان من القحطانية . كانت مساكنهم متفرقة واكثرها ما بين الرملة ومصر في الجفار ، ومنها في الجولان ، ومنها في حوران والبثينة ومدينة نوى ، ومن بلادهم فلسطين رفح وحدس بالشام ، وقد نزل قوم منهم بمنطقة بيت المقدس ، فدعيت باسمهم ، وتسميها العامة اليوم بيت لحم . ومنهم آل المنذر ملوك العراق ، ومنوعباد ملوك اشبيلية ، ومنهم بطون كثيرة بالديار المصرية) .
انظر ، عمر رضا كحاله : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، المجلد ٣ ص ١٠١١ - ١٠١٢ .

(٢) : يقول حسين مؤنس ان دوزي صاحب كتاب تاريخ مسلمي اسبانيا حقق اسمها خلال تعليقاته على الترجمة اللاتينية للنص الذي يتناول يومين فقال ان يومين قرية كان العرب يسمونها Torconina ، غير الملك الفونسو اسمها الى مولينا Molina . وقد رجح دوزي أن الاسم مصحف وأن صحته هو Toriomina وهو بالعربية طور يومين أي جبل يومين .

وعلى أية حال فيومين قرية بقطر اشبيلية كانت اولية بنى عباد منها ، وقد ضبطها حسين مؤنس على نحو مخالف لما ورد في المتن ، وقال ان رسمها يومين أضبط .

انظر ، ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٥ ، وح ١ ، ص ٦٣ ، وح ٣ ، ص ٤٥٧ .

(٣) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٢ .

على أن هناك من يقول ان عطافا هو ابن نعيم وليس أخاه
وأنه أول من دخل الاندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري ، وأنه
(كان من اهل حمص من صقع الشام ، لخبي النسب صريحا وموضعه في حمص
المريش . والمريش في آخر الجفار بين مصر والشام . ونزل بالاندلس
بقرية يومين من اقليم طشانه ^(١) من ارض اشبيلية) ^(٢) .

وتسلسل نسب اسماعيل الذي اشار اليه ابن حبان هو :
اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن قريش بن عمرو بن اسلم بن عطاف ، وعلى خلاف
بين المؤرخين ايضا .

ولعل اول اشارة الى ظهور امر بنى عباد هي : عندما
تولى والد اسماعيل هذا : محمد بن اسماعيل بن قريش الصلاة بطشانه ^(٣) .

بيد أن انتشار صيتهم ومعد ذكركم بدأ يظهر منذ أن
تولى اسماعيل بن محمد هذا خطة القضاء للمنصور بن ابي طمر . وقد ظل
القاضي اسماعيل محط الاعجاب والثناء طيلة مدة حكم المنصور وحتى سقوط
الدولة الاموية . وكانت مكانته الدينية والاجتماعية تتزايد يوما بعد يوم ،
فتولى بجانب خطة القضاء الامامة في جامع قرطبة . وكان كما يقول ابن غزاري
(آية من آيات الله علما ومعرفة وأديبا وحكمة ، فحمى مدينة اشبيلية من سطوة
البرابر النازلين حولها بالتدبير الصحيح ، والرأى الرجيح ، والنظر في الامور
السلطانية الى أن أتاه أجله سنة أربع وعشيرة وأربعمائة) ^(٤) .

-
- (١) : طشانه هي *TOCINA* في مدينة اشبيلية حاليا .
انظر ابن ابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٥ .
 - (٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ٦٠-٧٠
(نقلا عن ابي رافع القضل بن علي بن حزم صاحب كتاب الهادي الى
معرفة النسب العبادي) .
 - (٣) : ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ .
 - (٤) : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ .

أما ابن بسام وابن الأبار فقد نقلوا عن ابن حبان ما يتضمن
الإشادة به والثناء عليه ^(١) . وان كما لا نفهم تناقض ابن حبان عندما أشار
إلى أن اسماعيل (لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا من خدمة) ، ففى
حين أنه قال قبل ذلك أن المنصور قد ولاه خطة القضاء واستعمله عليها .

وتبقى أخيراً قضية انتساب بنى عباد إلى ملوك الحيرة ،
ففى قضية أشار إليها ابن الأبار عندما قال ((وقال غير أبى رافع : انهم من ^(٢)
ولد النعمان بن المنذر بن ماء السماء . وذلك كانوا يفخرون ويمدحون ، وهذا
ابن اللبانه يقول ^(٣) :

من بنى المنذر بنى هو انتساب . . . زاد فى فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى . . . والمعالى قليلة الأولاد ^(٤)))

وليت ابن الأبار كشف لنا عن المصدر الآخر الذى نقل عنه بجانب
ما نقله عن أبى رافع ، لكفانا مؤونة هذه البلبلة . وان كانت ليست بالقضية
المهمة فى تكوين ونشأة دولة بنى عباد ، غير أننا لا يمكن أن نمر عليها دون تعليق ،
خاصة وأن هناك من أنكرها . ويتراءى لنا أن راينهرت ^(٥) دوزى الذى أنكرها ورأى أنها
ضرب من الزعم يحتاج إلى دليل لنفيه . فدوزى يعيب على هذا الانتساب افتقاره
للدليل ، ولكن فاته هو نفسه أن يقيم الدليل على نفس ذلك .

(١) : الذخيرة ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٧٠ - الحلة السيرة ، ج ٢ ،
ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) : أبو رافع الفضل بن على بن أحمد بن حزم : هو كما يتضح هنا ابن المفكر والفقير
الاندلسى المشهور ابن حزم . وقد ألف عن بنى عباد كتابا سماه : الهادى
إلى معرفة النسب العبادى ، وهو كتاب مفقود اعتمد عليه بعض المؤرخين القدامى .

(٣) : سنعرض له قادمًا ان شاء الله .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٥) ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الاسلام ، ص ٢٠ .
وهذا الكتاب أى ملوك الطوائف وضع عنوانه كامل كيلانى الذى ترجم جزءًا من
كتاب راينهرت دوزى المعروف بـ *Spanish Islam* ، وهذا الجزء الذى
ترجمه كامل كيلانى يتضمن الجزء الرابع او القسم الرابع من كتاب دوزى هذا .
ويقابل الفصول من ١ - ١٣ ، أى من ص ٥٩٥ - ٧١٢ من طبعة لندن عام ١٩٧٢ =

وعلى اية حال فهو يقول (ولكن فرع اسرة آل عباد الذى
تسلسل منه آباؤهم لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتاتا ، بل كانوا
يقيمون اخيرا قرب العريش الواقعة على حدود مصر وسوريا فى ناحية حمص) (١)
ويخيل اليانا ان هذا ليس هو الدليل المقنع . فمذ متى كان
استقرار جماعة ما فى مكان ما غير موطنهم او مكانهم الاصلى دليلا على عدم انتمائهم
لذلك المكان او الموطن ؟؟ .

ومهما يكن من أمر فان عدم اشارة ابن حبان معاصر بني عباد
ومؤرخ الاندلس فى ذلك العصر الى قضية انتساب بني عباد للمنادرة يلقى ظللا
من الشك ، نعم ولكن لا يرقى الى مستوى الانكار الكلى . ونما دليل واضح
مقنع .

= وسنعمد منذ الان الى الاعتماد على ترجمة كامل الكيلانى لكتاب دوزى والمعنونه

بملوك الطوائف كما أسلفنا .

(١) : ملوك الطوائف ، ص ٣٥ .

الموقف السياسي في الاندلس قبل قيام دولة بني عباد

كانت اشبيلية بحكم موقعها في غربي الاندلس وسبب قربها من قرطبة عاصمة الخلافة تتأثر شديد التأثير بكل ما يحدث في تلك المدينة التي كانت بحكم كونها العاصمة مركز الاستقطاب وملتقى التيارات السياسية السائدة آنذاك . ولقد زادت اهمية اشبيلية ايضا عندما اصبحت ملاذا لاطراف النزاع في ذلك الوقت ، وهو ما هيا لها بعد ذلك ممارسة اكبر قدر في حياة الاندلس السياسية والعسكرية والثقافية .

وعندما توفي الخليفة الملوي علي بن حمود في عام ٤٠٨ هـ /

١٠١٨ م ، خلفه نائبه علي مدينة اشبيلية اخوه القاسم بن حمود بعد قليل من مقتله . وقد استمر القاسم يحكم قرطبة حتى خلع لاول مرة في سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م . ومن ثم فقد اضحت الخلافة بعد ذلك نهيبا لخلافات آل حمود وصراعاتهم ، اذ انه عندما خلع القاسم تولى مكانه ابن اخيه يحيى الذي ثار عليه ، أما هو فقد توجه الى اشبيلية حيث دعي له فيها بالخلافة ، وظل هناك متحينا الفرصة للعودة الى قرطبة .

اما يحيى فقد تولى الخلافة اثر فرار عمه القاسم ، واستمرت خلافته سنة ونصف تقريبا ، حيث خلع بعدها . وولد عمه القاسم مرة اخرى مسرط ليلي الخلافة في اواخر عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م ، بعد ان ترك في اشبيلية ولده القاسم واليا عليها مع اخيه وحامية من البربر بقيادة محمد بن زيوى بن دناس اليفرنى ، وبعد ان ولى على القضاء القاضى محمد بن اسماعيل بن عباد خلفا لابيه الذي نزل الماء في عينيه .

غير ان دولته لم تطل طويلا ، فخلع بعد سبعة شهور من عودته قلك اى في منتصف عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٤ م ، فتوجه الى اشبيلية غير ان اهلها اغلقوا ابوابها في وجهه ، ورضى أخيرا أن يرفع الحصار عنها شريطة اخراج ولديه له . وانقطعت بذلك دولة بني حمود في قرطبة ، الى أن أعيدت

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٢ - ١٢٥ . ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٨٢ - ٨٣ . ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
 - (٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣١ - ١٣٤ .
 - (٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

الخلافة يحيى ثانية عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م ، الى أن خلعت طاعته مرة
أخرى في العام التالي مباشرة لتعود الخلافة ثانية لبني أمية حتى خلعوا
نهائيا في عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٣ م .^(١)

وهكذا فاننا لانستطيع في حقيقة الأمر أن نصف مقدار
الشعور باليأس والخيبة في عصمة الخلافة وما يجاورها من المدن الكبيرة
كاشبيلية وغيرها . فهم منذ أن بدأت نذر الفتنة تطل في عهد عبدالرحمن
ابن المنصور بن أبي عامر ، لم يهنأوا بالاستقرار والهدوء كلية ، فقد
جربوا حكم الامويين بعد فترة تسلط ود يكتاتورية في عهد العامريين
أى في عهد المنصور وابنه عبدالملك وبداية حكم عبدالرحمن هذا ، فلم يجد
ذلك فتىلا . وأسهم أولئك الخلفاء الضعاف في توسيع الهوة في أوضاع
البلاد السياسية والاجتماعية ، وأسهم سليمان المستعين بصفة خاصة
في عظم ذلك بتقريبه للبربر وافتتاح المجال لهم لتولى المقاطعات
والتحكم في مصائر السكان . وعندما نقول البربر نعنى بذلك بنى حمود
الملويين أيضا ، فلقد تبربروا - ان صح هذا التعبير - وأصبحت
لفتهم وعاداتهم لا تختلف عن لغة البربر وحياتهم .

وبدا كما لو أن الفريقين المتنازعين : الاندلسيون والبربر
دخلوا معركة اثبات الوجود حتى النهاية ، وظهر رد فعل الاندلسيين
على تولى على بن حمود الخلافة سريعا ، عندما نادوا بالمرتضى
المذكور سابقا خليفة ، وخاضوا به معركة الفاشلة ضد البربر ،
أو عند طردهم للبربر ومنى حمود في عهدى القاسم وابن أخيه يحيى .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٣ ، و ص ١٤٥ - ١٤٦ .

ولم يجد فتيلاً عودة الأمر لبني أمية كما ذكرنا ، كما أن خلافة
بني حمود لم تستطع أن تستل من نفوس السكان الكراهية والحقد على البربر
للاعتبارات التي ذكرناها سابقاً ، كما أن قصر نظرة بني حمود السياسية وسوء
تفكيرهم من جهة ، وقصر مدة حكمهم من جهة ثانية لم تسهم بطبيعة الحال
في بناء جدار الثقة بينهم وبين سكان العاصمة وما حولها . ونستطيع أن
نلمس حقيقة اليأس الشديد ، وحقيقة الشعور بالقلق المقترب بالتفاوض في
نفس الوقت عندما نرى أن أهل قرطبة وما يحيط بها يحاولون خلع بني حمود ،
واعادة بني أمية ، ثم خلعهم ، واعادة بني حمود ثانية ، ثم خلعهم أيضاً ،
ثم اعادة الأمر لبني أمية لآخر مرة . وكم كانت تحزنهم تلك المحاولات الفاشلة
التي لم تسفر الا عن مزيد من القلاقل والتفكك والانحلال .

اشبيلية مسرحا للصراع بين بنى حمود وسكانها

رأينا القاضى اسماعيل بن محمد بن اسماعيل يتولى خطة القضاء والامامة باشبيلية فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ الاندلس . وكان القاضى فضلا عن مكانته الدينية تلك ، ذا مكانة مالية فى المدينة ، اذ كان يعهد بأراضيه الكبيرة الى فلاحى اشبيلية ليزرعوها له ثم يقاسمونه المحصول ، وهو ما يعرف بنظام المشاركة . ومن الطبيعى أن يكون والحالة كذلك عين اعيان المدينة وكبير وجهائها ، وعندما عجز عن القيام بمهام القضاء لنزول الماء فى عينيه اقتصر على مشيخة البلد وتدبير الرأى (١)

ويبدو لنا أن ذلك قد تم فى طم ٤١٣هـ أو منتصف طم ٤١٤هـ / ١٠٢٣م . أثناء خلافة القاسم بن حمود الثانية ، اذ يذكر المؤرخون أن الخليفة القاسم عهد الى ابن القاضى اسماعيل : ابى القاسم محمد بتولى خطة القضاء ، ولم يكن هذا التقليد فى الحقيقة مستغربا أو مستكبرا . فقد كان لمحمد فضلا عن مكانة ابيه الدينية والبلدية والاجتماعية ، رصيد من العلم والفقہ والادب والمعرفة (٣) ما يجعل من تقليده أمرا متوقعا ، بل هو تحصيل حاصل . وبدأ من تلك اللحظة ارتباط قدر اشبيلية بآل عباد حتى طم : ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

أشرنا فيما سبق الى معاناة قرطبة مع حكمها من العامين فالأمويين فالحموديين لأكثر من مرة وتحملها هى كل تلك الظروف ، واشبيلية وغيرها من المدن بدرجة أقل . واذا كان لم يتح للأرستقراطية العربية ذات المكانة النافذة فى قرطبة أن تحزم رأيتها وأمرها نهائيا الا فى عام ٤٢٢هـ / ١٠٣١م ، فان الارستقراطية الاشبيلية فعلت ذلك فى طم ٤١٤هـ الذى نستطيع أن نعتبره نقطة تحول مضيئة فى تاريخ اشبيلية ومنى عباد على السواء .

- (١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٤١ ص ٣٦ .
- (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٩٤ .
- (٣) : الحميدى : المصدر السابق ، ص ٨٠ - ٨١ . - ابن بشكوال : المصدر السابق ، القسم لثانى ، ص ٥٢٣ . - النباهى : قضاة الاندلس المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص ٩٤ .

وفى واقع الأمر فان مقومات الدولة او المملكة المستقلة ، بمعنى أدق وجدت فى اشبيلية فى تلك الفترة . فاشبيلية أولا ليست حلبة الصراع الرئيسية بين بنى أمية وبنى حمود ، كما أنها فى الدرجة الثانية كانت تحت تدبير وادارة (قاضيها القديم الولاية ، ومطل الغرب قاطبة المتصل الرياسة فى الجماعة والفتنة)^(١) والذي استطاع ان يحكم سيطرته ونفوذه على اشبيلية منذ أن غادرها واليهما القاسم بن حمود طم ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ليتولى الخلافة فى قرطبة بعد مقتل اخيه كما اشرنا .

ولم تذكر المصادر الاندلسية وغيرها من تولى حكم المدينة بعد خروج القاسم منها طم ٤٠٨ هـ / ١٠١٨ م ليتولى الخلافة فى قرطبة حتى عام ٤١٢ هـ / ١٠٢٢ م ، وهى السنة التى خلع فيها القاسم لأول مرة ، وتوجهه الى اشبيلية ليدعو لنفسه فيها بالخلافة . غير أن هذه المصادر ذكرت بأن القاسم ولى عليها بعد عودته الى قرطبة ثانية طم ٤١٣ هـ / ١٠٢٣ م ابنه محمد ، ويساعده اخوه الحسن وحامية من البربر بقيادة محمد بن زبير .

واذا كانت المصادر لم تذكر من تولاهما من عام ٤٠٨ هـ حتى طم ٤١٢ هـ / ١٠١٨ - ١٠٢٢ م ، فاننا نستطيع أن نخمن أن السلطة الفعلية على الاقل كانت فى يد القاضى اسماعيل بن عماد الذى ضبطها احسن ضبط (وحسى مدينة اشبيلية من سطوة البربر النازلين حولها بالتدبير الصحيح والرأى الرجيح والنظر فى الامور السلطانية الى أن اتاه أجله سنة أربع عشرة وأربعمائة)^(٢)

واذا كان القاسم بن حمود قد ولى ابو القاسم بن القاضى اسماعيل القضاء فى اشبيلية بعد مرض أبيه ، فانه قد قدر له كفايته ومكانته ، وهى الامور التى مكنت له فى النهاية من تأسيس دولته فى وسط ذلك الكم الكبير من الزخم السياسى فى الاندلس . ولقد رأى القاضى بنظرة السياسى المحنك أن سلطان

(١) : ابن بسام ؟ المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٧ (نقلا عن ابن حيان) .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٤ (نقلا عن ابن حيان) .

بنى حمود لن يصد امام الاطصير الضاغطة آنذاك ، كما رأى أيضا توثب أهل
عاصمة الخلافة للانقضاض على بنى حمود المرة تلو المرة ، فشعر أن في ذلك
فرصته السانحة .

وإذا كان قد تعذر على والده الاستقلال باشبيلية في الفترة
من عام ٤٠٨ هـ حتى ٤١٢ هـ / ١٠١٨ - ١٠٢٢ م وهي فترة خلافة القاسم الأولى ،
فربما كان ذلك لاسباب شخصية ، او ربما لان الامر قد استقر بعض الشيء للخليفة
القاسم خلال تلك السنوات الاربع . نقول اذا كان ذلك لم يتم ، فان الوضع
كان على عكس ذلك في عهد القاضي محمد . فبالاضافة الى الانشاق المائلي
في اسرة آل حمود بظهور يحيى بن علي منافسا لعمه ومطالبها بالخلافة
دونها ، فان خلال القاضي وصفاته تختلف عن صفات أبيه فقد (كان القاضي
كما وصف زاخر العباب ، متألق الشهاب ، أذكى من قاش وقلد ، وأدهى
من اتهم واثجد ، يأخذ وكأنه يدع ، ويطير فيحسب أنه وقع)^(١) فمن الطبيعي
أن يعمل القاضي على الاستقلال باشبيلية ، فهو لم يكن أقل المنتزعين
المتغلبين على المدن شأنًا من جهة ، كما أن تعطيل ازدهار المدينة
وانهياك مواردها التي تذهب استعدادا للحرب والحصار ، لاتسمح بالتراخي
والتخاضى من جهة ثانية . فلعل القاضي فكر أنه قد يستطيع أن يحقق
لمد يئته ما تصبو اليه من استقلال وازدهار وشراء يبرز به مدينة قرطبة
وهو ما استطاع تحقيقه فعلا هو وابنه المعتضد وخفيده المعتمد بعد ذلك .

القضاء على نفوذ بنى حمود في المدينة :-

بعد أن سئم أهل قوطبة من حكم القاسم بن حمود عملوا
على خلع طاقه ، واستطاعوا تحقيق ذلك في سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٤ م كما ذكرنا
سابقا . ولذا فقد توجه القاسم الى اشبيلية للمرة الثانية عليه يستطيع
من هناك معاودة الكرة كما فعل في المرة الأولى مطمئنا هذه المرة من
أنه قد ترك ابنه واليا عليها تحت حماية البربر الذين تركهم هناك . وطلب من أهل
المدينة أن يخلوا له ألف وخمسمائة دار ليقطنها هو ومؤيدوه من البربر .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٩ - ١٠ (نقل عن
ابن حيان) .

وكان القاضي محمد قد دغدغ مشاعر قائد الحامية البربرية في المدينة محمد بن زيري ، عندما مناه بأن يكون له الامر فيها اذا ما ساعد أهلها على خلع طاعة القاسم وطرده هو وأولاده من المدينة . وكان القاضي في كل محاولاته هذه قد نسق جهوده مع اهل المدينة وخاصة ذوى الرأى والمشورة فيها . ولذلك فعندما ضمن الاشبيليون موقف قائد الحامية ، حاصروا محمد ابن القاسم وأخاه وجماعتهما من البربر في دار الامارة . ووقع القتل في صفوفهم ، ولم يستطع القاسم فعل اى شئ سوى ضربه الحصار على المدينة ، وأخيرا اقتنع بأن يرفع حصاره عنها مقابل أن يسلموا له أولاده وأموالهم ، فتم ذلك ، وتوجه القاسم وأولاده الى مدينة شريش^(١) .

وهكذا استطاع الاشبيليون رفع نير الحمود بين عن مد يدهم والاستقلال بها بفضل سياسة زعمائهم وعلى رأسهم القاضي محمد بن اسماعيل . ولسنا نرى في الحقيقة في مسألة استقلال القاضي بالمدينة أى أثر للخيانة التى أشار اليها المؤرخون القدامى كابن بسام مثلا الذى يقول (وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك ابيه اسماعيل ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة فخانه بخون الايام عند ابارها ايثارا للحزم وطلبا للعافية)^(٢) فكونه قد ادرك مصلحة بلاده وأنه لا يمكن لها التمتع بالاستقرار والهدوء والازدهار ، طالما ظلت في حكم الحمود بين المضطرب والمكروه في نفس الوقت . فان ذلك ليس دليل خيانة بل هو دليل ينم عن شعور وطنى محمود . صحيح أننا لانستطيع أن ننقل المطامع الشخصية للقاضي ، الا أننا نستطيع أن نعتبر موقفه ضريا من الوطنية لعب ورقتها لتصب في قناته هو أخيرا ، واذنا ما أخذنا في الاعتبار أن القاضي لم يكن يصدر في موقفه من فردية مطلقة ، اتضح لنا أن كل وصف يمكن أن يلصق بالقاضي الا الخيانة التى لاتخامر الاذهان الحموديين فقط .

وسنرى بعدئذ أن القاضي ومن معه كانوا محقين في خلع طاعة الحمود بين ليقودوا المدينة الى الطريق المشرق الذى خطه لها هو وعائلته من بعده .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٦ - ١٧ .

رجيب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

(٢) : ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد اعلاه ، ص ٧ .

دولة القاضي أبي القاسم محمد ٤١٤-٤٣٣هـ / ١٠٢٤-١٠٤٢م

مجلس الرئاسة في اشبيلية :-

تخلص الاشبيليون كما رأينا من القاسم وابنائهم وجماعته بعد تلك المشقة التي عرضنا لها ، وبدأت المدينة تتحس طريقها الى الهدوء والاستقرار . وكان لابد من وجود قيادة تدير شئون المدينة وتعيد لها ما أفسدته الحرب والحصار ، وكان أن عرض أهل المدينة على القاضي محمد بن اسماعيل كبير وجهائها وأغنى أغنيائها الذي كان يملك وحده ثلث أراضي اشبيلية وصاحب الفضل الأول في تخليص المدينة من بنى حمود أن يتولى حكمها .

ولم يفاجأ القاضي في حقيقة الأمر بهذا المطالب البتة ، فقد كان ذلك شيئاً طبيعياً . ولكن القاضي كسياسي مخنك يتقن من أحاييل السياسة والأعيابها الكثير أظهر التعفف والاباء ، غير أن القوم ألحوا في ذلك ، فوافق شريطة أن يشترك معه في حكم المدينة جماعة من أهل الرأي والمشورة والعلم ، وهؤلاء الرجال هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي مؤدب هشام المؤيد وصاحب كتاب العين في النحو ، ومحمد بن يريم اللهاني ، وأبو الاصبح عيسى بن حجاج الحضرمي ، وأبو محمد عبدالله بن علي الهوزني على خلاف بين المؤرخين في عددهم (١) .

وتولى هذا المجلس حكم اشبيلية ، وكان القاضي يتولى كما يبدو لها السلطة التنفيذية ، في حين كان أعضاء المجلس الآخرين يتولون معه السلطة التشريعية . ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب (فسار أمر أهل اشبيلية الى ثلاثة من أهلها أحدهم القاضي محمد بن عباد ، والثاني الفقيه ابو عبدالله الزبيدي ، والثالث الوزير ابو محمد عبدالله بن مريم ، فكانوا يحكمون في النهار في القصر ، وينفذون الكتب تحت ثلاثة خواتم)

(١) : ابن غزاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٥-١٦٠ . (نقلا عن ابن حبان) .
مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ويتعلق بأخبار دول ملوك الطوائف
بجزيرة الاندلس ، ص ٣١٤-٣١٥ . - عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ،
ص ١٤٨-١٤٩ . - ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٧٧ .

(١)
ويتصرفون احر النهار

وكانت تلك تجربة فريدة في حقيقة الامر في بلاد الاندلس لم يعتد اهلها على مثلها . والواقع اننا لا نستطيع ان نصف هذا الشكل من الحكم وصفا دقيقا ، فلا نعلم هل يمكن وصفه بالنظام الرئاسي الديمقراطي أم أنه ام كان مجلس مشورة ينفرد فيه القاضي ابن عباد بالسلطة التنفيذية ؟ . نكاد نتبين انه اقرب الى الى هذا النوع من الحكم الذي يتولى فيه القاضي السلطة التنفيذية دون زملائه من الاعضاء في المجلس ، ثم ما لبث ان استبد بالامر وحده (٢) . كما لا نعلم التاريخ المحدد الذي تولى فيه هذا المجلس الرئاسي الجماعي حكم المدينة ؟؟ ولكننا نحس انه قد تم عقب اخراج الحموديين عن المدينة ، كما اننا لا نعلم متى انتهت اعماله ايضا ؟؟ .

ويصعب علينا بالمناسبة قبول وجهه نظره دوزي ، ونشعر ازاءها بالتعجب من بساطة تفسيره لطلب اهل اشبيلية الى القاضي ان يتولى حكم المدينة . فهو يرى بأن (طامة اشبيلية) اتفقوا على ان يلقوا عهدهم مسؤولية الحكم على القاضي وحده . مستشعرين شعورا خفيا بدنو الساحة التي تصاد فيها ثروة القاضي الطائفة . وان القاضي ادرك الفاية التي رعى اليها (نبلاء اشبيلية واصحاب الرأي فيها) . ونلاحظ أنه قال قبل قليل (طامة اشبيلية) هم الذين طلبوا منه ذلك ، وان القاضي اظهر انه لا يستطيع ان يقبل هذا الامر الا اذا تولى معه الحكم هيئة شورية (٣) .

ونحن نستبعد هذا فالقاضي خرج من معركته ومعركة مسدينته كأقوى ما يكون ، ان التفت حوله قلوب سكان المدينة لموقفه الوطني ذلك . هذا من جهة ومن جهة اخرى لم تعجز بوادر حقد طبقي تسعى فيه طبقة العامة للانتقام من بني عباد وغيرهم من الارسطقراطيين ، ومن جهة ثالثة نتساءل : ممن تصادرت تلك الثروة الطائفة ؟؟ ومع هذا فيجوز ان يكون دوزي قد قصد انه نظرا لما سبق

-
- (١) : مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .
(٢) : J.B. Bury, M.A.F.B.A. : The CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, CAMBRIDGE - 1929 - VOLUME VI, P 393
(٣) : ملوك الطوائف ، ص ١٩ ، ص ٢٢ - ٢٥ .

أن ذكر عن ثراء القاضي محمد بن اسماعيل ، فمن المحتمل ان اهل اشبيلية تطلعوا اليه لما يملكه من حيث المكانة والثراء ليتولى امورهم ، وينفق على شؤون المدينة فسي هذه الفترة المضطربة من امواله الخاصة حتى تستقر الاحوال في مد ينتهم . وهذا ما لاحظته في الواقع J.B.BURY (١) ، وقد ما اشار الى انه بالنظر الى الثروة والجاه الذين كان يتمتع بهما القاضي ، فقد استطاع ان يحكم سيطرته على المدينة .

الموقف السياسي غداة الاستقلال :

لم يطرأ على الموقف السياسي في الاندلس غداة الاستقلال اي غداة .

استقلال اشبيلية تغيير كبير ، فالقوى السياسية التي كانت موجودة قبيل قيام دولة بني عباد كانت تمارس دورها ونفوذها فيما عدا القاسم بن حمود ، فقد طوته الاحداث تحت ابطى ابن اخيه ، وانتهى وجوده السياسي بالسجن لديه ثم قتله اخيرا . اما يحي نفسه فقد ارتد قبل خلع اهل قرطبة لعنه القاسم الى مدينة مالقة التي كان يتولاها عند وفاة ابيه بيد أنهم ^{أخذ} يشير القلائل والمضايقات من هناك .

اما قرطبة فقد اعاد اهلها الامر لبني امية ثانية . واما بقية القوى

السياسية الاخرى ، فقد كانت لاتزال تواصل تحقيق تطلعاتها الاقليمية ومن هؤلاء بني الافطس اصحاب بطليوس الذين انتظم امرهم بمؤسس دولتهم عبد الله بن محمد بن الافطس المعروف بابن مسلمة ، ان وطد كعظم مملكته بعد تخلصه من ابناء سابور المذكور سابقا ، فتلقب بالمنصور وعمل من ثم على توسيع رقعة دولته ، وغدا ابن الافطس خصما غيدا قويا لرؤساء الجزء الغربي من الجزيرة .

اما القوة التي كما قد آثرنا التحد شجعها حتى حينها فهي امارة قرمونة (٢)

البربرية المجاورة لمملكة اشبيلية . وتقع هذه الامارة بين امارة قرطبة شرقا ، ومملكة اشبيلية غربا في منحنى الوادي الكبير او نهر الوادي الكبير (٣) . وتشمل بالاضافة الى قرمونة (٤)

(١) : Op. Cit, VOLVI, P394

(٢) : انظر قبيل التمهيد ، ص ٤٤

(٣) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٤٨

(٤) : الوادي الكبير او نهر الوادي الكبير : Guadalquivir

هو النهر الذي تطل عليه قرطبة واشبيلية ويصب في المحيط الاطلسي ، ويعرف ايضا بنهر قرطبة ، وكان يعرف بنهر بيطي

وطوله الى المحيط ثلاثمائة وعشرة اميال .

انظر ، ابو عبيد البكري ، المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٥٨ . ابن غالب الاندلسي ، المصدر السابق ، ص ٣٩

العاصمة مدينة استجة الواقعة شرقها ، ومدينة أو حصن المدور الواقع في غربي قرطبة
على نهر الوادي الكبير . وقد أسس هذه الإمارة الحاجب محمد بن عبد الله البرزالي
زعيم بني برزال الزناتيين ، فلقد قدم هؤلاء البربر الزناتيين من المغرب إلى الأندلس
في عهد الخليفة الحكم . وقد تولى الحاجب محمد بن عبد الله هذا حكم قرمونة منذ
أيام الخليفة هشام المؤيد وحتى وقوع الفتنة .^(٢)

وعندما استأثر كل واحد من حكام الأقاليم والمغامرين بمقاطعاتهم ،
استأثر هو الآخر **نقص** الحاجب البرزالي بالمدينة . وكان له دور كبير في أحداث
تلك الفتن وحتى وفاته . وقد وهم ابن البرزالي بالانتهازية والوصولية وتزعزع الولاء بين
القوى السياسية حسب المكان المذى تكمن فيه مصلحته الخاصة .^(٣) وستبين بعد الدور
الذي مارسه في تلك الأحداث .

ولا شك أن هذا الموقف السياسي الشائك يستلزم قدرا كبيرا من الدهاء
والحنكة من القاضي ، وهو ما نجح فيه فعلا .
تكوين الجيش الرسمي للدولة :

لسنا على يقين واضح متى بدأ القاضي يفكر في تأسيس جيش له ولتلك الفتية
الوليدة حديثا غير أن مقتضى الأشياء ومنطق الأحداث يجعلنا نعتقد أن أول خطوة
يجب أن يصنعها القاضي لتثبيت سلطته هي : تكوين الجيش ولا سيما وأن الظروف
السياسية الدقيقة آنذاك يدعو لذلك وبسرعة . ولذا فأنا نعتقدهم دواعي القاضي
وهو يشكل جيشه غضا النظر عن الفئات المتعددة التي تكون منها ذلك الجيش ،
أن يبداً وإن الأهم إمامه هو تكوين جيش - كضرورة ملحة - يدافع عن الدولة ، أما

(١) : استجة *Eciza* واسمها القديم *Astigi* ، وتقع على نهر شنيل
وهي الآن مركز إداري في محافظة أشبيلية)

انظر ابن الشباط التوزري : وصف الأندلس قطعة من كتاب صلة السنين
وسمة المرط ، وهي قطعة في وصف الأندلس وصقلية ، تحقيق أحمد مختار
العبادي نشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد
الرابع عشر - ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، ج ٣ ، ص ١١٢ .

(٢) : يراجع في أخبار دولقني برزال بقرمونه :

- مجهول : نبد تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون
الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، ص ٤٤ - ابن
الخطيب : أعمال الإعلام ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الأول ، ص ١٢
(نقلا عن ابن حيان)

تلك الفئات فقد كانت خليطا من البربر والنصارى والعرب^(١)
وعندما نقول ان القاضى هو الذى اسس الجيش فاننا لا نملك الدليل لمعرفة
ما اذا كان ذلك قد تم بمشاركة المجلس؟؟ ام انه قد تم فى عهده بعد ان تخلص من
اعضاء المجلس وانفرد بالرياسة؟؟

الاعتراف بالسلطة الاسمية للخليفة يحيى بن على بن حمود : —

ما من شك فى ان السنوات الاولى لاستقلال اشبيلية كانت حرجة ودقيقة تستوجب
قدرا من الحيطة والحذر من القاضى محمد بن اسماعيل باعتباره رأس السلطة التنفيذية
بالمدينة . فكل دواعى المخاطر كانت تحيط بالدولة الناشئة ، فقد كانت هناك حامية
البربر بقيادة محمد بن زيور الذى كان القاضى قد مناصحكم المدينة كما ذكرنا سابقا ،
وكان هناك الخليفة القاسم بن حمود الذى لم يتم خطره بعد . ثم خطر الخليفة يحيى
بن على المائل . ونعتقد ان القاضى لم يلق كبير عناء بصدد التخليص من محمد
بن زيور فما لبث ان تخلى منه ، وفخرج (وصف اشبيلية من البرابرة)

اما المأزق الآخر فقد كان مع الخليفة المطرود القاسم بن حمود . فعندما
رفع القاسم حصاره عن المدينة توجه الى مدينة قرمونة حيث كانت طاعته لاتزال قائمة
مؤملا لتنظيم صفوفه وجمع قواه لمعاودة الكرة ربما مع القرطبيين او الاشبيليين . بيد ان
القاضى الذى يتقن من فن الاقتاع والاعراء الكثير اوحى لحاكمها الحاجب محمد بن عبد
الله البرزالي المذكور سابقا بأن يخلع طاعة القاسم ويستأثر بحكمها لنفسه . ووافق الحاجب
اقتناعا منه بخطر القاسم على سلطته ، وطمعا فى الاستئثار بها وحده كما كان الامر قبل قدوم
القاسم الى المدينة . وما زال البرزالي حتى اقع الخليفة القاسم بالخروج الى مدينة شريش^(٣) .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٦ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .
وهذا هو ما جرى عليه العرف منذ الفتح وحتى عصر ملوك الطوائف عند تكوين

الجيش فى الأندلس

(٢) : هذا هو تعبير المؤرخين القدامى دائما .

انظر ابن بسام ، المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص

١٦ - ١٧

(٣) : شريش هي قاعدة او عاصمة كورة شذونه ، وهي على مقربة من البحر ، ومدينة شذونة
كانت تعرف بمدينة ابن السليم ايضا وشذونة مركز ادارى حاليا فى مدينة بيرة قانس (الاسبانية)
على نحو ٤٠ كم الى شرقها .

انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤ ، ص ٣٣٣ ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

ونستطيع أن نقد فرحة القاضي وغطته من زوال خطر القاسم
إذا ما عرفنا بأن المسافة بين اشبيلية وقرمونة لا تزيد عن ثلاثين كيلو متراً فقط
كما اشرفنا ، وإذا ما عرفنا أيضاً بأنه ليس من السهل الاستخفاف بقوة القاسم
العسكرية والعنوية ، فإذا كان القاسم قد قبل مرغماً رفع حصاره عن اشبيلية ،
فانه قد اقدم على ذلك لأسباب طائفة فقط ، أما الآن فله حرية الحركة والتصرف
مدعماً من الحاجب البرزالي واليه على قرمونة . ولذا فقد كانت ضربة ناجحة
من القاضي عندما استمال الحاجب البرزالي ودفعه للثورة على خليفته وأخراجه
من المدينة .

على أن مأزقه الخطير كان مع الخليفة يحيى بن علي الذي استطاع أن
يهض على عمه القاسم ويلقى به في السجن ، فقد غدا بعدها الزعيم السياسي
للبربر ، والخليفة الشرعي الذي تحيط به صفوفهم في وجه الأندلسيين . فلقد
توجه يحيى بعد خلع طاعته عن قرطبة لأول مرة عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م إلى
مدينة مالقه التي كان يتولى حكمها قبل قيامه على عمه ، فاستقر بها . وعندما
ساء موقف القاسم بن حمود في قرطبة، خلعت طاعته ثانية ، وتوجه منها
إلى اشبيلية فصد عنها ، ثم انتهى الأمر باعتقاله لدى ابن أخيه يحيى ،
وأعاد أهل قرطبة الأمر ثانية لبني أمية كما ذكرنا سابقاً^(١) . ولكن طاعته
خلعت في عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م وأعيدت طاعة يحيى بن علي إلى قرطبة ثانية
دون أن يدخلها ، ثم خلعت طاعته ثانية في عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م فتوجه
إلى قرمونة معتمداً التوجه إلى قاعدته مالقه .

ولقد أدرك القاضي مغبة نزول يحيى بجواره وتحالف
الحاجب البرزالي المتقلب الولاء معه ، وخشى منهما على استقلال مدينته الهش .
وقد ظهر ما خشى منه القاضي فعلاً عندما ضربا حصارهما حول طاعته
ولم يكن أمام القاضي إلا أن يساوم يحيى إذا لم تكن له القدرة على مواجهته .
فاتفق رأيه ورأي أهل المدينة على أن يعترفوا بخلافة يحيى وسلطته
الاسمية شريطة عدم دخول البربر إلى المدينة . ووقع يحيى بذلك ، غير أنه

(١) : انظر قبل التمهيد ، ص ٢٢

اشتراط أن يعطوه رهاً من أبناء النافذين في المدينة ضماناً
لوفائهم بالشروط (فضن كل بولده ، واد القاضى قراهنه ابنه عباده ،
فانفرد بالتدبير واستولى على الامور) (١)

وهكذا فلم يتردد القاضى بالمغامرة بابنه ، واثبت أنه
خير من يعرف من أين توكل الكف . كما أن الخليفة يحيى قنع به هذا
ورضى به فهو رهن عظيم . ومن الطبيعى أن يعظم قدر القاضى فى نفوس
أهل المدينة ، وأن يكبروا فيه وطنيته الفائقة ، ونستبعد أن يكون أهل
اشبيلية قد عرضوا على يحيى تبعيتهم الاسمية خوفاً من هجوم القاسم
عليهم كما جاء فى كتاب (اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى) (٢) ، وذلك
لأن يحيى كان فى ذلك الوقت فى مدينة مالقة ، وأن الاعتراف بسلطته فى اشبيلية
لم يتم الا فى اثناء توليه الخلافة فى قرطبة للمرة الثانية طم ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ،
أو بعد خلع طائفة عنها التى تمت فى طم ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م . اذ يقول ابن بسام
عن القاضى محمد (ولا سلم لأحد بعد لواءها الى أن استوسق الأمر ليحيى
بن على الحمودى حسبما تقدم ، فاضطر أهل اشبيلية الى الانطغان لطائفة والدخول
فيها دخل فيه الناس من جماعته) (٣) .

وكيفما كان الأمر فان اشبيلية رضيت مؤقتاً بسلطة

الحموديين الاسمية على مضض .

التخلص من مجلس الرئاسة :-

يصعب علينا معرفة كم من الوقت والجهد احتاجهما القاضى
لتثبيت سلطته منفرداً . واذ كان قد استطاع أن يؤسس جيش المدينة ،
ثم يعترف بالسلطة للخليفة يحيى فانه قد كان يصدر فى ذلك عن موافقة
جماعية لخطوته . أما الآن فقد صفا له الأمر وليس أسهل عليه من التخلص من
نفوس أعضاء هذا المجلس . ويبدو أن ذلك قد تم بصورة تدريجية ، ومعنى
آخر يبدو أنه قد بدأ بأقلهم شأناً حتى انتهى باخطرتهم دون أن يلحق كبير غاء

- (١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٠ - ١١ .
- (٢) : صلاح خالص : (نقلا عن مخطوط أدباء مالقة لابن خميس) ، ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٣) : ابن بسام :- نفس المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١١ - ١٠ .
رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته ، وأجمع أهل عمله على طاعته ، فدانوا له ،
وسلك سيرة أصحاب الممالك بالاندلس لأول وقته ، وقام بايقظ جد وأصح عزمه
واخترع في الرياسة وجسوها تقدم فيها كثير منهم) (١)

ويأخذ عليه ابن حيان كما ينقله المؤرخون هذه السياسة
الانتهازية بأسلوب يمتزج فيه الانتقاد بالاعجاب الباطن (٢) . وقد شرع
القاضي فور تفرد به بالسلطة في تولية الوزارة لرجل من طمعة الناس لم يذكر
لنا المؤرخون عنه شيئاً سوى أن اسمه حبيب . وسنعرض قادمًا لما يعنيه
منصب الوزارة وما يشمله من أهمية . فتولى حبيب مساعدة القاضي - الملك
في تدبير شؤون الدولة وتصريف أمورها ، ولم يسلم هو الآخر من ذم المؤرخين
ومؤاخذاتهم (٣)

محاولة توسيع رقعة الدولة :-

صفت الأمور للقاضي الداهية وأصبح خالي البال من
مضايقات الحموديين وازعاج مجلس الرئاسة . وزادت غبطته كثيراً عندما
تحالف مع محمد بن عبدالله البرزالي حاكم قرمونة القريبة من اشبيلية كما أوضحنا .
الامر الذي اعطاه حرية الحركة والتصرف ، ولم يكن هذا التحالف أو هذا
التحول في موقف الحاجب مستغرباً . فاذا كان متقلب الولاء فلانه قد خشي
على ملكه المستقل من الخليفة يحيى بن علي الذي نزل عليه بقرمونة ، ويسبدو
أنه قد شعر بالراحة عندما غادر يحيى قرمونة الى مالقة قاعدته الاولى . ولذا فقد
تحالف مع القاضي الذي كانت تجمعه واياه مصلحة واحدة هي ابعاد الحموديين
عن مد ينتيهما .

(١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٦ - ١٩٧ . ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٧ - ١١ .

ابن الأبار : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٣٦ - ٣٨ .

(٣) : كابن بسام : المصدر السابق ، والقسم والمجلد اعلاه ، ص ١٠ - ١١ .

ولذا فقد سعى القاضى من فسوره الى توسيع رقعة مملكته ،
وتوجه ببصره الى النواحي الغربية من الاندلس ، اذ كانت مملكته تعتبر من
الناحية الجغرافية امتدادا لهذا الغرب . كما أن هذه المنطقة كانت تقع تحت
حوزة امراء ضفاف ، ولذا فقد سعى الى احتلال مدينة باجة^(١) التي كانت
تجاذبها الاهواء والاحسن العرقية بين البربر والعرب ، فسارع الى ارسال
الجيش لاحتلالها بقيادة ابنه اسماعيل الذى ولاه قيادة الجيش ومساعدة
حليفه محمد بن عبدالله البرزالي . غير أن عبدالله بن محمد بن مسلمة المعروف
بابن الافطس صاحب بطليوس والذى اشرنا سابقا الى أنه كان خصما عنيدا وندا
قويا لأمراء الجانب الغربى من الجزيرة ، لم يشأ أن تقترب حدود القاضى
ابن عباد منه لما يشكل ذلك من خطر على مملكته ، فسارع ومساعدة حاكم
مدينة مردلة الى تكوين جيش بقيادة ابنه محمد - الملقب بالمظفر فيما
بعد - ، وشقيق حاكم مردلة الى احتلال مدينة باجة ، وتم لهما ذلك
بالفعل .

وعندما قدم اسماعيل وحليفه ضيفا الحصار على المدينة ،
واشتبكا مع جيش ابن الافطس ، وتم لهما اخيرا تفريق شمل هذا الجيش
والقبض على محمد بن المنصور بن الافطس ، وكذلك قبض على شقيق حاكم مردلة .
وقد احتفظ الحاجب بابن الافطس أسيرا لديه فى قرمونة ، ثم اطلق سراحه
بعد عقد الهدنة بين القاضى وابن الافطس . أما شقيق حاكم مردلة
فقد سيق الى اشبيلية حيث قتل هناك^(٢) . ويبدو أن هذه المعركة

-
- (١) : باجه فى البرتغال الحالية وتسمى اليوم : بيجا Beja وهى قاعدة
مدينة ألينتيجو السفلى Baixo Alentejo ، وتقع على ١٤٠ كيلومترا
جنوب شرقى الاشبونة (لشبونة ، ليسبو) . وكانت فى التقسيم الادارى
الاندلسى كورة واسعة تشمل مدينة ألينتيجو السفلى الحالية فى البرتغال ،
وجزا من مدينة بطليوس وولبة Huelva فى اسبانيا الحالية .
انظر ابن ابار : الرحلة السيرة ، ج ١ ، ح ١ ، ص ٦٢ .
(٢) : ابن غدارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٢ . - ابن بسام : المصدر السابق ،
القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١١ - ١٢ .

قد حصلت طم ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ، إذ يشير ابن بسام الى هذا عند حديثه عن اطلاق سراح ابن الافطس على يد الحاجب محمد بن عبدالله البرزالي^(١) .

وقد استولى القاضي على مدينة باجة اخيراً عندما تنازل له عنها أميرها عميد الدولة محمد بن عيسى ، وكان والده الحاجب عيسى يلى حكم مدينة شلب و باجة منذ الفتنسة ، وعندما توفي طم ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م خلفه ابنه محمد هذا الذي تنازل كما قلنا للقاضي عن المدينة^(٢) . ودخلت باجة في عداد مدن المملكة الاشبيلية بعد ذلك حيث ولد فيها الممتمد بالله حفيد القاضي في حياة جده طم ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م^(٣) .

ولقد اعطت هذه الحملة نتائجها القسورية ، فقد علت مكانة القاضي وازدادت هيبتته ، وركن ابن الافطس الى الدعء والسكون مهيبض الجناح واهن الطرف .

(٤)
مغامرة الهجوم على ملكة ليون النصرانية :-

هدأ روع القاضي بعد عقد اتفاقية الهدنة مع ابن الافطس ، وكان قد ارتاح قبل ذلك بتحالفه مع الحاجب محمد بن عبدالله البرزالي أمير قرمونة واعترافه بالسلطة الاسمية للخليفة الحمودى يعينى بن على ، وغداً مطلق اليد فى مواصلة البناء الداخلى لدولته ، ولسنا على يقين من معرفة خطوات البناء الداخلى التى تمت ، ولكننا نفاجأ فى طم ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م بمغامرة عسكرية موجهة لأراضى ملكة ليون النصرانية ، فقد فكر القاضي فى مهاجمة ملكة ليون فى ذلك العام ، ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد آخر ملوكها من نسل بلاجيوس وسيتروس القوط ، وهو الملك برمودو الثالث ابن الفونسو الخامس^(٥) .

- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٢٠٣ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٢ - ١٣ .
(٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ .
(٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٥٩ . (نقلاً عن ابن اللبانه وابن زيدون)
(٤) : انظر قبل التمهيد ، ص ١٥١ .
(٥) : محمد عبدالله عنان : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

على ان هذه الحملة لم يكتب لها ان تحقق اغراض القاضى ،
فالطريق الى مملكة ليون لا بد ان يمر بأراضى مملكة بطليوس . ولم يخامر القاضى شك
فى ان ينقض ابن الافطس هدنته معه ، ولذلك فقد جهز جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل
وعبر به اراضى ابن الافطس الى تخوم مملكة ليون واوغل فيها .
ويبدو ان هذه الحملة كانت ذات هدف عسكري محدود هو
المناوشة فقط واظهار مدى ما تحقق للقاضى ابن عباد من قوة فى مملكته الحديثة العهد .
غير أن ابن الافطس نكث بعهده مع القاضى ، وكمن بجيش ابنه اسماعيل
بشعب ضيق ، ثم هاجمه . فوقع الاضطراب فى صفوف جيشه ، واضطر الى الفرار الى
مدينة اشبونة المطلقة على المحيط الاطلسى والتابعة لمملكة ابيه ، ووقع ابن الافطس
ونصارى ليون القتل فى صفوف جيش اسماعيل . ولكن اسماعيل استطاع ان ينجو بجلكه (١)
فهمل فكر القاضى فى مواصلة سياسة المنصور ابن لبي طمر الراية
الى مهاجمة ممالك النصارى والانتقال بالدولة الاسلامية من خطه الدفاع الى الهجوم؟؟
اننا افترضنا حسن الظن فأننا نقول ان شيئاً من هذا قد فكر فيه القاضى ، ومع هذا
فأننا ننظر الى هذه المغامرة على انها تنطوى على قصر نظر سياسى . فإذا كان الفرض
هو مهاجمة ممالك النصارى فهو تفكير ساذج ، فكيف يتسنى له ان يخطر بجيشه المكون
حديثاً الى ارض العدو البعيدة عنه والمتاخمة لحدود عدوه ملك بطليوس والذي لا تربطه
به سوى هدنة مؤقتة؟؟ . وعلى افتراض انه استطاع ان يحتل بعضاً من اراضيها ، فهمل
كان يقدر على تأمين حمايتها بعدئذ .؟؟ . وخلاصة الامران هذه ان كانت فاشلة ،
وكان من الممكن توفير الجهد الكبير الذى تم فى اعدادها للبناء الداخلى . ومع هذا
فربما كان القاضى يقصد بذلك مجرد الاشعار بقوته وللمناوشة فقط كما سبق ان وضعنا .
خلع طاعة الحمود بين وظهور الخليفة هشام من جديد :-

خلع القاضى محمد بن اسماعيل طاعة الخليفة يحيى بن على الاسمية
ولا نعرف على التحقيق متى وقع ذلك؟؟ . ولكننا نخمن انه قد حدث فى اواخر عام ١٥٤٦هـ /
١٠٣٥م بعد ان استطاع يحيى الاستيلاء على مدينة قرمونة من يد صاحبها محمد بن عبد
الله البرزالي الذى فر الى اشبيلية مستجيراً بالقاضى ح .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وفي بداية عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ م ودفعاً لمضايقات يحيى

ابن حمود وأملاً في زعزعة الخلافة الحمودية وضربها في جوهر مبرر تكوينها ووجودها ، ادعى القاضي محمد بن اسماعيل أنه قد سقط لديه خبر هشام الخليفة المختفى الذى اختلف في موته . فاستقدم من قلعة رباح^(١) رجلاً يدعى خلف الحصرى يشبه هشام المؤيد تماماً ، وكان يعمل فى صنع الحصر والخيزران . فطلب منه التوجه معه الى اشبيلية فى موقف مسرحى طريف للغاية^(٢) ، ودعى له هناك بالخلافة . وتقول رواية أخرى انه استقدمه من قرية تابعة لاشبيلية ودعى الناس الى طاعته ، وانه هو الخليفة هشام بعينه ، وطلب من أهل اشبيلية أن يشكروا الله تعالى على ما أكرم به مد ينتهم واستأثرها وحدها بفضيلة ظهور الخليفة الشرعى فيها . وأوقف شهوداً على باب خلف الحصرى فشهدوا بأن الخليفة عهد بحجج باهية باباه الى اسماعيل بن القاضي محمد . وعلى أثر ذلك طلب القاضي من الرؤساء والامراء فى الاندلس قبول دعوة الخليفة هشام والدخول فى طاعته^(٣) .

تلك هى خلاصة هذه القضية السياسية التى شغلت الفترة

الزمنية الممتدة من عام ٤٢٧هـ حتى عام ٤٣١هـ / ١٠٣٥ - ١٠٣٩ م ، ونشأت عنها نزول سياسية أخذت تتفاعل فى نطاق الصراع بين القوى السياسية المتناحرة فى الاندلس . وأدت الى مقتل الخليفة يحيى بن على ، ثم تكوين حلف بربرى صقلبي ضد القاضي ، ثم مهاجمة مملكة قرطبة ومقتل اسماعيل بن عباد قائد جيش اشبيلية .

-
- (١) : قلعة رباح (من عمل جيان ، وهى بين قرطبة وطليطله ، وهى مدينة حسنة ولها حصون حصينة ، وهى مدينة محدثة فى أيام بنى امية) .
الحميرى : الروض المعطار تحقيق أ . لافى برونفسال ، ص ١٦٣ .
 - (٢) : انظر ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ (نقلاً عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان المفقود) .
 - (٣) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ونفس الصفحات . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٩ - ١٠ .

وفى الحقيقة ان موضوع وفاة الخليفة هشام المتكررة من الموضوعات الغامضة فى التاريخ الاسلامى كله ، وهى قضية تركت معلقة تتجاذبها التفسيرات والتعليقات حتى الوقت الحاضر . ولقد رأينا فيما مر بنا أن ادعاء الخليفة محمد بن هشام المهدي بصدده وفاة هشام فى عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م هو محض اختلاق وتلفيق . وظهر ذلك واضحا عندما أعاد الخليفة هشام الى الظهور وادعى انه قائم دونه . وعندما قتل المهدي تولى الخلافة ثانية هشام المؤيد نفسه . وهو ما تأكد للجميع فى ذلك الوقت ، ومر بنا موقف سليمان المستعين بعد ما دخل قرطبة من الخليفة هشام وكيف طلب منه أن يخلع نفسه له ، وأوردنا الاقوال التى تناولت هذا الموضوع ، وأشرنا الى أن هناك من يقول ان سليمان المستعين أخفاه حينما تم قتله ، وهناك من يقول بل فر من مجبسه وقصد مدينة ألمرية وطش هناك فى برؤس وخمول حتى توفى (١) .

وعندما استطاع على بن حمود دخول قرطبة والقبض على سليمان المستعين بحجة أنه ولى عهد هشام وولى دمه أيضا ، لم يجد الخليفة حيا ، فدله على قبره فأخرجه منه ، وشهد امامه بأنه الخليفة هشام . وقد أوردنا نفى سليمان هو وأبوه أن هشاما قد قتل ، وانهما انكرا ذلك بشدة ، رغم أن عليا لم ير أثرا لسلاح فى جسد الرجل الذى أخرج من القبر فتوهم فيه الخنق ، ورأينا أيضا أن عليا عجل بقتلهم خوفا من تبديل الافكار حول هشام ووجوده حيا ، لأن ذلك ليس من مصلحته بتاتا (٢) .

ويبدو أن ابن الاثير يميل الى هذه الرواية ، فينفرد برواية تؤكد أن هشاما لم يقتل ، بل هو حى يرزق ، اذ يقول بأن عليا بن حمود وخيران العامرى عندما نبشا قبر الرجل المدفون على أنه الخليفة هشام ، أحضرا أحد فتيان المؤيد ، وعرضاه عليه . ففتشه هذا الفتى ، وفتش أسنانه ، لانه كان له سن سوداء كان يعرفها ذلك الفتى ، فأجمع هو وغيره على أنه المؤيد خوفا على أنفسهم من على بن حمود . فأخبرهما أى الفتى بأنه هو المؤيد نفسه . وكان ذلك الفتى يعلم أن المؤيد حى ، فأخذ على بن حمود سليمان فقتله . على أن هناك من يقول بأن سليمان اعترف لعلى بن حمود بأن ابنه

- (١) : انظر قبيل ، ص الترميز ٣٨٥٠
(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧ - ١١٩ ، ص ١٢١ -
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٨ - ٢٩ ،
ص ٢٨ - ٢٩ . ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي فى العصر الوسيط ،
القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، ص ٢ ، ص ٢٠٦ .
(٣) : الكامل فى التاريخ ، مجلد ٩ ، ص ٢٧١ .

(١)

محمدًا قد قتل هشام المؤيد فعلا .

فمنهما يكن فان من المحقق ان هشاما قد قتل على يد الخليفة

سليمان المستعين ، فالمتعين له مصلحة في اخفاء المؤيد عن المسرح السياسي . ذلك
ان وجوده سيثير أنصاره من الصقالبة والعرب . ويدفعهم الى مناصره ، لا لشيء
الا لمقاومة البربر وكسر شوكتهم ، كما ان وجوده وهو الخليفة الشرعي الذي توالى عليه
وعلى شخصه الرسمي الالهات من العامرين ومحمد المهدي . نقول ان وجوده
يؤثر على مركز سليمان و يجعله في نظر سكان الاندلس بمثابة مقتصد للعرش ،
وقد رأى ما حدث عند ما ترك المهدي الخليفة هشام حيا فقد اضطرب بعدها بشيء
يسير الى تكذيب نفسه . وكانت النتيجة ان قتل المهدي وأعيد هشام الى الخلافة
ثانية . فنحن نميل الى القول بأن سليمان المستعين قد قتله تخلصا من تأثيره
الروحي كخليفة شرعي ، أو على الأقل نصدق الشق الثاني من تلك الروايات التي تقول
بأنه قد فر من مجسه وقصد مدينة ألمرية أو غيرها حيث عاش في بؤس وخمول حتى توفي .

x x x x x x x x x x x x x x x x x

وكانما كتب على هذا الخليفة أن يكون رمزا غامضا في حياته

ومماته أيضا . فلقد عاش الفترة من عام ٣٦٦ هـ ، وهو العام الذي تولى فيه الخلافة
حتى عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م وهو العام الذي أجبره فيه عبد الرحمن ابن المنصور بتوليته
عهده ، عاش رمزا يحيطه الغموض وتلفه التخربات والاقاويل . ومن الطبيعي
أن تلفق حوله وحول شخصيته المحتجبة قسرا تلك الشائعات . ولم يكن حظّه مع
بنى عموشه بأحسن حال من العامريين ، فقد زادوا وضعه غموضا وتخربا .
ولذا فقد شاعت وزاعت حوله الروايات والاساطير ، فمن قائل انه قتل ، ومن قائل
انه فر وتوجه الى الشرق وعاش فيه مدة من الزمن . ثم عاد الى الاندلس فأنشروا
في قلوب الناس ، ومن روايات ينسجها نساء وخصيان في قصر الخلافة عنه ،
وانه حيا ، ومن قائل انه أخذ يعمل فترة من الزمن في قرطبة متخفيا . ثم رحل
الى المشرق وحج وعمل هناك ليكسب قوته ، ثم عاد الى الاندلس ودخل مدينة
ألمرية في ايام حاكمها زهير العامري . وذلك في عام ٤٢٦ هـ فتخوف منه
هذا فطرده ، الى قائل (ان زهير ذهب مذهبه في رجل سقاء شديد الشبه
بهشام فسموه زنا من سنة ٤٢٦ هـ ، ثم طرده زهير) الى قائل آخربأنه اختفى

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١١٧ .

مدة في مدينة مالقة وقت خلافة علي ابن حمود ، ثم فر الى المريجة فطرده زهير ، فتوجه الى قرية رباح التابعة لابن ذى النون ، الى ان استقدمه القاضي ابن عباد (٢) .

كل هذه الروايات على الرغم من عدم الاعتداد بها الا أنها

ترمز الى اهمية الخلافة في قلوب المعاصرين ، رغم أنها ممثلة في شخص هشام الرجل الضعيف والخليفة المغلوب على أمره . ومع هذا فقد كانت هذه الاقاويل والشائعات مركبا مستباحا تلوكه الألسن وتلهج به القلوب . غير أن من الراجح أن شيئا من هذا لم يحدث . فهل يعقل أن يكون هناك أربعة أشخاص يشبهون هشاما تمام الشبه ، ويزعم في حالة كل واحد منهم أنه الخليفة هشام بعينه ثم يتضح أنه ليس هو ؟؟ فالمهدى أظهر رجلا يهوديا أو نصرانيا شبيها بهشام تماما ، وادعى أنه هو الخليفة ، وأنه قد مات ميتة طبيعية (٢) ، والفتى الذي كان يخدم عند هشام المؤيد كما تقول رواية ابن الاثير السابقة أكد لعلي بن حمود أن الرجل الذي نبش قبره هو هشام بعينه وذلك خوفا من علي كما يزعم (٣) . وزهير العامري كما تقول رواية ابن الخطيب أظهر رجلا شديد الشبه بهشام فدعى له ثم طرده ، وأخيرا القاضي ابن عباد الذي جاء بخلف الحضري وكان هو الآخر شديد الشبه بهشام . فدعى له بالخلافة وأكد للجميع بأنه الخليفة هشام بعينه .

اننا نرجح بأن هشاما قد قتل على يد سليمان المستعين ،

أو أنه قد فر كما تقول الروايات وانتهى دوره تماما . وما زعمه ابن عباد وأظهره في صورة مسرحية طريفة لا تستحق أن يقف عندها الانسان طويلا . ولكن ما ينبغي أن نقف عنده طويلا هو عدد من الاسئلة المهمة التي تفرض نفسها فرضا منها : لماذا أظهر القاضي ابن عباد الدعوة للخليفة هشام المؤيد في ذلك الوقت بالذات ؟؟ . ولماذا انتظر طيلة تلك الفترة ابتداء من قيام المملوك حتى ذلك العام أي عام ٥٤٢٧ / ١٠٣٥ م ؟؟ . وما هي الفائدة التي جناها القاضي من تلك الدعوة ؟؟ .

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٦ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٧-١٩٨ .
 - (٢) : ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ٦ ، ص ٧٧ - ٧٨ ، ص ٨٣ .
و ص ٨٩ ، و ص ١٠١ ، و ص ١٠٥ .
 - (٣) : الكامل ، مجلد ٩ ، ص ٢٧ .
 - (٤) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ما من شك أن السبب الجوهرى الذى حدا بالقاضى الى اظهار دعوة الخليفة هشام هو رغبته فى دفع مضايقات يحيى بن على عنه ، وخاصة بعد أن استقر يحيى فى قرمونة القريبة جدا من اشبيلية . وما علة بعض المؤرخين القدامى لاسباب تلك الدعوة كان حقيقة لا مراد فيها ^(١) ، وان كنا نجد رواية لمبد الواحد المراكشى ^(٢) تفسر سبب دعوة ابن عباد تلك . وهى رواية لا يعتد بها ، بل انه يقول بأن الذى أظهر دعوة هشام هو المعتضد وليس والده القاضى محمد ابن اسماعيل ^(٣) . ومهما يكن فان يحيى غدا فى ذلك الوقت زعيم البربر ، غير ضازع ، والتقت حوله كل شهيم ضد الاندلسيين خاصة بعدما صفاه الجوبعد أن قبض على عمه القاسم وسجنه واستتب الأمر له هو وأخوه ادريس فى جنوى الاندلس .

أما لماذا انتظر ابن عباد طيلة تلك الفترة ؟ فلربما أن الظرف لم يكن يسمح له ، أو أنه لم يخطر له وقتذاك فكرة الدعوة لهشام المؤيد ، أو لأن الألسن لم تلهج بهشام وتتناقل شائعاته الا فى ذلك الوقت أى قبل عام ٤٢٧ هـ . وهو العام الذى أشرنا الى أن ابن عباد دعى فيه لهشام المؤيد .

(١) : ابن خلدون : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ ، و ص ١٩٧-١٩٨ .
ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٠٠ .
ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . - مجهول : ذيل
مضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٥ . - الضبى : المصدر السابق ،
ص ٣٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) : يقول عبد الواحد المراكشى : ان المعتضد خاف من اضطراب الامور فى اشبيلية ، واضطراب أهلها عندما سمعوا بظهور خلفاء أمويين فى قرطبة . فاستقبحوا بقاءهم بخير خليفة ، وأنه قد بلغه أن أهل اشبيلية طلبوا من أولاد بنى أمية أن يقيسوا أحدهم عندهم فادعى ما ادعاه .

أما ما جناه ابن عباد من تلك الدعوة فهو كثير حقا ،

فبادئ ذي بدء ، ستخرج هذه الدعوة الحمودية بين بالذات ، وستزعزع شرعية وجودهم كما قلنا ، فهم لم يتولوا الخلافة الا لأنهم أولياء عهد هشام وأولياء دمه أيضا . فاذا ظهر هشام حقيقة فان مبرر خلاتهم يكون قد انتهى ، وهو نقض لكل دعواهم في الخلافة ، فهي فعلا ضربة ناجحة جدا من القاضي هزت كيان الحموديين . ولسنا نتفق مع خالد الصوفي فيما ذهب اليه عندما أشار الى أن القاضي ابن عباد عمل (على الدعوة لأحد الأمويين لاضفاف دعوة يحيى بن حمود في الخلافة)^(١) . لسنا نتفق معه فقط من عدم دقته عندما لم يفرق بين تبني دعوة هشام بالذات ، وبين تبني دعوة أحد الامويين . فتبني دعوة أحد الأمويين لا يضير الخلافة الحمودية ، فلقد تبني أهل قرطبة من قبل دعوة هشام المعتد آخر خلفاء بني أمية ولم يضر ذلك الخلافة الحمودية . ولكن ما يهدد كيانها هو ظهور هشام نفسه صاحب الحق الشرعي من جديد الذي بلغ الحموديين الى ما بلغوا اليه بحجة أنهم ولاية عهده وطالبي ثأره . كما أننا بهذه المناسبة أيضا لانفق مع خالد الصوفي عندما خمن بأنه (عهد موت هشام المزعوم لن يكون له وريث يحل محله ، ويكون أحق الناس بذلك حاجبه ، فيصبح ابن عباد خليفه مكانه وينقل الخلافة الى مركزها الاساسي قرطبة)^(٢)

لانفق معه ان هل انقطع نسل بني أمية حتى يحل محله ابن عباد ؟؟ . ذلك من جهة ، ومن جهة أخرى الا يتذكر القاضي ^{لوانه قد} ~~دوس~~ عبدالرحمن بن المنصور القريب ؟؟ . نعتقد بأن خالد الصوفي استنتج بأن القاضي سيستغل وفاة هشام ، ويعلم ^{نفسه} اميرا على الاندلس لكان قد حاله الصواب .

وبعد هذا نحن نتفق مع خالد الصوفي وغيره من أن القاضي كانت تحذره آمال وأمانى دفعتة الى اظهار دعوة هشام وأهملها على الاطلاق

- (١) : تاريخ العرب في اسبانيا أو جمهورية بني جمهور ، ص ٧٠ .
 (٢) : نفس المرجع ، نفس الصفحة .

تأليب كتلة العرب والصقالبة ضد البربر والحموديين ، ودفع مكروه يحيى بالذات ، ثم رغبته في أن يكون صاحب النفوذ العريض في الاندلس كلها التي توخى أن تستجيب لدعوته ، وبالتالي تدفع عنه صفة التسلط والدكتاتورية وتجعله حاجبا للخليفة يأتمر بأمره وينفذ تعاليمه .^(١)

موقف رؤساء وأمراء الاندلس من دعوة الخليفة هشام :-

تباينت مواقف رؤساء الاندلس حسب انتماءاتهم العرقية والسياسية من دعوة الخليفة هشام ، فمن الطبيعي أن يقبل هذه الدعوة الامراء العرب والامراء الصقالبة المجاورون لمملكة اشبيلية . كعبدالمزيز ابن ابي عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد العامري صاحب دانية ، ومقاتل الصقلبي صاحب طرطوشه ، ومحمد بن عبد الله البرزالي أمير قرمونة المطرود والمستجير بالقاضي وغيرهم .^(٢)

أما المعارضون فمن الطبيعي أن يكون أغلبهم من البربر وعلى رأسهم يحيى بن على ، ثم جوس بن ماكسن بن زيري صاحب غرناطة على عكس ما يراه ابن خيمس صاحب مخطوطة أدباء مالقة^(٣) . أما ما يلفت النظر حقا فهو موقف زهير العامري الصقلبي المؤيد لفريق البربر الذي يبدو أن معارضته نابعة ربما من عداوة وحسد شخصي للقاضي .^(٤)

أما بالنسبة للممالك الأخرى الكبيرة كمملكة سرقسطة وطليلة وطليةوس فان المؤرخين القدامى لم يعنوا بإيضاح موقفهم وان كنا

(١) : خالد الصوفي : المرجع السابق ص ٧٠ - على أد هم : المعتمد ابن عباد ،

ص ٤٨ - ٥٠ - صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ،

ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) : ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٠ .

(٣) : صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٤) : ابن غداري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

نلمس أن موقف ابن ندى النعمون صاحب طليطلة كان مائعا فلانديري ان كان قد قبلها أم لا ؟؟ . أما ابن الاطس صاحب بطليوس فمن الطبيعي أن يعارض هذه الدعوة خاصة وأن العلاقات بينه وبين القاضي كانت سيئة للغاية منذ الفائه للهدنة وموقفه من غزو بلاد النصارى . أما موقف الرئيس ابو الحزم ابن جهور صاحب قرطبة فيحتاج الى وقفة معه . فعندما ظهرت هذه الدعوة وبدأت مضاعفاتها تتفاعل في الجزء الجنوبي من الاندلس رأى ابن جهور فيها خطة مأكرة محكمة من القاضي لبيسط سيطرته على الاندلس كلها ، ولذا فقد أنكرها في قرارة نفسه ، بيد أنه أمام الحواس الشمبي الذي عم الاندلس كلها وقرطبة بصفة خاصة بقبول مسألة ظهور الخليفة هشام من جديد ، نظرا لما سبقها من شائعات وأقاويل لاقتها الألسن . رأى أن يقبل هذه الدعوة ، وفي نفس الوقت رآها مجددة لوقفه (لما رآه من دفع ابن حمود الفاعرفاه على قرطبة^(١)) ولذا فقد قبل هذه الدعوة وجدد البيعة لهشام بقرطبة وكتب خطاب البيعة له ، وأرسله الى الخليفة وحاجبه اسماعيل بن عباد باشبيلية . بل جرى احتفال رسمي في جامع قرطبة بمناسبة الدعوة للخليفة الشرعي^(٢) .

غير أن ما حدث بعد ذلك بقليل ، أعنى به مقتل

الخليفة يحيى بن علي في محرم عام ٥٤٢٧هـ / نوفمبر ١٠٣٥م ، والذى سنعرض له بعد هذه السطور بقليل ، جعل ابن جهور يتحليل من تلك الدعوة ويسب صاحبها ومن دعى له . وستتبين بعد قليل رد فعله والقاضي تجاه ابن جهور وما حدث بعد ذلك من أحداث .

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٩ ، و ص ١٩٨-١٩٩ .
- ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٠ .
(٢) : صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٢٢ .
خالد الصوفي : المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .

مقتل الخليفة يحيى بن علي الحمودي :-

نميل بادئ ذي بدء الى القول بأن طرد محمد بن عبدالله البرزالي عن قرمونة قد حدث قبل ٤٢٧ هـ ، وهو العام الذي دخل فيه القاضي لهشام كما ذكرنا . ان يشير تسلسل الاحداث الى أن يحيى بن حمود قد استولى على مدينة قرمونة قبل ذلك العام ربما لكي يكون قريبا من اشبيلية وقرطبة ، ففر منها واليهما محمد بن عبدالله البرزالي هذا الى اشبيلية مستجيرا بالقاضي .

ولا نعريف بالضبط متى حدث ذلك ؟؟ ولكن عندما اظهر القاضي دعوة هشام في اواخر طم ٤٢٦ هـ أو في أوائل محرم ٤٢٧ هـ / نوفمبر ١٠٣٥ م قبل البرزالي دعوته . وكان ذلك شيئا طبيعيا على عكس ما ذهب اليه صلاح خالص من أن يحيى بن علي استولى على قرمونة بعد اعتراف صاحبها بدعوة هشام (!) . ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو ما نقله ابن عذاري وابن بسام عن ابن حيان ان قالوا : (قال حيان بن خلف حكى لي القتيبي البرزالي قال لما كان عيد أضحى سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وانفمس يحيى في شربه ولهوه ، سرت ومعى أحد من بنى عسى الى اللحقاش باشبيلية للاجتماع بابن عينا محمد بن عبدالله البرزالي ، والقاضي ابن عباد ، فوصلنا وأنبأنا هما من خبر يحيى بن حمود ولهوه ، فرأيا ان يوجها اليه بجيش لقتاله ، فخرج اسماعيل بن عباد مع ابن عينا في المحرم من سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وهما في بيعة هشام بن الحكم المنصوب عندها باشبيلية تلك الايام . فجتنا الى باب قرمونة بالجيش ١٠٠٠ الخ) (٢) .

-
- (١) : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٢٣ .
(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . ابن بسام :
المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

وقد تلاحقت الاحداث سراها ، فقد جاء اسماعيل بجيشه
مع البرزالي امير قرمونة المطرود وقتها ، واستطاع بفضل الخدعة العسكرية
القديمة الجديدة وهي طريقة الكائن أن يقتلا يحيى بن علي . وحمل
رأسه الى القاضي في اشبيلية ، وعاد محمد البرزالي الى مدينة قرمونة
مرة ثانية^(١).

تكوين الحلف البربري الصقلبي ضد القاضي :-

وفي شعبان من نفس عام ٤٢٧ هـ تكون حلف بربري صقلبي
بقيادة جوس بن ماكسن بن زيري الصنهاجي ، وعضوية كل من زهير الصقلبي
حاكم المرية ، ومحمد بن عبد الله البرزالي الذي نقض بيعة هشام بعد
استتباب الامر له في قرمونة . وشن هذا الحلف سلسلة من الغارات
والحملات غير المجدية على اراضي القاضي ، وقد اعترف هؤلاء الرؤساء
بخلافة ادريس بن علي بن حمود شقيق يحيى الذي خلفه في تولي
الخلافة في قاعدته مالقة^(٢) . على أن هذا الحلف لم يترك كبير اثر على
مملكة اشبيلية كما ذكرنا .

نقض ابن جمهور دعوة هشام المؤيد :-

أشرنا الى أن ابن جمهور تحلل من بيعة هشام المزعوم
بعد أن أزاح مقتل يحيى عن كاهله حملا ثقيلا . وبعد أن جاءت شهادات
الشهود الذين ذهبوا من قرطبة للثبوت من هشام المزعوم تؤكد على أن ذلك
المنسوب باشبيلية هو رجل دعوى ، وليس هو المؤيد هشام على الاطلاق ،
ولذلك فقد تبرأ منه ومن بيعته .

- (١) : ابن غزاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . - ابن بسام :
المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ . -
رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ١٠٩ - ١١٥ .
(٢) : ابن غزاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٥ .

وعندما بعث اسماعيل بن عباد حاجب الخليفة هشام المزعوم برسالة الى ابن جهور يدعو الى طاعته على أن يبقيه على ما هو عليه من حكم قرطبة ، استغل ابن جهور ذلك فأعلن تبرأه من ذلك الرجل وسبه وسب من دعى^(١) له . ومن الطبيعي أن يكون رد فعل القاضي عنيفا ، إذ كان يهيمه قبل أي شيء آخر قبول قرطبة طصمة الخلافة القديمة والمركز الروحي الذي تهفو اليه القلوب تلك الدعوة . ولذا فقد جهز جيشا بقيادة ابنه اسماعيل ومعه هشام المزعوم ليدخل به قرطبة ، وضرب اسماعيل حصاره حول المدينة وضايقها مضايقة شديدة . وقد حرك هذا الأمر شعور باديس بن جوس الصنهاجي الذي تولى حكم غرناطة مكان أبيه جوس ، فأرسل جيشا ضخما قابل به اسماعيل . وكان جيش اسماعيل يحوى عددا كبيرا من البربر الذين سرعان ما ظهر تضامنهم مع بني عصبتهم . وقد فت ذلك في عهد اسماعيل ، ولم يبق معه الا عدد يسير من عبيده وفتيانه ، ووقع السيف في صفوف جيشه وانتهت الموقعة بمقتل اسماعيل ابن عباد بعد أن كبا به فرسه داخل هوة ، وحمل رأسه الى باديس بن جوس . وقد وقع هذا الخبر من القاضي موقع الصاعقة ، فولى ابنه الثاني أبا عمرو عباد حجابة باب الخليفة هشام^(٢) .

-
- (١) : ابن غزاري : المصدر السابق والجزء ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، و ص ٢٠٠ - ٢٠١ . ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٠ . ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٣ .
- (٢) : ابن غزاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

وهناك رواية أخرى لعبد الواحد المراكشي فيما يتعلق
بمقتل اسماعيل تنص على أن مقتله كان نتيجة لتحالف زعماء البربر عليه ،
وهم محمد بن عبد الله البرزالي ، وساديس بن حبوس ، وادريس بن علي بن
حمود . وذلك بعد أن هاجم اسماعيل أراضي البرزالي (١) ولكن يبدو
أن الرواية الأولى أصح وأصوب .

وفاة القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل :-

وفي عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م (٢) توفي القاضي محمد بن اسماعيل
بعد أن وضع لبنات بناء الدولة . وكان بحق مؤسس المملكة العبادية
وسانى مجدها السياسى والعسكرى والادبى أيضا . واذا كانت الظروف
السياسية لم تسعفه بالالتفات الى بناء الدولة الحضارية ، فقد تولى
ابنه المعتضد وخفيده المعتمد فعل ذلك . وقد ترك القاضي من
بعده دولة راسخة الاستقلال قوية البنيان لا ينقصها الا المسحة
الحضارية ، وهو ما وفره لها خلفاءه بعد ذلك كما ذكرنا .

(١) : المصدر السابق ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ، ص ٢١٦ .

ابن الابار : رحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٨ . ابن خلدون :

المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٧ .

والغريب أن ابن عذارى ناقض نفسه ، فهو يقول فى ص ٢٠٣ أن القاضي

توفى عام ٤٣١ هـ ، بينما يقول فى ص ٢٠٤ أنه توفى عام ٤٣٣ هـ . أما

صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب فيقول أنه توفى عام ٤٣١ هـ أيضا .

غير أن ابن الابار وابن عذارى نفسه وابن خلدون يتفقون على أنه توفى

عام ٤٣٣ هـ .

الباب الثاني

الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله

- - تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه
- - الموقف السياسي غداة تولي المعتضد السلطة
- - التوسع العسكري على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة
- - انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه
- - توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموي المزعوم
- - التوسع العسكري على حساب امارات البربر في الجنوب
- - نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله
- - حياة المعتضد الخاصة ووفاته

تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه

توفى القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل عام ٤٣٣ هـ /

١٠٤٢ م كما ذكرنا سابقا ، فخلفه ابنه عباد الذى تولى حجابة باب الخليفة هشام المزعوم بعد مقتل اخيه اسماعيل فى عهد أبيه . وقد بدأت ولايته منذ اليوم الذى توفى فيه أبوه فى نهاية جمادى الاولى من نفس العام الذى ذكرناه . وكانت سنة لما تولى الحكم لا تتجاوز السادسة والعشرين بعد . وقد تلقب فى بادئ الامر بفخر الدولة ثم تلقب بالمعتضد بالله .

ولقد دمثت شخصيته بكثير من الأوصاف والنعوت .

ولم يحظ ملك من ملوك الطوائف بمثل ما حظى به المعتضد من انتقادات المؤرخين ، واشاداتهم وثنائهم عليه فى نفس الوقت . فمعظم هؤلاء المؤرخين كالوا للمعتضد من مر السدم والنقد مثلما كالوا له من حلو الاشادة والثناء . فهم من جهة يستفظمون قسوته وشدته وجبروته حتى لنكاد نشكك فى انسانيته ، وهم من جهة أخرى يشيدون به ويثنون عليه لدرجة الاعجاب به . فيصفه ابن حيان فيما نقل عنه (١) شهاب الفتنه صاحب الحوادث الفظيعة الشنيعة ، والوقائع المبيرة) ، ويذم سياسته فيقول (وجاء منها عيولات تدع من سمع بها ، فضلا عن طينها) .

على أن ابن حيان باحساس المؤرخ الموضوعى التنزيه

لا ينساق فى تصديق ما أشيع عن المعتضد . إذ يبدى شكه فى ذلك ما لم يقم عليه الدليل ، ثم يشخص الحالة بدقة ، فيقول عنه فيما ينقله ابن الأبار (فلقد حمل عنه على مر الأيام فى باب فرط القسوة وتجاوز الحدود والابلاغ فى المشقة ، والاخذ بالظنة ، والاخفاف للذمة حكايات شنيعة لم يبد فى أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها . فالقول ينشاع فى ذكرها ، ومهما برئ من منبتها ، فلم يبرأ من فظاظة السطوة وشددة القسوة وسوء الاتهام على الطاعة ، سجايا من جبلته لم يحاش فيهن ذوى رحم ، ولا غلبهن بحيلة) (٢) .

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٦ .

(٢) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤١ .

والحجاري صاحب كتاب المسهب كما ينقل عنه صاحب كتاب
نفوس الوفيات^(١) يقول (وهذا الرؤوف العطفوف الدم في الاخلاق الألوفا ، ما مات
حتى قبض أرواح ندمائه وخواصه بيده ولم يكلمهم الى غيره ولم يحوجهم الى أحد
بعده . فجزى عنهم بما هو أهله . وقد عرف منه ذلك واشتهر . فسار
الادباء يحاشونه . ومن شنيع ما روى عنه أن غلاما دون البلوغ دخل عليه
من غير استئذان ، فقطع رأسه . فسمع جارية تقول : والله القبر أحسن من
سكنى هذا القصر فقال : والله لأبلفنك ما طلبتبه . فأمر بها فدقنت
حية) .

وابن اللبانة المذكور سابقا وشاعر ابنه المعتمد فيما بعد
يقول عنه فيما ينقله المقرئ : (ولقد حكى عنه من أوصاف التجبر ما ينبغى
أن تصان عنه الاسماع ولا يتعرض له بتصريح ولا الماع^(٢))

- (١) : ابن شاکر الکلبی ، ج ٢ ، ترجمة رقم ١٧٤ (كما ينقل عن الحجاري) .
والحجاري هو : ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الحجاري . وهو أديب أندلسي
ظفر في القرن السادس الهجري ، ووفد في عام ٥٣٠ هـ على عبدالملك بن سعيد
صاحب قلعة بنى سعيد القرية من غرناطة والتي كان يليها من قبل المرابطين .
فأكرمه وقربه . ثم صنف له كتاب (المسهب في غرائب المغرب) . وقد أعجب
ابن سعيد بهذا الكتاب كثيرا ، ثم عمن له أن يضيف للكتاب ما أعتقه الحجاري ، وأن
يحذف ويختصر ما لم يوافق غرضه . وكان هذا الخاطر هو بداية ذلك الجهد
الرائع الذي بذله ابناء ابن سعيد الذين تناولوا تصنيف المسهب بالاضافة والزيادة
ورأته على مدى ١٥٠ عاما . وجاء آخر هؤلاء : وهو على بن موسى بن سعيد فوضع
الشكل النهائي لذلك الكتاب بعنوان المغرب في حلى المغرب . وهو على ثلاثة أقسام ،
يتعلق القسم الاول منه بمصر والثاني بالمغرب والثالث بالاندلس . وهذا القسم الاخير
هو المعروف بكتاب وشى الطرس في حلى جزيرة الاندلس .
وللاطلاع على معلومات وافرة عن هذا الكتاب ومؤلفيه أنظر :
المغرب في حلى المغرب (وشى الطرس في حلى جزيرة الاندلس) ج ١ ، ص ٩٠ .
(٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

أما ابن بسام فقد ذم المعتضد بقسوة بالفة عندما قال
(قطب رحي الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة من رجل لم يثبت له من قائم ولا حصيد ،
ولا سلم له قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فسرس
الطللي وهو رابض مشهور تتحاماه الدهاة ولا تأمنه الكماة • تعسف اهتدى ،
ومنبت قطع فما ابقى ، شار والناس حرب وكل شيء عليه الب فكفى أقرانه
وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم وقاعد ، حتى طالت يده واتسع بلكه
وكثر عد يده وعدده • افتتح امره بمقتل وزير أبيه حبيب طمنه في ثغر
الايام ملك بها كفه ، وجبار من جبابر الانام شرد بها من خلفه ، فاستمر
يفسري ويخلق ، واخذ يجمع ويفرق ، له في كل ناحية ميدان وعلى كل رابية
خوان ،^(٢) حربه سم لا ييطئ وسهم لا يخطئ ، سلمه شر غير مأمون
ومتاع الى ادنى حين)^(٤)

أما الحادثة التي استفظعها المؤرخون كثيرا - وحق لهم ذلك
فهى حادثة حديقة الرؤوس ، فقد وضع على باب قصره (حديقة لاثمر الا رؤوسا
ولا تثبت الا رؤيسا ومرؤوسا ، فكان نظره اليها أشهى مقترحاته ، وفى التلفت
اليها استعمل جل بكره وروحائه)^(٥)

-
- (١) : الطللي : الاعناق • ومفردها الطل بالضم العنق •
انظر ، الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، أربعة أجزاء ، ج ٤ ، ص ٨ •
(٢) : (هذا مثل معناه ينفذ ما يعزم عليه ، وهو من قول زهير " ابن ابى سلمى " :
ولا انت تفسرى ما خلفت ومعضض القوم يخلق ثم لا يفسرى)
انظر ، ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ،
ج ٢ ، ص ١٥ •
(٣) : خوان (كتاب ما يؤكل عليه الطعام) •
انظر ، الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ •
(٤) : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٥ •
(٥) : المقبرى : المصدر السابق ، المجلد ٥ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ •

وأضافة الى هذا الولاء الغريب فقد كان يحتفظ بخزانة أودع
جوفها في قصره رؤوس أعدائه المناوئين له الذين استطاع قتلهم في صراع معهم
وهم محمد بن عبد الله البرزالي ، وابن خزرون ، وابن نوح ، وابن ابي قرة
وغيرهم . - وسوف نعرض لظروف مقتل هؤلاء بالتفصيل بعد ان شاء الله .
وقد اضاف هذه الرؤوس الى رأس الخليفة يحيى بن علي الذي قتل في عهد ابيه
القاضي . فقد استشعر لذة عظيمة عندما جمع رؤوس هؤلاء وأودعها تلك
الخزانة في قصره (فخص رؤوسهم بالصون والبخ في تطيبها وتنظيفها
للسوء لا للكرامة ، وأودعها المعادن الحافظة لها . فبقيت غده ثاوية
تجيب سائلها اعتبارا) (١)

وكان اذا ما أعوزته القسوة والبطش يستعين بالحيطة
والخداع في تنفيذ مآربه وأهدافه ، وقد أورد عبد الواحد المراكشي قصتين
تدلان على شديده دهائه وذكائه (٢)

واذا كانت القصة الاولى ليست جديدة في عالم التصفية والاعتقال (٣)
فان القصة الاخرى تمت على صورة تحوي الجدة والطرافة معا . فلقد أراد أن
يبحث برسالة مهمة جدا لأحد جواسيسه في مدينة قرمونة . ولما كان يخاف
أن تقع في يد أعدائه ، رأى أن يبحثها مع رجل بدوي من بادية اشبيلية .
فدس الرسالة داخل ثوب وخط عليه ، ثم كساه البدوي وأمره أن يذهب
الى قرمونة وزوده بكومة من الحطب ، أكد عليه أن يبيعها لمن يشتريها
منه بخمس دراهم فقط . وكان قد نسق ذلك مع تابع له في قرمونة . وعندما

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٥٣ ، و ص ١٥٤ - ١٥٦ .

(٣) : هذه القصة تدور حول رجل من اهل اشبيلية فر الى مكة المكرمة بعدما
صادر المحتضد أمواله . وظل هناك يدعو عليه . وحين بلغه
ذلك أرسل له مع رجل أراد الحج نقودا مسمومة . وبالرغم من أن الرجل
توجس خيفة من ذلك فقد تسلّم النقود . وما لبث أن سرى السم في
جسمه فمات . وتخلص من منائى آخر له كذلك بنفس الطريقة ، فعمل
على قتله حتى تمكن من ذلك وحمل رأسه اليه من مكان منفاه .
انظر ، المعجب ، ص ١٥٣ .

جاء البدوي الى قرمونة ليبيع حطبه ، جاءه عين ابن عباد
فاشترى منه حزمة الحطب بنفس المبلغ المتفق عليه . ثم أخذ البدوي الى منزله
وهناك أشار عليه بخلع ثيابه للتهيؤ للنوم ، وعندما حصل هذه الثوب
أخرج رسالة ابن عباد ووضع مكانها رده عليها بنفس الطريقة السابقة . وعند
الصباح غادر البدوي قرمونة متجهها الى اشبيلية . وقصد المعتضد من
فوره وأبلغه ما حدث . فأمره بخلع ثيابه فأخرج منها الكتاب وعلم ما فيه ،
ثم خلع على البدوي ثيابا حسنة وصرفه بعد أن أوهمه بأن ذلك الخلع هو
تكريما له . ويعلق عبدالواحد المراكشي على ذلك بقوله (وخرج من غده فرحا
يرى أنه قد خلع عليه ، ولم يعلم فيم ذهب ولا بما جاءه)^(١)

على أنه حظى بكثير من الاشادة والثناء والاعجاب ،
فينقل ابن بسام عن ابن حيان وصفه له بالشهم صاحب الهمم العليق والسطوة
الابية^(٢) . وفي موضع آخر يشيد ابن حيان بسياسته فيقول فيما ينقله عنه
ابن بسام ايضا^(٣) (واتخذ الرجال الذادة تنقاهم من كل فرقة ، فساس
طبقاتهم ما بين ادرار الأعطية وضمنان الزيادة على صدق الصيال . والوفاء
بالوعيد على النكول عن العدو . سياسة أعييت على أنداده من أملاك
الاندلس ، فخرج منها رجالا مساعير حروب أباد بهم أقتاله)^(٤)

(٥) ويعود ابن حيان فيما ينقله ابن بسام فيشيد بسياسته
ويقول (ومن نادر أخباره المتناهية في الغرابة أن نال بغيته وأهلك تلك
الامم العاتية وأنه لغائب عن مشاهدتها مترفه عن مكابدها مدبر فوق
أريكنه ، منفذ لحيلها من جوف قصره ، ما مشى الى عدو أو مغلوب من

-
- (١) : نفس المصدر ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .
 - (٢) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٦ .
 - (٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ، ص ١٧ .
 - (٤) : اقتاله ، جمع قتل بالكسر . وهو العدو والمقاتل .
 - انظر الفيروزبادي : القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٣٦ .
 - (٥) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٧ .

من أقتاله غير مرة أو اثنتين ، ثم لزم عريسته ^(١) ، يدبر داخلها اموره • جرد
نهاره للابرام والتدبير واخلص ليله لتملى السرور ، فلا يزال تدار عليه
كغوس الراح ويحيها عليها بقبض الارواح التي لأنابيها من اعدائه ^(٢) •

وينقل ابن بسام عن ابن حيان ايضا مزيدا من اعجابه به فيصفه
بسباطة البنان أو البنيان ، وثقوب الذهن ، وحضور خاطر ^(٣) ، ولا يعمل
ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام كذلك من الاشادة والاعجاب بالمعتضد
ان يمود فيقول (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كصف
باربها السحاب) ^(٤) •

وابن بسام على تحامله عليه لا ينكر عليه دهائه وذكائه
فيقول عنه (شار والناس حرب وكل شئ عليه الب فكفى اقارنه وهم غير واحد
وضبط شأنهم بين قائم وقاعد حتى طالت يده واتسع بلكه وكثر عد يده وعدده) •

(١) : (العريسة : مأوى الأسد) •

انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ،

ج ٤ ، ص ١٧

(٢) : هكذا وردت في الذخيرة غير أن الاصح هو ما نقله ابن عذاري في كتابه المذكور سابقا

ج ٣ ، ص ٢٠٥ : وهي كالاتى : ويحيا عليها بقبض الارواح التي لا تناسيه

كذا ! من اعدائه •

(٣) : نفس المصدر السابق والقسم والمجلد ٤ ، ص ١٩ •

(٤) : نفس المصدر والقسم والمجلد ٥ ، ص ١٥ •

(١) وينقل ابن عذارى عن ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان ما يتضمن الاشادة به والثناء عليه (٢) وكذلك فصل الحميدى (٣) وعلى نفس النهج صار الضبى (٤) ومدحه ايضا الفتح ابن خاقان باسلوبه المتكلف المسجوع (٥)

وأخيرا نقول مع عبد الواحد المراكشى (وجملة أمر هذا الرجل أنه كان اوحده عصره شهامة وصراحة وشجاعة قلب وجدة نفس • وكانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بئى العباس • وكان قد استوى فى مخافته ومهابته القريب والبعيد •) (٦)

(١) : ابن القطان : هو ابو على او ابو محمد كما فى بعض الروايات الحسن أو الحسين بن على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى • ويعتبر ابوه من أكبر دة الموحديين وابرز رجال دولتهم • وقد اتصل ابن القطان الابن ببلاط الخليفة الموحدى المرتضى وطش فس كفه وألف له كتاب نظم الجمان الذى يعتبر من أهم المراجع التاريخية للمغرب والاندلس وان كان يعتبر تاريخا بلاطيا توجه فيه كثيرا الى الاشادة بالدولة الموحدية بالمغرب والاندلس • وعنوان هذا الكتاب بالكامل على الارجح هو : نظم الجمان لترتيب ماسلف من أواخر الزمان على اختلاف فى الشطر الثانى من العنوان • وهذا الكتاب موسوعة ضخمة فى تاريخ المغرب والاندلس وقد استفاد منه كثير من مؤرخى المغرب والاندلس كابن عذارى وابن الخطيب وغيرهما • فقد تناول المؤلف فى هذا الكتاب كما يظن ، المغرب من الفتح حتى عصره اى فى اواخر ايام الدولة الموحدية فى الثلث الاخير من القرن السابع الهجرى • وقد نشر لى بروفنسال جزءا من هذا الكتاب وهى ست قطع منه فى مقاله (ست قطع مخطوطة من تاريخ مجهول لظهور الدولة الموحدية •) كما نشرت منه اجزاء ضمن نقول ابن عذارى عن كتابه البيان المغرب • ثم عكف محمود على مكى على تحقيق الجزء السادس من هذه الموسوعة الضخمة التى تمكن معهد الدراسات الاسلامية بمدريد من الحصول عليها • وقد نشر هذا الجزء بتحقيقه وتولت نشره كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد الخامس ، الرباط • للاطلاع على مزيد من المعلومات الوافرة عن الكتاب ومؤلفه أنظر :

ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود على مكى ، المقدمة وثيقة

ويترامى لنا بعد هذا كله أن قسوة المعتضد وشدة

وطبائع السيئة التي وصفه بها المؤرخون لم تكن تنم عن طبع وسجية غريزية بقدر ما هي طباع مقصودة ومصطنعة ألزم بها نفسه وأخذها على فعل ذلك . حتى يصل الى غياته وأهدافه . فالانسان يميل طبعاً وسجية الى الخير ، ولكنه قد يجنح الى الشر لارضاء نزوات او تحقيق اهداف شخصية . ويبدو أن هذا هو بعض واقع المعتضد بالله . وبالإضافة الى هذا يجب الا ننسى مدى تأثير روح العصر وخاصة في عصر ملوك الطوائف الذي تفككت فيه وحدة الاندلس وتعدّد فيه الملوك الذين كانوا يتنافسون ويتبارون في توسيع رقعة ممالكهم على حساب الممالك المجاورة . فروح العصر آنذاك كانت نادراً ما تلتزم بخلق أو مبادئ .

ولقد قضى المعتضد الفترة من توليه الحكم حتى وفاته وهو في صراعات سياسية وعسكرية ونفسية مضطربة . وكان بحق مالى دنيا الاندلس وشاغل الناس فضلاً عن الحكام . فمعظم أحداث الاندلس الاسلامية ارتبطت بشخصه قليلاً أو كثيراً باعتبار أن مملكته أقوى ممالك الطوائف في ذلك الوقت وأبرزها وأفسحها مساحة وشراء . ولذا فقد غدا المعتضد هاجساً مخيفاً مرغماً لامراء الاندلس حتى لمن كان يدانيه همّة وشجاعة واقداماً وحكمة .

الكتاب .

- (٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
- (٣) : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .
- (٤) : بغية الملتبس ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
- (٥) : مطمح الانفس ومسرح التأنس ، ص ١١ .
- (٦) : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

الموقف السياسي غداة تولي المعتضد السلطة

لم يكن هناك تفسير كبير في الموقف السياسي لممالك الطوائف غداة تولي المعتضد السلطة • فالقوى السياسية التي كانت موجودة في عهد والده القاضي لم تتغير كثيرا • فمملكة قرطبة وطلوس وسرقسطة وجليطة وغرناطة وألمرية ومرسية وبنسية ودانية والامارات الاخرى الصغيرة كانت كلها لاتزال تحت سيطرة من استبد بها ابان الفتنة او من خلفهم من المنتزين . او كانت تقع تحت يدى أبنائهم الذين تولوا السلطة في عهد القاضي محمد بن اسماعيل •

والتفسير الوحيد في ميزان القوى هو ما صار اليه أمر الحمود بين • فمما قتل يحيى بن علي طم ٤٢٧ هـ كما ذكرنا خلفه أخوه ادريس بن علي بن حمود • واستمر يحكم دولة الحمود بين في مالقة والجزيرة الخضراء • ويايحه البربر في ذلك الوقت حتى توفى طم ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م •

وفوادة ادريس بن علي نشب الانشقاق والصراع العائلي

بين الحمود بين • وفقدت دولتهم في مالقة والجزيرة الخضراء وما حولهما وحدتها السياسية • واستمر النزاع بين أبناء ادريس ويحيى ابني علي بن حمود طويلا • وتقلب على عرش الخلافة في مالقة غير واحد منهم • والغريب في الامر أن كل واحد من ابناء المم هؤلاء ما أن كان يخلع حتى ينتقل الى موضع آخر من أحواز مالقة ويدعو لنفسه به (١) . أما الجزيرة الخضراء فقد وقعت بعد خطوط كثيرة تحت سلطة محمد بن القاسم بن حمود الذي دعا لنفسه هناك وتلقب بالمعتصم (٢) . وعدهما تولي المعتضد السلطة كانت هيئة الخلافة (الحمودية) ووقاؤها قد مرغت في التراب ، فكان الوضع أشبه بالفضيحة كما يقول ابن حزم منه بنظام حكم شرعي • ويصف ابن حزم الامر فيقول (فضيحة لم يقع في العالم الى يومنا مثلها أربعة رجال في

(١) : عن بني حمود في مالقة انظر قبيل ، التمهيد ص ٦١

(٢) : عن هذا الانشقاق العائلي انظر :

رجب عبد الحليم : الرسالة السابقة ، ص ٧٧ - ١٠٠ •

مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بأميرة أمير المؤمنين ، ويخطب لهم بها في زمن واحد وهم : خلف الحصرى باشبيلية على أنه هشام ابن الحكم ، ومحمد ابن القاسم بن حمود بالجزيرة ، ومحمد بن ادريس بن علي بن حمود بمالقة . وادريس بن يحيى بن علي بن حمود بيشتر (١)

وفي ظم ٤٣٥ هـ / ١٠٤٤ م انقسمت الاندلس الى معسكرين ، معسكر ينادى بهشام العزوم باشبيلية ، ويضم العرب وبعضا من البربر كاسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالي وأبى نور بن أبى قرة صاحب رنده وتاكرنا . ومعسكر يضم البربر بزعماء باديس بن جوس . وينادى بمحمد بن القاسم بن حمود على الأرجح . وكان كل معسكر من هذين المعسكرين يناصب الآخر العداء والبغضاء . وبعد ذلك التاريخ بعام أى ظم ٤٣٦ هـ اعترف المأمون بن ذى النون بدعوة هشام بعد أن استنكرها أبوه نكاية بسليمان بن هود صاحب سرقسطة مقابل مساعدة المعتضد له . (٢)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

أما الموقف السياسى فى ممالك النصارى فى اسبانيا النصرانية فى الشمال ، فلم يكن بأحسن حالا من الممالك الاسلامية . فكما مر بنا سابقا استطاع سانشو غارسيا الثالث الملقب بالكبير والعظيم الذى حكم من عام ١٠٠٠ حتى عام ١٠٣٥ م أن يوحد ممالك النصارى تحت امرته . ولم يك خارجا عن هذه المملكة التى تضم نبرة وأرغونة وقشتاله وليون وجليقية سوى امارة قطلونيا (برشلونة) فى الشمال الشرقى من اسبانيا فقط .

على أنه ما أن طواه الموت حتى نشبت الخلافات بين أبنائه الاربعة ، وطحنت الخلافات العائلية ممالك النصارى ومزقت وحدتها . وذلك لأن سانشو العظيم هذا فرّق مملكته على أولاده الاربعة ، فعهد الى ابنه

(١) : نقط المروس فى تواريخ الخلفاء - فصلة من مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة ، المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

الأكبر فرناندو الأول ، فرديناند Fernando أو فرناند كما يعرف في المصادر الإسلامية أيضا حكم قشتاله . واستطاع هو في عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م أن يستولى على مملكة جليقية وليون بعد مقتل برمودو الثالث آخر ملوك القوط من نسل بلاجيوس وتروس . وأعطى ابنه الثاني غارسيا Garcia نبره . وأعطى ابنه الثالث راميرو الأول Ramiro أرغونة . وأعطى ابنه الرابع جنزالو أو كنزالو ولاية سورابي وريا جرسيا في أواسط جبال البرتات .

وقد وقع الخلاف والشقاق بين الاخوة . واستمر حتى استطاع فرناندو السيطرة على ممالك اخوته . على أنه تنازل بعد ذلك عن مملكتي نبره وأرغونة لابني أخويه غارسيا وراميرو . ووطدت الى اسبانيا النصرانية في عهده بعض وحدتها (١) .

على أن المهم هنا هو أنه في غداة تولي المعتضد السلطة كانت الشخصية القوية المؤثرة في ممالك النصراني هو فرديناند الأول ملك قشتاله وجليقية وليون وغيرها . فهو الذي خاض مع المسلمين بدءا من العام الذي انتهى فيه بسحق الفتن الداخلية حرب الاسترداد الاسبانية المنظمة .

(١) : عن هذه الاحداث السياسية في الممالك النصرانية أنظر :
- J.B. BURY, M.A., Op. Cit., P 394 - 395
- Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, London, 1974. P 101 - 102 .

- محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٦ - ٣٨٢ .
- ابن الكردبوس : الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ص ٦٩ - ٧١ مع الحواشي .

التوسع العسكري على حساب الامارات العربية الغربية المجاورة

لم يهنأ المعتضد براحة بال منذ ساقته اليه الاقدار الحكم بعد وفاة أبيه القاضي ، فضلا عن الموقف السياسي في الاندلس كلها فان ما يتميز به من حدة نفس وجراءة وشجاعة واقدام ، اضافة الى شرح صبا متأجج جعله لا يرضى أن يستبد بالامور في دولته وزير أبيه حبيب المذكور سابقا . ومملكة بنى عباد من ممالك الطوائف القلائل التي لم يتمتع بها وزير أو حاجب بسطان حقيقى وصيت ومجد ذائعين . فكان بنو عباد يستبدون بالامر وحدهم ، وكان وزراءهم وزراء تنفيذ وليسوا وزراء تفويض (٢) كما حدث في بعض الممالك الاخرى . وسنفتقد من الان فطالما أى ذكر لوزير من وزراءه ، وكلما يمر بنا اسم وزير من الوزراء فى عهدى المعتضد وابنه المعتمد فهو لا يزيد عن كونه مستشارا فى البلاط العبادى أو شخصا يعهد اليه فقط بمهام محددة .

تخلص المعتضد من وزيره حبيب ، ثم تخلص من آخر نفوذ لزميلى أبيه فى المجلس الرئاسى . فاضطهدهما وصادر أموالهما وتفرغ لتحقيق مشروعه الضخم . وكان فى الحقيقة مشروطا ضخما يتوجب السير اليه بحذر شديد ، فالاندلس كانت تتنازعها كما ذكرنا دائما ثلاث قوى رئيسية هى العرب والبربر ثم الصقالبة . وكل قصى من هذه القوى كانت تناصب الاخرى العداة . وقد تولى الضرورة على مملكة أن تتحالف مع مملكة اخرى ضد مملكة ثالثة حتى وان كانت من غير عصبيتها المنصرية . وكان الباعث فى ذلك كله هو المصلحة الشخصية فى المقام الاول ، والمعتضد كان يشعر بأن مملكته لا تحظى بالحب والمودة من ممالك الطوائف الاخرى . فالكل كان يخشى من مملكة بنى عباد ومن خطورة رفعها شعار الدعوة للدخول فى طاعة الخليفة هشام المزعوم ، حتى ولو كان ذلك اسميا . غير أن المعتضد ما كان بالذى يقنع بالسلطة الاسمية ابدا ، فرأى أن يوجه اهتمامه للممالك العربية الصغيرة الواقعة الى الغرب من اشبيلية وان يكون توسيع مملكته على حسابها هى السياسة التي يتعين عليه اتباعها الان وقبل اى شىء اخر ، حتى اذا ما تم ذلك وشعر بالقوة والثبات ، وجه همه الى الامارات البربرية الاخرى ليصفى معها الحساب .

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٧

(٢) : انظر بعد الباب الخامس ، ص ٣٥٦

ولسنا نزم هنا بان المعتضد قد وضع لنفسه خطة دقيقة مرتبة منظمة للقضاء على الممالك العربية بالغرب • وانما نقول بانه قد وضع تصورا واضحا لنفسه في وجوب القضاء عليها • وسنرى ان الصدف الحسنة كثيرا ما كانت تثقف بجانبه •

الاستيلاء على امارة مردلة :

من هذه الامارات الصغيرة التي التهمها المعتضد امارة مردلة وسبق لنا ان راينا امير مردلة يمد يد العون والمساعدة لابن الافطس في حربه ضد القاضي وابنه اسماعيل عندما اراد الاستيلاء على مدينة باجة • وكيف ان القاضي استطاع القبض على ابن الافطس وحليفه شقيق امير مردلة الذي قتل فيما بعد • على ان المعتضد لم يكن بحاجة الى التدرع بسبب ما لمهاجمة اى مملكة او امارة • ولذا فقد وجه جيوشه الى مهاجمة هذه الامارة وانتزاعها من يد صاحبها • وقد تم له ذلك فعلا عام ٥٤٣٦ م (١) • ١٠٤٥ م

النزاع بين المعتضد وابن الافطس واستيلاء المعتضد على امارة ليلة :

نشأ النزاع بين ملكى اشبيلية ومطليوس القويين حول قضية امير ليلة •

وامارة ليلة Niebla تقع الى الشمال من كورة اكشونية (Ossonoba) وتسمى ليلة الحمراء • وتقع ايضا الى الغرب من اشبيلية على بعد خمسين كيلو متر على الضفة الغربية للنهر الاحمر Riotinto • وقد آثرنا الحديث عنها هنا لارتباطها بالاحداث التي جرت في هذا الوقت • وقد ثار بها في ايام الفتنة ابيسبو العباس احمد بن يحيى اليحصبي ثم اللبلى في سنة اربعة عشر واربعمائة • وبايعه اهل تلك المنطقة • وعندما توفى خلفه في الحكم على الارجح اخوه ابو عبد الله عز الدولة محمد ابن يحيى اليحصبي عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م وان كانت هناك رواية اخرى تقول انه ابنه وليس اخاه • وقد سما للمعتضد امل في التغلب على ليلة • وبدأ يستعد لمهاجمتها • فسارع ابن يحيى الى طلب معاونة المظفر ابن الافطس • ويبدو ان ذلك قد حدث عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٧ م

- (١) : ابن خلدون : المصدر السابق • مجلد ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١ •
- (٢) : ابن الابار : الحلة السيرة • ج ٢ ص ١٨٠ •
- (٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ ص ٢٠٩ - ٢١٠ • ابن بسلام : المصدر السابق والقسم الثاني - المجلد الاول ص ٢٣ - ٢٤ •
- مجهول : ذيل مضاف الى البيان المغرب ص ٢٩٩ - ٣٠٠ •

او بعد ها بقليل ، اذ توفي المنصور بن الافطس مؤسس دولة بني الافطس في ذلك العام ،
وخلفه ابنه محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة وتلقب بالمظفر^(١) وقد لبي المظفر
طلب يحيى ، غير ان المعتضد هاجم على عجل اراضي ابن الافطس نفسه في حركة
مهاجرة لشغل باله عن حليفه . فضرب اراضيه واضرب بها ووقع بها خسائر فادحة ، ولم تجد
نداءات الرئيس ابو الوليد محمد بن جمهور بن محمد الذي خلف اباة في طم ٤٣٥ هـ /
١٠٤٤ م (٢) لم تجد فتيلاً نداءته بضبط النفس مع المتحاربين^(٣) ثم هاجم المعتضد
مدينة لبلة بنفسه ، واشتبك مع جيش ابن الافطس . وكانت الغلبة له عليه ، غير انه هزم
منه بعد ذلك في اشتباك اخر . ولم تسفر تلك الاشتباكات^{عن} شخصي في قيمة^(٤) .
وفي طم ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م تكون حلف من امراء البربر : باديس ابن حبوس

صاحب غرناطة واسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي الذي خلف اباة الحاجب طم
٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م . وسنتناول امارة قرمونة بالحدوث بعد ان شاء الله ، ومن محمد بن
نوح الدمري صاحب امارة مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب امارة اركش - وسنعرض لهما
بعد ايضاً - . وسابع هؤلاء لمحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء الذي تلقب
بالمهدي ، وانضم اليهم المظفر بن الافطس . وكان هذا الحلف موجهاً في المقام الاول
ضد المعتضد بصفة خاصة . ويذكر بن غداري ان هؤلاء جاءوا الى اراضي اشبيلية ،
فعاثوا في (نظر اشبيلية ، وانقطعت السبل جملة ، وكثر القتل والهرج والسلب ، وامسى
الناس في مثل عصر الجاهلية) ، ثم يضيف قائلاً (ثم انصرفوا مع خليفتهم ، ولم يقض
الله لهم ارباً ، فلم يكن بعد ذلك اجتماعاً ولا اتفاقاً)^(٥) .

وفجأة حصل تحول في موقف ابن يحيى امير لبلة . وتأكد ما سبق

ان رد دناه دائماً من ان ملوك الطوائف لم يكن يحكم تحالفاتهم وعداوتهم الا المصلحة
الخاصة فقط . وقد يكون هذا هو منطق الحياة ، ولكن ليس على حساب المبادئ بداهية
ولكننا نستطيع تفهم موقف ابن يحيى عندما رجع عن تحالفه مع ابن الافطس ، اذ رأى مصلحة
الخاصة تقتضي ان يتحالف مع المعتضد . يقول ابن غداري عنه (ثم والسي

(١) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) : خالد الصوفي : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : ابن بسام المصدر السابق ، القسم الثاني المجلد الاول ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٤) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٥) : ابن غداري ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(١) ابن يحيى الممتزج بعد ذلك لضرورة دعه ، ولا نحتاج الى كبير جهد لمعرفة هذه
الضرورة . فالممتزج الداهية كان اذا ما اعزته القوة والبطش كما ذكرنا ، استعان بالبر
والخداع والدهاء ، فأقنع ابن يحيى بخطورة وضعه مع البربر . ويكفى ان يحذره من
مغبة انتصار البربر حتى يجعله يترك حليفه ابن الافطس ومقبة حلفائه البربر .

وهذا ما حدث بالضبط ، ودهى ان يكون رد فعل المظفر بن الافطس عيضا
لهذا التنكر والتقلب . فكان ان وضع يده باذى ذى بدء على ما كان قد تركه عنده ابن
يحيى من اموال . ولا نعرف متى تم ذلك التحول بالضبط ، غير ان المناوشات بين المدوين
اللدود بين الممتزج والمظفر كانت تدور رحاها بينهما آنذاك . فقد اشتد ضغط الممتزج
عليه طم ٤٤٢ هـ / ١٠٥١ م فهاجم مملكته واراضيه وأوقع بها خسائر فادحة . ولم
يستطع المظفر ان يفعل شيئا . ويفهم من سياق هذه الرواية أنه فقد زهرة فرسانه
فى تلك الاشتباكات (٢) ورغم ان هذه الاشتباكات قد الحقت الكثير من الخسائر بالمظفر
وانهكت قواه الا انه ابى ان يظهر بمظهر الضعيف او المهتم بما حدث . فبعث وهو فى
عز محنته الى قرطبة رسولا (فورد قرطبة اثر هذه الوقائع عليه يلتمس شراء وصائف ملهيات
يأنس بهن ، نائفا بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم تكن له عادة بحثلها) (٣) . وأشار
طلبه وهو الاديب البليغ الرصين (٤) أعجاب ودهشة المؤرخين ، وعزوا ذلك الى كبر نفس المظفر
وقوة شكيته . (٥)

(١) : المصدر السابق والجزء ٥ ص ٢١٠ - ٢١٢ (نقلا عن ابن حيان) .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٦ .

(٤) : كان المظفر بن الافطس ادبيا مؤرخا طالما شاعرا لم يصرفه الحكم عن الاهتمام
بالعلم والشعر والادب . ويكفى ان نشير الى عظم منزلته الادبية انه الف
كتاب (المظفرى) . وهو كتاب تاريخى جديد ، حلاه ووشاء كما يقول ابن عذارى
(بالطرف المستملحة ، والنكت البديعة ، والفرائب الملوكية ، واللغات الغريبة .
ويقع فى نحو ٥٠ مجلدا ، فتصرف به تصرفا بديعا ، ولكبهره لم يتمكن كل الناس
من اكتسابه ، فانه لا يصلح الا للخزائن الملوكية .

انظر : المصدر السابق والجزء ٥ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . - مصطفى الشكعة

الادب الاندلسى - موضوعاته وفنونه - ص ٢ ، ص ١٠٣ .

(٥) : ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٦ .

على ان الخلاف ما لبث ان نشب مرة اخرى بين الخصمين •
فقد جهز المعتضد جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل ووزيره الجديد ابن سلام • وخرج هذا
الجيش الى مدينة يابرة • (١) وجهز ابن الانطس جيشاً بقيادة ابنة وقيادة حليفه اسحاق
بن محمد بن عبد الله البرزالي • والتقى الفريقان عند يابرة • وقد انتهت هذه المعركة
بهزيمة شنيعة لابن الانطس قتل فيها من جيشه حوالي ثلاثة آلاف • وقتل ابن خليفه
العز بن اسحاق • وحز رأسه وحمل مع رأس لابن عم المظفر الى اشبيلية • وقد استطاع
الرئيس ابن جمهور أخيراً ان يصلح بين الخصمين اللدودين في اوائل طم ٥٤٤٣ / ١٠٥١ م
وما كاد المعتضد يعتقد هذا الصلح مع المظفر حتى انقلب على حليفه ابن يحيى • وأخذ
يضايقه ويهددو أن ابن يحيى رأى ان من الصعب طلب مساعدة المظفر الذي سيرفض ذلك
حتماً • فكأية فيه وجزاءً على خيانتة له • ومد المعتضد يضيق الخناق على ابن يحيى
في لبله وأخيراً رأى ان لا مناص من مفادرة لبله والتوجه الى قرطبة لاجتأ لدى ابن
جمهور ويجب ان نلاحظ هنا ان بنى جمهور كانوا دائماً ملاذاً للامراء المطرودين والمنفيين
عن اماراتهم • وكان موقفاً طريفاً عندما شارك المعتضد بفرقة من جيشه لتشجيع ابن يحيى
الى قرطبة (٢) • وعندما خرج ابن يحيى عن لبله تولى حكمها من بعده ناصر الدولة ابي نصر
فتح بن خلف بن محمد اليحصبي • وقد رأى هذا ان يكفي شر المعتضد بدفع جزية
سنوية له • وان يعترف له بالسيادة الاسمية • ووافق المعتضد مؤقتاً • ولكن ما كان هذا
ليرضيه او يقنعه • فحاصره فيها وضيق عليه • وطأ في اراضيه فساداً • ولم يعد ابن
يحيى روح الانفة والسزة فبادل المعتضد بخارات شديدة الى ان ضاق به الحال وعجز
عن مقاومة المعتضد • فخرج عنها والتجأ الى قرطبة ايضاً طم ٥٤٤٥ / ١٠٥٣ م • وسلم
المدينة للمعتضد (٣)

الاستيلاء على امارة ولبة وشلطيش :-

تقع ولبة او ابنة • وشلطيش في كورة اكشونية Ocsonoba

وكانت تشمل الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة مما يلي كورة اشبيلية غرباً •

(١) : يابرة Evora بلدة في جنوب البرتغال الحالية • وهي عاصمة

مد يرية المييجو Almetejo على ١١٧ كيلو متراً بالسكة

الحديدية من الاشبونة •

انظر ابن الابار : الحلة السيرة • ج ٢ • ص ٣ • ص ٩٧

(٢) : ابن بسام المصدر السابق • القسم الاول - المجلد الاول • ص ٣٦٢ • والقسم

الثاني - المجلد الاول • ص ٢٦ •

(٣) : مجهول : الذيل للمضاف الى البيان المغرب • ص ٣٠١

(١) وولبة Huelva وشلطيش Saltes داخلتان اليوم في زمام مديرية ولبة الحالية .
وهي من الامارات التي آثرنا الحديث عنها ايضا حتى حينه ، وقد استبد
بها أحد وجهائها وهو محمد بن أيوب بن عرابان القنتنة ، ثم لما توفي
خلفه على الارجح أبو زيد عبدالمعز على عكس ما جاء في رواية ابن الابار (٢)

ولقد غدا سقوط لبلبة في يد المعتضد هاجسا يخيف
أمراء الامارات العربية الغربية . اذ أخذت كل واحدة منها تشعر بالخطر
الحقيقي على كيانها وتحاول جاهدة التقرب من المعتضد والتودد اليه . وكان
هذا حال أمير ولبة وشلطيش عبدالمعز البكري ، فعند ما رأى لبلبة تسقط
في يد المعتضد بادرا اليه يهنئه بما تهيأ له ، وذكر المعتضد بما كان
يجمع بين جدتيهما من مودة وألفة . ثم اعترف له بالسيادة بل وتخلي له
عن مدينة ولبة طائعا مختارا مقابل أن يقيه على حكم جزيرة شلطيش ، ووافق
المعتضد متهججا ، ولكن لأمد محدود فقط (٣)

أما البكري فقد توجه الى شلطيش ومقى فيها هناك ،
وما عثم أن ضايقه المعتضد في طم ٤٤٣هـ / ١٠٥١ م ، فنكث بعهدده له
وحاصره في جزيرته . ورأى البكري أن ينسحب بشرف طالما ليست له القدرة
على مواجهة قوة المعتضد الكاسحة . ففاوضه على تسليمها له مقابل شروط ،
فباعه سفنه بعشرة آلاف مثقال ذهب . وغادر البكري شلطيش متجها الى
قرطبة لدى ابن جهور ، شأنه شأن ابن يحيى حاكم لبلبة السابق .

-
- (١) : ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٤ ، ص ١٨٠ .
(٢) : روى ابن الابار نقلا عن غير ابن حيلن - ولم يسمه - أن أبازيد هو محمد بن أيوب ،
وأنه والد عبدالمعز ، غير أن رواية ابن حيلان تبدو وأصدق وأوضح . فأبوزيد هو
عبدالمعز وليس محمدا ، ومما يذكر أن أبازيد هذا هو والد أبي عبيد البكري
الجغرافي المشهور ، وصاحب كتاب المسالك والممالك .
أنظر ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨٠ ، وص ١٨٢ - ١٨٥ .
(٣) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

رواية أخرى الى أشبيلية على أنها ضعيفة ^(١) . وأراد المعتضد مع هذا أن يقبض عليه وعلى أمواله ، وهو فى طريقه الى قرطبة . غير أن البكرى فطن الى ذلك ، فقدم على صاحب قرمونة محمد بن عبدالله البرزالى . والواقع أن هذه الرواية فيها خلط كبير ، فان محمد بن عبدالله كان قد قتل عام ٤٣٤هـ / ١٠٤٣ م كما سنعرف بعد قليل . ويبدو أن ذلك قد حدث فى عهد ابنه اسحاق . وقد ساعده البرزالى بالفصل فى التوجه الى قرطبة سالماً بأمواله ، ونجا من جائل المعتضد ^(٢) .

الاستيلاء على امارة شنتمرية الغرب ((شنت برية)) :-

قامت هذه الامارة فى منطقة شنت برية ، وهى بالاسبانية وهى عبارة عن بلدة حصينة تقع فى شمال غرب قونقة وجنوبى شرقى مدينة وادى الحجارة بالقرب من منابع نهر التاجة . وهى قاعدة كورة شنت برية فى التقسيم الادارى الاندلسى الواقعة بين منطقتى قونقة واقليش حتى شرقى طليطلة . وتعرف بشنتمرية الغرب تميزاً لها عن شنتمرية الشرق أو شنتمرية بنى رزين ، أو سهلة بنى رزين . وتعرف شنت برية اليوم بمدينة هارو فى البرتغال الحالية ^(٣) .

وهذه الامارة أيضاً من الامارات الصغيرة التى استبد بحكمها ابلان الفتنة أحد رؤسائها وهو سعيد بن هارون الذى تولى أمرها حتى عام ٤٣٣ هـ أو عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٣ م على اختلاف بين المؤرخين . ثم توفى وخلفه ابنه محمد بن سعيد بن هارون وتلقب بالمعتصم ^(٤) .

-
- (١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٨١ - ١٨٣ .
 - (٢) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٨٣ - ١٨٥ .
 - (٣) : محمد عبدالله هان : دول الطوائف ، ص ٤٣ ، و ج ١ ، ص ٩٤ ، و ج ١ ، ص ٢٥٣ .
 - (٤) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٥ . - مجهول : الذيل المضاف الى البيان المنسرب ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

ورأى المعتضد أن يواصل جهوده نحو تحقيق هدفه بسرية
بالفة مستغلا هدنته مع ابن الافطس . وكما جاء استيلاؤه على لبله وولبة
وشلطيش مفاجئا وسريعا - وان كان مكلفا - جاء استيلاؤه على شنتمريية
الغرب بنفس الصورة أيضا . فقد ضيق المعتضد الخناق على المعتصم
وأوقع بأراضيه خسائر شديدة ، فلما (رأى أنه لا يقاومه ولا له به طاقة ،
خطب سلمه على أن يخلع له نفسه ، ويخرج بمن معه الى اشبيلية فقبل منه ،
فتخلى له عن البلد في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة) (١) .

على أن ابن عذارى يشير الى أن ذلك قد حدث طم ٥٤٤٩ /
١٠٥٧ م ، وهو أمر مستبعد كما يتراءى لنا . لانه أى ابن عذارى فى تناوله
لاحداث هذا العام على نظام الحوليات الذى أخذ به وبغيره لم يشر
الى هذا الحادث بتاتا . وحادث بمثل هذه الاهمية لا يمكن أن يحدث
فى هذه الفترة دون أن يشير اليه .

الاستيلاء على اماره شلب :-

قوام هذه الامارة هى مدينة شلب *Silve* (وهى قاعدة
كورة أكشونبه ، وهى مدينة بقبلى مدينة باجة) . وشلب الان مدينة
صغيرة فى جنوب البرتغال تابعة لمديريية " الغرب *Algarve* " (٢)
رأينا فى حديثنا عن عهد القاضى ابى القاسم محمد بن اسماعيل ،
الحاجب عيسى يستبد بحكمها فى ابان الفتنة . وقد استمر الحاجب
عيسى يحكم شلب ونواحيها حتى توفى طم ٥٤٣٣ / ١٠٤٢ م ، ورأينا كيف أن
ابنه محمد بن عيسى يخلفه فى حكم هذه الامارة ، وقد رأينا أيضا أنه تنازل
عن مدينة باجة للقاضى ابن عباد ، واكتفى محمد بن عيسى بحكم مدينة
شلب حتى توفى عام ٥٤٤٠ / ١٠٤٨ م (٣) .

- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢١٥ .
(٢) : أنظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ . - وكذلك ابن الابار :
الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ١٣١ .
(٣) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

وهنا حدث تغيير في البيت الحاكم . فعندما توفي عميد
الدولة محمد بن عيسى في هذا العام ، اضطربت الأمور في المدينة ،
فثار بها القاضي ابو الاصبغ عيسى بن محمد بن سعيد بن جميل بن سميد
المزيني ، وذلك في عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م . فبايعه أهلها وتلقب بالمظفر ،
وقد ساس البلاد أحسن سياسة . ورغم أنه قد هادن المعتضد وتودد اليه ،
وهو يرى أن الوقت وقته والمجد مجده ، فان المعتضد لم يقنع بهذا ،
بل أخذ يشن عليه الغارات . وعندما رأى المظفر ذلك ، نازل المعتضد
بكل قواه وبكل عزة وكرامة حتى قتل في ظم ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م . وخلفه
ابنه محمد وتلقب بالناصر ثم توفي بعد خمس سنوات من حكمه ، فخلفه
عيسى بن محمد وتلقب بالمظفر أيضا . وفي عهده سقطت دولته نهائيا
في يد المعتضد بعد ان ضايقه وشدد عليه الحصار . ثم استطاع جنوده
أن يدخلوا القصر ويقبضوا على المظفر ويقتلوه . واستولى المعتضد على
المدينة ظم ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م (١)

ونحن لانوافق صاحب الذيل الذي يعلقنا به ما جرى لأمرنا
شلب مع المعتضد فيما يتعلق بالسنوات . فاننا نستبعد ما ذهب اليه
من تحديده لتاريخ سقوط المدينة في يد المعتضد . ان نستبعد كثيرا
ان يكون السقوط النهائي لشلب قد حدث في ظم ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وذلك
لاننا سنرى بعد قليل في استعراضنا لانشقاق اسماعيل بن المعتضد وتمرده
على ابيه الذي حدث في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م على الأرجح أن المعتضد
قد استدعى ابنه الثاني محمد - الملقب بالمعتضد فيما بعد - من شلب
التي كان واليا عليها (٢) . بل أن هناك اشارة صريحة الى أن محمد بن المعتضد
كان واليا على شلب في ظم ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م (٣) . وعلى أبعد احتمال نراه نعتقد

(١) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .

(٢) : ابن غداري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ .

(٣) : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، دراسة أدبية

وتاريخية ، ط ١ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

أن ولاية شلب قد تولاها محمد بن المعتضد قبل عام ٥٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، أي قبل مقتل أخيه بقليل استنادا الى تلك الآراء والروايات التي أشرنا اليها .

وهكذا صفا الجوول للمعتضد ، ولم يعد هناك من يخشى بأسه ومعنى آخر من يسبب له ازعاجا ، ولم يعد أمامه الا تصفية حسابه مع إمارات البربر ، وغيرها من منازئيه .

الاستيلاء على إمارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء :-

بعد أن استطاع المعتضد القضاء على استقلال الإمارات العربية الغربية وضمها الى مملكته ، لم يعد أمامه الا الإمارات البربرية التي كانت تتركز في الجزء الجنوبي من بلاد الاندلس . وهذه الإمارات هي : مالقة ، والجزيرة الخضراء ، والتابعتان لبني حمود العلويين ، وإمارة قرمونة ، وإمارة رندة ، وتاكرونا ، وإمارة مورور ، وإمارة آرکش ، وأخيرا مملكة غرناطة . فرأى بعد تلك السلسلة من الانتصارات التي حققها على تلك الإمارات أن يولى وجهه شطر الإمارة الحمودية بالجزيرة الخضراء التي كما قد تركها تستظل بخلافة محمد بن القاسم بن حمود الذي استقر فيها وتلقب بالمتصم . فقد رأى المعتضد ولمس راحسته السياسية النافذة أنها اضعف الإمارات البربرية شأنا ، إذ توفى الخليفة محمد بن القاسم عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م ، فخلفه ابنه القاسم بن محمد بن القاسم الا أنه كان هعيف الشخصية مهالكا . فشرع المعتضد يعد المدة للانقضاض عليه . وفي هذا الصدد جاء في البيان المغرب ما نصه (٢) ثم مد يده بعد الى القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء " وذلك " أنه لما وجد هذا الفتى على نباهته وجلالة عمله ، أضعف أمراء البرابر شوكة صمد له وحصره) .

(١) : أنظر قبل . . . ١١٢

(٢) : ابن عذارى ، ص ٢١٣ ، وص ٢٣١ .

كما جاء في كتاب البيان المغرب ايضا ما نصه (فبدأ ابن عباد
يتطلب العلاقات عليه حتى كاشفه بمعاملته ، وتبدى اليه بحربه ، وأطمعته
في الجزيرة قوته على ركوب البحر بما اجتمع عنده من الاساطير ، واكمل اليه
المدة بتلك البلاد التي افتتحها ^(١) . فأرسل عند ذلك جيشه نحو الجزيرة
الخرقاء برا وبحرا ، وأخرج على الجيش وزيره عبدالله بن سلام ، فحاصرها
ورحل القاسم في سفينه مع اهل بيته الى سبته ، وكان صاحبها سراجات
البرغواطى ، وقيل اسمه سقوت . فاستولى ابن عباد على الخرقاء في سنة
ست وأربعين وأربعمائة ^(٢) .

وهكذا سقطت اماره بنى حمود بالجزيرة ، ولم يمهده
بالاندلس منهم سوى الموجودين بمدينة مالقة والذين سيتهي وجودهم
السياسى ايضا كما سنرى بعد ^(٣) . وأخيرا كان من المنظور أن نستبقى سقوط
الجزيرة الخرقاء الى مكانها الملائم ، وهى الققرة المعنونة بالتوسيع
المسكرى على حساب امارات البربر والجنوب . بيد أن التسلسل الزمنى
للأحداث اضطرنا الى أن نتعرض الى ذكر ذلك عقب سقوط الامارات
العربية المذكورة . ونزعم أننا قد شاكلنا الصواب ، فامارة بنى حمود
- وان كانت بربرية اللسان والعمادات - فهى عربية قرشية علوية ، ولا بأس
من تصنيفها فى عداد الامارات العربية أيضا .

-
- (١) : المقصود بها لبلة ، وولبه وشلطيش .
(٢) : ابن غزارى ، ج ٣ ، ص ٢٣١ ، رجب عبدالحميد : الرسالة السابقة ، ص ٩٧ - ١٠٠ .
(٣) : انظر بعد ، ص ١٤٦ .

انشقاق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه

في عام ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م على الأرجح حدثت جفوة بين المعتضد وابنه اسماعيل ، وأفضت أخيرا الى قتل اسماعيل على يدي أبيه . وكان مبدؤ ذلك عندما فكر المعتضد بعد سلسلة الانتصارات التي أحرزها ضد امارة الامارات العربية الغربية المجاورة ، ومع قضاءه على استقلال امارة بنى حمود بالجزيرة الخضراء ، فكر في أن يهاجم ملكة قرطبة من نقطة ضعفها الامنى أى من مدينة الزاهرة التي تطل عليها . وطلب المعتضد من ولده التهيؤ للقيام بتلك الحملة العسكرية . غير أن اسماعيل أبدى اعتراضه على هذا الهجوم ، وعلل ذلك بأن هناك حلف بربرى يربط بين ملكتى قرطبة وغرناطة . وأن أية محاولة من المعتضد للتحرش بملكة قرطبة تعنى اعتداء على مملكة غرناطة مما يجعلها تبادر الى مساعدة حليفها . وهو أمر بالغ الخطورة على موقف العباديين ، ويصعب بالتالى مهمته ويشقت قواه .

ورغم منطقية هذا المحذور السياسى والعسكرى ، فقد رفض المعتضد اعتراض أو اقتراح ابنه . ورد عليه بغلظة وقسوة ، ورماه بالجبن والخور . وطلب منه أن يسارع الى تنفيذ تلك المهمة . ونقف قليلا هنا لنستجلى خلفيات ذلك الحادث المؤلم الذى أودى بحياة اسماعيل ، وكدر صفو سمادة المعتضد الفائقة وانتشاء الثمل بانتصاراته على امارات لبلة ، وولبه وشلطيش ، وشنتمرية الغرب ، والجزيرة الخضراء . وظلل نفسه وعهده بسحابة قاتمة كما ذكرنا .

ولا نكاد نستبين خلفيات واضحة قبل خروج اسماعيل ومقتله للنفور والاستياء من قبله على أبيه الا ما نقله لنا عبدالواحد المراكشى من أنه كانت تدور على الألسن اخبار واشاطات عن اسماعيل منها ضيقه من استتالة عمر والده ، وتمنيه موته السريع ، حتى يخلص اليه الامر . وكان المعتضد يتلقى تلك الاشاطات فكان يفض الطرف عنها ويتغافل عن ابنه تغافل الوالد^(١) . تلك هى خلفيات تلك الموجة من النفور والاستياء الذى ابداهما اسماعيل .

(١) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

ويخيل لنا ان هناك اسباباً أدت الى تدهور العلاقات بين
الاب وابنه وولى عهده وقائد جيشه فأسماعيل ربما كان ييتم من عملية الاستنقار والمرابطه
فلم يكن ليستقر فى مكان او يفتح حصناً او مدينة ما حتى كانت اوامر والده بالتحرك الى
مكان آخر او حصار آخر تصدر اليه فى حركة لا هتة لا يستقر له قرار ولا يهدأ له بال .
ويبدو ان التعب والاجهاد قد اضنيه ، وان الاشتباكات الدائبة قد هدت ركه . ونحن
لا نستبعد ان يكون اسماعيل قد حدث نفسه وطاف بمخيلته خلوجراً الامر اليه واستيلاؤه على
اريكة الملك . كما اننا لا نستبعد ان تكون الحاشية المحيطة به قد زينت له الخروج على
ابيه وانتهاز الفرصة للاقدام على ذلك . وقد يكون اسماعيل غير راض عن تصرفات والده ،
فلربما استشعر خطل وخطر سيايسة والده وتهوره فى استعداد مناوئيه من العرب .
فالمعتضد بقضائه على تلك الامارات العربية ، قد اجج روح الانتقام والثورة فى نفوس العرب
كما الب خصومه عليه . وقد يكون اسماعيل قد استهجن انقلاب ابيه على حلفائه ورأى ان
جوانب المخاطرة فى سيايسة ابيه تفوق فوائدها . فهل كان البربر حلفاء ابيه حتى ذلك
الوقت ليطمئنوا بعد ما حدث الى تحالفاتهم معه ؟؟ .

ومع اننا لم نطلع على تفاصيل السياسة الداخلية فى المملكة فاننا
لا نستبعد ان يكون اسماعيل قد استهجن ما آلت اليه الاحوال الداخلية فى البلاد .
فالمعتضد . كما كم مستبد باطش لم يسمح بسماع اصوات معارضيه ، فقد كم افواههم
وطش بهم . وقد يكون للوحشة بينه وبين ابيه اسباباً طئلية بحته لا نعرف كمها .
وايما ما كان الامر فقد بدأت نفس اسماعيل تتغير على ابيه ، فحصلت
الجفوة بينهما وجاءت مسألة الهجوم على مملكة قرطبة كالقشة التى قصمت ظهر البعير
فلا منطق الاحداث ولا العقلانية يسمحان للمعتضد تنفيذ اغراضه بسبب هذه المخاطر
التي ذكرناها

وغدا ما اغلظ عليه ابوه بالقول واستجبن فكرته وخوره رأى اسماعيل
ان لا تلاقى بينهما البتة . فبدأ يجهز الجيش للخروج الى قرطبة ، وكان من جملة رجال
اسماعيل رجلا يدعى عبد الله البزليانى . وهو احد العرب الهاربين القادمين من مالقة
بعد سقوطها فى يدى باديس بن جوس ملك غرناطة ، ثم اتصل سبيه ببلاط المعتضد ومال
الى مصاحبة ولى العهد وقائد الجيش والاخلاص له . وكان البزليانى رجلاً ذا اثره ومطامع
واهداف بعيدة . وكانت اقصى اميلياته ان يصبح حاجباً ، وقد رأى فى القصور والجفوة بين
المعتضد وابنه اسماعيل فرصته الذهبية لتحقيق مطامعه .

خرج اسماعيل بجيشه ومخاصته وعلى رأسهم البزلياني الى قرطبة .
ونسبح لانفسنا ان ننقل من كتاب ملوك الطوائف شرح ذلك . فقد رجع اسماعيل بعد
يومين من خروجه الى اشبيلية مع خاصته البالغ عدد هم ثلاثون فارساً تاركاً الجيش هناك
مدعيّاً ان اوامر طاجلة جاءت من ابيه . فجاء على عجل الى قصر ابيه ، واستولى على ما
قدر عليه من مال وكوز ثم اخذ والدته واهله وخرج من اشبيلية في الوقت الذي كان والده
يقبع في قصره على الضفة الاخرى لنهر الوادي الكبير . ولما تسرب الخبر الى المعتضد امر
بغلق المنافذ والحدود والحصون امام ابنه . غير ان اسماعيل استطاع ان يصل الى قلعة
القائد ابي ايوب والتمس من صاحبها الدخول ، ووافق صاحبها ان ينزل اسماعيل في
حماته شريطة ان يظل عند سفح الجبل الذي تطل عليه القلعة (١) ثم ادخله القلعة بمسد
ذلك وعاملة معاملة تليق به ومعت لابيّه يخبره بنزول ابنه عليه ، وطلب منه ان يصفح عنه
ووافق المعتضد على ذلك ، وارسل الى صاحب القلعة يخبره انه قد غي عن ابنه وصفح
عنه وطلب من ابنه ان يعود الى اشبيلية ، فعاد اليها فعلاً .

وكان اول شيء فعله المعتضد هو قتله البزلياني ومن معه ، ثم جرد ابنه
من كافة مناصبه ولكن دون ان يقطع عنه رزقاً او اعطيات ، واكتفى بتاديبه بالاعراض والهجران .
وشعر اسماعيل بأن ابيه قد استدرجه الى شرك منصوب ، ولذا فقد بدأ يجمع من حوله
الانصار والمؤيدين له للتخلص من ابيه . ولم يجد وسيلة الى ذلك الا باغتيا السهم ، واعد
الخطّة لذلك فعلاً . وكانت هذه الخطّة تقتضي ان يتسلق مع اصحابه قصر ابيه ويطسرقوه
ليلاً ويهجموا من هناك على المعتضد ويقتالوه في فراشه .

بيد ان الامور جاءت بغير ما يشتهي اسماعيل . فلم يروع هو واصحابه
الا ووالده واقفاً شاهراً سيفه ، فاذهلتهم المفاجأة ففروا من بين يديه وتطايحوا خائفين
خائبين . الا انه قبض عليهم جميعاً . وفجر هذا العمل غضب المعتضد واججه ، فأمر
بقتل رجال ابنه ، ونكل بهم وقتل ابنه اسماعيل بيده من شدة الغيظ ، واستصفي امواله (٢)

(١) : دوزي ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .

(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وقد انتاب المعتضد اثر ذلك حزن شديد ، وأسى
مؤلم انعكس على نفسيته .^(١) وينقل لنا ابن عذارى عن ابن بسام
صورة لهذه الحالة وذلك من خلال الكتاب الذى بحثه المعتضد
الى رؤساء الاندلس يشرح فيه ما حدث بالتفصيل . ويطلب منهم
أن يعتبروا من ذلك .^(٢)

وهكذا فقد ضحى المعتضد بابنه وولى عهده ،
عندما أدرك أن ملكه مهدد ، وأن ابنه يتآمر عليه ، حتى يظفر
بالمملك من بعده كما وقر فى ذهنه .^(٣)

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، (نقلا
عن ابن بسام) .
- (٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .
- (٣) : والواقع أن هناك أمثلة عديدة فى التاريخ ، جعلت الأب لا يتردد
أبدا فى أن يضحى بابنه اذا ما تآمر عليه وعلى عرشه .
ومن هذه الامثلة احمد بن طولون حاكم مصر عندما قتل ابنه
العباس ، والمنصور بن ابي طامر الذى قتل ابنه عبدالله الذى
حامت حوله الشكوك الى آخر ذلك .

توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الاموي المزعوم

تركنا الخليفة هشام المزعوم يعتلى اريكة الخلافة التي نصبه عليها (١)
القاضي ابو القاسم محمد بن عباد في اواخر عام ٤٢٦هـ او ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م كما ذكرنا
وقد ندر سماغا لاخباره وانبائه ، او بمعنى ادق المتاجرة باسمه فيما عدا نقفا من الاخبار
هنا وهناك

كانت مسألة اظهار الدعوة الهشامية ومن ثم قبولها عرضة للمتاجرة

السياسية . فمعظم امراء وملوك الطوائف يعسلم ان ذلك اختلاق وانه محض هراء وافتراء
ومع هذا فنجد كثيراً من امراء الطوائف يمتترف بتلك الدعوة للوصول الى غايته . والا فأي
منطق يستجيز ويستسيغ الوثوق باخبار موتاته المتكررة والغامضة ؟؟ حتى وفاته اخيراً
على يد المعتضد كانت غامضة ايضاً . ذلك ان المعتضد اعلن في عام ٤٥١هـ / ١٠٥٩م
 وفاة الخليفة هشام المؤيد ، وقطع بذلك الدعوة له (٢) . ونعجب لاننا لا نجد تفسيراً لهذا
التوقيت ، فقد جاء خالياً من اي مضمون سياسي او عسكري . صحيح ان المعتضد استطاع
ان يثبت دعائم ملكه وان يوطد سلطانه سواء اكان ذلك على الصعيد الداخلي او الخارجي
كما انه استطاع ان يوهب مناوئيه . ذلك كله صحيح ، ولكن الامر الذي قامت الدعوة من
اجله لم يزل ولم ينتبه وجوده بعد ، ونعني به الوجود الحمودي . فما زالت هناك خلافة
حمودية في ما لقسمة ، ولا زال هناك من يدعوا لها ويمتترف بها ، كملكك غرناطة وامارات قرمونة
ورندة ومورور واركنش ، وهى ممالك وامارات بربرية ترفع تلك الدعوة نكاية بالعرب بصفة خاصة .
ويخيل الينا بأن تصرف المعتضد ذلك كان خاطئاً . فهو لم يتخلص

بعد من نفوذ بنى حمود البربر حتى يقطع تلك الدعوة التي قامت من اجل ارباك الحموديين
وسحب البساط من تحت ارجلهم . فقطع تلك الدعوة في ذلك الوقت سيضر بموقفه لاسيما
وهو حامل لواءها ومتبنيها . ونحن لا نؤيد ما ذهب اليه على اد هم (٣) ان المعتضد بعد ما
شعر بأن ملكه قد اتسع ، وثبت له الامر في كثير من الامارات التي فتحها ، رأى ان لا حاجة
به الى الخليفة هشام الدعي ، فاعلن وفاته . لا نرى ذلك للاسباب التي ذكرناها .
واذا اخذنا نقيم هذه المسألة فأننا نجد ان تأثيرها كان ضئيلاً . ففيم عدا الهزة
او الخضة التي احدثتها هذه الدعوة وما ترتب عليها من ارباك وخلط للاوراق لدى ملوك
الطوائف طمساً وبنى حمود خاصة وذلك في عهد القاضي محمد . فأننا لم نلمس لها
اي تأثير على الساحة السياسية في عهد المعتضد فيما عدا ما حدث في عام ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٩١

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٩ .

(٣) : انظر المرجع السابق ، ص ٧٤

من انقسام سياسي لمملك الطوائف أدى الى وجود فريقين من ملوك الطوائف • فريق يدعو لهشام المؤيد المنصب في اشبيلية ، وفريق آخر وعلى رأسه البربر يدعو لمحمد بن القاسم بن حمود العلوي كما ذكرنا سابقاً ^(١) • وفيما عدا اعتراف يحيى بن ذى النون عام ١٠٤٤/هـ ١٠٤٤ م بالدعوة لهشام نكايته بعمدوه ابن هود صاحب سرقسطة ^(٢) •

ومع ضآلة هذا التأثير فان بقاء الدعوة لهشام كام أمراً مهما لبني عباد ، يكسب تصرفاتهم الشرعية ويضفي عليها واقعا روحيا • فهي ان لم تلحق بهم الاذى والضرر فانها بالتأكيد قد نفعتهم وافادتهم • ومن هنا نقول بأن قطع هذه الدعوة في ذلك الوقت الذي لم يصف فيه المعتضد حسابه مع أمراء البربر حاملي لواء الدعوة الحمودية ، كان خطأ سياسيا يدل على قصر نظر سياسي أو تعجلا لسير الأحداث • ومهما يكن من أمر فقد أعلن المعتضد للملأ وفاة خليفته • وصرح بأنه قد توفي أثر علة أصيب بها • ولكنه ولمصلحة البلاد والمسلمين العليا لم يصرح وقتها بذلك • فان الظروف السياسية وقتها لم تكن ملائمة أو مناسبة للتصريح بذلك • والان بعد أن استتببت له الأمور ، وهدأت الاحوال رأى أن يعلن ذلك ^(٣) وبالفعل فقد (اتصلت الانباء بالاندلس بصوت منابره في جميع أعماله عن ذكر امامه هشام بن الحكم صاحب الرجعة ^(٤) الذي اتصل الدعاء له على منابره من عهد قيام والده الى آخر هذه السنة وهي سنة احدى وخمسين ^(٥)) وقد احتفى المعتضد بدفن جثة خليفته هشام احتفاءً مهيبا شارك فيه بنفسه ومشى راجلا في جنازته • وخلع طيلسانه ومشى معه في تشييع الجنازة أرباب الدولة ورجالها وقد أرسل الى ملوك الطوائف وأمرائها ينعى الخليفة ، وطلب اليهم اختيار خليفة مكانه يايحونه • فلم يفعل أو يفكر أحدا في ذلك بطبيعة الحال • ومن ثم فقد انتهز المعتضد ذلك وأعلن أن الخليفة الراحل قد عهد اليه أن يكون أميراً على الاندلس كلها من بعده ^(٦) •

-
- (١) : انظر قبل الباب الأول ص ١٣٣
(٢) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ٥ ص ٢٢٠ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ •
(٣) : نفس المصدر والجزء ٥ ص ٢٤٩ •
(٤) : من الواضح أن ابن حيان كما ينقل عنه ابن بسام لا يقصد بالرجعة تلك التي يؤمن بها الشيعة عند عودة امامهم المنتظر • وانما يقصد بصاحب الرجعة الخليفة هشام الذي تكرر ظهوره ورجعاته للخلافة كما زعم •
(٥) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ٢٧ - ٢٨ •
() (نقلا عن ابن حيان)
(٦) : علي أدهم : المرجع السابق ، ص ٤٧ - ٧٥ •

وإذا كنا قد تعودنا من بعض المؤرخين القدامى الوقوع فى كثير من الأخطاء التاريخية الفادحة . فأننا لا يمكن أن نجد تفسيراً لأن ينساق أحد المحدثين فى نقل تلك الأخطاء دونما روية أو تثبت ، فابن خلكان يقول (ولم يزل الأمر كذلك الى أن توفي المدعو هشاماً ، فاستبد القاضى محمد بالأمر بعده ، وكان من أهل العلم والادب والمعرفة التامة بتدبير الدول ، ولم يزل ملكاً مستقلاً الى أن توفي ليلة الأحد للييلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وقيل انه عاش الى قريب الخمسين والاربعمائة)^(١) وبعد الوهاب عزام يردد نفس ما قاله ابن خلكان من أنه عندما توفي هشام المزعوم استبد القاضى محمد بن اسماعيل بالملك^(٢) .

ومن جانبنا نقول كيف يستبد القاضى محمد بن اسماعيل بالملك بعد وفاة هشام المزعوم ، وهو أى القاضى قد توفي قبل ذلك أى قبل وفاة هشام التى وقعت كما يقول المؤرخون طم ٤٤٥١ / ١٠٥٩ م ؟؟ . كيف يحدث هذا والقاضى قد توفي طم ٤٤٣٣ / ١٠٤١ م كما مرّ بنا سابقاً وكما يقول ابن خلكان وعزّام نفسهما ؟؟؟ ومهما يكن فكتمجبنا تلك المقلّة فى مسرحية اظهرار دعوة هشام ثم وفاته التى نقلها ابن عذارى وابن بسام عن ابن حيان وغيره ، (صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة ، وعساها تكون ان شاء الله الصادقة ، وكم قتل ، وكم مات ، ثم انتفض عنه التراب وقال بعضهم فيه :

ذاك الذى مات مرارا ودفن فانتفض التراب ومزق الكفن

فقد مات فى يد أول خالعيه وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ودفن علانية ، ثم نشر بيد واضح القعنى مولى محمد بن ابى عامر وملك مدة ، ثم مات مرة ثانية بيد خالعه الثانى سليمان بن حكم صاحب البرابره ودفنه خفية ثم أبرز صداه على بن حمود الحسنى المنتزى بذكره الطالب بثأره على الدولة ودفنه الدفنية التى خلناها حقيقة الى ان وقعت عليه هذه الميتة الثالثة)^(٣)

-
- (١) : وفيات الاعيان ، مجلد ٥ ، ص ٢٢ - ٢٣ .
(٢) : المعتمد ابن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، ط ٢ ، ص ٧ - ٨ .
(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٩ (نقلا عن ابن حيان) .

وابن بسام بالذات ينقل عن ابن حيان كلاما هزليا مؤلما مفاده :
(فما نقول ونعتقد فى الفرق بين هذه الميقات المتواليات اذا كان مائتها
واحدا • وليس الا السيوف عليها أدلة • غير اخلاص الدعاء للكلمة
المسلمين فى الائتلاف لما فيه الصلاح (١) •)

وهكذا انتهت هذه المهزلة المسرحية التى جنى العباديون
جناها فى عهد القاضى محمد بن اسماعيل بصفة أساسية وفى عهد المعتضد
بالله بدرجة ثانية •

(١) : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٢٨ •

التوسع العسكري على حساب امارات البربر في الجنوب

قبل أن نشرع في الحديث عن الاحداث التي وقعت بين المعتضد و امارات البربر و هو ثم استيلاؤه عليها بعدئذ يحسن بنا أن نلتم في ايجاز جغرافية ونشأة بعض تلك الامارات التي لم نعلم بعد بالحديث عنها .

امارة رنده و تاكرنا :

(رنده في التقسيم الادارى الاندلسى تابعة لاقليم تاكرنا)
وتقع كلتا هما داخل كورة استجه^(١) ، وهى مدينة Arund^٥ الذى كانت تصرف به أيام الرومان والقوط ، وتقع على حافة خانق بسمية صاحب الروض المعطار : طلوسره ، وهو المعروف بجبال رنده Serraniade Ronda وتحت البلد يوجد الخانق المسمى باسم التاجه (el Tajo) عمقه ٦٠ مترا ، يجرى فيه نهر وادى اللين^٦ Guadalevi^٦ الذى يتصل بعد ذلك بوادى آره^٧ Guadairo ، ورنده مشهورة فى التاريخ الاندلسى جدا فعلى مقربة منها تقع ببشتر Bobastro بين قمم جبال رنده ، وهى اليوم تابعة لمدينة مالقة (الاسبانية) .

أما تاكرنا فمنطقة جبلية هى التى تسمى اليوم باسم جبال رنده ، ولفظ تاكرنا ، بربرى يوجد فى نواحي كبيرة من المغرب وفى صور مختلفة بعض الشئ أشهرها تكرونة فى تونس^(٢) .

وهذه الامارة كانت فى حوزة بنى يفرن الذين كانوا يعيشون فى المغرب وعندما قتل أميرهم على يد الخليفة الفاطمى المنصور ابن القائم بن عبيد الله بن المهدي ، لحق بنو يفرن بالاندلس ، واتصلوا هناك بخدمة المنصور بن ابي طمر . وعندما قامت الفتنة استبدوا بأراضى رية و تاكرنا وقاعدتها^(٣) رنده ، وقد استقل بها ابو نور هلال بن أبى

(١) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٢

(٢) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٣) : مجهول : نبد تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى ،

ص ٤٥ .

قرة اليفرنى أحد زعماء قبيلة بنى يفرن تلك بهذه الاراضى وأسس بها
امارة مستقلة . ويصعب علينا الاخذ بما جاء فى رواية صاحب الذيل المضاف
الى البيان المغرب من أن ذلك قد حدث فى عام ست وأربعمائة (١) ، لانه قد
قال بأنه بويح لأبى نور فى تلك السنة التى توفى فيها ادريس ابن على بن
حمويه وهى سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م وهو أمر مرفوض ، فادريس توفى عام
١٠٣٩ هـ / ١٠٣٩ م كما نعلم (٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استبد بها هذا الثائر وأسس
لنفسه ولقبيلته امارة مستقلة سقطت أخيرا على يد المعتضد .

امارة مورور :

فى التقسيم الادارى الاندلسى كانت مورور كورة قاعدتها تحمل
نفس الاسم ، وكانت تقع جنوبى الوادى الكبير بين كورتى قرطبة وتاكورنا ،
وتقع بلدة مورور على سفح جبل يحمل نفس الاسم *Sierra de Moron*
ولهذا فقد اشتهرت بحصانيتها وهى اليوم مركز ادارى فى مدينة اشبيلية (الاسبانية)
وتسمى : *MORON* (٣) وقد استقل بها ابان الفتنة أحد رؤساء البربر
من قبيلة زناتة من بنى دمر احدى فخوذها . وقد قدم نوح بن ابى زيد
الدمرى الى الاندلس شأنه شأن غيره من البربر الذين قدموا فى عهد المنصور
ابن ابى طمر . وقد استمر يحكمها مستقلا فى ابان الفتنة الى أن توفى فخلفه
ابنه محمد عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م (٤) . وفى عهده غدت امارة مورور امارة كبيرة
وقد اغتيل نوح بن ابى زيد فى حادثة الحمام التى رتبها المعتضد ضده وضد
أمراء البربر الاخرين ، وسنعرض بعد قليل لتلك الحادثة .

(١) : مجهول : ص ٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٩٢ .

(٣) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ح ١ ، ص ٣٧١ .

(٤) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ .

امارة أركش وشدونه :

ARCOS de la Frontera

اركش هي التي تعرف اليوم باسم :

وهي مركز اداري في مديرية قادس (الاسبانية) على نحوى خمسين كيلو مترا شمالى شرقى قادس (Cadiz)^(١) وقد استقل بها ايضا بنو خزرون من قبيلة يربيان الزناتية الذين قدموا شأنهم شأن غيرهم من ابناء عمومتهم الزناتيين الاخرين المذكورين قبل . وقد استقل احد رؤساء بنى خزرون بكورة شدونه ونزلوا بقاعدتها مدينة قلشانه^(٢) فى مبدأ الفتنة ثم نزلوا بأركش ، وأسس فيها محمد بن خزرون الخزرى دويلة بربرية ، ولما توفى ظم ١٠٢٩/٥٤٢٠م خلفه ابنه القائم عماد الدولة عبدون بن محمد بن خزرون ، ويايعته أركش والاراضى التابعة لها كمدينة شريش وقلسانه والجزيرة^(٣) . وهو الذى ذهب اغتيالا فى حادثة الحمام ايضا .

x x x x x x x x

وقد كانت علاقة المعتضد مع هذه الامارات الثلاث

رنده ، ومورور ، وأركش حسنة على وجه المموم . وكان المعتضد وهو فى اشد فترات انشغاله مع الامارات المرابية التى ذكرناها لا يستهين بوجود وقوة هذه الامارات ، ولذا فقد كان يتودد الى امرائها ويتقرب اليهم ويهادنهم ويهاد يهم فى نفس الوقت ، كل ذلك دهاء منه وخدعة يستميل بها قلوبهم ويأمن شرهم . بل انه قام فى سبيل ذلك بمغامرة كادت أن تودى بحياته عندما قام بزيارة امارتى رنده ومورور ظم ١٠٥٣/٥٤٤٥ م . ومجمل

(١) : ابن الأبار : الحلة السواء ، ج ٢ ، ح ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٢) : قلشانه (بالسين والشين) كورة من كور شدونة ، وهى قرية من مدينة شدونة

(او مدينة ابن السليم كما كانت تعرف فى الجغرافية الاسلامية ايضا) .

انظره الحميرى : المصدر السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ . - مجهول : الذيل

المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٤ .

تلك الحادثة أنه ذهب لزيارة أمير مورور محمد بن نوح الدمري منفردا الا من خادمين فقط . وقد فوجئ ابن نوح بهذه الزيارة ولكنه رحب بالمعتضد وأكرم وفادته . وقد استطاع المعتضد بعد هذه الزيارة الخاطفة أن يخرب ذمم بعض النافذين من وجهاء البربر وأن يستميلهم اليه . وبعد ذلك قام بزيارة مماثلة لابن أبي قره حليفه وصديقه الذي كانت تربطه وائياه علاقات تحالف سياسي وصداقة شخصية دون زميليه أميرى مورور وأركش . وقد أكرم ابن أبي قره وفادته أيضا واحتفى به كثيرا ولمس المعتضد بحسه السياسي المرفه مقدار الكم الكبير من التذمر والمقت والسخط في صفوف عرب مدينة رنده على البربر . وعندما شعر المعتضد بشيء من التعب والارهاق في احدى حفلات التكريم التي أقيمت له ، رجا ابن أبي قره أن يسمح له بأن يخلد الى الراحة . فهبأ له ابن أبي قره الفراش . ولحسن حظ المعتضد أنه لم يستغرق بسرة في المنام ، مما أتاح له أن يستمع الى ما دار حوله من تأمر . فقد رأى رؤساء البربر التخلص منه بقتله وهو الصيد الثمين الذي سيق اليهم سوفا . ويبدو أنهم كادوا يقدمون على ذلك ، ولكن لحسن حظ المعتضد أيضا أن طرضهم أحد أمراء البيت الحاكم في رنده وهو معاذ بن أبي قره . فسفه آراءهم وعاب عليهم القدر بضعفهم . كل هذا الهمس كان يدور والمعتضد يظهر التناوم ، وعندما لمس من القوم خضوعا لمنطق العقل والمبادئ الذين أشار بهما معاذ نهض من فراشه وأتى القوم فهبوا لاستقباله . فهش في وجههم وش ، وطلب أن يعطوه ورقة وقلم . فبدأ يكتب لهم أعطيات وأرزاقا وهدايا كي يقضوها منه في اشبيلية . ولم يشعر القوم بأن المعتضد قد استمع الى كل ما دار من حديث .

وبدا كما لو أن المعتضد قد نسى الحادثة وكل ذلك خدعة منه وحتى يطمئن قلوبهم . ثم وهو في أشد فترات انشغاله مع ابن يحيى أميرهم استغل حفل ختان أحد أولاده . وكانت تلك مناسبة اجتماعية تقام فيها الحفلات وتنحرف فيها الذبائح - فأرسل الى أمراء رنده ، ومورور ، وأركش يدعوهم الى تلك الحفلة . ولبي هؤلاء دعوة القدر لهم ، وأتوه بكامل زينتهم وأبهتهم في عدد كبير من فرسانهم . فأنزلهم في أحد قصوره ، ثم دعاهم لمقابلته . وبدأ الحديث بينه وبينهم حسنا ، غيراً

ما لبث أن تعكر صفو المجلس وبدأ المعتضد يقرعهم ويؤنبهم ويلومهم على
تقصيرهم معه ضد أعدائه ، بل واستدعى عبيده فأذلوهم داخل مجلسه
بالضرب وتنف اللحي ، ثم أمر بهم فسجنوا في أماكن متفرقة لمدة طويلة .

على أنه ما لبث بعد ذلك أن أمر بإخراجهم من سجنهم وأعاد
اليهم كرامتهم وأموالهم وطيب نفوسهم ، بل أمر بزيادة في إكرامهم بأن يجهز
لهم الحمام للاغتسال . وبالفعل ذهبوا إلى الحمام . وفي نفس الوقف
أمر المعتضد البنائين بأن يبنوا جداراً على باب الحمام ، فمات هؤلاء القوم
اختناقاً . ونجا من هذه الحادثة معاذ الشهم ، وكان المعتضد قد استبقاه
دون غيره من أمراء البربر . وقد تأثر معاذ بالمصير الذي سيق إليه أولئك
الأمراء ، ولكن المعتضد هون عليه الأمر وطيب خاطره واستبقاه في أشبيلية حتى
وفاته . فمات في كنف المعتضد بعد ذلك (١).

وفي الحقيقة ان هذه الحادثة كانت تعد مغامرة وتمهـورا
من المعتضد أكثر مما تعد سياسة وحنكة . فقد حدثت هذه الحادثة في عام
١٠٥٣ / ٥٤٤٥ م ، وكان في تلك الفترة لم ينته بعد من نزاعه مع أمير لبـله .
فالمغامرة باستعداد تلك الإمارات الثلاث واستعداد حلفائهم الآخرين كبني
برزال في قرمونة وماديس بن عبوس بفرنناطة أمر يحصل طابع المغامرة .
وسنلمس رد الفعل لدى البربر فوراً .

الاستيلاء على إمارة زنـدة :-

رأينا أبا نور هلال بن أبي قرة بن دناس اليفرنى يتولى إمارة
زنـدة وتآكرنا ويؤسس بها إمارة مستقلة . وكانت تربطه والمعتضد صداقة
وطيدة وتحالف وثيق ، وعندما حدثت حادثة الحمام في عام ١٠٥٣ / ٥٤٤٥ م
كما رأينا تضاربت الأخبار حوله ، فرواية تقول انه قضى مختنقا مع زميليه
ابن نوح الدمري ، وان خزررون ، ورواية تقول ان المعتضد أطلق سراح

(١) : يراجع في أخبار هذه الأحداث : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ،
ص ٢٧٠ - ٢٧١ . - ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني -
المجلد الأول ، ص ٢٩ - ٣٠ . - على أدهم : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٧١ .

ابن ابي قرة لما كان يربطه واياه من أواصر الصداقة . أما أهل رندة فقد عينوا باديس بن ابي نور هلال حاكما عليهم ، ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب انه قام اثنا عشر توليه الامر بالكثير من المخازي وأنه كان فاسقا ماجنا ، ونسبت اليه جريمة فظيمة وهي اعداؤه على زوجة أبيه وعنته . ولعلنا نأخذ برواية صاحب الذيل فيما يتعلق بقضية ابي نور لأننا لم نعثر على رواية أخرى تشير الى هذه الاحداث . فيذكر أن المعتضد أطلق سراح ابي نور هلال بن ابي قرة في ظم ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م . فسارع الى امارته وقبض على ولده باديس وضرب عنقه . على أن ابا نور هلال بن ابي قرة ما لبث أن مات في نفس السنة . وخلفه في الحكم ابنه الاخر ابي نصر فتوح فاستمر يحكم البلاد حكما حسنا حتى ظم ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م . عندما فقد امارته . وخلاصة ذلك أن المعتضد ما عتم يجهك المؤمرات والدسائس على ابي نصر هذا حتى استطاع أحد اعوانه ويدعى ابو يعقوب (ولا نعرف أصله على وجه التحقيق وان كان يعتقد انه من العرب المتقدمين من البربر وحكمهم) أن يقوم مع جماعة من المساعدين برفع شعار الدعوة العبادية . فلم يرع ابو نصر الا والنداء بشعار المعتضد يصك الاسماع . فعظم عليه الامر ورأى أن يقتل نفسه انفة وعزة من ان يقع بيد المعتضد ورجاله . فألقى بنفسه من شرفة طالية في قصره فوقع على صخرة فدقت عظامه وتكسرت ومات اثر ذلك (!) واستتب الامر لابي يعقوب تابع المعتضد في المدينة . وكان فرح المعتضد بسقوط امارته رنده عظيما حتى لقد نظم قصيدة لهج بها ، وألزم الناس باللهج بها لمدة طويلة (٢)

الاستيلاء على امارته مورور :-

رأينا محمد بن نوح الدمري يقضى اختناقا في حادثة الحمام المذكورة ، وعندما بلغ الخبر الامارة بويج لابنه مناد بن محمد ولقب بعماد الدولة ، وقد توافد عليها الناس من المدن المجاورة لمورور فكثرت جمعهم وساس

(١) : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٣١٢ - ٣١٤ .

(٢) : من هذه القصيدة انظر :

ابن الابار : الحلة السبراء ، ج ٢ ، ص ٤٩ ، وح ١ من نفس الجزء ، ص ٥٠ .
صلاح خالص : محمد بن هار الاندلسي ، ص ٣٠ .

البلاد سياسة حسنة • ورأى المعتضد أنه لابد من التثنية بمورور • فبدأ
بسياسته التقليدية القاضية بشن الغارات المركزة على اعدائه • فشن حملاته
على اراضى ابن نوح الذى لم تكن له قناة • وكان كما يقول صاحب الذيل المذكور
(شجا فى حلق المعتضد) • بيد أن المعتضد ضيق عليه وحاصره
محاصرة شديدة • فاضطر ابن نوح الى التفاوض معه وعرض عليه أن يسلم
اليه البلد مقابل تأمين سلامته والخروج الى اشبيلية • ووافق المعتضد
بتهجاءه وغادر مناد بن محمد بن نوح امارته متوجها الى اشبيلية • فأكرمه
المعتضد واحتفى به احتفاء بالغا •

وهكذا انضوت مورور ضمن مدن مملكة اشبيلية اخيرا •
وكان ذلك فى طم ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م^(١) •

وانا كما قد اعتمدنا فى شرح تفاصيل هذا السقوط على صاحب
الذيل المذكور ، فاننا لانستطيع أن نوافقه فى كل ما يورده • فهو يذكر أن دولة
مناد بن محمد بن نوح الدمري من يوم ولادته الى أن خلع ثلاثين عاما • فاذا
كانت حادثة الحمام قد وقعت فى عام ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م كما أشرنا^(٢) ، وانما كان
مناد قد تولى الحكم اثرها كما يذكر هو نفسه (بويح له بمورور يوم موت أبيه)
فان مدة حكمه لاتزيد عن أربعة عشر عاما •

الاستيلاء على امارة قرمونة :-

كما قد تناولنا شيئا من الحديث عن امارة قرمونة من ناحية جغرافيتها
وظروف تكوينها السياسى • ورأينا حاكمها الحاجب محمد بن عبدالله البرزالى
يتولى امرها مذ حدثت الفتنة حتى عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م أى بعد وفاة القاضى
محمد بن اسماعيل • وهنا تضاربت الاقوال ، ورواية تقول انه مات ميتة طبيعية
فى هذا العام الذى ذكرناه ، ورواية اخرى تقول بسل انه قتل^(٣) • وهو ما نذهب اليه
نحن • فابن عذارى فى وصفه لحديقة الرؤوس التى أشرنا اليها آنفا^(٤) يقول

- (١) : مجهول : الذيل المضاف الى البيان المغرب ، ص ٢٩٦ •
- (٢) : انظر قبل ، ص ١٣٦ - ١٣٨
- (٣) : من الذين يعيلون الى الاخذ بتلك الرواية صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب ،
ص ٣١٢ • اما ابن عذارى فقد اخذ فى كتابه المذكور ص ٢٠٦ بالرواية الاخرى ،
وكذلك فعل ابن خلدون فى كتابه المذكور ايضا ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ •
- (٤) : انظر قبل ، ص ١٠٧

بأنه كان من جملة تلك الرؤوس رأس محمد بن عبدالله البرزالي . وفي وصفنا لاحداث تلك الموقعة التي دارت بين المعتضد والمظفر بن الانطس أشرنا الى مقتل العز بن اسحاق بن محمد بن عبدالله البرزالي^(١) ويقول ابن عذارى ايضا مشيرا الى هذا الحادث بأن رأس العز حمل الى اشبيلية ، وأضيف الى رأس جده محمد بن عبدالله البرزالي المختزن عنده^(٢) .

ومع أن ابن خلدون يشير الى مقتل محمد بن عبدالله البرزالي في العام الذي فكرناه وهو طم ٤٣٤ هـ ، الا أنه يخلط كثيرا في الاحداث والاسماء . فهو يقول في حديثه عن خلاف محمد بن عبدالله البرزالي مع المعتضد (فاتصلت الفتنة بينهم الى أن قتله ابنه اسماعيل ، خرج اليه في سرية فأغار على قرمونة ، وأكمن الكائن ، فركب محمد البرزالي في أصحابه واستطرد له اسماعيل الى أن بلغ به الكمين ، فخرج عليه فقتلوه وذلك في سنة أربع وثلاثين^(٣)) . ونحن نستبعد أن يكون اسماعيل بن المعتضد هو الذي قتل محمد بن عبدالله البرزالي ، وذلك لان المعتضد تولى السلطة في طم ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م . وكان عمره اذ ذاك ستا وعشرين سنة كما مر بنا . ومعنى هذا أنه كان يبلغ وقت مقتل ابن البرزالي سبعة وعشرين عاما . واذا كان قد انجب اسماعيل وهو لما يتجاوز السادسة أو السابعة عشرة من عمره ، فان عمر ابنه اسماعيل وقت مقتل ابن البرزالي يكون عشرة أو احدى عشر سنة ، وهي سن لا تسمح لصاحبها بقيادة الجيوش واكمان الكائن . واذا كان ابن خلدون يقصد اسماعيل بن القاضي محمد فان ذلك يعتبر خطأ أيضا . فاسماعيل قتل طم ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م كما ذكرنا ، وأبوه القاضي توفي طم ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م^(٤) .

(١) : انظر قبل ، ص ١١٩

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥ .

(٣) : المصدر السابق ، مجلد ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ١٠١

وأيا ما كان الامر فان محمد بن عبدالله البرزالي قتل على يد
المعتضد بن عباد في ظم ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م . وتولى حكم قرمونة بعده ابنه
اسحاق بن محمد . ويقول صاحب الذيل المضاف الى البيان المغرب المذكور سابقا ،
ان الذي تولى حكم قرمونة هو المستظهر عزيز بن محمد بن عبدالله البرزالي ، وان
أخاه اسحاق بايع له ^(١) وابن عذارى يقول في روايته لاحداث النزاع بين
المعتضد والمظفر بن الافطس أن اسحاق هو ابن محمد بن عبدالله البرزالي ^(٢) ،
على أنه يمؤد فيناقض نفسه مرة اخرى فيقول بأن الذي خلف أباه في الحكم
هو العز بن اسحاق بن محمد بن عبدالله ^(٣) . وفي الحقيقة انه لأمر محير فعلا
فكيف نستطيع تحديد من خلف محمد بن عبدالله البرزالي مع هذا التناقض
في اقوال مؤرخ واحد ؟؟ . ولكننا نميل الى اعتبار اسحاق هو ابن محمد
ابن عبدالله البرزالي ، والى أن العز هو ابنه . وهو الذي قتل وأضيف رأسه
الى رأس جده محمد بن عبدالله البرزالي . وذلك لانه عدا أن ابن عذارى
أشار الى هذا كما ذكرنا ، فان ابن الخطيب يقول بالحرف الواحد (فكتب
رئيسهم العزيز بن اسحاق بعد هلاك اسحاق ^(٤) فمن المعقول أن اسحاق
بعدهما مات ابنه العز عين أخاه العزيز وليا لمهده ، ثم توفي اسحاق
فخلفه ابنه العزيز . ويجوز أيضا انه قد حدث تحريف في ذكر الاسماء ،
فبدلا من أن يقول العزيز قال العز . ومهما يكن فقد رأى المعتضد أن
يتخلص من مضايقات امارة قرمونة القريبة جندا من طمتمه . واذ كان قد
تركها طيلة تلك الفترة فانه كان يخطط في قرارة نفسه للاستيلاء عليها
متى ما حانت الفرصة المناسبة .

ولذا فقد بدأ يضيق عليها اتباط لسياسته التقليدية
القائمة على انهك قوى الخصم واحراق أراضيها والعيث فيها فسادا حتى

-
- (١) : مجهول ، ص ٣١٢ .
 - (٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٥ .
 - (٣) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ص ٢٨٣ .
 - (٤) : اعمال الاعلام ، ٢٣٧ .

يحكم قبضته على العاصمة نفسها • وطلب ابن اسحاق البرزالي مساعدة باديس بن جوس ملك غرناطة وزعيم البربر قاطبة في ذلك الوقت وعدو المعتضد الرئيسي • فلبى دعوته وخرج بجيشه لملاقاة جيش المعتضد بقيادة ابنه محمد - المعتضد والظافر فيما بعد - • وقد انتهى هذا اللقاء بهزيمة باديس هزيمة شنيعة وانتصار المعتضد انتصارا عظيما جعل الشاعر محمد ابن عمار الاندلسي ينظم قصيدته الدالية التي يقول مطلعها :

ألا للمعالي ما تميد وتبدي وفى الله ما تخفيه غا وما تبدي

وهي قصيدة مجيدة تفيض مدحا بالمعتضد وابنه ، كما تفيض بنفصا وشماتا بالبربر وأمرائهم جدد فيها ابن عمار الشعور المتحكم بالعداء بين الاندلسيين والبربر • (٢) ويبدو أن جولة ثانية قد حدثت بين المعتضد وامير قرمونة ابن اسحاق البرزالي ضيق فيها المعتضد الخناق عليه كثيرا • وذلك في عام ١٠٦٧/هـ ٤٥٩ م • فلما بلغ منه الغاية ولم يعد يقدر على تحمل مضايقاته وحصاره رأى أن يكتب الى يحيى بن اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة معترفاً أن يتنازل له عن مدينة قرمونة وما حولها ، على أن يعطيه ابن ذى النون احد حصون ملكه ليخرج من جوار المعتضد ومضايقاته ويرتاح من ابن عباد • (فاتفقا على ذلك وخرج العزب بن اسحاق " العزيز " عن قرمونة الى حصن المدور • وكان من جملة بلاد ابن ذى النون ، فأخلاه له ، وحصل بقرمونة رجال ابن ذى النون •) (٣)

وإذا لم يدرك الشيء لدى المعتضد بالقوة والبطش فالدهاء كفيلا به • والمعتضد فى هذا لا يحتاج الى الوسيلة • فقد قام بخدعة سياسية ذكية للغاية ازرى بها بعقلية ابن ذى النون • ولننظر الآن فى عجب لما حدث

(١) : الذى بدأ يتحسس طريقه نحو بلاط المعتضد والعباديين جميعا • وسنتبين

بعدئذ عظم الدور الذى لعبه فى البلاط العبادى وخاصة بلاط المعتضد •

(٢) : صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسي ، ص ٤٠ ، و ص ٤٢ - ٤٣ (نص القصيدة)

(٣) : ابن عذارى : الصدر السابق والجزء ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، و ص ٢٨٣ •

يقول ابن عذارى (ولما بلغ ذلك ابن عماد كتب الى ابن ذى النون
فى السر يقول له : ان قرمونة قريبة من بلدى وهى أليق بى لانها بعيدة
عن بلادك فاصرفها الى وتكون يدى ويدك واحدة على مدينة قرطبة حتى
تكون لك ، وكانت مدينة قرطبة امنية ابن ذى النون فأجاب ابن ذى النون
فى ذلك وتوثق منه بالايمان وأخلى له قرمونة فرجعت لابن عماد فشحنها
بالاطعمة وقواها بالرجال . وغدر ابن عماد بابن ذى النون ولم يشف
له بشئ ، فاغتاظ ابن ذى النون ووجه الى قرطبة عسكريا عظيما (١)

وستتابع قصة هجوم ابن ذى النون على مملكة قرطبة فى
حد يثنا عن المتمد والعلاقات بين مملكتى طليطلة وقرطبة . وما يهنا هنا
هو ما صار اليه أمر قرمونة وسقوطها لقمة مستساغة فى فم المعتضد
الداهية .

الاستيلاء على امارة أركش وشذونه :-

لم يبق أمام المعتضد بعد قضائه على امارة رنده ومورور
وقرمونة سوى امارة أركش . فكما أشرنا فان أركش وشذونه قد استقل بها
ابان الفتنة بنى يربان الزناتيين . وقد ذكرنا آنذاك بأن محمد بن عدون
بن خرزون الخزرى أسس فيها دويلة لاسرته وقبيلته ، وعندما توفى خلفه ابنه
عدون بن محمد الذى مات مختنقا مع زميليه أميرى رنده ومورور (٢) وعندما
بلغ الخبر أركش تولى حكم الامارة اخوه محمد . ولم يشأ المعتضد أن
يجعل محمدا يهنا براحة بال وهدوء خاطر ، فحاصره وضيق عليه ،
بل واستحدث معه طريقة حربية للحصار وهى بناء حصن عسكري قريب
من عاصمته ووضع فيه الرجال والسلاح . وبذلك فقد وضعهم تحت رحمته .
وضاق بنو خرزون ذرعا بهذا الحصار الرهيب فراسلوا باديس بن حبوس
وفاوضوه على أن يخلو له أركش مقابل إعطائهم بلدا يسكنون فيه .
وبالفعل حصل الاتفاق وجهز باديس جيشا ضخما لمساعدة ابن خرزون .

(١) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٨٣ .

(٢) : انظر قبل ، ص ١٣٨

على أن الاحداث لم تات وفق ما يشتمى الحانساء ،
فقد كمن المعتضد بجيشه لبني خزرورن الخارجين عن المدينة على بعد عشرين
ميلا عنها . فتمرض له وحصلت بين الفريقين موقعة انتهت بهزيمة جيش
باديس وبنى خزرورن برئاسة زعيمهم محمد بن خزرورن وقتل فيها قائد جيش
باديس وابن خزرورن ايضا ^(١) . (وملك ابن عباد قلعة آرکش وسائر بلاد
شدونة وخطب له فيها ، واتصل نظره الى اول بلاد شرق الاندلس ،
ولم ينزل أمره يعلو ودولته تزداد نموا وظهورا الى أن قطع دابر أمراء
البرابره ، ولم يبق منهم سوى باديس بن حموس ^(٢) .

فشل المعتضد بالاحتفاظ بمدينة مالقة :-

كما قد تركنا مدينة مالقة تحت خلافة بنى حمود من
أبناء يحيى وادريس ابني على بن حمود ، وقتلنا وقتها ان الحرب الاهلية
بين ابناء المم قد طحنت البلاد وأدخلتها في دوامة من النزاع والقتال .
وقد تولي حكمها قبل سقوطها في يد باديس بن حموس ملك غرناطة محمد
ابن ادريس بن يحيى بن على بن حمود وتلقب بالمستعلى .

وكان باديس يوقب باهتمام بالغ تطور الاحداث والاضاع
في مالقة وهدما تولي الخلافة ادريس بن على خلفا لأخيه يحيى اعترف باديس
بسيادته وخلافته . وكذلك فعل مع من خلفه في الخلافة . غير أنه عندما
احتدمت الخلافات والانشقاق العائلي في خلافة بنى حمود بمالقة بدأ
باديس يتدخل في مناوئة فريق ضد فريق اخر . وكان يرى نفسه
أحق منهم بتمثيل البربر في الاندلس وانه أولى وأجدر برئاسة منهم .

وهدما تولي محمد بن ادريس بن يحيى الخلافة وتلقب بالمستعلى
رفض البربر في العاصمة مبايعته . فقد م باديس مسرط في عام ٤٤٩هـ /
١٠٥٧ م ليضع حدا نهائيا لانفلات الامور بالخلافة . واستولى بسرعة

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧١ - ٢٧٣ .

(٢) : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

على المدينة وضمها الى مملكته وغادرها أميرها طريدا . وانتهت بذلك دولة
بني حمود بمالقة نهائيا (١)

ويعمل حفيد باديس عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيوي (٢)
أسباب استيلاء جده على المدينة بعدة أسباب من بينها أنه قد استولى
على المدينة خوفا من أن تقع في يد غيره فيعمل على مضايقته وازطاجه ،
ويقول أيضا ان باديس سارع الى بناء قلعة حصينة شحنها بالعتاد
والسلاح تحسبا لأي طارئ يحدث له ولأسرته فيما لو أخرجوا من غرناطة (٣)

ووهي أن ينظر المعتضد الى هذا الاستيلاء بعين الجسد
والحسرة ، فلا يسره بطبيعة الحال أن تتزايد قوة عدوه وخصمه الرئيسي
البربري لما في ذلك من خطر عليه . على أن تلاحق الاحداث وانتهت بالحوادث
الجسام التي مرت بدولته وهدم تهيؤ الظروف الملائمة من جهة أخرى
لم تتح له توجيه جهوده الى مالقة والعمل على الاستيلاء عليها .

وواتته الفرصة الثمينة عندما بدأ تملل العرب فيها وتدمرهم من
حكم البربر ، ومن الطبيعي أن تتجه انظارهم الى بني عبيتهم العرب
واقوى ممالكهم واعظمهم ذكرا وهي مملكة بني عباد . ورغم أنهم كانوا
يستفزعون أعمال المعتضد وميرهبون سلطوته الا أنهم طمعوا في الاستعانة
به ضد البربر (٤) . بل وراسلوه سرا بأن يهت بهم جيشه للاستيلاء على
المدينة واخراج البربر منها ، وتعهدوا بنصرته وتأييده . والفعل جهز
جيشا الى مالقة بقيادة ابنه محمد الذي غدا منذ مقتل أخيه اسماعيل

(١) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣١ .

(٢) : عبدالله بن زيوي : التبيان ، ص ٤٣ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٤) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٣٩ .

وليا لمهد ابنيه • وقد شاركه في قيادة حملة مالقة أخاه جابر • (١)

حدث هذا في عام ٤٥٨ هـ / ١٠٥٦ م ولم يرع جيش باديس
الا والجيش المبادي يحاصر المدينة • وفي الوقت نفسه ثار العرب بالبربر
كما اتفقوا مع المعتضد • ولم يمض وقت قصير الا وقد استطاع الجيش المبادي
بمساعدة اهل المدينة العرب أن يستولى عليها • وهكذا جاء استيلاؤه على
مالقة أشبه بنزهة حربية عادية منها الى حرب حقيقية •

على أن محمدا بن المعتضد لم يستطع أن يحسم الموقف
مع الحامية البربرية التي كانت موجودة هناك • صحيح انه قد استطاع
ان يستولى على مالقة ، ولكن بقى عليه أن يجهز على الحامية التي اقتصمت
بالقلمة وصمدت امام ضربات جيشه • ويظهر أنه قد استهان بأمرها وبدلا من
التحوط والحذر الذين نصحا له بهما كبار أهل مالقة ، بدلا من هذا ركن
الى الانغماس في اللذات الحسية والمعنوية ولم يقيم بما يجب على أي قائد عسكري
فعله • فاذا كان لم يستطع القضاء على الحامية في الحصن ، فانه لم يدرك
مدى خطورة بقاء هذا الحصن خارجا عن سلطته ولذا فقد ترك للحامية
الفرصة لتجميع قواها وطلب المعونة من باديس •

وجاء رسلهم باديس تستنفضه وتستنجد به فلم يخب لهم
ظنا وبعث بجيشه الى مالقة واستطاع بجيشه ومساعدة الحامية الموجودة بالحصن
النيل من المباديين • وحصل السيف في رقابهم ، ونجا محمد وجابر

(١) : يحمل حفيد باديس ، عبدالله بن بلقين بن باديس بن زيوي في كتابه المذكور
سابقا ، ص ٥٨ على أهل مالقة ويقول (وكان حصول ابن عماد عليها لمداخلة
اهلها وميلهم اليه ، اختيارا له علينا على احسان المظفر رحمه الله
” المقصود به باديس ” وأنه وجدهم على أسوأ حاله • فأصلح من احوالهم
كثيرا وحمل فقائها ومقرئها على المطايا وأنزلهم على أفضل المراتب ،
ما كان مشهورا عنه في الاقطار ، اذ كانوا قبل في حال قلة وعلى غير
رتبه ، ثم كافؤه بما فعلوا) •

ومن الطبيعي جدا أن يمتدح ابن زيوي جده ويمجد صفاته الخيرة ، وأن
يضع الملامة على اهل مالقة ويتأسف على المعروف الذي أسداه جده
لهم •

ابني المعتضد بجلد يهما من موت محقق ، واعصما بمد ينة رنده في عدد قليل من الجيش (١) .

وأفاق محمد بن المعتضد من هول الفاجعة ، فكيف يشرح الامر لابيه وكيف يعرف رد فعله لفقده تلك المدينة المهمة وما حولها ؟؟ . وبدأ هذا الخاطر يلح عليه ويؤرقه . والفعل كان رد فعل أبيه غيفا ، فقد فكر في اعتقاله وسجنه . ولكن محمدا استطاع أخيرا أن يستميل قلب أبيه عندما نظم قصيدة رائية مكونة من أكثر من أربعين بيتا ، فرفعها الى أبيه مستجدا يا عطفه ورضاه . ولقد تمكنت تلك القصيدة بالفعل من أن تؤثر في نفس المعتضد وتلين قلبه على ابنه . فقد كان المعتضد كما يقول على أدهم (ممن يهزمهم الشعر) (٢) ، فدبج هذه القصيدة التي تفيض (شكوى وأسفا وحسرة وألما وهجاء واعتذارا وفخرا ، وفيها فوق هذا وذاك فلسفة وآراء في الحياة والناس) (٣) .

(٤)

ويقول مطلع هذه القصيدة :-

سكن فؤادك لاتذهب بك الفكر ماذا يعيد عليك البث والحدرد

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . ابن بسام :

المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٣٩ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٣) : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع : -

- ابن خاقان : قلائد المقيان ، ص ٢٠ - ٢١ . ابن البار : الحلة

السيراء ، ج ٢ ، ص ٥٦ - ٥٨ . صلاح خالص : المعتمد ابن عباد ،

ص ٣٨ - ٤٦ . رضا الحبيب السويسي : ديوان المعتمد ابن عباد

ملك اشبيلية ، ط ١ ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله

قبل أن نمضى سويا في تتبع نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله ، يحسن بنا أن نشير الى أن حركة الاسترداد هذه قد عمت جميع ممالك الطوائف وعلى الأخص الكبرى منها . ولم تسلم من هذه الممالك أى مملكة ، حتى مملكة اشبيلية رغم أنها قد ثبتت أقدامها على حساب ممالك الطوائف المجاورة العربية والبربرية كما سبق أن رأينا ، إلا أن مليكها رأى أنه لا طاقة له بالدخول في معارك حاسمة مع ممالك النصارى . ولذلك فقد اضطر أن يدفع الجزية للملك فرديناند ملك قشتاله اتقاء لشره كما سنرى بمرور قليل .

ولكى نلم بنشاط حركة الاسترداد في عهد المعتضد التى شملت معظم ممالك الطوائف يحسن بنا أن نلقى اضواءً عن المناخين السياسى والعسكرى السائدتين فى ممالك الطوائف الكبيرة وفى ممالك النصارى وسياسة هؤلاء اى ملوك ممالك النصارى الخبيثة فى الماضى قدما فى حركتهم الهادفة لاسترداد الاراضى الاسبانية شيئا فشيئا من يد المسلمين ، وهو الهدف الواضح الذى ظهر كسياسة رسمية محددة لملوك النصارى ابتداءً من عهد الملك فرديناند الاول (١)

وفى هذا المجال نحن مضطرون الى أن نعود الى التذكير بالوضع الداخلى فى الممالك النصرانية فقد مر بنا أن الملك سانشو العظيم توفى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٥ م مخلفا أربعة أبناء قسم بينهم مملكة الواسعة التى ضمت معظم اسبانيا النصرانية ، ولم يكن يشذ عن ملكه سوى اماره برشلونه فى الشمال الشرقى كما ذكرنا . وقد راينا ان يعطى حكم نـبـره لابنه غارسيا ، ويعطى حكم قشتاله لابنه فرديناند الذى استطاع بجهوده وبفضل ظروف عائلية حتمتها الوراثة أن يضم الى أملاكه مملكة ليون وجليقية بعد أن انتزعهما من يد آخر ملوك القوط الاسبان بعد طميين من وفاة أبيه سانشو العظيم ، ويعطى ابنه الثالث راميرو أرغونة ، ويعهد لابنه الرابع جنزالو (كونزالو) بحكم منطقة سويرابى وسار جارسيا فى أواسط جبال البرتات .

(١) : انظر : Jan Read : Op cit. , p 101-102

وبذلك تصدعت الوحدة التي حققها هو نفسه لاسبانيا النصرانية بعد جهد جهيد ، فقد نشبت بين الاخوة الاربعة المطاحنات والحروب ، وحاول كل منهم التوسع على حساب اراضي اخيه المجاورة بمساعدة حلفاء من المسلمين من الممالك الاسلامية المجاورة . وكانت الممالك الاسلامية التي تلامس حدودها حدود هذه الممالك النصرانية أو القريبة منها هي : مملكة سرقسطة في الشمال الشرقي ، ومملكة طليطلة في وسط البلاد ، ومملكة بطليوس في الوسط الغربي ، واخيرا مملكة اشبيلية .

وقد اصطدمت هذه الممالك في عهد المعتضد بالله بأبناء سانشو العظيم ، واضطر بعضها الى دفع الجزية لهم منفردين ، والى فرد يناد وحده اخيرا بعد لهه شمل بني جلدته ، واعادة بعض الوحدة لهم .

مملكة سرقسطة وعلاقتها مع النصارى :-

أشرنا في حديثنا عن قيام ممالك الطوائف أن مملكة سرقسطة شهدت حكم أسرتين عربيتين هما بنو تجيب ، وبنو هود الجذاميين . وقد اصطدمت كل من هاتين الاسرتين بالنصارى وكانت لهما معهم مواقف وأحداث . فقد أسس يحيى بن عبد الرحمن التجيبى في منطقة سرقسطة أو الثغر الاعلى في ابان سقوط الدولة الاموية لنفسه ولأسرته مملكة مستقلة تماما . وعندما توفي خلفه ابنه المنذر بن يحيى الذي لعب دورا هاما ابان ضعف الخلافة الاموية وظهور بنو حمود . فقد وقف مع بنو عصبته العرب الذين رشحوا للخلافة المرثضى المذكور سابقا ضد البربر وخليفتهم على بن حمود كما مر بنا سابقا . وقد استعان المنذر بفرقة من النصارى بقيادة رامويل بوريل أمير برشلونة . ولكن تلك الاحداث انتهت بهزيمة الفريق الاندلسى على يد البربر في عهد الخليفة القاسم بن حمود كما ذكرنا .^(١)

(١) : انظر قبل الباب الأول ، ص ٧٤

وفى الواقع فان حركة الاسترداد لم تكن قد تبلورت فى ذلك الوقت كحركة رسمية منظمة ، الا أنها كانت أمنية غالية عند ملوك النصارى لاسترجاع أراضيتهم من يد المسلمين .

ومملكة سرقسطة ذات موقع استراتيجى مهم . فقد كانت تحيط بها اماره برشلونه من الشمال الشرقى ، ومملكة نبره من الشمال ، وكونتية قشتاله من الغرب . ولذا فقد كان على حاكمها أن يسير فى سياسته مع هذه الممالك بسياسة حذرة واقعية . ولقد استطاع المنذر بن يحيى بالفعل أن يحقق هذا . فقد عقد مع ريمند الجليقى (رامون بوريل) أمير برشلونه ، وشانجه القشتالى (سانشو العظيم) ملك نبره محالفه وموادعة جنى ثمارها رغم معارضة أهل سرقسطة لذلك . وقد اثبت المنذر بذلك أنه كان سياسيا محتسبا حقا ، إذ أن هذه المعاهدة كانت غير الزامية له تفرض عليه تقديم أراضى أو حصون أو غير ذلك . فضلا عن أنه كان ذا نظرة واقعية ، إذ لمس أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا اذا ما داهمته قوى النصارى ولا سيما وأن سانشو العظيم قد استطاع أن يوسع مملكته فى ذلك الوقت . وهذا الشخصية الرئيسية فى أسبانيا النصرانية ، ويشاركة فى الزعامة رامون بوريل أمير برشلونه . ويحمد المؤرخون للمنذر سياسته هذه ويثنون عليه ، إذ حققت له حفظ أطرافه ، واستفاد أيضا هو نفسه منها . فقد اطلقت هذه المعاهدة يده فى مهاجمة بعض الكونتات (القومسات) الأسبان دون أن يخشى من ملكي المملكتين النصرانيتين القويتين اللتين مران ذكرهما . وقد عمل المنذر على أن يعقد فى بلاطه معاهدة بين البيتين المالكين فى اسبانيا^(١) ، وان كان هذا قد أغضب مواطنيه فانطلقت أسنتهم تعيب عليه ذلك وتقذحه . ولكنهم لم يتبينوا فائدة هذه المساعي الحميدة الا عندما خيم الهدوء على المملكة . فالتفت الناس الى البنيان الداخلى يشيدون ويننون . وقد استمرت الهدنة بين الفريقين الى أن مات منذر (وقد اعترف الناس لرأيه ، وأقروا لسياسته ، ولم يأت بعد من يسد مسده)^(٢) . إذ خلفه ابنه يحيى فى ظم ١٠٢٣/هـ ٤١٤م ، فتنكب سياسة والده

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد والصفحات .

مع النصارى ، الا أنه قد تراجع عنها بعد أن لمس خطورة ذلك • ولم يفده
عدوله عن سياسته الجديدة شيئا • فقد هاجم رامون بوريل حليف والده أراضيه ،
واضطر يحيى الى أن يتنازل له عن بعض القلاع والحصون • على أن يحيى توفى
بعد ست سنوات من حكمه ، فخلفه ابنه المنذر وهو الذي قتل على يد عبد الله
بن حكيم كما مر بنا • غير أن اهالى سرقسطة لم يرضو به ، واخيرا استقر
رأى الاهالى على استدعاء سليمان بن هود حاكم مدينة لاردة التابعة لسرقسطة ،
وعهدوا اليه بحكم المملكة • وكان ذلك فى طم ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م (٢) .

وباستيلاء سليمان على سرقسطة يبدأ عهد اسرة بنى هود
الجداميين • وفى عهده بدأت حركات الاسترداد تثقل كاهله وكاهل رفاقه
من ملوك الطوائف • وأسهم هو نفسه بسبب رعونته السياسية وأهدافه
الشخصية فى تلك الاحداث • وأتاح للنصارى تحقيق بعض أغراضهم • وقد
خاض مع مملكة طليطلة حربا لمدة ثلاث سنوات جرف فيها هو وملك طليطلة
الكثير من المصائب على المسلمين ، وهو ما سنراه فى حد يثنا عن علاقة مملكة
طليطلة بالنصارى • وقد توفى سليمان بن هود فى عام ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م مخلفا
خمسة أبناء قسم بينهم مملكته • وكان هذا خطأ سياسيا فى سلسلة اخطاء
ملوك تلك المصور الوسطى • يستوى فى ذلك ملوك الطوائف المسلمين ، وملوك
النصارى على فداحتهم وخطورتهم وضآلة نتائجه •

فقد قسم سليمان أعمال مملكته بين أولاده الخمسة • ونسب بين
الاخوة ما كان متوقعا أن يحصل من الحروب الدامية التى يقع السكان فى هذه
المناطق فى مغبتهما قتلا وتخريبا وتكليلا • وقد استطالت الحروب الأهلية

(١) : محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٢٦٨ •

(٢) : انظر قبل ، ص ٥٦

بين الاخوة وبالذات بين أحمد بن سليمان حاكم سرقسطة ، وأخيه يوسف حاكم لاردة (٢) .

ويحمل المؤرخون القدامى على أحمد بن سليمان الطقب بالمقتدر كثيرا - وحق لهم - ويعيبون عليه انتهازيته ووصوليته . فقد اتهم بمسء سياسته وتغلبه المصلحة الذاتية على المصلحة الدينية والقومية . ويهمننا هنا أن نتناول بالحدث الاحداث التي وقعت بين المسلمين والنصارى ، ومواقف ملوك الممالك الاسلامية منها كل فيما يخصه . فقد كان من جراء التنازع بين الشقيقين أن انضمت مدينة تطيله وهي تابعة لمملكة سرقسطة الى يوسف بن سليمان دون أخيه أحمد . وقد أوغر هذا نفس احمد على اهالي المدينة . وصدق أن داهم داهم الفلاء والمجاعة المدينة ، فعمل يوسف على أن يرسل لها من قاعدته مدينة لاردة مؤونة غذائية طجلة . وأرسل يوسف الى ابن ريمند (غازيا ملك ناسار) يطلب منه أن يسمح للقوافل بعبور بلاده الى مدينة تطيلة مقابل مبلغ من المال . ووافق ابن ريمند على ذلك . وكان السبب في ذلك أن يوسف اضطر الى هذا اضطرارا لصعوبة مرور القوافل في اراضي أخيه للنزاع الناشب بينهما . غير أن احقاد احمد ومطامعه جعلته يتنكر حتى لابسط البادئ الانسانية ، فراسل غازيا يطلب منه أن يسمح له بمهاجمة القوافل والفتك بها مقابل مضاغرة المبلغ الذي كان اخوه قد طاقده عليه .

ولسنا هنا في حاجة الى التذكير بما حدث ، فهو وصمة طار في تاريخ المقتدر ونقطة سوداء في صفحته . رغم أنها حققت على المستوى المنظور ما طمع اليه من تفتيت قوى أخيه ، واستعادة هيئته ومكانته . وقد أتاح أحمد بفعله

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) : (لاردة Lerida) : مدينة قديمة مرتفعة حصينة على وادي شقر Segre شرقي سرقسطة ، وفي منتصف الطريق بينها وبين برشلونة . ولاردة الآن مديرية قائمة بذاتها . أما في العصر الاسلامي فكانت القاعدة الثانية بعد سرقسطة في منطقة الثغر الأعلى .

انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٩٨ .

هذا ويدخوله في مشكلات وخلافات مع اخوته للنصارى التطلع الى مهاجمتهم وهم عن وحدتهم لاهون ، وفي أهوائهم ساد رون^(١) .

فقد حدث في ظم ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م حادثة شنيعة ترددت

أصدائها في كل الاندلس الاسلامية . ولم يخف أمرها عن اسبانية النصرانية ايضا . فقد تكون جيش في مقاطعة نورمانديا الفرنسية من الاردنانيين (النورمان) قدر عدده بمشرة آلاف فارس بقيادة البيطبين^(٢) (جيوم دي مونترى) قائد جيوش البابوية والدولة الرومانية المقدسة . فقد تكون هذا الجيش بناء على دعوة صليبية رفعها البابا اسكندر الثانى لمهاجمة المسلمين . وتحركت هذه الحملة من فرنسا وعبرت الى اسبانيا النصرانية عن طريق امارة برشلونة واتجهوا الى مهاجمة أعمال أول مملكة اسلامية في طريقهم وهى مملكة سرقسطة في هدف غير واضح . ولن ندخل فى تفاصيل

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) : البيطبين كما يقول ابن عذارى ، والبكرى أو البسطين كما يقول ابن الكردبوسه أو البيطش كما يقول الحميرى من الكلمات الغامضة فى التاريخ الاندلسى . ولقد كتب احمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس السالف الذكر ، ح ٢ ، مادة تاريخية مهمة حول هذه الكلمة ، وحول اسم قائدها . نسمح لأنفسنا هنا أن نجتزئ نقاطا مهمة منها . فأحمد مختار العبادى يميل الى الاخذ بترجيح رأى المؤرخ الهولندى دوزى من أن البيطبين هو القائد النورماندى جيوم دي مونترى *Guillaume de Montreuil* الذى كان قائدا لفرسان البابا الكسندر الثانى فى رومما *Alexander II* ١٠٦١ - ١٠٧٣ م والذى قاد باسم البابا حملة عسكرية لاختراع ثورة مونت كاسين فى ايطاليا . وقد نفى دوزى بهذا الترجيح أن يكون قائد حملة برشتر هو القائد روبرت كارسبين *Robert Crespin* كما رددته بعض المصادر المسيحية . وقد ناقش العبادى كذلك خطأ اعتقاد المؤرخ الاسبانى باسكوالدى جالنجوس من أن قائد تلك الحملة هو صاحب قشتاله ، وأن البيطبين هو تحريف للكلمة بطير أو البيطر أى بيدرو *Pedro* بالاسبانية . كما ناقش العبادى كذلك خطأ رأى المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال من أن المقصود بالبيطبين هو أسقف مدينة ليون الاسبانية آنذاك والذى كان يسمى فى ذلك الوقت البيطس *Alvius* .

وعقب ايراده لكل هذه الآراء يعقب العبادى بقوله (أما الروايات المسيحية الاخرى ، فهى كلها تشير الى أن هذه الحملة على برشتر وان كانت فرنسية نورماندية فى معظمها ، الا أنها صليبية مسيحية غامضة بشر لها البابا اسكندر الثانى فى ايطاليا وفرنسا واسبانيا .

ما حدث وما يعنينا هنا هو التذكير بما آل اليه أمر المسلمين في ذلك الوقت .
فقد جاء هذا الجيش الجرار الضخم ، فحاصر مدينة وشقة التابعة لمملكة
سرقسطه ، غير أنه عدل عن محاصرتها بعد قليل لطاعها . فساروا الى مدينة
بريشتر . وكانت تابعة ليوسف المظفر شقيق احمد المذكور . وضرب هولاء
الحصار على المدينة وضيقوا عليها الخناق . كل ذلك تحت سماع ونظر احمد المقتدر
بن سليمان الذي لم يحرك ساكنا ، وقد كان في استطاعته لو شاء أن يصد
هذا الجيش . كما أن اخاه يوسف لم يفعل شيئا لعدم قدرته على المواجهة ،
فتركا المدينة لمصيرها .

== وكان الهدف منها هو الاسراع في انقاذ دولتي أراجون وناثارا في شمال اسبانيا
من الخطر الاسلامي بمنطقة الثغر الاعلى ولاسيما بعد كارثة جرادوس Girauds
أو Girados التي قتل فيها ملك أراجون راميرو الاول سنة ١٠٦٣ م . على يند
المقتدر بن هود ملك سرقسطه . غير أن هذه المصادر المسيحية وان كانت قد
اتفقت حول هدف هذه الحملة الا أنها قد اختلفت فيما بينها حول اسم
قائد ها العام ، فالبعض يرى أنه النبيل الفرنسي *Elbes de Roucy* ، والبعض الاخر
يرى أنه الكونت بلدوين دي فلاندر *El Conde Balduino de Flandre* الذي كان وصيا
على فيليب الاول ملك فرنسا ، وأن قواد الفرق التي عملت تحت قيادته في هذه
الحملة هم :
١ - جيوم دي مونترولي *Guillaume de Montreuil* حامل شعار البابوية الذي
أرسله البابا على رأس فرقة من الفرسان الايطاليين .
٢ - سانشو رامير *Sancho Ramirez* ملك أراجون الذي خلف أباه المقتول
راميرو الاول .
٣ - الكونت أورخيل *Conde Urgel* ابن أخي ملك أراجون وقائد الجيوش
القطالنية .
٤ - البارون روبرت *Robert de Reims* قائد جيوش جنوب فرنسا مثل ولايتي
نورمانديا واكتانيا .
٥ - جى جيو فروا *Guy Geoffroi* قائد جيوش بواتييه وبوردو ومقية تلك
الجهات .
وسواء أكان قائد هذه الحملة الصليبية على بريشتر هو بلدوين أو خلاقه ، فالذي
يشير التساؤل في هذا الصدد هو أنه اذا كان اسم بلدوين قد اشتهر في الحروب
الصليبية في المشرق العربي وحرفه المشاركة الى بغداد وبن ، أفلا يجوز نفس هذا
الاسم قد عرفه الاندلسيين أيضا في المغرب العربي وحرقوه الى بييطين ؟)
انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧١

(١) -

وسقطت بريشتر بالفعل في أيديهم بفضل عدة ظروف كالخيانة والجوع والمطش وانتشار الأوبئة ، ولقى أهلها مصيرا سيئا للغاية ، وأعمل فيهم هؤلاء قتلا وفتكا وتنكيلا ، وعا حدث لهذه المدينة وأهلها نورد صورة تدل على ابتعاد هؤلاء عن الانسانية . فقد أمر قائد هذا الجيش أهل المدينة بمفادرتها والخروج الى خارج أسوارها ، فتزاحم الناس على الخروج منها . وعندما خرجوا جميعا هالت كثرتهم جيوم دي مونترى وأفوعته ، وخشى أن تشور في نفوسهم نائرة النخوة والكرامة ، فأمر جنوده بإطلاق السيف فيهم .

وأخيرا أمر رجاله بمهاجمة الدور واستلابها واستلاب أهلها . ومن أبشع الأعمال التي بسطتها كتب المؤرخين القدامى هي حادثة انتهاك أعراض بنات ونساء المسلمين في وحشية مقززة . يقول ابن عذارى في روايته لاحداث هذه المدينة البائسة (وكانوا يؤمذ يهتكون حريم أسراهم وبناتهم بحضرتهم ابلاظ في نكاحهم ويعبثون في الثيب ويفتضون البكر ، وزوج تلك وأبو هذه موثق في الحديد ، ومن لم يروض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لفلانته يعبثون فيهن . فبلغ الكفر يؤمذ منهم ما لا تحقه الصفة والحوول والقوة لله العظيم) (٢)

(١) : بريشتر Barbastro مدينة ومركز ادارى فى مدينة وشقة (الاسبانية)

تقع على نهر Cinca أحد نهيرات الابرة التابعة من جبال البرت

وتقع على ستين كيلومترا فى شمالى شرقى سرقسطة .

انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر السابق ، ح ٦ ، ص ٧٢ .

(٢) : عن احداث بريشتر يراجع :

- ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٤ - ٢٢٦ . - محمد عبداللوهان

دول الطوائف ، ص ٢٧٥ - ٢٧٩ .

- Jan Read : Op. Cit. , p 103 - 104 -

ويروى البكري الجغرافي المشهور عند وصفه لجغرافية بريشتر صورة مؤسفة لتلك الأعمال التي ارتكبها النورمان فيقول (وكان في عسكره ^(١) نحو أربعين ألف فارس ، فحصرها أربعين يوما حتى افتتحها وذلك في سنة ست وخمسين وأربعمائة ، فقتلوا عامة رجالها وسبوا فيها من ذراري المسلمين ونسائهم ما لا يحصى كثرة . ويذكر أنهم اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهم خمسة آلاف جارية وأهدوهن الى صاحب القسطنطينية ، وأصابوا فيها من الأموال والأمتعة ما يعجز عن وصفه .) ^(٢)

وينقل ابن عذاري عن ابن حيان ما بسطه في نقد مريو لاذع لأحداث هذه المدينة ويستشف برؤية المؤرخ النابيه ما سيحدث بعدها ، فيلفت النظر الى تدارك هذا . ولكن صيحته هذه ذهبت ادراج الرياح . فيقول (وطرق الناعى بها قرطبة في شهر رمضان ، فصك الأسماع وأطار الأفتدة ، وزلزل أرض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكعوا في التحدث به والسؤال عنه ، والتصور لحلول مثله أياما ، ولم يفارقوا ذلك عادتهم من استبعاد الوجيل والاعتزاز بالأمل والاستناد الى أمراء الفرقة المهمل الذين هم منهم ما بين فشل ووكل يصدونهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تنزل آفة الناس منذ خلقوا صنفين منهم كالمصالح فيهم الأمراء والفقهاء ، فلما تتنافر أشكالهم بصلاحيهم يصلحون وفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفء له ولا مخلص منه فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء أئمتهم صوت غمهم صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابيط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية في صدقهم فما القول في أرض فسد ملجها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها . هل هي مشفية على بوارها واستئصالها ، ولقد طمّ المجد لهؤلاء الأمراء ان لم يكن عندهم لهذه الحادثة الشنعاء في بريشتر الا القزع الى حفر

(١) : قصد البيطيين قائد الحملة .

(٢) : جغرافية الاندلس واوربا ، من كتاب (المسالك والممالك) ص ٩٤

الخنادق وتعلية الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان كاشفين لعدوهم
عن السوء السوداء من القائهم يومئذ بأيديهم اليهم أمور قبيحات الصور ، مؤذات
الصدور ، بأعجاز تحل الغير ،
أمر لو تدبرها حكيمة

اذن لنهي وسبب ما استطاع

فدهرنا هذا قد غرل أهله أشد غرله وسفسف أخلاقهم ، وخبث أعراقهم ،
وسفه أحلامهم ، واحتوى عليهم الجهل فلبثوا في غير سبيل الرشدي يمللون
أنفسهم بالباطل وذلك من أدل الدلائل على فرط جهلهم ، واغترارهم بزمانهم ،
وبعادهم عن طاعة خالقهم ، وغفلتهم عن سد ثغورهم ، حتى ظل عدوهم
الساعي لاطفاء نورهم ، يتجبح عراض دورهم ، ويستقرى بسائط بقاعهم ،
يقطع كل يوم منهم طرفا ويبيد أمه ، ومن لدينا وحوالينا مموت عن ذكرهم ،
لهة عن بشهم ، ما أن يسمع بمثله من مساجدنا أو محفل من محافلنا مذكر
لهم أوداع لهم فضلا عن نافر اليهم أو مواس لهم حتى كأنهم ليسوا منا
أو كأن فتقهم ليس بمفض لنا ، قد بخلنا عليهم بالدعاء فبؤنا بالعناء (١)

ولقد هزت هذه الحادثة ملوك الطوائف هذا وأيقظتهم من

سباتهم ، وكان أكثر هؤلاء هلمنا وخوفا أحمد بن سليمان المقتدر ، إذ رأى نذر
الخطر تقترب منه وتحيطه . فسارع إلى رفع نداء الجهاد في سائر بلاد
المسلمين . وهب هؤلاء إلى اجابة دعوته ، وتكون جيش كبير على وجه
السرية ، وتشكل من ملوك الطوائف الأخرى وحدها ستة آلاف من الفرسان وبعث
ملك اشبيلية المعتضد بكتيبة من خمسمائة فارس . وتوجه هذا الجيش سراعا
إلى برشتر التي كانت تقوم بها حامية من الأردنانيين تقدر بخمسة آلاف مقاتل .
وقد أصدق هؤلاء ربهم النية فحاصروا برشتر وضيقوا عليها وانتهى الأمر
بدخول المسلمين المدينة عوة ، وانتصارهم انتصارا باهرا . (فاستولى
المسلمون على المدينة وغسلوها من رجس الشرك وجلوها من صدا الأفك .) (٢)
وبذلك استطاع ابن هود أن يعيد الاعتبار لذاته ، وأن يسترد هيئته ومكانته المفقودة .

(١) : ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، وكذلك ح رقم ٥٤٤٣ من نفس الصفحة .

(٣) : ابن عذاري : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ .

ولم يقصر فرد يناند من جهته في مضايقة المقتدر احمد بن سليمان وابستزاه . يقول ابن عذارى (ثم ان الروم دمرهم الله استطلات أيد يهيم في مدة ابن هود على بلاد المسلمين بالشر الالى فأخذ معهم ابن هود فى اعطاء الجزية وصالحهم . فأخذ الطاغية كالذى رتبته عليه وقسمه على رعيته وعلى أهل عسكره (١) .

وعد ما توفى الملك فرد يناند طم ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م قسم مملكته بين ابنائه الثلاثة ، فأعطى ابنه الأكبر سانشو قشتاله وحقوق الجزية على مملكة سرقسطة ، وأعطى ابنه الثانى الفونسو ليون واستوريش وحقوق أخذ الجزية من مملكة طليطلة ، وأعطى ابنه الثالث غارسيا جليقية والبرتغال وحقوق الجزية على مملكتى اشبيلية وطليوس ، وأعطى ابنته اوراكا مدينة سمورة ، وأعطى ابنته الثانية البيرة مدينة توررو (٢) وقد عمل سانشو على أخذ الجزية من أحمد ابن سليمان المقتدر . ولم يجد هذا بدا من نفسها له بانتظام .

مملكة طليطلة وعلاقتها مع النصارى :-

كانت مملكة طليطلة تشكل هى وممالك سرقسطة وطليوس واشبيلية أكبر ممالك الطوائف وأقواها فى الاندلس كلها وكانت تخوض فى نفس الوقت مع بعضها البعض حروبا ومطاحات عسكرية للتوسع على حساب بعضها البعض للاستتثار بأكبر قدر من الاراضى وضمها اليها . وكان ذلك يتم كثيرا على حساب الممالك والامارات الاقل شأنًا والاصغر حجما . ولم تكف مملكة من هذه الممالك للوصول الى غاياتها بالتحالف مع مملكة اخرى ضد الثالثة فحسب ، بل وجهت انظارها للاستعانة بالنصارى ، واصبح شيئًا مألوفًا أن يعتضد كل فريق من المسلمين بفريق من النصارى ضد منافسيه من اخصامه والنصارى المتحالفين معه . ورغم أن ممالك النصارى كانت تعاني

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٢) : انظر : J. B. BUR4 , op. cit. , p 396

- Jan Read , op. cit. , p 101 - 102

- محمد عبدالله خان : دول الطوائف ، ص ٣٨٩ .

فى ذلك الوقت من الحروب الاهلية بين ابناء سانشو العظيم ، الا أنها كانت تسارع الى تقديم مساعداتها العسكرية اذا ما طلبت منها ذلك احدى ممالك الطوائف لانهاك قوى المسلمين من جهة ، ولابتزازهم والاستيلاء على ما بأيديهم من اموال وأراضى من جهة أخرى . ولم يتوقف هؤلاء النصارى عن العمل ضد المسلمين منفردين كل لحسابه الخاص ، غزاة مرات ، وطالبي جزية مرات أخرى . وسات غير مستغرب أن نجد فرديناند ابن سانشو يقف مع فريق من المسلمين ضد فريق آخر يقف معه اخوه غارسيا . وكلاهما تحصل على ثمن باهظ لتقديم نصرته .

وكان ذلك الخرق الذى فتح فى الكرامة الاسلامية الذى حدث ابان سقوط الدولة الاموية وقت أن استعان خلفاء الدولة الاموية الضعاف بالنصارى وهو ما أشرنا اليه سابقا وأوضحنا مدى خطورته وفداحة ثمنه . هذا الخرق ازداد اتساعا وشيوطا فى عهد ملوك الطوائف هؤلاء . اقتداءا لا يحمل الا سوء السياسة ووهن الايمان والخلق . حتى لقد بات ذلك الازلال المتمثل بالاستعانة بالنصارى ، المحور الذى دارت عليه العلاقة بين المسلمين والنصارى طيلة فترة وجودهم فى الاندلس وحتى خروجهم النهائي فى عهدى فرديناند وايزابيلا .

أشرنا فى حديثنا عن قيام ممالك الطوائف^{التي} أن اسماعيل بن ذى النون استطاع أن يؤسس لنفسه ولأسرته ملكا مستقلا فى طليطلة وذواتها . وعندما توفى خلفه ابنه يحيى بن اسماعيل وتلقب بالمأمون وقد بلغت طليطلة فى عهده عصرها الزاهى ، الا أنه كان على علاقة سيئة مع جاريه سليمان بن هود ملك سرقسطة والمعتضد بن عماد ملك اشبيلية ، وكذلك مع مملكة بطليوس . ولكن الخلاف الأشد وقعا والأكثر عداءا كان مع جاره من الشمال الشرقى ابن هود . وكان الخلاف على الحدود بينهما أبرز مشار النزاع المسلح ، بل هو لبس . فقد كان النزاع على الحدود والمناطق التى تمتد بين سرقسطة وطلطلة ، والمحصورة بين قلعة أيوب حتى مدينة وادى الحجارة^(١) تمثل نقطة الاحتكاك بينهما .

(١) : (وادى الحجارة Guadaluja) فى شمال شرق مدريد ، وكانت تعرف أيضا

بمدينة الفرج .

أنظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٧٢ .

وكانت مدينة وادي الحجارة بالذات تزو ببصرها الى الانضواء تحت سيادة
بنى هود ، رغم كونها تتبع جغرافيا لمملكة طليطلة^(١) .

ومن هنا نشب النزاع المسلح بين يحيى بن اسماعيل بن ذى النون
وبين سليمان بن هود . وهو النزاع الذى آثرنا التحدث عنه كما أشرنا سابقا
هنا . وقد دارت رحى حرب قوية بينهما ، وبدأ المأمون نكاية بسليمان
ابن هود بطلب المعونة العسكرية من فرد يناند ، على أن يقر له بالسيادة
ويتعهد بدفع جزية سنوية له . ووافق فرد يناند على دعوته وتأയിده ،
فأرسل كتيبة من جيشه للاعتداء على أراضى ابن هود المتاخمة لأراضى قشتاله .
ولم يمدد المأمون من جهته أى وسيلة لانهاك قوى عدوه اللدود ، فبعد
أن استعدى النصارى عليه ، هاجم أراضى سليمان بن هود لانهاك قواه
وتشتيتها^(٢) . وفى نفس الوقت سعى الى مخالفة المعتضد بن عباد والاعتراف
بدعوة خليفته هشام المزعوم نكاية أيضا فى عدوه اللدود^(٣) .

ولم يجد ابن هود هو الآخر بدا من أن يستعين بالنصارى
ضد عدوه فطلب المون . . . ومن؟؟ من فرد يناند نفسه ، ووافق هذا
على دعوته وتأയിده ضد ابن ذى النون حليفه أى حليف فرد يناند الى وقت
قريب . وقد رسخ هذا العمل المقولة القائلة بأنه ليس هناك فى السياسة
عداوة دائمة ، ولا صداقة دائمة بين الدول ، بل هناك مصالح دائمة^(٤) .
فكان أن أغار فرد يناند على أراضى ابن ذى النون ، وأثار هذا بطبيعة الحال
غضب المأمون فطلب من غارسيا ملك نبره وشقيق فرد يناند المعونة ،
فتفضل هذا وهاجم أراضى ابن هود . واستطاع أن يضع يده على مدينة
قلهره^(٥) فى عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م . غير أن غارسيا بدلا من

- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
 - (٢) : نفس المصدر السابق والجزء والصفحات .
 - (٣) : نفس المصدر السابق والجزء أيضا ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .
 - (٤) : مقولة مشهورة للسياسى البريطانى المشهور دزرائلى .
 - (٥) : (قلهره Calahorra هى الآن مركز ادارى فى ولاية لكروى
وتقع فى منتصف الطريق بين هذه المدينة الاخيرة وبين مدينة
تطيلة Tudela فى شمال غرب سرقسطة .)
- انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٧٤ .

أن يسلمها الى المأمون • احتفظ بها لنفسه (١) •
وهكذا فقد لجأ كل واحد منهما الى طلب معونة
النصارى ضد بعضهما البعض • وقد لجح سليمان في عهوه وظلمه • فهاجم
بمساعدة أعوانه من النصارى مدينة سالم التابعة لمملكة طليطلة • وهاجم
الاراضى التابعة لها • وقد أضرت هذه الغارات الوحشية بأراضى ومزارع
أهل طليطلة وألحقت بهم الخسائر • وقد تمنى اهل طليطلة على فرد يناد
أن يكف عن اعماله ويشفق بهم كما سألوه الصلح والمهادنة • بيد أنه اشترط
عليهم شروطا تعجيزية جعلت الالهالى يرفضونها • وقالوا لرسله انه لو
كانت لديهم الاموال التى طلبها لكانوا قد بعثوا الى البربر من وراء الصدوة
يستمدون عونهم • فكان رد فرد يناد ردا قاسيا واقعيا • يحمل طابع
السياسة التى حددها لاسترجاع ما يقدر عليه من اراضى اسبانيا • فقد
جاء فى رده عليهم (وأما استدعاءكم البرابرة فأمر تكثرون به علينا وتهدهون
به • ولا تقدررون عليه مع عداوتهم لكم ونحن قد صمدنا اليكم ما نبالى
من أتاننا منكم • فانما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قد يما فى أول أمركم •
وقد سكتموها ما قضى لكم • وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارجلوا الى
عدوتكم واتركوا لنا بلادنا فلاخير لكم فى سكتناكم معنا بعد اليوم • ولن
نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم) (٣)

-
- (١) : محمد عبدالله خان : دول الطوائف • ص ٩٩ •
(٢) : مدينة سالم *Medinaceli* تقع فى شمال مدريد بنحو ١٥٠ كلم
فى الطريق الذى بين مدريد وسرقسطة • وهى الآن من أعمال مقاطعة
سورية *Soria* • وقد كانت مدينة قد يمة عرفت فى العصر الرومانى
باسم *Ocilis* • وقد عمرها ابان الفتح الاسلامى لاسبانيا
زعيم مغربى يعرف بسالم بن ورعمال المصمودى • وقد عرفت منذ ذلك التاريخ باسمه •
وقد خربت المدينة كما يعتقد فى عهد الامير عبدالله بن محمد الاموى • غير أن الخليفة
عبدالرحمن الناصر أطد تمصيرها فى ظم ٣٣٥ هـ •
انظر • ابن الكردبوس • المصدر السابق • ج ١ • ص ٦٠ •
(٣) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء • ص ٢٨٠ - ٢٨١ •

وما لبث المأمون أن عاد وحليفه غارسيا يهاجمان أراضى ابن هود
ويعيثان فيها . وقد شغلت هذه الحروب المدمرة بأعصاب نفوس المسلمين
فى الملكين ردحا من الزمن ناهز ثلاث سنوات من طم ٤٣٥ حتى طم ٤٣٨ هـ .
فلم تنقطع الا بوفاة سليمان بن هود طم ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م . وعندما توفى
سليمان قسمت مملكته بين أبنائه الخمسة كما مر بنا ، وركن المأمون السى
الدعة بعض الشيعى .

وبعد أن استتب الامر لفرد ينادى اثار انتهاء الحروب الاهلية
بينه وبين أخويه غارسيا وراميرو ، تطلع الى العمل منفردا لحسابه الخاص
هذه المرة . فهاجم سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م اراضى مملكة طليطلة وألحق
بها خسائر فادحة . واضطر المأمون الى طلب الهدنة ودفن الجزية صاغرا .

وكان المأمون رجلا أعتقه الاهواء الشخصية والطمع فى
توسيع رقعة دولته . ولذا فقد اختلق مع عبد الملك بن عبد العزيز بن ابى طمر
ملك بلنسية خلافا . وعمل من ثم على مهاجمة مملكته وضمها الى مملكة
طليطلة . ولا يهمننا هنا من تفاصيل ذلك الا ما صنعته المأمون من طلب المساعدة
والعون من الملك فرد ينادى المستعد فى كل الاوقاف لتلبية طلبات العون والنصرة .
ينقل ابن عذارى عن ابن يسام شرحه لتفاصيل هذه المعونة فيقول : (١) وفى هذه السنة كانت
وقعة بطرنة من نظر بلنسية وذلك أن قطعة من الروم زلفت الى بلنسية ،
فأناخت عليها وأهلها يؤمفد جاهل غر أو مترف مفر قد خلوا بشهواتهم ،
وانخذعوا باغواء الدهر عن غراتهم ، مقفلين للتدبير ، غافلين عما يتماور
اطرافهم من التخوير ، فطار بهم الذعر كل مطار ، سارت عن زعمائهم فى
ذلك أعجب أخبار . ثم كابد هم العدو باظهار الاضطراب والاستتار عن
عيونهم ببعض تلك الهضاب استدرأجا لهم واستطرادا . وجدا فى
طلب مكروهم واجتهادا ، فماج رعاعهم وتنادى بالنفير مهنتهم وصناعهم . (٢)

(١) : أى سنة ٤٥٥ هـ .

(٢) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

ثم يعرّف ابن عذارى فينقل عن ابن بسام ندمه لأمره الاندلس في ظل عبد الملك فيقول: (١) وساعد أولئك الرعاع الحائنين أميرهم يومئذ المتوفى عبد العزيز بن أبي عامر فخرج بالعير والنفير ، والجمل النفير يحسب الطعن كالقيل ، وبطن السيف كالقيل ، ويتخيّل صليل الحسام بين القصرتين والهيام ، ما كان اتسع له ذرعه ومرن عليه سمعه ، من نغم الأوتار وترنم الاطيار فلم يرع العدو ويومئذ الا خروج أهل بلنسية الأغمار والاقبال ، الى تلك المصارع والاجبال يمشين مشى قضا البطاح تأود اهيف الخصور رواحج الاكفال ، فظفر المدو ويومئذ بهم ، فأتاهم من ظهورهم فحكم السيف في جمهورهم ولم يبق الا من أحرزهم أجله ، وخفى على سهم النية مقتله (٢) وينقل لنا المقرئ (٣) عن ابن بسام قول بعض الشعراء في أهل بلنسية حين خرجوا في ثوباب الزينة والترفة فيقول :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بهما لو لم يكن ببطرنة ما كانا

مملكة بطليوس وعلاقتها مع النصرى : -

بعد أن استطاع فرد يناند ترتيب بيته وحل مشكلاته مع أخويه ، تفرغ لمهاجمة أراضي المسلمين تحقيقا لاهدافه في استعادة أراضي الآباء والأجداد ، فاصطدم بمملكة بطليوس التي تقع بين نهر التاجة ونهر دويوه . وقد فضل مهاجمة منطقة بعيدة في شمال غربي هذه المملكة وهي منطقة لامبيجو الواقعة في البرتغال الحالية ، واستولى عليها بالفعل . ثم اتجه الى مدينة بازو Vizeu ، ولم تجد استماتة أهلها في الدفاع شيئا ، فسقطت بين يديه ولم يستطع ابن الافطس فعل أي شيء (٤) .

ورأي فرد يناند أن ينتهز فرصة الخصومة المشتعلة بين ابن

الافطس وخصمه ابن عباد في الشرق ، وابن ذي النون في الشمال . فحاول

(١) بل هو عبد الملك لأن أباه عبد العزيز توفي عام ٤٥٢ هـ والموقعة حدثت عام ٤٥٥ هـ . انظر : محمد عبد الله عثمان : دول الطوائف ، ص ٢٢٣ .

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٣) : نفع الطيب ، ج ٦ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٤) : انظر : J.B. Burky. Op. cit. p. 395

ابتزازه بطلب الجزية ، الا أن ابن الاطس رفض طلبه • فجهز فرد يناند جيشا ضخما عين عليه أحد قادته ، وقصد هذا الجيش مدينة شنترين ، ولم يجد ابن الاطس امام هذه الهجمة النصرانية بدا من أن يعقد هدنة مع فرد يناند • وتمهد له بموجبها بدفع جزية سنوية مقدارها خمسة آلاف دينار^(١) .

وكانت أنظار فرد يناند تذهب بعيدا نحو مدينة قلمرية الاستراتيجية أعظم مدن البرتغال التي فتحت في عهد المنصور ابن ابي طمر عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م وكان يليها من قبل ابن الاطس رجل يدعى رانده • فتوجه فرد يناند نحوها في عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م وحاصرها محاصرة شديدة استطلت الى ستة شهور • واخيرا استطاع فرد يناند أن يشتري ذمة رانده وأمانته • وجرى الاتفاق بينهما على أن يخرج رانده بأهله وأمواله سالما من المدينة مقابل تسليمها له • ودهسى أن يفت غيابه عن المدينة في عهد أهلها ، فعرضوا على فرد يناند التسليم مقابل الأمان ، الا أنه رفض وضيق عليهم الخناق حتى استطاع بعدئذ أن يقتحم المدينة عنوة • وقد ارتكب جنوده من صنوف البذاءة والتكيل بما يدرج في مصنقات الأعمال الوحشية^(٢) • وقد ولى فرد يناند على المدينة حاكما من قبله هو الأسقف سشندو الذي نشأ وظهرت ألمعيتة كرجل من المتعربين في بلاط المعتضد بالله • غير أنه ترك بلاط المعتضد فارا بنفسه والتحق بفرد يناند حيث دخل في خدمته • وقد ولاه أخيرا حكم مدينة قلمرية ومنحه لقب الكونت أو الوزير^(٣) .

ومعد ذلك شرع فرد يناند من فوره في الاستيلاء على الاراضى الواقعة بين نهر دويوة ومينو (مندريجو) وذلك تنفيذا لخطته المذكورة الهادفة الى اجلاء المسلمين عن حدود مملكته شيئا فشيئا^(٤) .

-
- (١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .
 - (٢) : نفس المصدر السابق والجزء ٥ ، والصفحات .
 - (٣) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٨٦ .
 - (٤) : عن توسعات فرد يناند على حساب الممالك الاسلامية انظر :

- J. B. Bury : Op. Cit. - p. 395 - 396

مملكة اشبيلية وعلاقتها مع النصارى :-

= لم تسلم مملكة اشبيلية من هجمات الملك فرديناند الذى كان يفيض حماسة وانه فاط دينيا عظيما . ففي عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وهو العام الذى هاجم فيه مملكة بطليوس هاجم اراضى المعتضد وغزاها . واضطر المعتضد الى التوجه لمعسكر الملك النصرانى ، فقد م له الهدايا الثمينة ودفع له الجزية التى فرضها عليه بعد أن اخذ بمشورة الفقهاء فى مملكته .

ويقول دوزى : ان فرديناند عندما رأى رأس المعتضد وقد اشتمل شيئا وتجلله هاله من الوقار - رغم أنه لم يتعد السابعة والاربعين من عمره - أشفق عليه من تكديرو خاطره بانتزاع شئ من اراضيه . ولكنه طلب اليه أن يسلمه رفات القديسة (جوست) العذراء التى قتلت فى عصر الاضطهاد الرومانى . ووافق المعتضد على هذا ، وقفل فرديناند طائفا الى ليون ، وبحث باثنين من الاساقفة لتسليم الجزية ، وتسلم رفات القديسة . على أن الاسقف (الفينوس) فشل فى العثور على رفات القديسة المذكورة ، على أنه نقل عوضا عن رفاتهما ، رفات القديس (ازيدور) مشيحا باجلال المعتضد (١) ورجاله . واستمر المعتضد يدفع له الجزية السنوية بانتظام . وبعد وفاة فرديناند وحتى وفاة المعتضد فى عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م كانت الجزية تدفع بانتظام الى سانشو ابن فرديناند ملك جليقية الذى عهد اليه والده أيضا بأخذ الجزية من مملكة اشبيلية (٢) .

وفى الحقيقة لقد كانت سنوات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ هـ /

١٠٦٣ - ١٠٦٥ م سنوات صعبة فى تاريخ المسلمين عموما فى الاندلس . فقد شهدت هذه السنوات الهجمة النصرانية الشرسة على معاقل المسلمين . فانتزعت منهم ما قدرت عليه من المدن والحصون ، وان كان بعضهم قد استرد بعد قليل مثل برشتر .

(١) : ملوك الطوائف ، ص ١٧٢ - ١٧٥ .

(٢) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٧٢ .

وقد أصاب الهلع والجزع ملوك الطوائف ، وغضوا بالهجوم المسيحي كثيرا . وعمت موجة من المرارة والتأسي المسلمين مما دفع بعض المفكرين والادباء والشعراء الى دعوة أمراء المسلمين الى التكتف والتعاقد ونبذ الفرقة والخلاف .

وإذا كانت لم تسلم مملكة من الممالك الثلاث وهي سرقسطة وطليلطة وطلليوس من فقد بعض أطرافها على يد ملوك النصارى ، فان مما يحمد للمعتضد أنه لم يحدث في عهده النزول عن أى طرف من أطراف مملكته . كما أن مما يحمد له أنه لم ينساق كما انساق غيره من ملوك الطوائف الى الاستعانة بالنصارى فى سبيل أهداف ذاتية . فيكاد يكون الوحيد من بيتهم الذى لم يطلب معاونة النصارى ضد خصومه المسلمين . على أن هذا لا يجنبه المؤاخذة ويعفيه من المعرة ، إذ لم يسلم شأنه شأن غيره من ملوك الطوائف من معرة دفع الجزية عن يده وهو صاغر . كما أن مما يعاب عليه أنه قد ترك أخوته من المسلمين يواجهون هجمات النصارى الشرسة دون أن يسارع الى تقديم نصرته ، وهو الذى كان فى ذلك الوقت أقوى ملوك الطوائف على الاطلاق ، وكانت مملكته أقوى وأكبر ممالك الطوائف تلك . فقد كان فى وسعه أن يقدم نصرته الى اخوته ، وكان فى وسعهم كلهم أيضا الوقوف أمام هذه الهجمة النصرانية .

ولكن كيف يحدث هذا ؟؟ . وأحد هؤلاء يحارب اخوته ، وثانيهم ينشغل بتوسيع مملكته على حساب جيرانه ، وثالثهم منشغل بتشبيد القصور والمجالس منصرفا الى تدويقها وتأنيقها عن كل خطب وحدث .

ولقد حفظ لنا ابن بسام عن المأمون بن يحيى ملك طليلطة صورة تدل على فرط الاهمال وعدم البهالة والاكتراث ، والانشغال بالمترفات والشهوات فى وقت كانت تهاجم فيه أراضى جيرانه سكان بطليوس على مسمع ومرآى منه . وكان جل اهتمامه منصبا حول انتهاء أعمال البناء والتدويق فى قصره الفخم المكرم الذى كان يشيده آنذاك .^(١)

(١) : انظر ، المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١١٤-١١٥ .

ولقد نذب كثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والمفكرين أنفسهم لتبنيه ملوك الطوائف وتحذيرهم ولفقت أنظارهم للأخطار المحدقة والقادمة • وتطوع بعضهم الى التجوال لدى ملوك الطوائف بهذا الخصوص • ومن هؤلاء الشاعر الأديب أبو حفص الهوزنى - الذى سنعرض له قادمًا عند الحديث عن الحياة الأدبية فى اشبيلية ان شاء الله • فقد كان صادق الايمان والحس جريئًا فى الحق • فبعث الى المعتضد برسالة شرح له فيها حالة المسلمين السيئة مع النصارى ، حتى لقد خشى على الاسلام والايمان أن يصيبهما الاغتراب والانقراض • وقال له ان الحكام فى عقولهم سادرون ، والناس ذهول وخنوع ، كما طلب من المعتضد وتوسل اليه مؤملا انقاذ الوضع واستدراك الأمر ، كما طلب منه أن يقود الجيوش ويترأس الطلائع والجنود لتخليص المسلمين من النصارى • وهى رسالة طويلة تمثل معاناة الشعب فى ذلك الوقت • ولم يكن الوزير أبو حفص هو وغيره الا ضمير تلك الأمة وصوتها المسلم^{الراعى} الذى تعالى لاستدراك ما يمكن استدراكه^(١).

ونورد فيما يلى بعضا من تلك الأبيات التى نظمها الأديب الهوزنى مستحثا الحكام للجهاد وداعيا للاجتماع والوحدة ومتأسفا على وضع المسلمين المزرى :

أيا أسفا للدين ان ظل نهبية	بأعيننا والمسلمون شهود
أفى حرم الرحمن يلحد جهرة	ويجعل اشراك الاله شهود
ويشعل بيت الله بين بيوتكم	وقادرة عن رد ذاك قعيد
ويوضع للرجال بيت بمكة	ويخفى عليكم منزع وقصود
أعيدكم أن تذهبوا فيمستكم	عقاب كما ذاق العذاب شمود
وأقبح بذكر يستطير بأرضكم	يؤم به أقصى البلاد وفود

وقال أيضا :

تبارك من تفرد بالبقاء	وأسلك خلقه سبيل الفناء
وشتت شملهم بعد انتظام	وكدر ورد هم اثر الصفاء

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٧٥-٧٠ •

(٢) : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ٧٨-٧٩ •

وقد أيقظت هذه التحركات من قبل العلماء والفقهاء بعض ملوك وأمراء الطوائف ، ونهتهم الى ما يحدث . وقد بعث المعتضد برده الى الوزير أبي حفص بما يؤكد احساس المعتضد بخطورة الحالة السياسية في الاندلس . ومن فصول رسالته لأبي حفص : (١٠٠٠) ما سمعت بصحة دينك وبرد يقينك حتى نظرت الى ما دهم المسلمين من كلب العدو عليهم ، يجوسون البسيطة من ديارهم ويستبيحون المحوط من ديارهم . ليس الى الانقياد عن احكامهم دفاع ، ولا سوى الانحياز من امامهم امتناع ، قد تبين لهم أن تخاذلنا لهم علينا ناصر ، وتواكلنا مظاهر مؤازر ، فلا يعدون من يتخلى لهم عن بلد ويمطئهم الجزية عن يد ولو شاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضكم ببعض . (١)

ثم يقول أيضا (وأما ما نددت اليه ، وحضت عليه من اجهاد السعى فيما يجمع المشركين بدد هم الله ، ويجمع كلمة المسلمين . فيعلم الله أنى قد ناجيت بذلك وناديت ، وراوحت وغاديت ، وبثشت رسلى الى ذلك داعين ، ويصلون التفكير ، ويؤكدون التبصرة ، ويتلون المواعظ ، ويستثيرون الحفائظ ، فصمت المسامح ، واتفتت في التناقل المنازع ، وخلج بالخذلان ، وتجاوزت الجمجمة في ذلك الى الاعلان ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) . غير أننا في الحقيقة لم نجد ما يؤكد كلام وجهه المعتضد هذا الذى أشار به .

كما احتفظ لنا الفتح بن خاقان برسالة ابن طاهر صاحب مرسية الى المعتصم بن صمادح أمير المرية يبدى فيها القلق والتأسى لأحوال المسلمين ، وكيف ضيق عليهم أعداء الله الخناق ؟؟ ، ومن فصول هذه الرسالة (فليندب الاسلام نوادبه وليبك له شاهده وغائبه ، فقد طفى مصباحه ووطئ ساحتة وهيض عضده وغيض غده . الى الله نفضع واليه فى

-
- (١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٩٩ - ١٠١ .
(٢) : خلج يخلج من انتزع ينتزع .
انظر الفيروزابادى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ .
(٣) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد أعلاه ، ص ١٩٩ - ١٠١ .

طارق الخطب وفتابه ، ولا حول ولا قوة الا به • وهو فارج الكرب وناصر
الحروب وظلم الغيوب ، لارب سواه ، ذلك أن فرد يناد وقمه الله نزل على
قلمة أيوب محاصرا لمن فيها ومنيرا على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء ،
وتساقط لملاحظاتها الأعضاء ، وأنه قد بنى على قصد جهاتنا ووطئ
جنباتنا ، الا أن يدرأ الله في نحره ، ويحصى من شره • وغرسه دمه
الله بسرقسطة ، ووزمير أهلكه الله بوشقه وما والاها ينكى بما يبكى ،
والمسلمون بينهم سوام ترتع ، وأموالهم نهب توزع ، والقتل يأخذ منهم
فوق ما يدع ، فأطل الفكر في هذا الحزم الداخل والبلاء الشامل ،
وأسبل العبر وأطل العبرة والله المرجو لتلاقي الأمة ، وكشف هذه
الغمة بمنه • (١)

أما الشاعر الأديب أبو القاسم خلف بن فرج الالبيري المعروف
بالسميسر ، أحد شعراء عصر ملوك الطوائف آنذاك وأحد أبرز أصوات
المعارضة لملوك الطوائف ، فقد قال في نقد مريو لاذع :

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الاسلام فــــي	أسر العدا وقعدتم
لاتكروا شق العصا	فقصي النبي شققتم

وقال أيضا :

رجونا كم فما أنصفتموننا	وأملناكم فخذتموننا
سنصبر والزمان له انقلاب	وأنتم بالاشارة تفهموننا

كما انتدب القاضي أبي الوليد الباجي نفسه للدعوة للجهاد والحض عليه -
وسنعرض له قادمًا ان شاء الله - فتطوف بممالك الطوائف يدعو الى الوحدة
والتآلف ، غير أنه لم يوفق في دعوته ، فقد قابلها ملوك الطوائف بفتور وسرود
شد يد بين •

وهكذا فقد شهد عهد المعتضد بالله اشتداد نشاط حركة الاسترداد
بشكل لم تسلم منه أي مملكة من الممالك اطلاقا ، اللهم الا مملكة اشبيلية التي سلمت
لها اطرافها • ولكنها بالمقابل لم تسلم من دفع الاتاوة والجزية عن يد للنصاري
كما ذكرنا •

(١) : قلائد العقيلان ، ص ٦٥ - ٦٦
(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ،
(٣) : انظر بعدا الباب الخامس ، ص

حياة المعتضد الخاصة ووفاته

تناولنا في حديثنا عن شخصية المعتضد بالله وآراء المؤرخين به جوانب سلوكية منفردة أشرنا الى أنها قد حتمتها عليه خلال غريزية في احيان ، وظروف اضطرارية في احيان اخرى ، ونهج لا يخرج عن روح العصر في معظم الأحيان .

ونحن هنا نعود لاستكمال الحديث عن شخصية المعتضد بكل جوانبها وما لها أو عليها لرسم صورة دقيقة لهذه الشخصية المميزة في تاريخ الاندلس كله في ذلك الوقت .

والجانب الاخر من شخصية المعتضد هو ذلك الذي يتعلق بالحياة الخاصة له في بلاطه وخارجته . وسنقتصر في حديثنا عن هذا الجانب على شئ من اعماله في دولته ، إضافة الى ما سنعرض له من وصف لحياته العائلية وشيئا من صفاته الشخصية كذلك .

ونحن لانعلم بالضبط وصفا مفصلا واضحا عن أعماله الداخلية والمشاريع العمرانية والمدنية في مملكته . الا أننا لانتصور بأن دولة كانت اعظم ممالك الطوائف على الاطلاق في ذلك الوقت مساحة وثروة وجاها الا ولا بد أن تكون قد حققت الكثير الكثير بالنسبة للمرافق العامة في البلاد في كافة المجالات . بحيث غدت اشبيلية ازهى ممالك الطوائف وأوسعها ثراء وأعرقها حضارة ورقى .

ويجمل ابن البار وابن بسام فيما ينقلان عن ابن حيان اعماله الداخلية تلك بقولهما (ولم يقصر عباد في دولته التي مهدها فوق أطراف الأسننة ، وصير أكثر شغفه فيها ، شب الحروب وكياد الملوك واهراج البلاد واحراز النداء ، من توفر حظه الأوفر في الامور الملوكية والعدد السلطانية والآلات الرياسية ، فابتنى القصور السامية ، واغمر العمارات المفلة ، واكسب الملابس الفاخرة وغالى الأطلاق السنية ، وارتبط الخيول السابحة ، واقتنى الغلمان الروقة ، واتخذ الرجال الذادة ، تنقاهم من كل فرقة .

(١) فساس طبقاتهم ما بين ادرار الاعطية وضمان الزيادة .

تلك هي أهم أعماله الانشائية . أما بالنسبة للسياسة الداخلية فيبدو أن المعتضد كان يتوجس خيفة من المحيطين به . وكان يعتمد الى اضعافهم وتشتيت قواهم ونفوذهم . وقد مر بنا أنه قد قتل حبيباً (٢) وزيراً به ربما لانه قد شعر بأن نفوذه أخذ يتعاضم . كما أنه شرع يعمل على قطع دابر وزرائه . فمنهم من قتله صبرا ، ومنهم من نفاه عن البلاد ، ومنهم من أماته خمولا وفقراً (٣) . وربما يعود هذا الى أنه لم يكن يطيق سماع أصوات المعارضة بالاضافة الى أنه كان يأخذ بالظنة . كما أنه لم يكن مأمون الطوية ، فقد كان يوصف بالندر والاخفار للذمة . وسنرى بعد في حد يثنا عن الحياة الادبية القادمة أنه قضى على عدد من وزرائه وأدباء بلاطه . وأن البعض منهم قد استطاع أن يتحاشاه ويفر من وجهه (٤) .

على أنه كان يتمتع بصفات أخرى حسنة . فقد اتفق رأى المؤرخين على أنه كان يتميز بالسخاء والجود والكرم . فابن عذارى وابن الأبار ينقلان عن ابن حيان قوله (فجمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود كنف بارى بها السحاب) (٥) ، وابن القطان فيما ينقله عن ابن عذارى يقول (وكان يغلب عليه الجود . فلا يعلم في نظرائه أبدل منه بالمال) (٦) .

وقد نظم هو نفسه في مناسبات عدة جملة من الاشعار يفخر فيها بكرمه وجوده وسخائه . وسنعرض قادم الى هذه الاشعار

-
- (١) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٠ - ٤١ . الذخيرة ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ١٦ .
- (٢) : انظر قبل ، ص ١١٥ .
- (٣) : عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥١ - ١٥٢ .
- (٤) : انظر بعد الباب الخامس ، ص
- (٥) : البيان المنرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٧ . الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٢ .
- (٦) : البيان المنرب ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

ان شاء الله • ولسنا هنا في حاجة الى كبير ذكاء نستخلص من هذا الجود الفائق دوافع واهداف سياسية واضحة بجانب ذلك الميل الفريزي • فالمعتضد يتقن من تلك الحكمة القائلة : من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد الكثير الكثير •

وكان ذا اهتمام بالادب والشعر والمعرفة • وكانت سوق الادب كما يقول المؤرخون عادة غده نافقة^(١) وكان هو نفسه ينظم الشعر ويتذوقه ويعطى عليه الاعطيات ، وسنعرض ايضا الى هذا غده حد يثنا عن الحياة الادبية •

والاضافة الى تلك الخصال التي ذكرناها ، فقد كان حازما قويا في ممارسة اعماله وشؤونه فقد (جرد نهاره لابرام التدبير ، واخلص ليله لتملى السرور ، فلا ينزال تدار عليه ككوس الراح ويحيا عليها بقبض الارواح التي لا تناسيه من اعدائه •)^(٢) ويقول ابن القطان فيما ينقله ابن غزاري ايضا (وكان يغلب عليه الجد)^(٣)

ويقول هو عن نفسه بأنه قد قسم يومه ولياليه بين تصريف شؤون الدولة والاهتمام بوسائل المتعة والأنس • ولم يكن في الحقيقة بدعا في هذا الشأن عن غيره من ملوك الطوائف • وكان لا يصبر عن الخمر ويتماطاها مع الخلس من رجاله وادبائه في مجالس الأنس والسمر التي كانت تعقد في قصره •

أما فيما يتعلق بحياته العائلية ، فقد كان المعتضد كما يقول ابن الابار (فاكلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن وخلص في أجناسهن • فانتهى في ذلك الى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه • فقيل انه خلف من صنوف السريات منهن خاصة نحو من سبعين جاريفة ، الى حرته المحظية لديه ، الفذة في حلاله بنت مجاهد العامري أخت علي بن مجاهد صاحب دانية والجزر الشرقية • ففشا نسل عباد

(١) : الضبي : المصدر السابق ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ •

(٢) : ابن القطان فيما ينقله عن ابن غزاري : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ •

(٣) : نفس المصدر والجزء ٥ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٥ •

لتوسعه في النكاح وقوته عليه . فذكر أنه كان له من ذكور الولد نحو من عشرين ،
ومن الإناث مثل ذلك ^(١) . ويعقب في مبالغة واضحة بقوله ان المعتضد قد اقتض
ثمانمائة بكر ^(٢) .

ولانملك تفاصيل واضحة عن العلاقة بينه وبين نساءه وأولاده .

غير أننا نستطيع أن نستخلص فيما يتعلق بعلاقته مع ابنائه شيئا ذا قيمة .
ان يبدو أنه كان حازما شديدا معهم ، فقد رأينا ان يغلظ في معاملته لابنه
وولى عهده اسماعيل ، وأخيرا رأينا ان يفتك به ^(٣) . ورأينا شيئا من هذا
عندما غضب على ابنه محمدا وجابر غضبا شديدا ، توجه هما فيه بأشد
العقوبات . ورأينا محمدا يرتعد خوفا وفرقا منه عندما فشل بالاحتفاظ
باستقلال مدينة مالقة . ولم ينجمه من غضب والده الا القصيدة الرائية التي
نظمها مستعظفا مستصرخا طائفة أبيه . ورأينا شيئا من هذا عندما فرق
بين ابنه وولى عهده محمد ، وصديقه وأليف روحه آنذاك محمد بن عمار
الشاعر المذكور سابقا . فقد انزعج المعتضد جدا للعلاقة التي نشأت بينهما .
وما أفضت الى انصراف ابنه عن مهام الأمور الى الانغماس في اقتناص فرص
اللذة واللهو ، مما جعل المعتضد يحنف على ابنه . ويترجم هذا العنف
بابعاد صديقه عنه ونفيه فالتجأ الى سرقسطة ^(٤) . على أنه مع ذلك كان
محبا لابنائه عطوفا عليهم ، حتى لقد كان سبب وفاته كما يقال هو
جزعه الشديد على ابنة له ماتت صغيرة ، وكانت أثرية لديه ^(٥) .

وفي ظم ٤٦١ هـ على الأرجح توفي المعتضد بالله ، ^(٦)

وكان يبلغ وقتها السابعة والخمسين من عمره . وقد أورد ابن حيان في رواية
دقيقة فيما ينقله عن ابن عذارى مدة حكم المعتضد فقال (وكانت سن عباد

-
- (١) : الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٤٣ .
 - (٢) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٢ - ٥٣ .
 - (٣) : انظر قبل ، ص ٣٦ - ٣٧ .
 - (٤) : صلاح خالص : محمد بن عمار الاندلسي ، ص ٥٤ .
 - (٥) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء أعلاه ، ص ٥٢ - ٥٣ .
 - (٦) : هذا هو قول ابن حيان المعاصر للمعتضد ، والذي نقل عنه
من جاء بعده . ولذا فاننا نعلم هذا التأريخ ،

سبعا وخمسين سنة وثلاث شهور ، وتسعة أيام تأقيتا من مولده يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة سبع وأربعمائة الى وفاته يوم السبت ليثين خلثا من جمادى الآخرة . ومدة امارته من يوم بيعته بوفاة والده يوم الاثنين غرة جمادى الاخر سنة ثلاث وثلاثين - ثمان وعشرون سنة ويومان (١)

وقد شيع جثمانه فى موكب مهيب على رأسه ابنه وولى عهده المعتمد الذى تولى الحكم بعده . ودفن فى يوم الاحد فى المقبرة الملكية (٢)

وقبل أن نختم حديثنا عن المعتضد ينبغى أن نشير الى أنه قد غدا فى سنواته الاخيرة كاسف البال ، شاحب الوجه كثير الهموم . فقد كان هناك شيان يؤرقانه ويكدرن عليه صفو حياته . أولهما نشاط حركة الاسترداد المسيحى ، واحساسه بالخطر مما يخجئه له القدر ، وثانيهما خشيته على دولته التى أقامها أبوه ونماها هو من السقوط بيد البربر (٣)

ومن هنا رأينا يشدد فى معاملته للبربر وأمرء الامارات البربرية كما ذكرنا حتى استطاع أن يقضى على نفوذهم ، ومع هذا فلم يسترح له خاطر ، بل زاد يقينه بأن الخطر على دولته انما سيأتى من المغرب على يد البربر . ولذلك كان دائم الاستطلاع لأحوال المغرب . وفى هذا الصدد يقول عبد الواحد المراكشى (وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العدو . هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يواه فى ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعه ، أو خالعه ولده ومخرجوه من ملكه ،

-
- لأنه التاريخ الصحيح والمتفق عليه تقريبا . ولا يمكننا أن نصدق رواية عبد الواحد المراكشى وابن تفرى بردى صاحبي : المعجب ، والنجوم الزاهرة . من أن المعتضد توفى ظم ٤٦٤ هـ . فهو قول بعيد عن الصواب . أنظروا المعجب ، ص ١٥٧ . - النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٩٠ .
- (١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ .
- (٢) : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- (٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٨ . - ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥٠ - ٥٢ .

فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينظر اليهم ، مصعدا ومصوا
ويقول يا ليت شمري من تناله مبرة هؤلاء القوم ، أنا أو أنتم . فقال
ابو القاسم من بينهم جعلنى الله فداك وأنزل بسى كل مكره يريد
أن ينزله بك ، فكانت دعوة وافقت المقدار .^(١)

ومما يدل على ثقل ذلك الاحساس لدى المعتضد
هو ما رواه ابن بسام وابن الابار عن ابن حيان ان قالوا : (وافق أن دخل
عليه يوما بعض وزراءه وسين يديه كتاب قد أطال فيه النظر فاذا
كتاب سقوت المنتزى يومئذ بسبته . يذكر أن الملتصين المدعويين^(٢)
بالمرابطين قد وصلت مقدمتهم رحبة مراکش ، فأخذ الوزير يهـون
أمرهم ، ويخبر أن دنهم اللجج والمهامة . فقال له المعتضد :
هو والله الذى أتوقعه وأخشاه وان طالت بك حياة فستراه . اكتب
الى فلان - يمنى عامله على الجزيرة^(٣) بحفظ جبل طارق حتى يأتيه
أمرى ، ففضى أن خلعوا ولده وقوضوا أمره .^(٤)

ومعيدا عن اسطورة الملحمة وغيرها . فان ما يعنىنا
هنا هو أن المعتضد وهو السياسى المخك كان يعرف أن قدر العدوتين
الاندلسية والمغربية مرتهن دائما بوجود القوة الفتية التى تفرزها
الاضاع السياسية والدينية فى هذه المنطقة دائما . وتطلع الى وسط
العدوتين أو معظمهما تحت ظل سلطة مركزية واحدة . كما أن المعتضد
مثل غيره من الاندلسيين الآخرين كان يستشعر خطر البربر
سواء أكان ذلك خطر بربرى فى الاندلس ، أم خطر بربرى خارجى
من المغرب ، اضافة الى دوافع الحقد التى يكنها للبربر عامة .

(١) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) : ينتسب الى قبيلة برغواطية البربرية .

(٣) : المقصود بها الجزيرة الخضراء .

(٤) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ . الذخيرة ، القسم

الثانى - المجلد الاول ، ص ١٨ ، و ص ٣٠ - ٣١ .

الباب الثالث

الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله

- تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه .
- الموقف السياسي في الأندلس غداة تولي المعتمد السلطة .
- جهود المعتمد في توسيع رقعة دولته .
- خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر .
- حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته .



تولى المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه المعتضد وآراء المؤرخين فيه

تولى المعتمد زمام الحكم فور اعلان وفاة أبيه المعتضد عام ١٠٦٩م / ٤٦١هـ كما قلنا . وقد كانت سنه غداة توليه السلطة تسعة وعشرين عاما وشهرين ومضعة أيام^(١) . هذا ولم يلق ملك من مملوك الاندلس من الثناء والاشادة والاعجاب به أكثر من المعتمد بالله . فقد أسر هذا الملك بخلاله الباهرة وصفاته الحميدة وأدبه وشعره لب مؤرخى الاندلس القدامى ، ثم جاءت أساتته المحزنة ، وخاتمة المفجعة التى سنعرض لها قادمنا ، وكأنها مسلسل روائى يروى قصة مأساة انسانية مشيرة لتضفى على المعتمد - زيادة على ما نساله من الثناء - فيضا من الاعجاب المشوب بالاشفاق والأسى .

وفى الحقيقة فان المعتمد بالله كان جديرا بهذا الثناء والاعجاب ، ولكن يجب ألا يذهب بنا الاعجاب الى الحد الذى ننسى أو نتناسى مسؤوليته ما وقع فيه المعتمد من أخطاء عن قصد أو عن غير قصد عندما ترك لأهوائه العنان . وانا كان قد تدارك هذا أو بعضه ، فقد كان ذلك بعد فوات الأوان .

نعم ان نظرنا للمعتمد تتناول الجوانب الايجابية والسلبية معا لشخصيته ، فنحن بقدر ما نعجب بخلاله وصفاته وشعره وأدبه ، يجب أن لا نفعل عن أخطائه السياسية أيضا ، وهو ما سنتناوله قادمنا . فعندما تولى المعتمد السلطة كانت الدولة قد شهدت فى عهد أبيه عصرا زاهيا ، لحمته الاستقرار والهدوء ، وسداه الرقى والازدهار والثراء . فقد ترك المعتضد لابنه دولة مستقرة الأحوال بعيدة الأطراف ذات ازدهار ورفاه جعلها أعظم ممالك الطوائف .

وعندما خلف المعتمد أباه عاد للدولة اشراقها ووضاحتها ، كما لم يقصر المعتمد عن الارتقاء أكثر فأكثر بدولته حتى فاقت

(١) : انظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣ - ٥٤ .

ما كانت عليه في أيام أبيه من استقرار وازدهار وأصبح بلاطه في اشبيلية
أعظم بلاطات ملوك الطوائف في الاندلس ، بل أصبح يضاهي بلاطات
بعض كبار خلفاء بني العباس^(١) . فاذا ما استعرضنا أقوال المؤرخين
في المعتمد يأتي ابن اللبانة صديقه ونديمه وشاعره في مقدمة المعجبين
به . فهو يقول فيما ينقله عنه المقرئ^(٢) (ملك مجيد ، وأديب
على الحقيقة مجيد ، وهمام تحلى به للملك لبّه ، وللنظم جيد ،
أفنى الطغاة بسيفه وآد ، وأنسى بسببه ذكر الحارث بن عباد ،
فأطلع أيامه في الزمان حجولا وغررا ، ونظم معاليه في أجيادها
جواهر ودررا ، وشيد في كل معلوة فنائه ، وعمر بكل نادرة مستغربة ،
ومادة مستظرفه أوقاته وآنائه ، فنفتت به للمحاق سقوق ،
وسقت ثمرات أحسانه أي بسوق) .

أما ابن بسام فيأتي أيضا في مقدمة المعجبين
بالمعتمد فهو يقول (ثم استوسق الأمر بعد المعتمد لابنه
المعتمد ، وكان مع انشغاله بالحرب ، وسعة مجاله بين الطعن
والضرب ، وعلى أن أباه عباد يدير عليه الرحى ، ويفزع اليه
كلما قرعت عصا^(٣) حتى صار أسوة لنجوم ليلها ، وحلسا^(٤) لمنون
حبلها :

لا يشرب الماء الا من قليب دم ولا يبیت له جار على وجل

-
- (١) : يشبهه عبد الواحد المراكشي بالخليفة العباسي الواثق بالله .
(٢) : نفع الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٧٦ .
(٣) : مأخوذ من المثل العربي القائل : ان العصا قرعت لذي الحلم . والمثل
يضرب لمن اذا نبت انتبه . وأول من قرعت له العصا هو : عمرو بن ملك
الكناني ، وقيل هو عامر بن الظرب المدواني من حكماء العرب ،
وقيل غيرهما .
انظر الميداني : مجمع الأمثال ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٩ .
(٤) : الحلس جمع احلاس ككتف ، والكبير من الناس وهو حلس بيته اذا لم يبرح
مكانه .
انظر الفيروز آبادي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

فقد كان متمسكا من الادب بسبب ، وضاربا في العلم
بسم ، وله شعر كما انشق الكمام على الزهر ، لو صدر مثله عن جميل
الشعر صناعة ، واتخذته بضاعة ، لكان رائعا معجبا ونادرا مستغربا .
فما ظنك برجل لا يجد الا راثيا ولا يجد الا عابثا . وهو مع ذلك يرس
فيصيب ويهمس^(١) فيصوب . وشعره يوضح ما شرح ، ويعبر عما ذكر ،
مع انه قد رويت أشعار أولى النباهة والاعيان على تديم الزمان لشرف قائلها
مع قلة طائلها^(٢) . وكان ابن بسام قد خشى من اللوم لاسرافه في الاهتمام
بالمعتمد فيقول مستدركا (وقد رأيت ابوبكر الصولي أثبت لمالوك
بنى أمية ومنى العباس ما لو صدر مثله لصفار الناس لاستهجن أو ظهر
لضعفاء السوق لاستصفر ، فلنا في الصولي أسوة في اثبات هذا النوع
من الشعر أن وقع في كتابنا هذا ، والعجب من المعتمد أنه مـرى
سحابة في كتبا حاليه ، فصاب رد يما خاطره ، فأجاب وما تراجع له^(٤)
من طمع ولا بعد الخلع . بل يومه في هذا الشأن دهر ،
وحسنته في هذا الديوان عشر ، فان أجاد فما أولى ، وان قصر
فمذره أوضح وأجلى^(٥)) . أما ابن البار فيقول (وقد أفضى الأمر الى
ولده ، وهو في رهبان شبابه ، وكمال جماله ابن تسع وعشرين سنة وشهرين

-
- (١) : همى : من الشيء يهمى هميا سقط .
أنظر الفيروزابادي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ .
(٢) : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٣٢ - ٣٣ .
(٣) : هو ابوبكر محمد بن محمد الصولي ، وكتابه الذي يذكره ابن بسام هو :
اشعار اولاد الخلفاء . وله بالاضافة الى ذلك عدة كتب أخرى مثل :
الاخبار المنثورة ، الاوراق ، الوزراء ، وبعضها مفقود .
أنظر فهرست أسما الكتب الذي وضعه حسين مؤنس في تحقيقه لكتاب
الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٤٦٩ - ٤٧١ .
(٤) : مرى الشيء استخرجه ، والمعنى استخرج الماء من السحاب .
أنظر الفيروزابادي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٢ .
(٥) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجد اعاد ، ص ٣٢ - ٣٣ .

وأيام وائده مولده في العشر الآخر من شهر ربيع الأول سنة
اثنين وثلاثين وأربعمائة • وقال أبو بكر^(١) ابن أبي الوليد بن زيدون •
مولده سنة احدى وثلاثين ، وكذلك قال أبو بكر بن اللبانة ، وكان
المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء ،
المأمونين • عفيف السيف والذيل ، مخالفا لأبيه في القهر والسفك
والأخذ بأدنى سمايه ، رد جماعة ممن نفى أبوه ، وسهكن وما نقره ،
وأحسن السيرة ، وملك فأشجع^(٢) .

أما عبد الواحد المراكشي فيكيل المديح للمعتمد^(٣)

كيلا حيث يقول (ثم قام بالأمر بعده ابنه أبو القاسم محمد بن
عباد بن محمد اسماعيل بن عباد ، وزاد المعتمد على الله ، الظافر
بحول الله ، وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله
من ملوك بني العباس ، ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه
الحلل المنشره ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع
لملك قبله من ملوك الاندلس • وكان مقتضرا من العلوم على علم الأدب
وما يتعلق به ، ويفضم اليه ، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية
ما لا يحصى كالشجاعة ، والسخاء ، والحياء ، والنزاهة التي
ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة • ويسترسل في مبالغة واضحة
في اشادته به فيقول (وفي الحقيقة فلا أعلم خصلة حميد في رجل
الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم •
واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت •
فالمعتمد هذا أحدها ، بل أكبرها •)^(٤)

(١) : تولى الوزارة للمعتمد ابن عباد بعد وفاة أبيه الشاعر الوزير أبو الوليد
ابن زيدون •

(٢) : المصدر السابق والجزء ، ص ٥٣ - ٥٤ •

(٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ •

(٤) : عبد الواحد المراكشي : نفس المصدر والصفحة •

أما الفتح بن خاقان فقد أشاد به على
 طريقته المتكلفة المصطنعة في الأسلوب ، فقال (ملك قمع
 العدا ، وجمع البأس والسندا ، وطلع على الدنيا بدر هوى ،
 لم يتمطل يوما كفه ولا بنانة يراعه ، وآونة سنانه ،
 وكانت أيامه مواسم وشفور بره بواسم ، ولياليه كلها دررا ،
 وللزمان أحجالا لم ينفلها عن سمات عوارف ، ولم يضحها من ظل
 ايناس وارف ، ولا عطلها مأثرة بقى أثرها باديا .^(١) ولقى معثفيه
 منها الى الفضل هاديا . وكانت حضرته مطمحا اللهم ومسرحا
 لآمال الأمم وموقفا لكل كمي^(٢) ومقذفا لذو أنف حتى لم تخل
 من وفد ، ولم يصح جوها من انسجام رفته ، فاجتمع تحت
 لوائيه من جماهير الكماة ، ومشاهير الحماة أعداد يفص
 بها الفضاء ، وأنجاد يزهى بهم النفوس والمضار ، وطلع فسي
 سائه كل نجم مققد ، وكل ذى فهم منتقد ، فأصبحت حضرته
 ميدانا لرهان الأذهان ، وغاية لرمى هذا البيان ، ومضمارا
 لحرار خصل في كل معنى وفصل ، فلم يتسم في ذمامه الا بطميل
 نجد ولم ينسق في نظامه الا ذكاء ومجد فأصبح عصره أجمل
 عصر ، وغدا عصره تسفح فيه ديم الكرم . ويفصح فيه لسبانا
 سيف وقلم ، ويفضح الرضى^(٣) في وصفه أيام ذى سلم .^(٤)

ونفس الطريقة المتكلفة هذه ساق الفتح مدحه
 للمعتمد في كتابه الآخر مطمح الأنفس ومسرح التأنيس^(٥) .
 أما ابن خلكان فيقول فيما ينقله عن أبي الحسن علي بن القطاع

- (١) : معثفيه من أعفى • ومعناها انفق العفو من ماله •
 أنظر الفيروزآبادي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ •
 (٢) : الكمي كفى الشجاع أو لابس السلاح كالتمكى •
 (٣) : المقصود به الشاعر العلوي الشريف الرضى الشاعر العباسي المشهور •
 (٤) : الفتح بن خاقان : القلائد ، ص ٤ - ٥ •
 (٥) : ص ١١ - ١٢ •

السعدى فى كتاب (لمح الملح) (أقوى ملوك الأندلس
راحة وأرحبهم ساحة وأعظمهم تمادا ، وأرفعهم عمادا ، ولذلك
فقد كانت حضرته ملقى الرجال ، وموسم الشعراء وقبلة الآمال ،
والف العقلاء حتى لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان
الشعراء وأفاضل الأدباء كما كان يجتمع ببابه وتشتمل عليه حاشيتا
جنابه . (١)

أما ابن الخطيب فيشيد بفروسيته وشجاعته
وشاعريته كما يشيد بسيرته الحسنة السمعة أيضا . (٢)

وينقل المقرئ (٣) عن ابن خميس صاحب كتاب أدباء
مالقه ما نصه (وقال الفقيه القاضى أبو بكر بن خميس رحمه الله
تعالى حين ذكر تاريخ بنى عباد وقد ذكر الناس من أوصافه
ما لا يبلغ مع كثرته الى انصافه .) ويتأهب المقرئ
للتحدث عن المعتمد فيقول (وأنا الآن أذكر نبذا من أخباره وأردفها
بما وقفت عليه من منظومات أشعاره ، فانه رحمه الله تعالى جـم
الأدب ، عالى النظم فائقه .)

وخلاصة الأمر أن معظم المؤرخين القدامى لم يتناولوا
من شخصية المعتمد الا الجانب المشرق الوضـاء فقط فلم يعنوا
بمناقشة وانتقاد مسلكه السياسى الانتهازى الذى ما لبث أن
ظهرت نتائجه له وللمسلمين فى الأندلس من بعد . بل لم
يعنوا أيضا بانتقاده على ما كان يقترف فى قصره وملاطه من المجون
والخلاعة والاسراف والتبذير الى حد كبير .

(١) : وفيات الاعيان ، مجلد ٥ ، ص ٢١ .

(٢) : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

(٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ٣٧٧ .

(٤) : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الموقف السياسى فى الأندلس غداة تولى المعتمد السلطة
=====

تولى المعتمد السلطة عام ٤٦١هـ / ١٠٦٩م عقب وفاة أبيه المعتضد . وكانت الفترة التى سبقت تولى المعتمد السلطة والتى أعقبها بعد ذلك تؤذن بأخطار جسام ، فقد بدأت نذرها تطفو الى السطح وتؤذن بأوخم النتائج بالنسبة للاندلس الاسلامية على وجه التخصّص .

فقد كانت الأندلس الاسلامية تمر بمرحلة من أصعب فترات حياتها السياسية وأكثرها اضطرابا ، رغم ما بلغتة الممالك الاسلامية من رفاه ورفق اجتماعى وثقافى مجيد . إذ شهدت الأندلس آنذاك بعض تغييرات فى القوى السياسية المهمة على الممالك والأمارات الاسلامية .

ففى قرطبة أتضحّت الأمور وأنجلت عن تفرد عبد الملك بن ابى الوليد بن جمهور بالسلطة وسحقه لكل أعدائه . وذلك بتخلصه من سيطرة ونفوذ ابن السقاء وزير أبيه ، وملك البلاد غير المتوج والذى ذهب ضحية اطماعه وتطلعاته ، وتخلصه أيضا من سيطرة ونفوذ شقيقه عبد الرحمن . ولقد لعب المعتضد والد المعتمد دورا مهما فى الوصول الى هذه النتيجة ، إذ أنتهز ظهور التنافس الشديد بين وزير الدولة الجمهورية ، وعبد الملك ابن الوليد بن جمهور الذى عز عليه انفراد ابن السقاء بكل النفوذ والسلطة الذين القاها على كاهله الرئيس الشيخ ابو الوليد ابن جمهور . فأستغل ذلك التنافس بين الرجلين ، وبدأ ينصب دسائسه عندهما ، حتى تمكن من ايقاع الوقعة بينهما .

وعلى أية حال فقد اسفرت حائل المعتضد ومؤامراته ضد الرجلين الى تمكن عبد الملك بن ابى الوليد من الظفر بعدوه ابن السقاء وقتله على يديه ، وبذلك أنفرد بالسلطة ، وتلقب بالظافر . على أن انفراد عبد الملك بالأمر أسفر داخليا وخارجيا عن نتيجتين رئيسيتين : فعلى الصعيد الداخلى استتب الأمر لعبد الملك بعد تخلصه

من نفوذ أخيه عبد الرحمن ، وأصبح صاحب السلطات المطلقة
فى الدولة الجمهورية ، أما على الصعيد الخارجى فقد أدى هذا
الى تطلع ملوك الطوائف للاستيلاء على قرطبة . فقد غدت
مهيضة الجناح ضعيفة الشأن ^(١) . بل يمكننا القول أنها أصبحت ثانوية
فى فلك مملكة اشبيلية .

وقد رأينا المأمون بن ندى النون يتمزق غضبا وغيظا وهو يرى
المعتضد وقد خدعه عندما أغراه بإطلاق يده للاستيلاء على قرطبة
شريطة أن يخلص له مدينة قرمونة ^(٢) . وها هو يشعر ثانية أن
المعتضد تمكن بخد يخته ودهائه أن يجعل محن مملكة قرطبة تابعة
له ، ولذلك فقد أعد العدة للتحرش بعبد الملك . وسنعرض
قادمًا لأحداث سقوط قرطبة أخيرا بيد المعتضد عند حد يثنا عن
جهوده لتوسيع رقعة دولته . أما مملكة غرناطة ، فقد كانت
لاتزال تنعم بحكم مليكها باديس بن جوس . وقد خرج من محناته
ومشكلاته الداخلية مع ابنه ووزرائه كأقوى ما يكون بعد أن استكانت
له الأمور واستقامت ^(٣) .

وأما مملكة بطليوس فقد توفى المظفر بن الأقطيس فى نفس
العام الذى توفى فيه المعتضد بالله ، وتولى الحكم بعده ابنه
يحيى . وتلقب بالمنصور ، على أنه ما لبث أن دخل فى خلاف
مع أخيه عمر ، وأنتهى الامر بانتصار عمر وظفره بمملكة أبييه
بعد وفاة أخيه المفاجئ ، عام ٥٤٦٤ / ١٠٧٢ م وتلقب بالمتوكل ^(٤) .

-
- (١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١٢٣
- ١٢٤ . ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .
خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٢) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٤٤ .
(٣) : يراجع فى اخبار هذه الأحداث :
- عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٣٠ - ٦٩ .

(٤) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

وفيما يختص مملكة طليطلة فلم يحدث بها تغير يذكر فيما عدا ، فقدما لبعض اطرافها التي انتزعتها النصارى . فالأمون بن ذي النون كان لا يزال يليها ، ويواصل تحقيق اطماعه في الاستيلاء على ما يقدر عليه من اراضى وأصقاع جيرانه . فقد أستطاع أن يقضى على استقلال مملكة بلنسية ويعزل صاحبها صهره عبد الملك ابن عبد العزيز بن ابي طمر ، ويعهد بحكمها نيابة عنه الى واحد من بيوتاتها المريقة (١) .

أما مملكة سراقسطه فقد استقر الامر لمليكيها احمد بن سليمان بن المقتدر ، بعد أن ضم اليه أعمال اخوته ، ولم يبق هناك من منافس له سوى أخيه يوسف حاكم لاردة .

وأما بقية الممالك والامارات الأخرى ، فلم تشهد كبير تغير في القوة السياسية الحاكمة لها . فقد استمر بعض حكام تلك الامارات والممالك في حكمها ، كما شهد بعضها وفاة بعض من حكامها وتولى بعض من أبناءهم السلطة مكانهم .

XX

أما الموقف السياسى في ممالك النصارى ، فقد كان مفايرا للموقف السياسى لدى الممالك الاسلامية ، اذا كانت تلك الممالك تعيش على فوهة بركان غداة وفاة الملك فرديناند الأول . ورغم أن فرديناند قد توفى طم ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م أى في عهد المعتضد الا أن اسبانيا النصرانية كانت تمر بفترة حالكة من تاريخها . فقد طدت الخلافات بين الاخوة من أبناء فرديناند الى اجواء الفترة التي عاشتها اسبانيا النصرانية بعد وفاة الملك سانشو العظيم من حروب أهلية بين الاخوة ، اذ قسم فرديناند مملكته بين أبناءه كما مر بنا . وكان المعتضد كما سبق أن ذكرنا يدفع الجزية بانتظام الى غرسيلا ملك جليقية (٢) .

(١) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٥٩ .

وقد اتخذت الحروب الاهلية بين الاخوة غداة تولي المعتمد السلطة وجهها السافر ، اذ بعد وفاة والدتهم الملكة سانشاه بعد عامين من وفاة زوجها فرديناند ، حاول سانشو التوسع على حساب اخوته . فقد طمع في الاستيلاء على مملكة أخيه الفونسو ، وذلك بعد عام واحد من وفاة والدته ، ودارت رحى حرب أهلية بين الأخوة انتهت بأستيلاء سانشو على مملكة أخيه الفونسو ، والقبض عليه (١) عام ١٠٧١م . ثم سميت شقيقته اوراكا بالافراج عنه . مقابل أن يصرف الفونسو نظره عن الاشتغال بالسياسة ، وأن يلبس لباس الرهبان ، وأن يعيش في أحد الديره . على أن الفونسو استطاع ومساعدة أوراکا أيضا الفرار من ديره ، فالتجأ الى بلاط ملك طليطله ، ومليكيها المأمون بن ذي النون . كما حاول سانشو الاعتداء على أراضي أخيه غارسيا ملك جليقيه ، واستطاع بعد حروب ومطاحنات عسكرية أن يقضى على نفوذه ويستولى على مملكته . مما جعل أخوه غارسيا يفر الى بلاط المعتمد . وبعد ذلك حاول سانشو الاستيلاء على أملاك شقيقته اوراكا والبيره . ولكنه قتل غيلة تحت أسوار عاصمة مملكة أخوته أوراکا بعد عام واحد فقط من استيائه على أملاك أخوته (٢) .

وعندما قتل أجمع اشراف وكونتات قشتاله على استدعاء أخيه الفونسو ليتولى حكم مملكة أخيه المقتول . والفعل عاد الفونسو وأصبح الحاكم المطلق لمملكة قشتاله وليون وجليقيه في نفس عام ١٠٧١م / ١٠٦٢م .

- (١) : في موقعة جليجيرة Golpejerra : انظر : Jan Read : Op. Cit. , p 102
(٢) : انظر : Jan Read : Op. Cit. , p 396
- J. B. Bury : Op. Cit. , p 395 - 396
- محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .

أمّا غارسيا فلم ينضم بالعودة الى مملكته ، رغم
أنه قد عاد من منفاه لدى المعتمد ، فقد قبض عليه
شقيقه الفونسو . ويقول J. B. Bury ، ان المعتمد
زود غارسيا بكتيبة من جنده لمساعدته في كفاحه ضد
أخيه مفتصب مملكته . بيد أننا لانعرف متى تم
بعث تلك الكتيبة ؟؟ . كما أننا لانعرف الروايات العربية
ا ما يشير الى شيء من هذا .

وهكذا فقد عاد الفونسو بعد مرور خمس سنوات
من تولي المعتمد السلطة الحاكم المطلق لتلك المملكة الاسبانية
الكبرى كما كانت في عهد والده الملك فرديناند . ولم يشذ عن
ملكه سوى إمارة برشلونه التي كانت تحت حكم أمراءها
من آل برنجير الذين تولوا الحكم فيها من عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م .
بعد القضاء على أسرة بورجيل .^(٢)

(١) : Op. Cit. p 396

• وانظر كذلك محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ .

• (٢) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ص ٤٠٧ .

جهود المعتمد في توسيع رقعة دولته

استيلاء المعتمد بالله على قرطبة :-

رأينا قد حدثنا عن استيلاء المعتضد بالله على امارة قرمونة
أنه قد استطاع خداع المأمون ابن ذى النون عندما طلب منه أن يكف عن مساعدة
البرزالي اميرها ، على أن يطلق يده في مهاجمة مملكة قرطبة . ورأينا المأمون
يفلى حقدا وغيظا لخداع المعتضد له (١) وقد مررنا أيضا كيف استطاع المعتضد
بأحابيله والأعيهه أن يفرر بعبد الملك بن محمد بن جهور وموزيوه ابن السقاء
معا ؟ . وكيف استطاع بهائه أن يضرب الخصمين ببعضهما ؟ ، وما ترتب
على ذلك من احداث مررنا بها من قبل (٢) .

وقعت هذه الاحداث والمعتضد والمأمون بن ذى النون
كانا يراقبان تطوراتها . ولكن يبدو أن انشغال المعتضد بالاضاع الداخلية
والحروب الخارجية لم يسعفه بفعل أى شىء لاستثمار نتائج خطته الماكرة
بمكس المأمون بن ذى النون الذى ركز جهوده لاحتلال قرطبة التى كانت منتهى
أمله وغاية مناه .

وتوالت الاحداث بسرعة وتوفى المعتضد عام ٤٦١هـ / ١٠٦٩م
وعدها شعر المأمون بأن الجوق قد خلا له بوفاة عدوه القوى اللدود ،
فشد من ضغطه على المدينة وضرب عليها حصارا شديدا .

وكما قد ذكرنا أيضا أن مملكة قرطبة قد غدت مهيضة الجناح ،
ضعيفة الشأن تدور فى فلك مملكة اشبيلية وتحتمى بحماها . وعندما اشتد
ضغط المأمون على المدينة بعث عبد الملك الى المعتمد بن عباد يستغيثه
ويستنجد به . وقد لى المعتمد هذا الطلب بسرعة ، وجهز جيشا قوامه

(١) : انظر قبل الباب الثانى ، ص ١٤٤ ، ١٤٥

١٣٠٠ فارس بقيادة خلف بن شجاع ، ومحمد بن مرتين • وتوجه هذا الجيش الى قرطبة وعسكر بالجهة الشرقية منها • ومن الطبيعي أن يستشعر المأمون الخطر ، إذ أدرك أنه سيقع بين فكي الرحى أى بين القوت القرطبية التى ستخرج لمهاجمته ، والقوات الاشبيلية المساندة له • ولهذا فقد اضطر الى رفع حصاره عن المدينة • وقد وقعت هذه الأحداث فى السنة الثانية من وفاة المعتضد بالله (١) •

وأثر هذا الموقف النبيل من جانب المعتمد فى نفس عبد الملك بن جهور ، مما جعله يلهث بالشكر والعرفان له • وتهيأ لتوديع الجيش توديعا يليق به • غير أنه لم يرع والرجال المعتمد يقتحمون أبواب قرطبة ويمتلكونها ، ويدخل على اثرهم الجيش • واستطاع رجال المعتمد أن يحكموا قبضتهم على المدينة ، وأن يحيطوا بقصر الحكم الذى اعتصم به عبد الملك مع جماعته من رجاله الخالص • كما احتس الشيخ ابو الوليد بن جهور بالمسجد مع بناته وحريمه • وقد استبسل عبد الملك فى الدفاع والمقاومة ، ولكن قوات الجيش وجماعة كبيرة من الرعا والسوقة استطاعت اقتحام القصر وانتهابه • فاضطر أخيرا الى طلب الأمان • وهكذا سقطت قرطبة بيد العباديين واستتب الأمر لهم فيها •

واعقل عبد الملك وأخوه عبد الرحمن ، وأرسلا مخفورين الى اشبيلية • أما الشيخ ابو الوليد فلم تحفظ له كرامة ، ولم ترع له حرمة رغم مرضه الشديد • وقد أثرت فيه هذه الحادثة كثيرا فيقال (انه لما وسط به قنطرة قرطبة خارجا منها على مركب هجين ، وحاله تقر عيون الحاسدين ، ورفع يده الى السماء وأخذ يبتهل بالدعاء • فكان مما حفظ عنه قوله اللهم كما أجبت فينا الدعاء علينا فأجبه لنا ، ثم مات بعد أربعين يوما من نكته بجزيرة شلطيش ، مزال النعمة ، مدال الحرمة •) (٢)

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ •

ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٤٩ - ١٥١ •

(٢) : نفس المصدرين السابقين ، ونفس الصفحات •

تلك هي خلاصة أحداث سقوط مملكة قرطبة على يد
المعتمد ابن عباد . والان يحسن بنا أن نقرب هذا الامر على كافة الجوانب
لعلنا نجد تفسيراً لما حدث . فقد اختلف في تفسير أسبابه ودوافع
تلك الحملة ومتى وقعت ؟؟ (١) فالبعض يقول ان هذا الامر كان مبيتاً حسب
خطة سرية وضمت في اشبيلية . اما البعض الاخر فيقول ان ذلك لم يحدث
الا عندما اقلع ابن ذي النون عن قرطبة (فاجتمع بعض اهلها في السر
على ان يخلصوا ابن جهور ويولوا ابن عباد ، فأبرسوا أمرهم وأحكموه ،
وقاموا بأجمعهم لما ضجروا من جور ابن جهور وتعديه هو وحاشيته
السفله على الناس . وثاروا في صبيحة اليوم الذي اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد . (٢)

وفي الحقيقة أننا لانستطيع التصديق بأن ذلك التخطيط
كان خبط عشواء ، وانه قد جاء ارتجالياً بهذه السرعة . وهل يمكن
أن يحدث هذا الامر الخطير الا بالتفهم والتنسيق المسبق ؟؟ .
اننا نجزم بأن للرأي الاول وجاهته وصوابه ، فقرطبة كانت
أمل العباديين جميعاً : القاضي ابو القاسم والمعتضد بعده ، ثم المعتمد .
فقد كان هدف العباديين الاستيلاء على قرطبة مركز الخلافة الروحية ودائرة
الاستقطاب الثقافي والعلمي . وخاصة وأن الخليفة هشام كما يدعون لازال بينهم ،
ويعتبرون اقامته في اشبيلية اقامة مؤقتة ، فمكانه الطبيعي هو في طلمنة
آبائه وأجداده . ولذلك كان عليهم وهم المتبنون لدعوته والمنافحون والمدافعون
عنه أن يعملوا على أن يعود الى طلمنة ليشرعوا من هناك في اعادة سلطته
الخلافية على كافة بلاد الاندلس . نقول ان هذا الخاطر ، وهذا التفكير
كان محور سياسة القاضي ابي القاسم الرئيسية طوال مدة حكمه ، وجزءاً
غير يسير من مدة حكم المعتضد بالله . وعندما توفى المعتضد واشتد ضغط
المأمون ابن ذي النون على مملكة قرطبة ، رأى المعتمد أن ظروف مملكة قرطبة
قد اصبحت سيئة للغاية ، وغدت مستهدفة من قبل مملكة قوية لا تروم

(١) : يميل الى الاخذ بهذا الرأي محمد عبدالله غان في كتابه دول الطوائف ، ص ٦١ .

(٢) : ابن عذاري المصدر السابق والجزء ، ٢٥٩ - ٢٦٠ .

الا القضاء عليها ، فبذت له بمشابة تفاحة قد نضجت واستوت وحنان
قطافها . ونعتقد أن عبد الملك بن أبي الوليد بن جمهور كان يرى أن خطر
مملكة اشبيلية على مملكة لا يقل بأى حال عن خطر مملكة طليطلة عليها ،
رغم روح المودة التي تبدى بها مملكة اشبيلية . ومع ذلك فقد اختار أهون
الشرين وهو الانضواء تحت سلطة مملكة اشبيلية . اما قضية الفتنة المعارضة
لعبد الملك بن جمهور ، فنحن لانكر دورها فى التأليب عليه ، ومن الجائز
أن انصراف عبد الملك هو وخاصة الى اللهو والترف والمجون قد صرفه عن تركيز
الجهد فى تصريف امور الدولة بما تتطلبه مواصفات رجل الدولة الحقيقى ،
اضافة الى هذا من الجائز أن حاشية عبد الملك وخاصة قد استفلت داتها
لديه . فأخذت تصرد فى الدولة نهبا وسلبا وظلما . كل هذه العوامل
ألبت عليه النفوس ، وجعلت المخلصين من ابناء البلد يتطلعون بأنظارهم
نحو مملكة اشبيلية التي يشعرون بأنها اصبحت الجديرة بقيادة الاندلس
كلها . فراسلوا المعتمد ونسقوا معه لمساعدته وتسليمه البلد اذا اقتضى
الامر ذلك^(١) . ويتراءى لنا انه لو لم يطلب عبد الملك المساعدة من المعتمد
لكان ابناء قرطبة قد طلبوها منه . وأما ما قاله ابن الخطيب عن العامة^(٢)
ومساعدتهم لجيش المعتمد فهم فى ما يهد ولا يمدون أن يكونوا من الافاقين
الذين يستهويهم ركوب الموجة المنتصرة أيا كانت .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخلت قرطبة وأحوازها فى طاعة
مملكة اشبيلية . واستطاع المعتمد بذلك أن يوسع رقعة دولته بالاتجاه
شرقا فى الجزء الجنوبي من الاندلس الاسلامية . واستطاع ايضا أن يحقق
حلمه عجز عن تحقيقه ابوه وجده من قبل . وفقدت دولته تشير خوف
ورعب بقية دويلات الطوائف . وقد سر المعتمد بهذا الفتح البين سرورا^(٣)
بالفا جعل شاعريته تهتز فنظم فى ذلك ابياتا يمجده فيها فتحه لقرطبة .

(١) : ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) : اعمال الاعلام ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٣) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٢ .

وقد ولي المعتمد ابنه سراج الدولة عباد حكم مدينة قرطبة ، على أن يساعده في تدبير أمورها قائده ابن مرتين .

وهكذا كانت الاندلس تعيش آنذاك وقتا عصيا ، وظرفا دقيقا البقاء فيه للأقوى . تغيرت فيه المفاهيم وتبدلت الى درجة سحيقة من الاحلال الدينى والتسيب الأخلاقى ، وابتدت الشريعة التى تحكم تصرفات ملوك الطوائف آنذاك هى شريعة الفاب ، وشريعة السمك الذى يأكل فيه الكبير الصغير . وبات غير مستنكر أن تجتاح مملكة كبيرة مملكة اخرى ضعيفة موادعة مسالمة . ولقد شهد عصر المعتمد بالله بالذات ظاهرة سقوط أكثر من مملكة على يد مملكة اخرى ، ومن ثم زوالها عن الوجود . لقد سقطت مملكة مرسية بعد مملكة قرطبة - ذلك السقوط الذى سنعرض له قادمًا - وسقطت مملكة دانية التى اسسها مجاهد العامرى على يد بنى هود ملوك سرقسطة ، وكانت مملكة بلنسية قد سقطت قبل ذلك فى عهد المعتضد بالله .

ومن أسف أن ذلك الاجتياح والاحتلال لتلك الامارات والممالك لم يكن نابعا عن شعور قومى أو دينى يهدف جمع الشمل . ونبتذ الفرقة والتجزؤ . لو حدث هذا لكنا التمسنا عذرا لتلك الحروب المدمرة وما نتج وينتج عنها عادة من مضار وأذى لفئات الشعب فى تلك الممالك . ولكن الخزى . . . كل الخزى أن ذلك الاجتياح والاحتلال انما كان يتم لاسباب ذاتية ومطامع أنية ، يمكن أن نصفها بكل الاوصاف والنعمت ما عدا الحرص على المصلحتين القومية والدينية .

ومهما يكن من أمر فقد استقرت قرطبة لبني عباد وأسلمت لهم زمامها ، ولكن العباديين لم يستطعوا الاحتفاظ بها طويلا . وتكرر هنا درس مدينة مالقة التى خرج منها الجيش العبادى بقيادة المعتمد نفسه آنذاك مضطرا مقهورا . وان كان هناك اختلاف فى المدة التى لبث فيها العباديون فى قرطبة هذه المرة . فقد طالت الى خمس سنوات ثم اخرجوا

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

عنها ثم أعيدت ثانية لهم . والحقيقة ان مما يصاب على العباد بين هو تفریطهم
فى استثمار نتائج جهودهم وأعمالهم التى اقيمت بالمعرق والكذ والقوة والخداع .
لذلك نراهم يفرطون فى تلك المكاسب بسياسة اللامبالاة وعدم الاكتراث ،
والانصراف الى اللهو والمجون . وهذا ما حدث بالضبط فى تلك الحادثتين
اللتين تركتا فى قوة وكرامة العباد بين أثرا لا يحى . أعنى بها حادثتى
مالقة المذكورة سابقا ، ثم حادثة قرطبة هذه .

خروج قرطبة عن سلطة بنى عباد :-

فابن المعتد الملقب بسراج الدولة كان وقتها فتا يافعا
لم يعتمد طور المراهقة بعد . وكان من الطبيعى أن يسمى الى استئناف
حياة اللهو والدعة والرفاهية التى كان أبوه وأترابه يحيونها فى بلاط
اشبيلية . ولم يكن قائد الجيش الوزير ابن مرتين بأحسن حالا من أميره
الفتى ، فانصرف الاثنان يعبان من رحيق اللهو والمجون ما شاء لهم
وطاب دونما ادراك للمسئوليات والتبعات .

استمر احتلال بنى عباد لقرطبة من طم ٤٦٢ هـ حتى عام
٤٦٧ هـ / ١٠٧٠ م حتى طم ١٠٧٥ م . وكانت هذه الفترة سانحة عظيمة
للمأمون بن ذى النون لجبك المؤمرات وتدبير الحيل للانتقام من العباد بين ،
والظفر بقرطبة التى كانت قاب قوسين أو ادنى منه . ولذا فقد استمال اليه
رجلا يدعى حكيم ابن عكاشه ، وكان ينلى بعض الحصون المجاورة لقرطبة
من قبله أى من قبل المأمون . وابن عكاشه هذا كان رجلا من اتباع الوزير
ابن السقاء ، وعندما قتل ابن السقاء كما مر بنا فر هذا الرجل الى طليطلة
ولجأ الى مليكها المأمون ، فولاه هذا أحد الحصون القريبة من قرطبة^(١) .
ولهذا فقد نسق المأمون معه على أن يعمل الى اجلاء العباد بين عن
قرطبة وضمها الى مملكته . وأباح له من المال ما يكفيه لتدبير أمر ذلك من
سلاح وشراء للذمم والضمان . واستطاع هذا أن يحكم اتفاقه مع عدد
من الأعوان من الحراس وغيرهم فى المدينة . وقد لفتت هذه الاستعدادات

(١) : ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

والتحركات المشبوهة نظر بعض الحراس المواليين للدولة ، فأبلغوا ابن مرتين بأن هناك شيئا يدبر في الخفاء ، بل يقال أنهم أبلغوا الامير عباد نفسه . فلم يهتمما بالأمر بل ان ابن مرتين كما يذكر ابن الخطيب قد كذب الخبر واستهان به^(١) .

وعدما استكمل ابن عكاشة وضع الخطة ، وتحددت ساعة التنفيذ اقتحم برجاله المدينة ليلا بعد أن فتح له الاعوان بعضا من الأبواب . ولن نمضى في تفاصيل تلك الاحداث ، فما يهمنا هنا هو أنها قد انتهت بمقتل الامير سراج الدولة عباد وقائده ابن مرتين . ونادى ابن عكاشه بالطاعة لابن ذى النون ، واستقرت له الأمور بعد هذا واستتبت .

وبعث ابن عكاشه برأس ابن المعتمد الى المأمون فى بلنسية^(٢) . ويقول ابن الخطيب (وخطب ابن ذى النون ، فتلاحق بقرطبة فدخلها فى أبهة عظيمة ، وأخذ بيعة اهلها ، وكان وصوله اليها من بلنسية يوم الجمعة لخمس بقين من جمادى الاخرة سنة ٤٦٧ .) كل هذه الاحداث لانجد دافعا الى تكذيبها والشك فيها ، ولكن ما نستغربه بشده هو أن لا يكون بالمدينة جيش يدافع عنها . أفيحقل ألا يكون هناك جيش للدفاع عنها ؟؟ ان المؤرخين لم ينقلوا لنا من احداث تلك الاشتباكات الا مقتل عباد ابن المعتمد ووزيره ابن مرتين وعدد قليل من الانصار فقط . مما يدل على انه لم تكن هناك قوة عسكرية فى المدينة تحميها من غديات المعتدين . حتى لو تحققنا من وجود قوة صغيرة فقط لتولى شئون الأمن الداخلية . فان هذا يعد خطأ سياسيا وعسكريا كبيرا يضاف الى جملة اخطاء المعتمد الاستراتيجية الأخرى . ومع هذا فمن المحتمل أن يكون هذا التقصير راجعا الى حياة اللهو التى انغمس فيها سراج الدولة هو ووزيره .

وقد نزلت هذه الاحداث على المعتمد نزول الساعة ، فأذهلته

وأوجعته ، ولكنه تماسك واستجمع قواه .

- (١) : اعمال الاعلام ، ص ١٥٨ .
- (٢) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥١ .
- (٣) : نفس المصدر والصفحة .

عودة قرطبة الى حظيرة الدولة العبادية ثانية :-

يقول الفتح ابن خاقان في وصفه لحالة المعتمد تلك
(وشغل المعتمد عن رثائه بطلب ثاره ، ونصب الحبائل لوقوع ابن عكاشه
وعاره ، وعدل عن تأبينه الى البحث عن مفرقه وجبينه . فلم تحفظ له فيه
قافية ولا كلمة للوجه شافية (١))

وهكذا فقد أخذ المعتمد يعد العدة لاسترجاع قرطبة
والثأر لولده وكرامته في نفس الوقت . أما المأمون ابن يحيى فلم ينعـم
طويلا بالتربع على عرش قرطبة إذ ما عتم أن (أهل بقرطبة وتوفي فيها
لاثنى عشر ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ٤٦٧ . (٢)) ويقول ابن خلدون
انه قد مات مسموما (٣) . ولا نستبعد أن يكون ذلك قد تم بتدبير من ابن
عكاشه . فالعلاقات بين الرجلين كان يسودها حالة من الفتور والجفوة .
ولابد أن ابن عكاشة قد لمس اثر ذلك في نفس المأمون ونظراته له (٤) ، فأعجل
بالتدبير عليه ، ولا تصور في أنه كان للمعتمد يد في مقتله ، طالما لم يكن هناك دليل (٥)

ومهما يكن من أمر فقد أعلن ابن عكاشه تبعيته ليحيى
ابن اسماعيل بن المأمون الملقب بالقادر حفيد المأمون المذكور ، وخليفته
من بعده (٦) .

(١) : قلائد العقيان ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) : العبر ، مجلد ٤ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٤) : يقول على اد هم ان المأمون (كان في صميم نفسه يخشى هذا اللص المخامر
التمرس بالجرائم ، وكان يرى أن من تناول على قتل الامراء وانباء الملوك
لا يؤمن شره ، ولذلك شرع يتحين القرص للخلاص منه ، ولم يستطع كتمان
ذلك عن حاشيته . ففي ذات يوم دخل عليه ابن عكاشه فرحب به وأدناه
وهش له . فلما خرج تنفس الصعداء ، وأتبعه نظرة شوهاء ، وهينم
بكلمات نال بها منه ، ولما سأله أحد رجال حاشيته عن سبب ذلك
قال : من اجترأ على الملوك لا يصلح للملوك .)

انظر ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٥) : أشار ليفي بروفنسال الى امكانية ذلك .

انظر : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٢٩ .

(٦) : ابن الابار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

ويبدو أن أهواء أهل قرطبة كانت تميل الى الانضواء تحت سلطة المباديين رمز الأرسطراطية الأندلسية ، بل لنقل رمز العنصر العربي كله في وجه البربر . فليس خفياً أن بنى ذى النون وان كانوا قد تمسكوا الا أنهم يعودون الى أصل بربرى . بالاضافة الى أنه من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان الى جانب مناصر أفاق لاخلاق له تجراً على قتل الملوك كما يقول المأمون بن ذى النون نفسه الذى ذهب ان صحت رواية ابن خلدون ضحية تدبيره . نقول من الصعب على أهل قرطبة الاطمئنان اليه ، لذلك فقد راسلوا المعتمد يعلنون له عن رغبتهم الصادقة فى عودة سيطرته على مد ينتهم ، ويتعهدون بمساعدته وتقديم يد العون له (١) ولهذا فقد جهز المعتمد بعيد موت المأمون المفاجئ بفترة وجيزة جداً جيشاً توجه الى قرطبة ، واستطاع بمساعدة أهلها أن يقتحم المدينة ويحتلها .

(١) : أورد صلاح ^{خالص} رسالة كتبها المعتمد يشرح فيها تفاصيل وظروف استعادة قرطبة ،

توضح تماماً ما ذهبنا اليه من أن أهل قرطبة كانوا يميلون الى عودة سلطة

بنى عباد الى مد ينتهم ويتعهدون بمساعدته ومعاونته . وتشير تلك الرسالة الى أن تلك الفئة التى ساعدت ابن عكاشه لم تكن الا فئة ضئيلة الشأن قليلة العدد ، مأجورة مسخرة لا يعتد بها .

انظر : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) : نميل الى تأييد ما ذهب اليه صلاح خالص من تصحيح لتاريخ استعادة

المعتمد لقرطبة . وذلك فى تصحيحه لما أورده عبد الواحد المراكشى الذى

قال بأن ذلك قد حدث ظم ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م . وتبعه فى ذلك بعض

المؤرخين المحدثين الذين تناولوا شرح احداث تلك الفترة ، كدوزى ،

وعلى أدهم ، وعبد الوهاب عزام . وذلك لان ابن الخطيب فى كتابه

اعمال الاعلام اشار الى أن استعادة قرطبة قد وقعت بالتحد يدفسى

٢٧ ذى القعدة ظم ٤٦٧ هـ (١٤ يوليو ١٠٧٥ م) لاتشير فى قليل

أو كثير الى أن المعتمد ظل يحاصر قرطبة ثلاث سنوات قبل أن يقتحمها .

انظر : المعجب ، ص ١٨٩ - ١٩٠ . اعمال الاعلام ، ص ١٥٩ .

صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ١٢٨ - ١٢٩ . دوزى ،

المرجع السابق ، ص ٢٣٧ . على أدهم ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

عبد الوهاب عزام ، المرجع السابق ، ص ٩٤ .

وقد حاول ابن عكاشه الفرار ، الا أن رجال المعتمد قبضوا عليه وجيء به الى المعتمد فقتل وصلب مع كلب امعانا في التشفى والتنكيل . وسقط المعتمد اثر ذلك سيطرته على اجزاء مهمة من مملكة طليطلة تشمل جميع ممتلكاتها بين نهر الوادى الكبير ، ووادى آنه . وقد عهد المعتمد بأمر قرطبة لابنه المأمون الملقب بالفتح^(١) والذي بقى حاكما لها حتى مجيء المرابطين وقتله على يد يهم كما سنتناوله قادم ان شاء الله .

كما امتدت حدود مملكة اشبيلية الى مدينة لورقة التابعة لمملكة المرية ، فقد انشق صاحبها عن المعتصم بن صمادح أمير المرية ، ثم اعترف بالطاعة للمعتمد ابن عباد . وقيمت المدينة فى حوزة ملكة اشبيلية حتى سقوط دولة بنى عباد على يد المرابطين كما سيأتى .

ظهور الوزير محمد بن عمار على المسرح السياسى ودوره فى توجيه جهود المعتمد نحو التوسع :-

كانت الاحداث التى عرضنا لها فى حديثنا عن جهود المعتمد بالله للاستيلاء على قرطبة وما تبعها بعد ذلك من احداث اخرى . نتيجة لسياسة وضعها المعتمد بمفرده كما رأينا . أما الجهود الاخرى للمعتمد فى توسيع رقعة دولته ، فقد كانت نتاج سياسة وضعها وزيره محمد بن عمار ، وأقره عليها المعتمد بعد ذلك .

وفى الحقيقة لقد ارتبطت سياسة اشبيلية الخارجية فى عهد المعتمد بمحمد بن عمار الذى طبعها بطابعه الخاص ردا على غير يسير من الزمن حتى لنكاد لانجد غضاضة من أن نوافق من يدعو سياسة المعتمد الخارجية بسياسة محمد بن عمار^(٢) . اذ لعب دورا رئيسيا فى توجيه سياسة

(١) : ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

هذا ما يقوله ابن خلدون ، اما عبد الوهاب عوام ففى كتابه المذكور سابقا كثير من الخلط فى تحديد السنوات ، وتحديد من من أبناء المعتمد تولى شأن قرطبة أول مرة ، وكذلك بعد عودتها الى المعتمد ثانية .

انظر : المرجع السابق ، ص ٩٤ ، و ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) : كصالح خالص فى كتابه : محمد بن عمار الاندلسى ، ص ٨٥ .

المعتمد الخارجية ورسم خطوطها • وأسم محمد بن عمار قد لاس أسماغا
فى حد يثنا عن المعتضد بالله ، ورأيناه يدبج القصائد فى تمجيد المعتضد
والاشادة بأعماله وفتوحه كما مر بنا سابقا ، لذا فنحن ملزمون باستجلاء
بداية رحلته نحو السياسة الاشيلية وبداية العلائق بملوكها •

ينتمى محمد بن عمار الى أسرة طديفة من طامة الناس
فى المجتمع الاندلسى ، ولد فى قرية من أعمال مدينة شلب تدعى شنبوس ،
ويكنى بأبى بكر ، وقد شب فى مدينة شلب الواقعة فى غربي الاندلس
وتلقى علومه فى الدين والادب على يد رجالها وشمرائها • وقد بدأت مخايل
الادب ، وندور الموهبة الشعرية تصبغ حياته مذ رحل الى قرطبة حيث اختلط
بالصفوة من ادبائها وعلمائها ، فصقل ذلك شاعريته وفجرها ^(١) • ومن قرطبة
بدأ رحلته فى التسيار فى اقاليم الاندلس مادحا ، مشيدا متكسبا (لا يخص
بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولا ممن استعطف من
ملك او سوقة) ^(٢) .

وقد أسر سحر بلاط المعتضد واشراقه لب ابن عمار •
فألقى عصا التسيار فى طامته بعد طول تجوال فى ممالك الاندلس •
وفى اشبيلية ألقى بين يدي المعتضد قصيدته الرائية المشهورة التى أشرنا
اليها سابقا ، والتى لاقت من المعتضد الاعجاب والاستحسان • فأمر بأن
يكتب فى ديوان الشعراء وأن ينتظم فيه ^(٣) .

وفى بلاط المعتضد انعقدت أوامر صداقة متينة بين ابن عمار ،
وبين ابن المعتضد وولى عهده الفتى محمد الملقب بالمعتمد فيما بعد •
وكان توثق العلائق الوشائجية السريع جدا بين الاثنين مشار تساؤل
واستمعجاب • وفى الحقيقة فقد كانت هناك خلال وصفات جمعت بينهما •
فكلاهما كان شابا يافعا وان كان ابن عمار يكبر المعتمد بتسع سنوات • اضافة

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٣ •

(٢) : نفس المصدر ونفس الصفحات •

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٧٣ - ١٧٦ •

الى هذا كانت تربط بين الاثنين صفة جامعة مشتركة هي نظم الشعر وتذوقه • ولا خفاء في أنه كان للشعر في العصور الاسلامية دور رئيسي لافى حياة الشعب فحسب بل وفي حياة الدول والممالك ايضا • فالشعر عدا كونه أهم وسيلة للاعلام الرسمي والشعبي في تلك العصور ، وهو ما تمثله اليوم الصحف والمجلات والاذاعة الصوتية والمرئية ، فانه كان الوسيلة الاكثر فاعلية في التعبير عما يختلج في النفس البشرية بكل حالاتها وتطلعاتها وآمالها وآلامها وأتراحها وأفراحها • ومن هنا نستطيع القول بأن نظم الشعر وتذوقه الذي يجمع بين ابن عمار والمعمد كان الرابطة الأوثق في الجمع بينهما • وعدا هذا وذاك كان الاستعداد الفطري للهو والمجون والانسياق وراء اللذات الذي يجمع بين الاثنين صفة ثالثة تقرسهما لبعضهما بعضا •

والواقع أننا نستطيع أن نلمس قواسم مشتركة بين الصديقين شدتهما ببعض ، ووثقت علاقتهم بدرجة تذكرنا بالعلاقة التي كانت قائمة بين هارون الرشيد وجعفر البرمكي • وقد أفاض المؤرخون القدامى والمحدثون (١) في وصف تلك العلاقة التي كانت بين المعتمد وابن عمار مما يعفينا عن الاسهاب في التحدث عنها •

ويكفي أن نورد لعبد الواحد المراكشي وصفه لتلك العلاقة ان يقول (ثم تعلق بالمعتمد على الله ، وهو ان ذاك شاب ، فلم تنزل حاله بتزويد ، وتوالت خدمته له تقوى وتأكد الى أن صار ابن عمار اقرب اليه من شعيرات فصته ، وأدنى اليه من جبل وريده •) (٢)

وعندما استطاع المعتمد أن يبسط سيطرته على امارة شلب عام ١٠٦٣/هـ ٤٥٥ م ، ولى ابنه المعتمد ولايتها • وقد استدعى المعتمد اثر ذلك صديقه وأليف روحه محمد بن عمار اليه في شلب ، وعهد اليه بالوزارة ، وشهدت أيامهما فيها الكثير من مغامرات الصبا وبعث الفتوة

(١) : من المؤرخين القدامى الذين افاضوا في الحديث عن ابن عمار وعلاقته بالدولة العبادية : ابن بسام ، وابن الابار ، والمقرئ • ومن المحدثين صلاح خالص الذي ألف مؤلفا سماه : محمد بن عمار الاندلسي ، وكذلك ثروت اباظه الذي ألف كتابا بهذا العنوان •

(٢) : المصدر السابق ، ص ١٧٦ •

(١) واليفاعة ظلت ماثلة في ذهن المعتمد حتى بعد توليه الملك .

على أننا ما نلبث أن نفاجأ بالمعتضد يأمر بالتفريق بين
ابنه وصديقه ولصيق روحه كما يقول عبد الواحد المراكشى . ولا يهمننا هنا
تتبع ما حدث هناك ، فالواضح أن ثمة مسلك مشين كان يسلكه الصد يقان
في شلب ، جعل المعتضد يضيق جدا من الاشاعات والاقاويل التي تلوكها
الألسن عهما . فأمر بالتفريق بينهما ، يقول صاحب المعجب (وساءت
السمعة عنهما فاقضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار
عن بلاده حسبا تقدم الايماء اليه ، فلم يزل ابن عمار مغتربا في اقصى
بلاد الاندلس الى أن توفى المعتضد بالله) (٢)

وعلى أية حال وكم تبغى أحداث وتاريخ لا يهمننا من تفاصيل
اغتراب ونفى ابن عمار الا القدر الذي يرتبط بموضوعنا فقط . وعلى هذا فنحن
لانجد من تلك التفاصيل الا ما يشير الى القوائد التي بعثها ابن عمار
من منفاه للمعتضد ، وابنه المعتمد مسترحما مستعظفا متبرما متأفقا .
وعندما توفى المعتضد تبسم فم الزمان لابن عمار ، فها هو صد يقه ورفيق
درب اللهو والاستمتاع للذات يصبح الرجل الاول في الدولة . وبالفعل
لم يخب المعتمد لصد يقه رجاء ، (فاستد طه المعتمد وقربه أشد تقريبا
حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه) (٣)

(١) : بعث المعتمد الى صد يقه محمد بن عمار واليه على شلب بقصيدة يتشوق فيها
الى الايام السعيدة التي قضياها في تلك المدينة .
وفي هذه القصيدة يقول :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر وسلهن هل عهد الوصال كما أدري
ويقول فيها ايضا :

ليال بسد النهر لها قطعتها بذات سوار مثل منعطف البدر
أنظر ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) : عبد الواحد المراكشى ، ص ١٧٦ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى ، نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

وقد قيل في وصف صفات ابن عمار الكثير ٠٠٠ الكثير
يعنيها منها ما اتفق عليه المؤرخون من أنه كان مغامرا انتهازيا وصوليا ذا اطماع
ومطامح واسعة ، وذا شخصية قوية نافذة متسلطة . كما يهمننا من تلك
الاصاف ما اتفقت عليه الكلمة من أنه كان سياسيا داهية ، ودبلوماسيا مخنكا .
اتضحت معالم تلك الصفات وبرزت عند ما تمنى ابن عمار على مليكه وصديقه
أن يعهد اليه بحكم ولاية شلب (وهي بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجاباه
المعتمد الى ذلك وولاه اياها ابنه ولاية جعل اليه جميع أمورها ، خارجها
ودواخلها . (٢)

ويبدو أن افتقار المعتمد لساعات الانس واللذة اللتين كان
يحياهما الصديقان قد أدت في نفس المعتمد شوقا مبرحا (٣) ، جعله يبحث
الى صديقه ويستدعيه الى اشبيلية حيث هو ، فيمضيه عن شلب ويعهد اليه
بمنصب اهم ومركز اخطر وهو الوزارة . (٤)

وسنألف منذ الان فطالعا التعامل مع لقب الوزير ابن عمار
الذي غدا المهيمن الرئيسي على السياسة الخارجية الاشبيلية والموجه لها ،
ولاندري في الحقيقة تماما ما كان عليه الامر وقتذاك في الدولة وفي منصب الوزارة
بالذات . فنحن نعرف أنه كان هناك وزير ذو أهمية بالغة في دولة اشبيلية ،
ونعني به الوزير الشاعر ابن زيدون . واذا كنا لم نشر للوزير ابن زيدون
وأعماله في عهد المعتمد وهو الذي كان وزير دولته ، فذلك لاننا قد آثرنا
التحدث عنه عند حديثنا عن الحياة الادبية قادمنا من جهة ، ولكون شخصية
المعتمد النافذة المتسلطة لم تكن تسمح لبروز أي نفوذ أو سيطرة لأي من
كان مهما بلغت مكانته من جهة أخرى . نقول اننا لم نستطع معرفة صالحيات
الوزير ابن زيدون ، كما لم نستطع معرفة ما يخص ابن عمار منها أيضا .

(١) : انظر ، صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ٧٥ - ٨٢ .

(٢) : عبد الواحد المراكشي ، ص ١٧٦ .

(٣) : يري صلاح خالص في كتابه المذكور اعلاه ، ص ٨٣ - ٨٤ أن عودة ابن عمار

من شلب الى اشبيلية لم تكن تتم عن اسباب طائفية وانما كانت لاسباب سياسية

تخدم كليهما .

(٤) : عبد الواحد المراكشي : نفس المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

ولكن ما نستطيع الجزم به هو التأكيد على المكانة العالية الرفيعة التي بلغها ابن عمار (١) وأن المعتمد لم يزل يعده لكل أمر جليل ويؤمله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار لا يناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالمسكة المحماه (٢) .

على أن اخطر ما اضطلع به ابن عمار في عهد المعتمد هو مداخلاته وصدقاته وسفاراته مع أمراء وملوك النصارى فى اسبانيا . فقد اتفق على الاشادة بسياسته تلك وصدقاته ومداخلاته التي رسمها لتحقيق ما يطمع اليه هو أولا من صديت وشهرة ومجد ذائع - وهو ما نجح فيه - ثم تحقيق رغبات المعتمد وتطلعاته فى التوسع ثانيا (٣) وفى الحالتين كان هو المستفيد الاول ، ونستشهد هنا بعبد الواحد المراكشى فى وصفه لمكانة ابن عمار (وشهر امره ببلاد الاندلس حتى كان ملك الروم الاذفتش اذا ذكر غده (٤) ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة) .

وما دنا بصدد الحديث عن دور ابن عمار فى رسم السياسة الاشبيلية تجاه الممالك النصرانية ، فلا يمكننا الا أن نقرباً أن سياسة الوزير ابن عمار هذه كانت تقوم على مبدأ سياسى واضح هو توثيق الروابط

(١) : يرى بعض المحدثين كصلاح خالص وغيره أن ابن عمار استطاع بد هائه أن يتخلص من غريمه وشريكه فى الوزارة الاشبيلية ابن زيدون باقناع المعتمد بضرورة بعثه الى قرطبة لخماد ثورة اليهود التي قامت هناك . وكان يقصد من ذلك ابعاده عن ملكه ليخلو له الجو ويحتكر صداقته ، الا أن الارادة الالهية شاءت أن تزيج ابن زيدون عن طريق ابن عمار ، إذ لم يلبث ابن زيدون أن توفى طم ٤٦٣هـ / ١٠٧١ م بعد قليل من بدء مهمته . انظر ، محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧١ - ٧٣ . دائرة المعارف الاسلامية ،

ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ (مادة ابن عمار) .

(٢) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٤) : الاذفتش : الاسم المعرب لألفونسو السادس ابن فرناندو الاول الذى

تدور الحوادث التي سبقت موقعة اللقنة بينه وبين المرابطيين ،

وتأكيدهما مع ممالك النصارى وخاصة مملكة قشتالة ومليهما ألفونسو السادس الذى بلغ من خطره السياسى والعسكرى أن اصبح كما يقول صلاح خالص الوحيد القادر على فرض رأيه ووجهات نظره فى الصراع القائم بين ملوك وأمراء الممالك الاسلامية^(١) . ولذا فقد كان ابن عمار يدرك أنه لكى يحقق مشاريع مليكته وما تعود عليه هو ثانيا من فوائد شخصية بعد هذا ، عليه أن يوثق علاقته مع الملك القشتالى وحده . فكان من الطبيعى أن تنعقد أو اصر صداقة متينة بينه وبين ألفونسو السادس دفعت فى الواقع كثيرا من الاشكال والمصائب عن مملكة اشبيلية بفضل تلك الصداقة . ويروى لنا عبدالواحد المراكشى قصة^(٢) رواية طريفة تقوم على خدعة ذكية خلاصتها أن ابن عمار استطاع فى وقت من الاوقات التى كان الفونسو يشدد فيها ضغطه على اشبيلية ، استطاع بفضل تلك الخدعة الذكية التى مارسها مع الفونسو أن يرد الهجوم الكاسح الذى كان الفونسو يبنيه ضد اشبيلية . ولكنه لم يفعل ذلك الا مرغما وبعد أن ضاهف له ابن عمار الجزية السنوية المقررة على اشبيلية .

كما أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية قول عبدالله ابن زيرى ملك غرناطة عنه (ولانه قد استمال النصارى واندخل معهم بحيلة ، فمتى داهمه أمر من قبلهم وجهته اليهم فينجلى من أمرهم ما يضيق الصدر به)^(٤)

على أن مما يشهد لابن عمار بالبراعة السياسية الفاتحة أيضا أنه كان فى مفاوضاته الشاقة مع النصارى لا ينساق اطلاقا فى التفريط لهم فى الاراضى . وانما كان يضحى لتفادى ذلك بأموال جسيمة باهظة^(٥) . وهذا ما يؤكد ما ورد فى قصة عبدالواحد المراكشى .

== والحوادث التى أعقبتها بعد ذلك حول شخصه . وهو الذى تدور حوله أيضا علاقات ملوك الطوائف فى عهد المعتمد بالله مع مملكة قشتالة .

- (١) : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٧٦ .
- (٢) : المصدر السابق ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .
- (٣) : المقصود به المعتمد .
- (٤) : التبيان أو مذكرات الامير عبدالله بن بلقين بن زيرى ، ص ٧٦ .
- (٥) : صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسى ، ص ٨٦ .

سياسة الوزير ابن عمار تجاه مملكة غرناطة :

قبل أن نحدد طبيعة هذه السياسة وما نتج عنها من أحداث ،
يجدر بنا أن نلمح بنتف من أحوال مملكة غرناطة ، وشي من طبيعتها
العلاقات بينها وبين مملكة أشبيلية حتى يكون تناولنا للأحداث طبيعياً
وموضوعياً . . .

قلنا أن مملكة غرناطة كان يحكمها عادة تولى المعتمد السلطنة
باديس بن جوس الصنهاجى . وذكرنا أنه خرج من محناته ومشكلاته
الداخلية كأقوى ما يكون ، إلا أنه توفى بعد هذا فى عام ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣ م ،
بعد حكم استطال الى أكثر من ثلث قرن . ورغم أنه قد ترك أبناً يدعى ماكسن ،
الإ أنه لم يعهد اليه بولاية العهد لسوء سيرته ، ولخروجه
عليه ، ولم يدم أهليته لذلك . ولذا فقد عهد بمملكته الى
حفيد عهد الله بن بلقين وأخيه تميم بن بلقين ، على أن
تكون العاصمة غرناطة وذواتها لعبد الله ، ومالقه الى أخيه الأكبر
تميم الذى كان يتولاها منذ عهد جده (١) .

ولن ندخل فى تفاصيل أخبار مملكة غرناطة ، فما يهمنا
هو الأشارة الى أن عبد الله بن بلقين الذى خلف جده على
مملكة غرناطة كان يفتقد الى كثير من صفات جده التى أستطاع به
حفظ أطراف مملكته ، والمحافظة على دولته قوية مرهومة
الجانب داخليا وخارجيا . فلقد كان ضعيف الشخصية منها لكان
رغم ما حاول رسمه عن نفسه فى مذكراته الوثائقيه المعروفة بالتبيان
والتي نشرها ليفى بروفنسال بعنوان : مذكرات الامير عبد الله .
وكان بجانب ذلك صفير السن لم تعركه التجارب ، وتصلقه السنون
بعد . . .

وقد حاول المعتمد أن يستأنف معه الدور الذى مارسه
أبوه وجده من قبل مع البربر عموما . ونحن هنا فى هذا
الصدد لا نميل الى الأخذ بما ذهب اليه محمد عبد الله عنان

(١) : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣٩ ، ص ١٤٢ .

فى تفسيره لسياسة العباديين مع البربر التى تقوم كما يقول على
التوجس منهم والقضاء على سلطانهم • أذانه يعلل سبب
هذا الصراع بأنه صراع حضارى بين العرب الذين يمثلهم العباديين ،
والبربر فى الأندلس عموماً • فنحن لا نميل إلى أخذ هذا
التعليل فى الاعتبار ، ذلك لأن الصراع كان أبعد ما يكون عن أن
نفسره بأنه صراع حضارى محض • كما أننا لا نزعجهم بأن
العباديين قد نصبوا أنفسهم القوة العربية القابلة للقوة
البربرية • ومعنى آخر أن العباديين لم يكفوا ينظرون إطلاقاً
إلى صراعهم مع البربر بمنظار غصبرى يدو كمحور لسياسة رسمية •
فبنو عباد سبق لهم أن ثلوا عروش أمارات عربية صميمه • ولا نزعجهم
أيضاً أنهم كانوا يطلعون فى فتوحاتهم وتوسعاتهم من منظار قومى
يهدف إلى تضيق الشقة ويدعو إلى الوحدة وعدم التجزؤ حتى لو
كان ذلك بالقوة المسلحة إذا اقتضى الأمر ذلك • فسياستهم لم تكن
السياسة أشبيلية محلية فقط تهدف إلى بسط سيطرة مملكة
أشبيلية على كل بلاد الأندلس باعتبار أن حكماها مفوضين من
قبل الخليفة هشام المزعوم كما يدعون لقيادة الأندلس كلها •
وعندما مات الخليفة المزعوم عهد إلى المعتضد كما يقولون أيضاً لأن
يكون أميراً على الأندلس كلها من بعده • (٢)

ولهذا كله أنطلق العباديون فى جهودهم لتوسيع رقعة
دولتهم لا يبالون بالأقدام على فعل أى شئ يوصلهم إلى هدفهم المشهود •
ومن حق النزاهة التاريخية علينا هنا أن نشير إلى أن المعتمد
رغم أنه كان يختلف عن جده وعن أبيه من حيث الفلظة والقسوة
والجبروت ، إلا أنه كان أكثرهم انتهازية ووصولية • فقد سمح لنفسه
بمداواة النصارى ، والامتنع الاستعانة بهم ضد أخوانه من
المسلمين لتحقيق أغراضه • وهو أمر بالغ الخطورة والخزى
خلت صحيفة أبيه وجده من معرفتها •

(١) : المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣

(٢) : أنظر قبل ، ص (١٣٨)

وعلى أية حال فقد أستمد المعتمد لتوسيع رقعة دولته على حساب مملكة غرناطة جارتها من الجنوب الشرقى . أن رأى هو ووزيره ابن عمار أن مملكة غرناطة قد وصلت الى غاية من الضعف والخور مثلها مثل مملكة قرطبة . ورأيا فيها أيضا تفاعلة قد نضجت وحن قظافها ، فجندا نفسيهما للعمل على الأجهاز عليهما . ولكي تتضح معالم أحداث تلك الجهود لابد لنا من عودة على ذي بدء . ما تحدثنا عن الموقف السياسي فى الاندلس غداة تولي المعتمد السلطنة . إذ كنها قد أشرنا الا أن الفونسو السادس أستطاع أن يصبح سيد اسبانيا النصرانية شبه المطلق بعد تلك السلسلة من الحروب الاهلية ، والأحداث الاخرى التى عرضنا لها . ولم يعد فى الاندلس بدأ من عام ٥٤٦٤ / ١٠٧٣ م ، وهو العام الذى تبرع فيه الفونسو السادس على معظم اسبانيا النصرانية الى مملكته الواسعة ، وأمانة برشلونه فى الشمال الشرقى .^(١)

وقد بدأ خطرته يتعاضم شيئا فشيئا منذ أستتبت له الأمور ، وكان فى الحقيقة أشد خطرا من أبيه . وأكثر منه أنتهازية ، وكانت سياسته فى الواقع أشد دهاء ومكرا من سياسة أبيه . فوالده فرد يناند كان حاضرا متأهبا فى كل الأوقات للحلية أى دعوة من أى مملكة أو أمانة اسلامية . وكان لا يجد حرجا من نقل ولائه ومساعدته لمن يدفع أكثر . أما ابنه الفونسو السادس فقد فاقه فى هذا وبزه . بل أنه أنتهج سياسة ماكره تهادف الى أنهاك قوى خصومه المسلمين المائليه والعسكريه بفضل الحصار الطويل والشديد الذى يضربه على معاقلهم . ثم يرفع ضغطه عن هذه المعائل بعد أن يكون قد أستطاع امتصاص قواهم العسكريه والمائليه . ومن ثم يسهل عليه بعدئذ القضاء على استقلال تلك المعائل .^(٢)

وستتضح معالم هذه السياسة بعد قليل فى موضوعاتنا القادمة أن شاء الله . وستتضح معها أن حكام الممالك الاسلاميه فى الاندلس أنزلقوا فى تورط مفرغ الى خدمة مشاريع الفونسو السادس والاسهام فيها بسوء سياستهم بقصد وسفير قصد .

(١) : أنظر قبل ، ص ٧٧ - ٧٨ .
(٢) : أنظر فى هذا : عبد الله بن بلقين بن زيوى : التبليان ، ص ٧٣

(١) فكر المعتمد ووزيره ابن عمار في مهاجمة مدينة جيان ذات الأهمية العسكرية والتي تقع الى الشمال الشرقي من ولاية قرطبة . ومن ثم الحمل على الاستيلاء عليها . والفعل أستطاع المعتمد أن يضم هذه المدينة الى مملكته وينتزعها من صاحبها عبد الله حفيد باديس عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م . ثم فكر بعد ذلك في مهاجمة غرناطة نفسها ، إلا أن وزير الدولة الفرناطيه الناقد المدعو سماجه الصنهاجى استطاع أن يهدى قدرا من الحزم العظيم . فحصن المدينة (٣) وأخذ العدة للمقاومة ، مما جعل المعتمد يأس ويوقع حصاره عنها . وفى تلك الأثناء شاء الفونسو السادس أن يوسع ضفوطه نحو مملكة غرناطة وأن يحاول إجبارها على الأنسحاق فى تنفيذ سياسته بأركانها على دفع الجزية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف الأخرى وكان هذا دليلا ساطعا على رغبته فى جرد الممالك الاسلاميه نحو الغاية التى خططها بدقة . فقد بمثل الى عبد الله بن زيرى يطلب منه أن يدفع له عشرين ألف دينار كجزية مفروضة مستغلا حرج موقف المملكه . وفى هذا الصدد يقول ابن زيرى نفسه (وأما الفونش لما تيقن هذه الفتن ، علم أن ذلك من أكبر سعادته ، وراعظم فرصة فى طلب الأموال . فأرسل اليه رسوله : أول مداخلة نشأت بيننا وبينه ، فأتى باطرشولش يطلب منىا ضربته ، فأبيننا عليه واجتمع رأينا على أن لا نفعل . وأن ضرر الفونش لا يخشى وضيها أمانا . نعى بذلك ابن ذى القرن (٥) ولم نفس أن أحدا يعاقده على مسلم . فأصرفنا دون عمل .)

(١) : جيان ، مدينة وكورة فى التقسيم الإدارى للأندلس الاسلامى . والبلد يقع على نهر الوادى الكبير الى شرق قرطبة ، أما البلد فيقع على السفح الشمالى الشرقى لجبل كوز Jabalcuz غربى وادى بطون Guadalbunón والبلد يقع على ارتفاع ٥٤٩ مترا ، ولهذا يصفه جغرافيو العرب بالحصانة والامتناع وخاصة قصبته . وجيان اليوم مدينة واسعة من مديريات منطقة الأندلس (فى جنوب اسبانيا) .

- أنظر ، ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ١ ، ص ١٢١ .
(٢) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ١٤٢ . رقم ٣
(٣) : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ٢٣٤ .
(٤) : سفير اسباني نصرانى بعثه الفونسو السادس لأخذ الجزية من مملكة غرناطة كما هو واضح .
(٥) : عبد الله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

ولكن ابن زيبرى كان واهما ، فالعصر الذى يعيش فيه عصر
تغيرت فيه المفاهيم ، وقوضت فيه المثل ، واصبحت صفات الصولية والانتهازية
وغيرهما دلالة على ذكاء خارق وسياسة محكمة . هذا من جهة ، ومن جهة
أخرى فهذا دليل على عدم أهلية عبدالله للحكم وقلة تجاربه ومحدودية
ثقافته ، فالاندلس قد شهدت فى عهد جده نوعا من هذا التعاون الذى
يستبعده .

وأيا ما كان الأمر فقد انصرف السفير النصرانى غضبا ومتوعدا
بأوخم النتائج . وفى طريقه الى بلاده التقى فى مدينة باغة ^(١) بوزير مملكة
اشبيلية محمد بن عمار الذى كان يترصده مجيئه . ودخل الاثنان فى مفاوضات
سياسية اتضح منها المدى الكبير الذى انزلق فيه المعتمد ووزيره ابن عمار
على السوء فى تحقيق رغباتها الشخصية .

ويروى عبدالله بن زيبرى بكل امتعاض وحنق ما حدث بقوله
(وان ابن عمار انتهز هذه الفرصة وكان منتظرا له باغة مرتقبا لما يصنع معنا ،
فلما رأى انه لم يتم له عمل ، ألقى يده فيه على المقام وقال له : ان كنتم
منتم عشرين ألف دينار " وهى التى هـأل عن ضربته " فنحن نعطيكم ^(٢)
خمسين ألفا ، على أن نعاقدهم على غرناطة ، تعطونا القاعدة ولكم ما فيها من
الأموال ، فعاقده على ذلك . ^(٣) ومعنى هذا أن ابن عمار كان يهدف الى أخذ
الاذن من الفونسو باطلاق يده ويد مليكه بمهاجمة مملكة غرناطة والاستيلاء
على غاصتها مطمئني البال الا أن الفونسو سوف لن يعارض فى هذا ، أو بمعنى
آخر لن يعارض فيما سيحدث من تغيير من توازن القوى آنذاك . وذلك على
اجبار أن الفونسو سوف لن يخسر شيئا بل على العكس فان المبلغ الباهظ الذى
دفعه له ابن عمار سيساعده على تقوية جيشه استعدادا لجولات أخرى .

(١) : باغة مدينة صغيرة ، هى غير باجة Beja ، المذكورة سابقا ، واسم
هذه البلدة فى القديم اياغوم Epagnum أو باغو ، وتسمى اليوم
غد الاسبان بريغو Priego .

انظر : شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج ١ ، ح ٦ ، ص ١٣٠ ،
وح ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) : ما بين القوسين هو من تحقيق ناشر كتاب البيان ومحققه ليفى بروفنسال .

(٣) : عبدالله بن بلقين بن زيبرى : المصدر السابق ، ص ٦٩ - ٧٠ .

وكان لهذا العمل دلالة الخطيرة فمجرد الاحتكام الى العدو النصراني والاتفاق معه في شأن اسلامي بحت يعنى انتقاصا للسيادة الوطنية الكاملة لأية دولة من دويلات الطوائف ، ويمطى بعدئذ الحق والبرر لملوك النصارى في التدخل في الشؤون الداخلية للممالك الاسلامية ، ومحاولة دس أنوفهم في همومها للوصول الى غاياتهم .

وقد نصت المعاهدة أيضا على أن يسمح لمملكة اشبيلية ببناء حصن أو قلعة أمام مدينة غرناطة يقفل عليها السبل ويضيق عليها الانفاس - وهي وسيلة عسكرية كانت سائدة في العصور الوسطى - . وقد اهتدى ابن عمار الى انتقاء مكان مناسب لهذا الحصن عند حصن يليلش القريب من غرناطة بمساعدة بعض الخارجيين على المملكة الفرناطية .^(١) وقد استطاع أن يبنى ذلك الحصن بسرعة مذهلة بمساعدة بعض من مفرزات الجيش النصراني . يقول ابن زيرى (وأكرى ابن عمار من عسكر الفونش ما قوى به البنيان بأعداد من الاموال جسيمة ، يسوفهم فيها تارات ، ويمسدهم ويخادهم ، حتى تم البنيان . وجعل المعتمد يحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبدا على مقربة من غرناطة مدة كونه ، طمعا في أن يقوم معه أهل البلدة ، فلما تم بنيانه ، قواه بالندب ، واتخذ فيه جميع الاقوات وأمرهم بالتضييق ، وكانت الحال شديدة (٢)

ومن الواضح والطبيعى أن يؤثر هذا التضييق ، وذلك الاقفال للسبل على مملكة غرناطة ، رغم أن المعتمد والفونسو قد ظدرا مسرح تلك الاحداث . وحاول عدالله بن زيرى جاهدا أن يخضع ذلك الحصن لنفسه ، ولكنه لم يستطع فعل أى شئ . وقد أثرت هذه الاحداث في الجبهة الفرناطية الداخلية المضمضة أصلا ، وقد أخذ ضغط الاحداث يعبئ في الشهور الشعبى القنوط واليأس من استمرارية بقاء الدولة ، وندم ابن زيرى على تفريطه في عدم موافقة الفونسو عندما طلب منه الجزية مقابل مداراته .^(٣)

(١) : عدالله بن بلقين بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٢) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

(٣) : نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

ونحن هنا نستبعد ما أورده محمد عبدالله عنان من أن عبدالله

ابن زيبري هو الذي يادربطلب معونة الفونسو أسوة بمعظم أمراء الطوائف .
وأن المعاهدة التي عقدت كانت معاهدة حلف وصدقة ، تمهد فيها ابن زيبري
بدفع جزية قدرها عشرين ألف دينار . كما يقول عنان أيضا أن ابن زيبري
ووزيره سماجه الصنهاجي المذكور سابقا قد خرجا ومعهما سرية من الجند
النصارى التي أمدهما بها الفونسو . وقد أغار الجيش على أراضي اشبيلية .
واستطاع أن يسترجع حصن قبره الذي يقع في جنوب غربي جيان . نستبعد
هذا لأن ابن زيبري نفسه لم يشر الى هذه الاحداث في كتابه السابق الذكر .
بل يقول انه في أول اتصال تسم بينه وبين الفونسو وذلك عندما رفض اداء
الجزية : (فأرسل الينا رسوله أول مداخلة بيننا وبينه فأتى ٠٠٠) ولو
أنا افترضنا أن ابن زيبري قد فاته رصد بعض الاحداث والاتيان بها ،
فاننا لم نعثر على رواية مساندة تؤيد هذا الرأي ، بل ان محمد عبدالله عنان
لم يورد عند روايته لهذه الاحداث مصدره أو مصدره التي اعتمد عليها .

شملت هذه الاحداث الفترة من عام ٤٦٦ - ٤٦٧ هـ /

١٠٧٤ - ١٠٧٥ م . وقد أجهدت مملكة غرناطة كثيرا . على أن حدثا
جليلا وخطيرا حدث في عام ٤٦٧ هـ بدل المواقف وخلط الأوراق السياسية
في الجزء الجنوبي من الاندلس وأزاح عن كاهل غرناطة كابوسا ثقيلا ، ذلكم
هو خروج قرطبة عن طاعة بنى عباد ، وما حدث من مقتل عباد ابن المعتمد
كما مر بنا سابقا (٤) . فقد أربك هذا الحدث سياسة اشبيلية ، وجعلها
تنسّق جهودها سراعا وتدفع باهتمامها نحو المشكلة المستجدة والنقطة
المتفجرة . ومن هنا فقد أرغم ابن عمار على تغيير استراتيجيته ، فاضطر
الى سحب جنوده من حصن يليلش والتوجه نحو قرطبة . وأعطى هذا الحادث
لابن زيبري الفرصة ليقول (فلما انقضت بقرطبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر
أهل يليلش أخلوها على المقام ، ودخلها رجالنا ، وصارت في ملكنا مستبدة

(١) : دول الطوائف ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) : حصن قبره هو اسم لكورة من كور جنوب الاندلس . وقبرة اليوم Cabra

مركز اداري في مدينة قرطبة .
أنظره ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ .

(٣) : انظر عبدالله بن زيبري : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٤) : انظر قبل ، ص ١٩٤ - ١٩٦ .

مبنية ، فنظرنا منها بالذى نصنع بقصبة غرناطة ، وتروح مخنقها من حيث لم يحتسب . (١)

عودة الوزير ابن عمار لمحاولات التوسع على حساب مملكة غرناطة :-

لم تستطع مملكة غرناطة أن تنعم بالهدوء الذى أسبغته أحداث قرطبة طويلا . إذ ما إن أستطاع المعتمد أن يستعيد قرطبة حتى توجه الوزير ابن عمار نحو الهدف الثانى فى سلم أولويات السياسة الاشبيلية ، ولكنه فضل هذه المرة أن يتجه نحو الفونسو السادس مباشرة ليعقد معه اتفاقية على غرار الاتفاقية الاولى ، ونفس المبلغ الذى تعاقد عليه فى المرة الاولى . ويقول ابن زيرى هنا (ومضى ابن عمار مرتها بما جعل على نفسه للنصرانى من كراء بلبش فى تبعات كثيرة ، وجرايات جسيمة يقطعها له ويمده بها ، وأدخل سلطانه من ذلك فى تشفيب ، لانه كان لا يريد أن يجعله يخلد الى راحة لكى يحتاج اليه فى تلك الفتنة لا يقر عن ادخال ضرر على المسلمين . ومضى ما كان المعتمد يسمى فى تهدين الأمر ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة لا ينجم فى نقضها واشعال نار الفتنة . فعاد ثانيا الى النصرانى الفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنده فى صورة من لا يقدر على شئ من أجل الضعف وسن الصبا وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير اليه بأسرها . على أن يعاقده ان تمكن من البلدة أن يجعلها ملكه ، وله مالقى من أموالنا ، وألقى يده فى الفونش طزما عليه فى الاقبال عليها ، وأعطى على ذلك أموالا جسيمة ، ووعد به خمسين ألف مثقال اذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على ما يجد لمساعدته على السير . (٢)

وهنا تتضح مكيافيلية الفونسو - ان صح هذا التعبير - بأوضح ما تنجلي عليه الصورة ، إذ أنه عد الى الاستفادة من الجانبين وابتزازهما معا . وهذا ما لاحظته ابن زيرى نفسه عندما قال (فأدرك الرومى من ذلك طمع كبير وقال : " هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وان لم تحصل البلدة)

(١) : التبيان ، ص ٧١

(٢) : نفس المصدر ، ص ٧٢

وأى فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسي ؟
وكلما أكثر الثوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفتد ! " فأتى على نية
أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضا في أمه
أن يأخذ البلد لنفسه ، فانه عمل في ذلك حسابا أن قال : " انا من غير
الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأى وجه أطمع في اخذها ؟ ان كان من باب
الطاعة فأمر لا يمكن ، وان كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب
اموالي ، وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه ان صارت الي . ولو صارت ،
لم تتمسك الا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها
ونعمرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ،
وأخذ أموالهم أبدا ، حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقى بيدها اذا ضعفت
وتأتى غوا) . ويضرب المؤلف مثلا لما حدث بعد ذلك من سقوط طليطلة
بقوله (كالذي جرى بطليطلة انما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار
سلطانها ، وصارت الي بلا مشقة ؟) (٢)

كما يتضح هنا ما سبق أن قلناه عن سياسة الفونسو والماكرة
التي تهدف الى انهك قوى الخصوم ، واطعافها ليسهل عليه بعد ذلك
القضاء عليهم . ورد ذلك في اشارة أحد مستشاريه الذين بعثهم للتفاوض
مع مملكة غرناطة ونصها (انما كانت الاندلس للروم في اول الامر حتى غلبهم
العرب وألحقوهم بأحس البقاع : جليقية ، فهم الان غد التمكن طامعين
بأخذ ظلاماتهم ! ! فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا
لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف !)

ومن أسف أن رد فعل ملوك الطوائف آنذاك كان سلبيا مخزيا
متهاككا . ويشرح أحد هم وهو ابن زيوى نفسه رد فعلهم ومواقفهم آنذاك بقوله
(فكان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الايام ، ويقول : من هنا الى أن تتم
الاموال ، وتهلك الرعايا بزعمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين !) (٣)

(١) : المصدر السابق ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ٧٣ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

ولقد قدم الفونسو الى غرناطة تحقيقا للهدف الذى قلناه
قبل قليل ، وعسكر قرب غرناطة ثم طلب الاجتماع بالملك الفرناطى .
وتداول عبد الله بن زيرى مع وزراءه ومستشاريه فى أمر هذا
الطلب وأستقرّ الرأى أخيرا الى مفاوضته فيما يريد . وتلاقى
الملك خارج العاصمة ، وأبدى عبد الله بن زيرى من ضروب
الاکرام والحقاوة ما أوجب شكر الفونسو له ، وقد أوضح
الفونسو له أنه قد سبق الى عقد المعاهدة مع ابن عمار
سوقا لاخيار له فيه كما يزعم . ولذا فقد طلب منه
أن يدفع له الجزية . والا فهو حرّ فى العودة الى مصافدة
ابن عمار . وعلى هذا فقد طلب منه أن يدفع له خمسين ألف مثقال .

ولكن عبد الله بن زيرى رفض دفع هذا المبلغ وأشتكى
له بأن أحوال البلاد المالىة تمجز عن الوفاء بذلك المبلغ
الضخم . وأخيرا أتفق معه على دفع ثلاثين ألف مثقال بمعد
طول مشقة (١) .

وهكذا أستطاع الفونسو أن يستحصل على ما يريد من أنهابك
قوى خصومه المسلمين واضعافهم وقد بحث بعد ذلك الى ابن
عمار يقول له (كذبت لى فى قولك أن غرناطة فى ضعف ، وأن صاحبها
من صغر سنه لا يعقل ورأيت من ربتها وأحوالها ما خالف
قولك) (٢) . وأخيرا ، وبعد أن وصل الفونسو الى ما يريد ولو مؤقتا ،
رأى أن يحل الاشكال بين المملكتين بمعرفته ووصايته . فقد أتفق مع
المعتمد ومع عبد الله ابن زيرى على أن يعطى كل منهما بعضا من
الحصون ذات الاهمية العسكرية لكليهما ، وأن يدفع الجزية السنوية
التي قررت على كل منهما فى تلك المصالحة . (٣)

وتعتبر هذه الاحداث آخر شىء فى سياسة ابن عمار تجاه
مملكة غرناطة ، إذ ما لبث أن رفع ظله عنها بعد ذلك . وصفت الامور

(١) عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٥ - ٧٦ .

لميسد الله بن زيرى وبترك له يروى غبطته تلك بقوله
(وما هيأه الله أن فقدنا وسائط السوء بعند ذلك بفقد
ابن عمار وشغله فى مرسية • ونزوال سماحه عا وأتباعه •
وتوفى قبل ذلك ابن ذى النون عند بلوغه أماله بقربة •
وكانت الأندلس قد أرتجت له • وخافه الروساء • فلم يلبث
بها يسيرا حتى مات •)
(١)

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وما دنا قد ختمنا حد يثنا عن العلاقة السيئة المتفجرة
بين مملكتى اشبيلية وغرناطة والتي وضع لها الفخس وحدا وحلا فرضه
فرضا على الطرفين • فاننا نشعر ربطا للموضوع وأقتضاء للسياق
أن ثمة ما يدعوا الى ايضاح ما آلت اليه العلاقات بين الملكين بعد
ذلك • وبعد أن رفع ابن عمار - الذى كان له الدور الأكبر فى
تدهور العلاقات بين الملكين - ظله عن غرناطة • وأنشغل
فى أمرا احتلال مرسية وما تبع ذلك فى النهاية من أحداث أدت
الى مقتل ابن عمار كما سنرى بعد (٢) • بعد هذا شهدت علاقات
عبد الله بن زيرى ملك غرناطة المذكور بالمتعمد تحولا جذريا • إذ
سرت فى العلاقات السياسة بينهما موجة من المودة والتفأول والمجبة •
وفى الحقيقة أنه كان لفياب ابن عمار عن مسرح الأحداث وانشغاله بفتح
مرسية ثم تعاقب الأحداث سراعا • وما أفضت اليه بعد ذلك من مقتل
ابن عمار • الدور الرئيسى فى تحسن العلاقات بين الملكين • وقد
أسر هذا التحول الايجابى فى العلاقات المشبع بروح التفأول
والمودة عبد الله بن زيرى نفسه • فنراه يعلن عن سروره هذا
عندما يتحدث عن هذه الأحداث بقوله (ليس كل الناس علم سرر
الأمركالذى نصفه نحن • والدليل على ما قدمناه ذكره من ارتباط
المتعمد الى الخير وإيثاره للصالح بزوال هذا الفاسق ابن عمار عن
دولته • ولم يرب بعد فتنة بيننا وبينه • وحقق معنا

(١) عبد الله بن زيرى : المصدر السابق • ص ٧٥ - ٧٦ •

(٢) أنظر بعد • ص ٣٢٤ - ٣٣٢

ففى كل أمر الذى فعلنا نحن معه ، وجدنا العقيد على ما أرتضينا من معاوضات ، سوى ما كان قديما بيده ، مما خرج عنا فى أيام المظفر وأخذت الفتنة عليه خفها ، ولم يوجد فى طلبه ذلك خير ، ولا السى غير المصالحة سبيل (١) كما يستطرد فى تعبيره عن رضاه التام للتطور الايجابى للعلاقات بين الملكتين فيقول: فقرت الاحوال قرارها ، وتهنى كل واحد منا بملكه الا ما كان من سيف برانى يعترض بلادنا من الروم ، فكان الرزم فيه واحدا ، والمشاركة سواء ، وان كنا لا نقدر على ذلك بالامداد بعضنا لبعض لضعف الحال ، فكنا نتشارك بالمدخله وأعمال الرأى واتخذت من أمر عسى أن يكون خفى عن الآخر ، وما أشبه ذلك (٢)

وبالفعل فقد ترجم المعتمد عن حسن نواياه تجاه ملكة غرناطه ، وعن صدق عزمه فى نهج خط الوفاق الجديد بين الملكتين ، وذلك عندما ساءت الاحوال الداخليه فى ملكة غرناطه ، وبدأ بعض الطامعين من حكام المدن والولايات يفكر فى الخروج على عبد الله بن زيرى والاستقلال بما تحت أيديهم ، مستغلين ضعف الفونسو السادس على الملكة من جهة ، وتدهور العلاقة المائلية بين عبد الله بن زيرى وأخيه تميم ملك مالقه من جهة أخرى (٣) . فقد تطلع هؤلاء الطامعين من حكام المدن والاقاليم الى طلب مساعدة المعتمد بن عباد وعونه ، ولكن سياسة الوفاق الجديد التى رسمت بين الملكتين جعلت المعتمد يصم أذنيه عن ذلك أو لئلا يثار بين بالمساعدة التى طلبوها . بل أن المعتمد عمد الى التوسط لمصالحتهم مع مليكهم ورأب ذلك الصدع بينه وبينهم . وعندما أصر أولئك على الخروج لم يجدوا من المعتمد أية مساعدة أو عون على الاطلاق (٤)

(١) التبيين ، ص ٨٢ .

(٢) نفس المصدر ، والصفحة .

(٣) أنظر نفس المصدر ، ص ٨٤ - ٩٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٩٥ - ٩٩ .

خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر

صور عن مقابلة العلاقة بين الصديقين :-

لم يكن يدربخلد أحد من الناس لافى اشبيلية فقط بل وفى
الاندلس عموماً أن يوماً سيأتى تسوء فيه العلاقة بين الصديقين ، وأن يحل
الحقد والقدر محل المودة والخلة . لم يكن يدربخلد أحد أن علاقة
المعتمد مع صديقه ولزيق روحه ستتدهور وتسوء وتفضى أخيراً الى مقتل
الوزير على يد مليكه وصديقه المعتمد نفسه . فالعلاقة لم تكن عبارة عن
صداقة تقليدية بل هى علاقة أخوية حميمة ندر وصفها ، وعز شبهها .
نقول لم يدربخلد أحد أن تنجلي الأمور بعد كل تلك الصداقة والعشرة
الى العداة والمقتل أخيراً ، حتى المعتمد نفسه كان يرى أن اليوم الذى
ستسوء علاقته بصديقه خارج عن حدود التاريخ والايام ، بل هو ضرب من
الخيال . ومع هذا حدث ذلك بل وحدث الاخطر منه وهو مقتل ابن عمار
على يد المعتمد نفسه . ويروى لنا عبد الواحد المراكشى فى هذا المعنى
قصة ذات طرافة ودلالة : (وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ،
وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس أنسه على ما كانت عليه العادة
جارية ، الا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد .
فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه لتضمن رأسك معى على وساد
واحد ، فكان ذلك : قال ابن عمار فهتف بى هاتف فى النوم يقول : لا تفت
أيها المسكين انه سيقتلك ولو بعد حين ، قال فانتبهت من نومى فزعاً ،
وتعدت ثم عدت فهتف بى الهاتف على حالته الاولى ، فانتبهت ثم عدت ،
فسمعتة ثالثاً ، فانتبهت فتجدت من أشوابى ، والتفت فى بعض الحصير ،
وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد ازمنت على أنى اذا أصبحت خرجت
مستخفياً حتى أتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون فى بعض جبال
البربر حتى أموت . فانتبه المعتمد فافتقدنى فلم يجدنى . فأمر بطلبى
فطلبت له فى نواحي القصر . وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة
تحمل بين يديه . فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر

يفتقد الباب هل فتح ؟ فوقف بأزاء الحصير الذي كت فيه ، فكانت منى حركة فأحس بنى وقال ما هذا يتحرك في هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عريانا ليس علي الا السراويل ، فلما رأى فاضت عيناه دموعا ، وقال يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا ؟ فلم أر بدا من أن أصدقته فقصت عليه قصتي من أولها لآخرها ، فضحك وقال يا أبا بكر أضفك أحلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ رأيت أحدا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى الا كفسى ؟ • فتشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنتسيه ، ومرت على ذلك الايام والليالي الى أن كان من أمره ما سيأتى الايماء اليه • فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال . (١)

ولقد رأينا فى حد يثنا فى الفقرة السابقة بعضا من الصور الدالة على متانة العلاقة وتوثقها بين الصديقين ، ونلمح الآن الى بعض منها أيضا لنرسم أكثر من علامة استفهام كبيرة عن المفزى الكبير الذى دفع بابن عمار بالخروج والتمرد على مليكه • فرغم السود الوجدانى الشديد الذى كان يديه المعتمد تجاه صديقه وأليف روحه - على ما ينطوى عليه من تشريف وتقدير معنوى عظيم - الا أن هدايا المعتمد المادية لم تكن تقف عند حد • فلم يكن يبخل على صديقه بأعلى الهدايا وأثمنها مما يجعل ابن عمار يلهج شكرا و عرفانا • ويقول : (٢)

بفضل نوال واهتبال يؤكّد

أنى كل يوم تحقّق وتفقد

ويقول أيضا :

وعدت بما أوليت والعود أحمد

تبرعت بالمعروف قبل سؤاله

ولكنه مع هذا يعجز عن الوفاء لصديقه فيقول :

تقوم عليها أية النصح تعضد

فان أنا لم أشكرك صادق نية

ولا كرمت نفسى ولا طالب مولد

فلا صح لدين ولا برّ مذهب

(١) : المصدر السابق ، ص ١٧٧ - ١٧٨ •

(٢) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٠٠ •

ويهدى الشاعر الوزير لصديقه هدية فى مناسبة من المناسبات
ويوقفها بأبيات من الشعر • فيوجه اليه المعتمد بمكبة فضة فيها خمسمائة
دينار • وقيل خمسة آلاف دينار ذهباً ، وكتب معها :

هبة أتتك من النصار ألوفها فاعظم جزيل المال من وهابيه
فلو أن بيت المال يحوى قفله أضاعفها لكسرته عن بابيه
فالبحر يطفح جوده لك زاخرا لما كسوت البحر بعض ثيابيه^(١)

ويقول ابن الأبار عنه^(٢) (وتعلق فى أول أمره بالمعتمد محمد بن عباد
حين وجهه أبوه المعتضد محاربا بشلب فنزع اليه وبلغ من المنزلة لديه
ان غلب عليه ثم صحبه باشبيلية ، وكان يحضره فى مجالس أنسه ، ويستدعيه
اليها ، ويؤثره على خاصته ويستريح اليه بسره ، ومن ذلك قوله وكتب به اليه :

قد زارنا النرجس الذكى وحن فى مجلس أنيق
ولى خليل غدا سمي يا ليته ساعد السمي
وحان من يومنا العشى

فأجابه واصلا قائلا :

لييك لبيك من مناد له الندى الرحب والندى
ها أنا بالباب عند قن قبلته وجهك السننى
شرقه والداده باسم^(٣) شرفته أنت والنبنى

بل ان ابن عمار بلغ من عظم منزلته لدى المعتمد أنه كان
يمهد اليه بأجل الأعمال وأدقها • بل انه كان يشل بالاضافة الى الوزارة
ما يمكن أن نسميه اليوم برئيس المراسم • فلا يعقد مجلس مع المعتمد
ولا ترتب مقابلة أو موعد الا عن طريقه • وفى هذا الصدد يقول ابن الأبار
(وسرى الى ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة الى بعض كرائمه شعرا يعتذر
فيه من اللحاق بها ، آخره " ان شاء ربي أو شاء ابن عمار ")^(٤) ، بل ويروى

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) : نفس المصدر والجزء ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٣) : من الواضح أن نشير الى أن اسمي كلاهما أى المعتمد وابن عمار ، محمد .

(٤) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

ابن الأبار أيضا صورة لعظم مكانة وعلو درجة ابن عمار لدى المتمدن أن يقول (وأتصل بالمتعمد في بعض سفاراته عنه التي جليقيه أن الطاغية أذفونش ثقفه هنالك ، ثم ورد الخبر بعمد بضد ذلك فلما قدم ابن عمار كتب اليه المتعمد :

لما نأيت نأى الكرى عن ناظري وصرفته لما أنصرفت أطيعه

طلب البشير بشارة يحظى بها فوهبت قلبي واعتذرت اليه

الى غير ذلك ما أوردت من الدلائل على لطف المثلث وتمكن الحظوه ، وتضاعف الأثره وحب الرئاسة في رأسه يدور الى أن نفذ بمصرعه على يديه المقدور (٠٠٠)

ونعتقد أن ما أوردناه من الصور فيه من الدلالة والمفرد ما يدل على عمق الصداقة ، وقوة ووثوق الأصره التي جمعت بينهما ، والتي سمت وعلت الى مرحلة الخلقة النادرة في كل زمان ومكان .

أصرار الوزير ابن عمار على احتلال مرسية وبداية الوحشة بين الصديقين :-

كانت مملكة مرسية تأتي هي ومملكة دانية ، والمرية ، والنسيية وغير ذلك من الإمارات والممالك الأخرى في المرتبة الثانية من الأهمية السياسية والعسكرية للممالك الإسلامية في الأندلس المعروفة بممالك الطوائف . وكانت تشمل مع تلك الممالك التي ذكرناها خطا سياسيا مخالفا للخط السياسي الذي سلكته الممالك الخمسة الكبرى في الأندلس . وهي أشبيلية ، وغرناطة ، وطليطلة ، ومطليوس ، وسرقسطه . فقد نزعته هذه الممالك كما مر بنا نحو التوسع وسيط السيطرة والنفوذ . أما مرسية وغيرها من تلك الممالك المذكورة فقد تبنت حكومة بعواميل طبيعية وجغرافية وشريية ، سياسة التعايش السلمى والعلاقات الودية المتوازنة مع تلك الممالك الخمسة . مع المحافظة في نفس الوقت على العلاقة الخاصة والمميزة التي تربط كل مملكة من ممالك الصف الثاني هذه بمملكة أخرى قوية سواء أكان ذلك بسبب الجوار ، أو المصاهرة أو غير ذلك . ولنا هنا في وارد ذكر تفاصيل تلك السياسة وذلك النهج فما يمكن أن نستخلصه من كل تلك العلاقات والأحداث هو

شيء واضح وهو أن ممالك الصف الثاني كانت دائما تقع ضحية
أطماع وتطلعات الممالك الكبرى الخمسة .

قلنا أن مملكة مرسية قد أسسها خيران العامري أحد
فتيان المنصور ابن أبي طمر ، وعندما تركها خيران خلفه صد يقه
زهير العامري الآخر . ثم غادر زهير مرسية إلى المرية ليلي
حكمها بعد وفاة خيران . ولكنه عهد بحكمها إلى أحد أعيانها
ووجهائها ، وهو أبو بكر أحمد ابن اسحاق ابن طاهر . وعندما قتل
زهير خلفه عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بحكم الولاء على مملكته .
فأقر ابن طاهر عليها ^(١) . وقد استمر ابن طاهر يحكم مرسية مستقلا
حتى توفي عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م . فخلفه في حكمها ولده أبو
عبد الرحمن محمد ابن أحمد بن طاهر . وقد اعترف أبو عبد الرحمن ابن
طاهر بالسلطة الاسمية لعبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الرحمن
ابن المنصور ملك بننسية . ولكن عبد الملك ذهب ضحية مؤامرة دبرها
حماء المؤمن بن ذي النون صاحب طليطله ، وأسفرت هذه المؤامرة
عن أقصائه عن الحكم ودخول بننسية في طاعة مملكة طليطله . وهنا
أنتهز أبو عبد الرحمن هذه السانحة ، فأعلن استقلال مرسية التام
الناجز عن مملكة بننسية أو مملكة طليطله بمعنى أدق ^(٢) .

وقلنا أيضا أن ابن عمار رفع ظله الثقيل عن مملكة غرناطة
وأراحها من دساتسه ومؤمراته بفضل تدخل الفونسو السادس ، ودعوته
للصلح بين الأطراف المتنازعة . ورأينا أن الاتفاقية التي عكشت
برطيقته قد طدت ببعض المكاسب المادية على مملكة أشبيلية
بفضل مساعي وزيرها . فهو وأن كان قد عجز عن تحقيق
أماله بسقوط مملكة غرناطة على يديه ، فإنه لم يمد يده
الغنيمة بالاياب . فقد أستحصل على بعض الحصون والقلاع من
مملكة غرناطة . وكان هذا كافيا لرفع أسهمه كثيرا لدى
مليكه ، ولعلو درجته وسوها أكثر فأكثر عنده . كما
أن مداخلته وصدقاته للنصارى ولافونسو بالذات ، والجهد

(١) : أنظر قبل ص ٦٣

(٢) : أنظر قبل ص ٧٧

الوطني المشرف الذي بذل (١) جهدا عظيما في الفونسو بتلك الخدعة
الذكية التي ذكرناها سابقا ، قد طادت عليه بالشهرة والمجد الذاعين .
ومن هنا فقد أحس في نفسه القدرة على ضم الأندلس
جميعها تحت إبطيه . ولا نستبعد أن يكون رأى الفونسو فيه الذي
قال ذات يوم عنه : أنه رجل الجزيرة ، قد نفيخ في رأسه
وصور له بأنه الرجل الذي خبأته الأقدار للمتمد ليكون وسيته
في ضم الأندلس كلها لأمرته . ولذا فقد أخذ يتطلع الى
مد نفوذ مملكة أشبيلية نحو الشرق ، ونحو مملكة مرسية بالذات .
ومهما تضاربت الأقوال في أسباب محاولة الاستيلاء على مرسية ، فإن
ثمة شيء واضح وأكيد كان قد قررره الصديقان وهو الاستعداد
للاستيلاء عليها وضمها الى مملكة أشبيلية . بعد أن أقنع ابن عمار
مليكه بضرورة وأهمية ذلك الاستيلاء (٢) . ورحب المعتمد بهذا المشروع
الذي سيضيف الى ملكته منطقة واسعة كثيرة الخيرات ، وما يضيف
عليه ذلك من مجد وصيت . وتنفيذا لسياسة المحارب
والأحلاف التي كانت سائدة آنذاك ، رأى الاثنان أن يسيرا في مشروع
الاستيلاء بخطة مدروسة تهدف الى عقد محالفة مع أمارة برشلونه
الواقعة في الشمال الشرقي من أسبانيا ، والقريبة من مملكة مرسية ،
خوفا من أن تسارع مرسية الى الاستنجاد بها فيما لو حاجتها
القوات الأشبيلية . ولذا فقد هدف ابن عمار الى عقد معاهدة
مع أمير برشلونه ابن ريموند (٣) . وفعلا توجه ابن عمار الى برشلونه ،
ومر في طريقه اليها بمرسية ، ونزل ضيفا على صاحبها ابن طاهر (٤) .
ويقال أنه داخل بعضا من أعيانها في أمر التخلص من حكم آل طاهر .

(١) : أنظر قبله ، ص ٢٠٤

(٢) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢٢

(٣) : ابن ريموند : هو أمير برشلونه الكونت رامون برنجير (أو الكونت

- Raimundo (Ramón) Berenguer II el Fratrecid

كونت برشلونه من سنة ١٠٢٦ - سنة ١٠٩٦ م ، وهو ابن رايونند

برنجير الاول الملقب بالعجوز التوفى سنة ١٠٧٦ م ، ولهذا يسمى

الاول منهم ابن ريموند .

أنظر : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٤) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٠ - ١٢٢

وعندما وصل ابن عمار الى برشلونة ، عقدت بين الطرفين
معاهدة تنص على أن تمداً منارة برشلونة مملكة أشبيلية
بجيش يساعدها على احكام حصارها على مرسية ، مقابل
أن تتمهد مملكة أشبيلية بدفع عشرة آلاف مثقال أو دينار لبرشلونه .
وللتأكد من صلاح النوايا أتفق على أن يرهن كل واحد من
الطرفين المتعاقدين رهينة - حسيماً كان سائداً في العصور
الوسطى وحتى وقت قريب - فوهن الكونت رامون أحد
أبناء عمه لدى المعتمد ، ووهن ابن عمار الرشيد ابن
المعتمد نفسه لدى الامير البرشلونى .

وحاصر الحليفان مرسية وضيقا عليها الحصار ، وشنوا
عليها الغارات ، الا أن ذلك لم يفت في عضدها . ويبعد
أن أمير برشلونة قد أحس بنوع من الرهبة من حلفائه ولا سيما
وأن الأجل المضروب لدفع المبلغ المذكور إليه قد أنصرم . فعجل
بالقبض على الرشيد ابن المعتمد مقدرًا أن المعتمد سيتحرك
حتمًا للخلاص إليه . وبلغ الخبر المعتمد فأزعجه جداً
وأغضبه . فعمل على الأسراع في دفع ما أتفق عليه .
وقد كانت الميزانية تعاني وقتها من عجز مالي فأضطر الى
سك نقود مزيفة وبعث بها الى أمير برشلونة الذي أطلق
سراح الرشيد فوراً (١) . وقد كانت هذه الحادثة أول مؤشر يصيب
علاقات الصديقين بالفتور والجفوة . بل وتحولت الى مراسلات
أدبية شعريه تحمل في طياتها التنصل من المسؤولية والعتاب
من قبل ابن عمار ، والصفح والتطمين من قبل المعتمد باللذ (٢) .

والواقع أننا لم نعر على إشارات تدل على أن ابن عمار
يتحمل تبعه فشل ذلك الاتفاق . ولكننا نعتقد أن المعتمد
قد نقم عليه أن ينفرد بالأمر برهن ابنه الرشيد دون استشارته
فوضعه بذلك أمام الأمر الواقع . ومن هنا سر غضبه وانزعاجه عندما
علم بنبأ القبض على ابنه الرشيد . وقد وقعت هذه الأحداث في

ط م ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢٢
(٢) أنظر صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١١٣ - ١١٨ .

احتلال مرسية :-

وبعد أن مضى على تلك الاحداث ثلاث سنوات ،
وفى عام ١٠٨١ / ٥٤٧٤ م عن لابن عمار أن يعاود الكرة مع مرسية ،
فأهلها كما ادعى ناقصون ، غاضبون على حكامها ، وأظهر للمعتمد
كتبا كثيرة زعم أنها وصلتته تحث على افتتاح المدينة وضمها للملكة
اشبيلية ^(١) .

وسواء أكان المعتمد قد اقتنع بهذا أم لم يقتنع فقد
أسال هذا المشروع لعابه ، فوافق عليه ، وفوضه في العمل على الاعداد
له . وبدأ ابن عمار من فوره يعد العدة فجهز جيشا كبيرا توجه
به نحو قرطبة حيث التقى بحاكمها الفتح بن المعتمد واجتاز منها
الى حصن يدعى حصن بلج وكان تحت حكم رجل يدعى عبد الرحمن
بن رشيق وقد رحب به هذا واحتفى بقدمه احتفاا كبيرا ، جعل
ابن عمار يعهد اليه بقيادة جيشه . وتوجه الاثنان نحو أراضي ملكة
مرسية ^(٢) . واستوليا في طريقهما اليها على بعض الحصون التابعة
لها . وقبل الوصول الى مرسية توجه ابن عمار لسبب غير معروف
الى اشبيلية ، وترك قيادة الجيش الى ابن رشيق . ووصل هذا
الى المدينة ، وضرب عليها الحصار . وفي نفس الوقت بدأ مراسلاته
ومداخلاته مع أهلها الموالين لابن عمار توطئة لتحديد ساعة
الثورة معهم على بنى طاهر . وأخيرا سقطت المدينة بيد ابن
رشيق ونودي بالبيعة للمعتمد ، ووقع صاحبها أبو عبد الرحمن ابن
طاهر أسيرا في يد ابن رشيق ^(٣) .

بلغت هذه الاخبار ابن عمار في اشبيلية ، فسر
سرورا عظيما ، وزاد في تعاليه وغروره . وطلب من المعتمد أن يسمح له

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء والصفحات .

(٣) : نفس المصدر والجزء والصفحات .

باللحاق بمرسية وكأنه قد أتى بحز الدنيا وجاهها ، () وأشار على
المعتمد بذلك ، فما خالفه فواقا فلم يترك ابن عمار باشبيلية في ملك سلطانه
ولا ملك أحد من معارفه ، فرسا عتيقا ، ولا مطية ولا زاملة ^(١) إلا استخرج
ذلك من أيديهم رغبة ورهبة حتى لاجتمع له مائة جنبيه ، ومائة زاملة ،
وأحضر له التجار ما بأيديهم على اختلاف بضائعه من الديباج والخز
الى ما دون ذلك من نفيس الكسا ، ليصم بذلك أهل مرسية . على قدر منازلهم ،
ولم يخف عن ابن عباد وجهة مراده ، فلما سلم عليه مودعا قال له :
(سر الى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع ، فقال : لست بمخدوع ولكنك
مضطرب ، فحلم عنه ^(٢)) والفقرة الأخيرة هذه ذات دلالة خطيرة في سير
الحوادث ، إذ يستدل منها على أن ابن عمار كان يعمل على التدبير على فعل
شئ خطير مجهول ، وتدلل على أن المعتمد بدأ يتوجس من نوايا صديقه
ووزيره وأعماله المشبوهة . والمهم ان ابن عمار خرج من اشبيلية في موكب
مهيّب الى مرسية ، فدخلها في يوم مشهود ومشهور ، (وابن رشيق بين
يديه ، وقد برز له وخرج يرفقه الى القصر ، وجلس في اليوم الثاني مجلس
التهنئة للنواص والموام ، فجمعت الشعراء بأمداحه ، وقد تزي بزى ابن عباد
في حمل الطويلة ^(٣) ، وحكاه في التصيير ^(٤) ، وكثب " ينفذ هذا ان شاء الله "
في أسفل قرطاسه ، وتختتم في كتبا يديه ^(٥) .

انهيار العلاقات بين ابن عمار والمعتمد وبين الممالك المجاورة له :

تولى ابن عمار حكم مرسية كما قلنا وانتزى كما يقول ابن بسام فيما ينقله عنه
ابن الابار (٠٠٠) على مرسية وقعد بها مقعد الرؤساء وخاطب سلطانه مخاطبة الأكفاء مستظمرا

- (١) : الزاملة التي يحمل عليها من الابل وغيرها .
انظر الفيروزآبادي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٠١ .
- (٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٠ .
- (٣) : المقصود بها القلنسوة التي كان يرتديها المعتمد . فقد شبهه بها ابن عمار في لبسها .
- (٤) : التصيير : يراد به هنا التوقيع على الاوامر . كأن يكتب مثلا يصير هذا أى ينفذ .
انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ج ١ ، ص ١٤١ .
- (٥) : ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٠ - ١٤٢ .

(١)
بجر الانذال ، وأفساد قلوب الرجال (٠٠٠) ولقد رأيناها يحاكي
المعتمد محاكاة الندّ للندّ في زيتة الرسمى . وفي تصريفه
لامور الدولة . والواقع أننا قد مررنا بشئ يدل على
ان ابن عمار كان يضمير الخروج والتمرد على المعتمد ، وأن
تمردة هذا لم يكن ابن ساعته أى عندما استقر بمرسية . كما
أننا في الوقت نفسه نميل الى تأسيده صلاح خالص في أغلب
ما ذهب اليه من تعليل لدوافع ابن عمار للخروج والتمرد (٢)
فهو يرى أن أنتزاع واستئثار الفاتحين - ونرى معه هذا الرأى
ونضيف والاصهار كذلك - بسا المقاطعات والمدن التى يفتحونها لحساب
ساداتهم وأقربائهم كان شيئا مألوفنا فى الأندلس ويعد خاصية
من خصائص عصر الطوائف كما يعبر عن روح العصر امدق تحبير .
فابن عمار كان ابن عصره ما فى ذلك شك ، زيادة على هذا فان ابن عمار
كان يعتد بنفسه كثيرا ، وكانت ثقته الكبيره بحنكته السياسيه
والديلوماسيه، وتحاليه وخطرسته حتى على ابناء المعتمد نفسه
كان دافعا له ليجرب حظّه كما فعل الآخرون . . . وكانت
الصداقة المتينه التى تربطه بالفونسو السادس دافعا ثالثا له للانفراد
بحكم مرسية مستقلا . بل أن هناك من كان يعتقد انهم
عمار كان يعمل لحساب الفونسو وتحت امرته ، وان هناك من يقبول
بأن فتح مرسية تم بالاتفاق مع الفونسو . (٤) واخيرا فان ابن عمار كان

(١) المصدر السابق والجزء ٥ ص ١٣٤ - ١٣٥ .
(٢) محمد بن عمار الأندلسى ٥ ص ١٢٤ - ١٢٥ .
(٣) جاء فى الرواية التى رواها ابن الابار والتى نقلناها فى المتن ان ابن عمار
تختم فى يده بخاتمين ، وكان هذا العمل هدفا للتميز عليه ، فقد كان
ابن عبد العزيز صاحب بلنسية يعتقد ان ابن عمار كان يعمل لحساب الفونسو
والموتى ابن هود معا ، ولذلك تساءل عندما بلغه هذا الخبر : أخاتم التامير
ام خاتم التامير ؟ . وهى عبارة فكاهية ذات معنى سياسى هام . ويقال ان الذى
قال هذه الجملة هو ابن طاهر صاحب مرسية السابق .

انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ٥ ص ١٤٠ - ١٤٢ . - ابن خاقان :

القلائد ٥ ص ٧٢ .

(٤) من الذين يعتقدون هذا الاعتقاد حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب الحلة السيرا
الذى ننقل عنه كثيرا كما هو واضح .

انظر ابن الابار : المصدر السابق والجزء ٥ ص ١٤٢ - ١٤٤ .

يرى أن تلك الممالك كانت تفتقر إلى السند الشرعى لوجودها •
إذا ان شرعية وجود تلك الممالك كانت تعتمد كما يبدو على
ركائز ثلاثة هى : القوة ، والمال ، والتفيعين والوصوليين
والمرتزقة • وتحت يده من هذه الركائز الكثير •

وعلى هذا فقد ساءت العلاقة بين ابن عمار ومليكه •
ومضى ابن عمار بعيدا فى الاستقلال بالامر ، والانفراد بالتدبير •
والمعتمد مع هذا يحاول أن يوسط بعضا ضد قاء الطرفين •
يذكرون الوزير بالأذمة والآلاء ، ويدعونه إلى نبذ الفرقة
والتمرد • بل ان المعتمد كتب إليه قصيدة يعتب فيها
عليه جابا رقيقا ، فكان رد ابن عمار عليه يحمل من روح الصلف
والمناداة بانصح هذا التعبير أكثر ما يحمل من روح التبعية
والاعتذار^(١) • وهكذا أوجت تلك الاعتبارات والدوافع لابن عمار
ان يسف كل محاولات الاصلاح وعودة المياه لمجاريها بينه وبين المعتمد •

وأقحم ابن عمار نفسه فى سلسلة من الأخطاء
السياسية مع جيرانه من ملوك الطوائف ، وكان لا يأبه بهذا
أبدا ظالما كان يعتقد ان الفونسو كان ضمانته الوحيد •
ولكن الفونسو لم ينفعه فعلا ، وسنرى بعد قليل اشارة إلى هذا^(٢) •
نقول ان علاقاته مع جيرانه المسلمين كانت سيئة للغاية سواء
أكان ذلك مع مملكة غرناطة ، ام اشبيلية بالطبع ، ام بالنسيئة
وكانت علاقاته بهذه الاخيرة بالذات متوترة للغاية ، فقد
نقم ابن عمار على صاحبها أبى بكر بن عبد العزيز غدرة به •
اذ توسط ابن عبد العزيز لديه لاطلاق سراح ابن طاهر حاكم
مرسية السابق ، مقابل نزوله له عن أحد الحصون ، بيد
ان ابن عبد العزيز لم يفعل ذلك ، فألهب هذا غضب ابن عمار
وهيأجه ، فنظم قصيدة يهجو فيه ومنها ابيات

(١) انظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٢ - ١٤٣ • - صلاح خالص
محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١٢٧ - ١٣١ ؟

(٢) انظر بعد ، ص ٢٠٩

يمدح فيها نفسه . (١) وعندما بلغت القصيدة المعتمد ذيلها بعدة أبيات
يمرض فيها بابن عمار ، ويزدري به . وعندما بلغت هذه الأبيات ابن عمار
اهتاج لها واستوحش . (٢)

ورأى ابن عبدالمزيز أن يسير في حقه على ابن عمار بعيدا ، فدبر
له مكيده بأن دس له بعض أعوانه الذي توصل الى أن يكون أحد ندما ابن عمار
وجلسائه . واستطاع هذا أن يستحصل على قصيدة كان ابن عمار قد نظمها
في وقت من الاوقاف يهجو فيها المعتمد وكانت هذه القصيدة مقذعة حقا
فقد أفرط ابن عمار في القدح والهجو للمعتمد وزوجته اعتماد الريمكية وابنائهم .
ولاقت هذه القصيدة لخطورتها وأهميتها اهتمام كل من عالج هذه الفترة من عهد
المعتمد بالدراسة الادبية والتاريخية ، بل وبلغ من خطورتها أنها كانت السبب
المباشر في مقتل ابن عمار بعدئذ . (٣)

وعلى أية حال فان ابن عمار لم يوفق في سياسته الخارجية
لمملكته ، فدخل في معارك كلامية مع جيرانه ، وظلل جبهته الخارجية بسياج
من جدار الشك وفقدان الثقة . أما على الصعيد الداخلي فلم يوفق فيه ايضا
ما يرسخ الاعتقاد بأن تولى المناصب القيادية أمر بالخطورة ، وتحتاج
أى القيادة من صاحبها مؤهلات ومواصفات أكثر من طادية ، وأن بروز قائد من
القواد أو وزير من الوزراء في قيادتهم للجيش أو فتحهم للمدن والمناطق لا يعنى
بالضرورة أن يكونوا جد يرين بتسليم مناصب قيادية عليا . نقول هذا لأن ابن
عمار الذي نجح بفضل مهارته السياسية ودبلومه سيته الفائقة في كثير من
المهام ، لم يستطع أن يحافظ على استقلاله بمروسيه التي هان عليه في سبيلها
كل شيء . فأخفق في اختيار نوابه ومساعديه ، وترك لهم الجبل على الفارب ،
وانصرف الى اللهو والمجون . وابن رشيق في هذا يقتنص الفرص ويتحين السوانح
لتعيين أهله وأقربائه وأتباعه في تولى المناصب والوظائف . ولم تجد نصائح

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥٥ - ١٥٧ . ابن خاقان :

القلائد ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

(٣) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

• صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١٢٧ - ١٤٠ .

الخلّيس من ناصحيه في لفت نظره وانتباهه شيئاً^(١) . ولانظن أن ابن عمار قد ترك مرسية طوعاً واختياراً فإرا على وجهه منها الى جليقية كما جاء في كتاب ابن الأبار^(٢) ، وذلك لان هذا أمر مستبعد ، ولكننا نعتقد أن ابن عمار فكر في وقت من الاوقات أن يخرج الى مقابلة الفونسو السادس شاكياً له معاملة ابن رشيق له . وفي نفس الوقت ليضع نفسه تحت تصرفه (ليخدم^(٣)) أمر الانظار التي تجاوره في الشرق ، وعسى يضمها في يديه مثل شنت مرية^(٤) ولكنه لم يوفق في مهمته ، فاتجه الى سرقسطة ومليكيها المؤتمن الذي خلف اياه المقدر في الحكم عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . وعند ذلك أعلن ابن رشيق استقلاله بالمدينة كما يقول ابن زيري^(٥) . على أنه يجوز أن يكون ابن عمار قد عاد قبيل ذهابه لسرقسطة الى الفونسو طالبا عونه ضد ابن رشيق الذي استبد بالمدينة ، ولكنه لم يحصل على ما يريد من ممونة ، فقد قابله بفتور ، بل وأعطاه رأيه فيما فعله صراحة اذ قال له (يا ابن عمار مثلك مثل السارق سرق السرقة فضيّمها حتى سرقت منه^(٥)) . ويعلق ابن بسام على موقف ابن عمار فيما ينقله عنه ابن الأبار بالمثل الساخر الذي يقول صاحبه بعد فقدانه لما سمى من أجله " أنفقت مالي وحجّ الجمل " .

نهاية ابن عمار المفجعة :-

وأيا ما كان الأمر فقد استقر القرار لابن عمار في سرقسطة لدى مليكيها المؤتمن ، وقد احتفى به هذا احتفاءً كبيراً ، وأجرى عليه وعلى أصحابه من المطايا والأرزاق ما اعتقد أنه يكفيه ، ولكن حب المغامرة والمخاطرة دفعته نحو نهايته المفجعة . فقد خرج أحد عمال ابن هود عليه واستبد بأحد الحصون ، فرأى ابن عمار في ذلك فرصته الذهبية ليثبت لابن هود وغيره من الرؤساء أنه لا زال بمقدوره تحقيق الصعب بفضل حنكته ودهائه ، فتحصل على اذن المؤتمن للخروج لمقابلة ذلك الثائر الذي تربطه

- (١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٤٢ - ١٤٤ ، و ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٢) : نفس المصدر والجزء ٤ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .
- (٣) : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ٨٠ .
- (٤) : عبدالله بن زيري : نفس المصدر والصفحة ٤ .
- (٥) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ٤ ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .
- (٦) : نفس المصدر والجزء ٤ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

واياه صداقة سابقة . والفعل استطاع بفضل خطة دنيئة وضعها أن يقضى على ذلك الثائر في عقر داره (١) ، وأعاد إلى ابن هود حصنه الخارج عنه ، والأهم منه أنه أعاد الاعتبار والثقة لنفسه . وسرّ ابن هود سرورا عظيما ، وبعث للمعتمد بن عباد يتمنى عليه السراح بتسريح أبناء ابن عمار وعياله إليه في سرقسطة ، فوافق المعتمد ، ولكنه حذره في نفس الوقت من ابن عمار ومكره (٢) .

وهكذا عادت لابن عمار ثقته بنفسه ، وسعى ثانية إلى أن يمارس نفس اللعبة مع حصن آخر خارج عن سلطه ابن هود . فقد سقطت مملكة دانية التي أشادها مجاهد العامري كما قلنا في يد المقتدر بن هود عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦ م . وكان من جملة الحصون التابعة لها حصن يدعى شقورة ، تحصن فيه حفيد مجاهد ، وعندما مات هذا الحفيد خلفه عليه عبدان من عبيده هما إبراهيم وعبد الجبار ابنا سهيل ، ورأى هذان العبدان أن أحسن ما يمكن أن يفعله هو مساومة رؤساء الممالك المجاورة للحصن لشراؤه ، وقد رأى ابن عمار أن يستولى على الحصن بنفس الطريقة التي استخدمها في الحادثة الأولى دون أن يخسر المؤمن درهما واحدا . على أنه لم يوفق في هذا وانقلبت الدائرة عليه . وقبض عليه هذان العبدان وأحكما وثاقه ، وأعلننا للملوك الطوائف عن رغبتهما في بيعه . ولم يكن هنالك بطبيعة الحال من متشوق لذلك أكثر من المعتمد فأرسل ابنه إلى ابني سهيل هذين فاشترى منهما الحصن وابن عمار معاه (٣) وخذ به إلى قرطبة (ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبين ، وقيوده ظاهرة للناس . وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وطامة حتى ينظروا إليه في تلك الحال ، وقد كان قبل اذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم ، والسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يديه أو يرد عليه ابن عمار السلام . وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه ، أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) : نفس المصدر والجزء ، والصفحة .

(٣) : نفس المصدر والجزء ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

الوصول اليه ، فسبحان محيل الأحوال • ومد يمل الدول • فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القمساء ، والملك الشامخ والرياسة الفارحة ذليلا خائفا فقيرا لا يملك الا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أمتعته (١) • ثم أدخل على المعتمد فقعه وأنبه ، وذكره بأفضاله عليه • فلم يحمر ابن عمار جوابا ، ثم أخذ ابن عمار يعتذر له عن فعلته ويطلب منه الاقالة والصفح • فلم يسعفه المعتمد بهما ، وقد وقعت هذه الاحداث فى طم ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م • وبعث ابن عمار من سجنه بقصائد الى ولدى المعتمد : الرشيد والراضى يستعطفهما ويطلب منهما التوسط لدى أبيهما (٢) • بل وأرسل للمعتمد نفسه قصائد (لو توسل بها الى الدهر لنزع عن جورته ، أو الى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رقى لم تنجع ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع) (٣) كما بعث صاحب شاطبة الى المعتمد يشفع فى ابن عمار ويرجو العفو عنه ، فبعث له المعتمد برسالة يوضح فيها أخطاءه وذنب ابن عمار التى اقترفها ويوضح له أن عشرته لا يمكن أن تقال بسبب تلك الاخطاء وسبب تعريضه بالمعتمد وأسرته • وكان يذكى هذا الشمور بالحقد والمؤاخذه اعتماد الريبكية زوج المعتمد وأم اولاده ، فقد ألحت عليه بالتخلص منه ومعاقبته على فعلته • وكان حقد ها ينم عن عداء شخصي حتى قبل أن يهجوها ابن عمار هجاءا مرا فى قصيدته المشهورة التى أشرنا اليها •

ويروى عبد الواحد المراكشى (٥) فى شئ من التفصيل كيفية مقتل

ابن عمار • وخلاصة هذه الرواية أن ابن عمار نظم فى آخر ما نظم للتوسل بالمعتمد قصيدته الحاثية المشهورة التى يقول مطلعها :

سجايك ان عافيت أندى وأسجع وغذرك ان طقبت اجلى وأوضح ... الخ

وهى من غرر قصائده وأجودها ، فأثرت فى نفس المعتمد

فأرسل اليه فأحضره ، فقعه وأنبه كالعادة • ويظهر أن توسلات ابن عمار واستعطافه الصادق للمعتمد قد حرك كوامن الرأفة فى قلبه فقال له قولا

(١) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٣ - ١٨٤ •

(٢) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٥١ - ١٥٣ •

(٣) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٦ •

(٤) : محمد عبداللهغان : تراجم اسلامية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٨ •

(٥) : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - ١٨٩ •

فهم منه ابن عمار أن العفو عنه سيحصل يوماً . وكان ابن عمار في أثناء سجنه يطلب أوراقا يكتب فيها قصائده ورسائله التي يبعثها للمعتمد وأبنائه . وكان قد طلب قبل هذه المقابلة مع المعتمد ورقتان سطر في الأولى القصيدة الحائية التي ذكرناها . وعندما شعر بقرب عفو المعتمد عليه سطر في الورقة الثانية رسالة وبعث بها إلى ابن المعتمد الراضى كما يقول عبد الواحد المراكشى أو الرشيد^(١) فيخبره بما حدث بينه وبين المعتمد . وكان يحضر مجلس ابن المعتمد بعضاً من وزرائه وجلسائه فلما سمعوا بهذا خرجوا وتناقلوا الخبر وأضافوا عليه حقداً منهم عليه إضافات سيئة للغاية . وكان أكثر الحاقدين على ابن عمار الوزير أبو بكر بن أبي الوليد بن زيدون الذي يكن له عداء شخصياً لما فعله مع أبيه . وقد حمل ابن زيدون وزير هذه الشائعات^(٢) . وعندما بلغت الابيات المعتمد استشاط غيظاً وبعث لابن عمار يستفسر منه عن حقيقة ما حدث . فأنكر أن يكون قد حدث أحداً بما دار بينهما ، وعندما سأله عن مصير الورقة الأخرى التي طلبها تبين له كذب ابن عمار . فطار صوابه ، وفقد اتزانه ، وتوجه نحو سجن ابن عمار ، وهناك ضربه بألة تشبه الفأس وتعرف بالطبرزين حتى مات . ثم أمر بنفسه وتكفينه وصلى عليه ثم دفنه^(٣) . ويقال ان المعتمد ندم بعد ذلك على قتله^(٤) . وهكذا انتهت فصول حياة ابن عمار بهذه النهاية الفاجعة المؤسفة . وعلى كل حال فان ما حدث لابن عمار يؤكد لنا حقيقة هامة هي أن الملوك يمكن لهم أن يتساهلوا في كل شئ إلا في شئ واحد فقط وهو منازعتهم ملكهم والرغبة في سلطانهم .

(١) : رواية صلاح خالص عن هذه الاحداث تشير الى أن ابن عمار بعث بتلك الورقة الى الرشيد ابن المعتمد . ومهما يكن فان المسألة ليست بذات الأهمية ، فالمهم أن ابن عمار قد أخطأ في استعجاله نشر خبر احتمال اطلاق سراحه . فأودى هذا الخطأ الى مقتله أخيراً .

انظر محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ١٦٤ .

(٢) : صلاح خالص : نفس المرجع ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٨٦ - ١٨٩ .

(٤) : ابن خاقان : القلائد ، ص ١١٠ .

حياة المعتمد العائليّة والسّمات المميّزة لشخصيته

يجد ربنا ونحن نأتى على ختام عهد المعتمد أن نتحدث عن الحياة الأسرية له ، وعلى السّمات المميّزة لشخصيته . أما فيما يتعلق بحياته العائليّة ، فقد أطنب كثير من المؤرخين في اعجاب بذكر تفاصيل العلاقة العاطفيّة والحياة الهانئة التي كان يحيها المعتمد مع زوجته وأم أولاده اعتماد الطيّبة بالريميكية . فقد التقى المعتمد باعتماد في أجواء ظلال رومانطيكية شاعرية عند مروج القضة أحد مروج اشبيلية ومنازلها . وعندما عرف أنها جارية لأحد رجالات اشبيلية ويدعى حجاج بن ريميك ، بادر الى شرائها ، ومن ثم تزوجها ، رغم أنها احتفظت بلقب سيدتها ريميك فكانت لاتعرف الابن .

ولقد هام بها المعتمد حبا وكلف بها كلفا شديدا . وكانت ذات خلال باهرة ، وروح مرحّة ، وديهيّة خاضرة ، ومعمّرة لا بأس بها بالشعر وتذوقه . وقد شاطرت المعتمد أيام أنسه وساعات صفوه وهنائه . كما شاركته في أجل وأدق حياته العريضة حتى بعد خلعها ونفيه الى المغرب على يد المرابطيين كما سنعرف بعدئذ . وقد أحبها المعتمد حبا جما خالصا لم يطفه أواره وجود حسناوات كثيرات من حظيات وجواريه اللاتي كن يحمن حول بلاط المعتمد وقصره ، كما لم يطفه زحف السنين وكر الأيام وكانت ذات دالة عظيمة عليه . فلم يكن يرفض طلبا لها مهما عز وغلا . وتحتفظ كتب الادب والتاريخ بقصص من هذا النوع . ولنا معنيين هنا بذكر دقائق وتفاصيل

-
- (١) : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٣ .
 - صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٣٠ - ٣٥ .
 - (٢) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨ - ٩ .
 - (٣) : انظر المقرئ : نفس المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨ - ٩ .
 - صلاح خالص : نفس المرجع اعلاه ، ص ٦٢ - ٦٣ .

حياتها العاطفية والتزجيه مع المتمد ، ولكننا نجتزئ بعض
مواقف نبيل وأخلاص من الطرفين مما ، فالمتمد رغم أنه
كان على علاقات عاطفية حميمة مع عدد كبير جداً من
سراييه وامائه ، الا أنه كان يحتفظ لها بالمكانة المثلى^(١)
والدرجة الأسمى في قصره وقلبه مما . ويكفى لي نشير
الي أنه أي المتمد لم يتلقب بهذا اللقب الا بعد اقترانه بها .^(٢)
فقد كان يلقب بالظافر والمؤيد من قبل . كما يكفي أن نشير
الي أن معظم أبنائه الذين خلدتهم كتب الأدب والتاريخ كانوا أبناءها .^(٣)
وكذلك يكفي أن نشير الي أنها بقدر ما شاركت المتمد أيام أنسه وسعادته ،
بقدر ما شاركته أيامه القاسية البائسه في ضفاه بالمغرب الأقصى .

وقد أنجبت منه كما ذكرنا عدة أبناء شهروا في
التاريخ . وكان بكر أبناءهما سراج الدولة عماد والمكسي بأبي عمرو ،
الذي مر ذكره سابقا . وقد ولد للمتمد في ظم ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م
في حياة أبيه المعتضد . وعهد اليه بحكم ولاية قرطبة بعد
سقوطها على يد مملكة اشبيلية . على أنه قتل بعد ذلك كما شاهدنا
في أحداث خروج قرطبة عن طاعة العباديين . ولم يكن عمره وقت
ذاك يتجاوز السابعة عشرة بعد .^(٤) وثاني هؤلاء الأبناء حسب الأهمية
لا السن ، الرشيد وأسمه عبيد الله ويكنى بأبي الحسين ،
ويصفه ابن اللبانة بقوله فيما ينقله عنه ابن الابار (وكان دمثا
رقيق حاشية الطبع ، طالع شيئا من العلوم الرياضية ، وكشف له عن
غيب الأغنى ، حتى قيل أنه يجيد ضرب العود ، وكان له أدب
وشعر) .^(٥) ونضيف أيضا الي هذا انه كان سياسيا محنكا ، وكان ذا رؤية

- (١) يقال أن المتمد خلع عن ثمانمائة امرأة فيهن أم الولد ، والجارية ، والأمة .
الا أن هذا أمر مهالغ فيه لاجدال .
أنظر صلاح خالص : المتمد بن عماد الاشبيلي ، ص ٦٠ .
(٢) ابن الابار : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠ - ٦٣ .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحات .
(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٧٠ - ٧١ .
(٥) أنظر قبل ، ص ١٩٤ .
(٦) ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٨ - ٦٩ .

سياسة بعيدة ، فقد طرض أباه الممتد في أمراستدعاء
المرابطين والاستجد بهم^(١) . وقد نفى مع أبيه الى أغمات
المدينة التي نفى اليها بعض ملوك الطوائف ، ومات في
حوالي عام ٥٣٠ هـ^(٢) .

وثالث هؤلاء الراضى ، وأسمه يزيد ويكنى بأبى خالد ،
وكان ذا اهتمام بالثقافة والمعرفة . وقال عنه ابن الأبار (وكان
الراضى من أهل العلم والأدب ، كلفنا بالمطالعة والدراسة ، قرأ
كتب القاضي ابى بكر ابن الطيب ، وأشرف على مذهب أبى
محمد بن حزم الظاهرى ، فمهر فى الأصول ، وذهب الى النظر
والأختيار) . كما يضيف ابن الأبار قوله عنه (وهو شاعر
بنى عماد بعنه أبيه ، على أنه أقوى طرصة منه ، وأبوه
ألطف طبعا وأرق صنعا^(٣)) . وأطرب الفتح ابن خاقان فى
المدح الرخيسى المتكلف بذكر شئائله وأوصافه^(٤) . ويسبدو
أن اشتغاله بالأدب والمعرفة والثقافة قد شغل وقته كثيرا
حتى لقد أقعده هذا عن الاهتمام بالظروف الحرجة لدولة
أبيه . وقعد به عن مشاركة أخوته أخطر الاحداث والمعارك . وأتضح
هذا جليا عندما تهاطأ فى تلبية دعوة أبيه له لخوض معركة ضد
النصارى . مما جعل المعتمد يحنق عليه ويكتب له قصيدة
يسخر فيها منه ومن تعلقه بالأدب دون الممارك والمواقع التي شهر
بنو عماد . فبعث اليه الراضى بقصيدة يعلن فيها توبته ويقر
بأخطائه ويستعطف أباه أن يعفو عنه ويصفح^(٥) . وقد ولاه المعتمد
حكم مدينة الجزيرة الخضراء . وعندما قدم المرابطون تلبية
لدعوة المعتمد ، طلبوا الجزيرة الخضراء منه . فولاه على مدينة
ربعد التي استمر يحكمها حتى مقتله على يد المرابطين كما سنرى بعد^(٦) .

(١) أنظر بعد ص ٢٧٤

(٢) صلاح خالص : المعتمد ابن عماد الاشبيلي ص ٨٣ - ٨٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) قلائد العقيان ص ٣٥ - ٣٦ .

(٥) أنظر قلائد العقيان ص ٣٦ - ٤٠ . صلاح خالص : نفس المرجع .

(٦) ص ٨٦ - ٩١ . أنظر بعد ص ٢٥٦ - ٢٥٧ و ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

ورابيع هولاء الابناء ، المأمون وأسمه الفتح ويكنى
بأبى نصر ، وقد تولى أمر ولاية قرطبة بعد عودتها
ثانية الى سلطة العباديين عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م وقد استمر
يحكمها حتى قتل على يد المرابطين عند خلعهم للمعتد (١)
وبالإضافة الى هولاء فهناك عدة أبناء من أعمام هذه هم :
المعتد وأسمه عد الله ، ويكنى بأبى بكر ، والربيع ويلقب
بتاج الدوله ويكنى بأبى سليمان ، والمعتلى زين الدوله
أبو هاشم ، ثم فخر الدوله ، وشرف الدوله . ثم أخيراً
أبنته بثينة التى أخذت من الأدب والعلم بسبب (٢)

كما رصدت كتب الأدب والتاريخ بعض أسماء لابناء المعتمد
من بينهم المؤمن ، سراج الدوله يحيى ، وذخر الدوله حكم (٣) ، وقد
عزنا على ذكر لابن آخر للمعتد على عد الوهاب ويلقب بعز
الدوله . وقد أخذ بطرف من الادب والفقه والطب وتوفى بالمغرب
عام ٥٢٠ هـ / وسنتعرف لاحقاً على ابن آخر كان له دور فى المقاومة
العبادية ضد المرابطين ، وهو عد الجبار بن المعتمد (٥)

ومن الحق أن نشير الى أن علاقات المعتمد بأبنائه
وزوجته أعماد كان يسودها الألفه وروح المحبة والحنو ، فلم
نعثر على موقف واحد يشبه موقف أبيه المعتضد مع أبنائه
ونستطيع أن نسجل هذا الترابط العائلى فى سجل المعتمد الايجابى
فعلاقاته . المعتمد بأبنائه كانت تقوم على ركائز من المحبة
والمطف والحنو . وكانت علاقات الأولاد بأبيهم تقوم على ركائز
من الاكبار والاجلال والتقدير ، وليس على التوجس والخوف والرهبة
مثلاً كان وضع أبناء المعتضد مع أبيهم القاسى .

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ، والجزء ، ص ٦١ - ٦٣ .

(٢) صلاح خالى : المعتمد ابن عباد الاشبلى ، ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٤) عد الملك المراكشى : الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، قسمان -

القسم الاول ، ص ٩٧ .

(٥) أنظر الباب الرابع ، ص ٣٢٠ .

واخيرا فان كتب الأدب والتاريخ حفظت لنا ذكر زوجة
ثانية حرة هى ابنة مجاهد العامري ملك دانية
والجزائر الشرقية ، ولكن يبدو أنها لم تكن ذات دور خطير
فى حياة المعتمد . ولذلك مر ذكرها فى المصادر المعاصره
مرورا سريعا ^(١) . كما نحب أن نشير الى أنه كلن هناك عدد من
السرارى والاماء اللاتى كن فى حوزته ، ولم يه دورا مييزا
هاما فى جلب الثمة والسرور للمتمد . وكن يشاركنه
ساعات أنسه ولياليه العابقة بمجالس الأئس والطرب
والموسيقى ، كما كن النموذج الأنشوى الصارخ الذى استلهم
منه المعتمد قصائده فى الفزل والنسيب مثل جوهرة التى
قال فيها أعذب الأقوال والاصاف ، وسحره ووداد ، وأم عبيده ^(٢)
السمات المميزة لشخصية المعتمد :

لمل أبرز الصفات التى كان يتحلى بها المعتمد هى
الرأفة والأشفاق والحلم فلم يكن قاسيا غليظا مثل والده المعتضد ،
وأنما كان حليما رؤوفا مع الناس عموما يستوى فى هذا عائلته
أو خاصته وحاشيته ، أو طمة الناس . ولقد رأينا ما يدل على هذا
فى معرض حديثنا عن علاقته بأبنائه . فقد كان أقصى عقاب
أخذة ضد ابنه يزيد الراضى هو التدر والتهكم . وهو فى
هذا يختلف عن أبيه المعتضد الذى قتل ابنه بيده .
وهدد المعتمد نفسه بالقتل أيضا كما مر بنا سابقا ^(٣) .

وحتى فى حياته العامه كان يسير وفقا لهذه الصفات
الانسانية الحسنة . فقد أمن الكثيرين من الذين قسى عليهم
والده ، ورد لهم أموالهم وحقوقهم ، كما أنه امتاز بحسن
الظن وسلامة الطوية . ولم نعثر على صورة أو موقف واحد

(١) المقري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٦ - ١٤٨ .
(٢) انظر : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الأول ، ص ٣٤ -
٣٥ . - المقري : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .
صلاح خالص : المعتمد ابن عاد الاشبيلي ، ص ٧٣ - ٧٧ .

(٣) أنظر قبل الباب الثانى ، ص ١٧٤

بدا لنا فيه المتمدن تاسيا غليظا لا تعرف الرحمة
سبيلا الى قلبه فيما هذا موقفه من خروج ابن
عمار عليه . ومع هذا فانه يتراعى لنا بالنسبة لهذه
القضية أنه بجانب الامور الشخصية ، فان دواعى المحافظة
على سلطانه هي التي دفعت به الى قتل وزيره
أكثر مما دفعت به كوامن القسوة والغلظة فى قلبه . وفى
الواقع فإنه يجب علينا ونحن نرسم هذه الصورة الشخصية
للمتمدن ومقارنتها بأبيه أن نأخذ فى الاعتبار أن شخصية
أبيه وما عرف عنه من قسوة ربما كانت نتيجة لأن ظروف
تكوين الدولة كانت تستدعى ذلك من أبيه . ولذلك أراد
المتمدن عن طريق المعاملة الحسنة لكل خاصته ورعاياه أن
يكسب محبتهم ، وذلك بتغيير صورة بنى عباد فى نظرهم . كما أنه
كان لشاعرية المتمدن ذاتها أثر فى تلك المعاملة الحسنة
للناس . فما من شك أن شاعرية المتمدن أوجدت فى
ذاته هذا الجانب الانسانى الذى كان يفتقر اليه أبوه .

ومن أبرز سمات شخصية المتمدن أنه كان سليم الطوية

— بالنسبة للناس والانصار فقط — حسن الظن والثقة . ولم يكن
متشككا متوجسا قليل الثقة فى الأنصار والناس مثلما كان أبوه .
ولكنه كان شديد الثقبة بالناس والانصار . ولم يصح لدواعى
التوجس والتشكك سواء أكانت تلك دواعى شخص ذاتية . أو
دسائس ومؤامرات يحكيها بعض المفرضين . ورأينا صورة واضحة
تدل على سمو أخلاقيات المتمدن وذلك عندما بعث بعض
المفرضين له عند تسلمه الحكم بقصيدة يحذرونه فيها
من الوزير . ابى الوليد بن زيدون ومن خطره وأطماعه ، فكذب
لهم قصيدة طويلا يكذبهم فيها ، ويميلن للملاء حسن ظفه
وثقتهم بوزيره ، ويحذروهم من الصيد فى المياه العكرة . وكان
هذا الموقف كافيا للجسم أفواه المفرضين والمفسدين (١)

(١) عندما تولى المتمدن السلطة بعد أبيه ، رفعت اليه رقعة فيها عدة

ابيات من الشعر تعرض بالوزير ابى الوليد بن زيدون ويقول =

وبالإضافة الى هذا يمدّ التقدير والاحترام لرجاله من أبرز صفاته أيضا . فقد كان شديد التقدير والاحترام لوزرائه وخاصته . وكان يعاملهم معاملة الصديق للأصدقاء وليس معاملة الملك أو السيد لأتباعه . بل لقد كان يتبسط معهم . ويفقد شؤونهم ، ويحادثهم ويشاكرهم مجالس أنسهم ومرحهم . بل انه كان يتمنى الخروج لملاقاة بعضهم والترحيب بهم لولا أن ناموس الملك ومقتضيات الحكم كانت تحول دون ذلك (١)

وإضافة الى هذا كان المعتمد كريما سخيا جوادا شأنه شأن والده ، وسنرى بعد صورة مثالية رائعة لهذا الكرم والجود وحتى وهو في أعسر الأوقات وأحلك الظروف (٢) . ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن المعتمد كان شاعرا متميزا ، طرق معظم مقاصد الشعر وأغراضه وبرز فيها وحلق . ومن الطبيعي جدا أن يكون للأدب عنده سوق رائجة وفرصا رحبة واسعة . وأن يؤم بلاطه العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين (٣)

تلك هي بعض الجوانب المشرفة في شخصية المعتمد ، وهي التي جعلت المؤرخين بالإضافة الى نهائيه المفجعة يفيضون في الإشادة به والثناء عليه ، دون أن يعنوا بالجانب السلبي من شخصيته . فلم يكلفوا

== ملاحظتها :

يا أيها الملك العلي الأعظم اقطع وريدي كل باغ ينأى
لاتتركن للناس موضع شبهة واحزم فضلك في العظام يحزم . الخ .
فلما قرأها المعتمد وعلم ما تحمل من الدسيسة وقع خلف تلك الرقعة بعدة أبيات يقول فيها :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا الدين أفتن والموءة أكـرم
خنتم ورمتم أن أخون وانما حاولتم أن يستخف يلملم

— ويللم هو ميقات أهل اليمن ويقع على بعد مرحلتين من مكة .

انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني — المجلد الاول ، ص ٤٢ — ٤٣

٠ ابن خاقان : القلائد ، ص ١٧ — ٢٠ .

(١) انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني على المجلد الاول ، ص ٣٦ — ٣٧ .

٠ ابن خاقان : القلائد ، ص ٧ — ٩ .

(٢) انظر عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) انظر فيما بعد ، الباب الخامس ، ص ١٣٣ ع

أنفسهم عناء رصد تلك الجوانب القائمة من شخصيته ، فقد نسوا ذلك أو تناسوه ، في خضم اهتماماتهم بمأساته الفجعة . ولكن التاريخ وكما هو معلوم لا مكان غده للمواطن ومن ثم فلا بد للمؤرخ المنصف أن يحكم بما له وبما عليه في موضوعية متجردة عن الهوى . فالمعتمد لم يكن ملاكا كما صورته لنا كتب التاريخ والادب ، ولكنه كان بشرا تختلج في نفسه جميع أحاسيس الانسان ومشاعره المتناقضة . ونستدرك فنقول ان هذا لا يعنى التماسا للعدر والمبرر له ، فان تبعات المنصب ، وفداحة المسؤولية الملقاة على عاتقه تفرض عليه أن يكون في مستوى تلك المسؤولية فلا يترك لنزواته ورجائه وغرائزه الحسية والمعنوية العنان وينساق في لهات محموم في ارضاء واشباع تلك الرغبات مما لا يليق بملك له مسؤوليات خطيره وعليه تبعات جسيمة .

هذه المقدمة التي استهللنا بها حد يثنا عن الجانب السلبي من شخصية المعتمد ضرورية لنوضح نقطة هامة وهي أنه من الثابت والمسلم به عبر العصور ان عدم الاحساس بالمسؤولية والانغماس في اللهو واشباع النزعات والمعيش الناعم هي أسباب غير مباشرة بطيئة شديدة المفعول في انحلال الدول وسقوطها يستوى في هذا ملوك الطوائف ومن كان قبلهم أو من جاء بعدهم على المستوى البشرى عموما .

نقول هذا لأننا قد رأينا تبريرا واهيا لانصراف المعتمد الى اللهو والتمتع والأنس بحجة أن الموضوع ليس موضوع وجود هذا الاتجاه أو عدم وجوده ، بل بالقدرة على خلق نوع من التوافق والتوازن بين تلك الرغبات وبين تبعات والمسؤوليات ، بدعوى أن هذا الاتجاه يعد مظهرا أصيلا في حياة أمراء وملوك الطوائف في الاندلس علاوة على أنه كان المظهر المميز للأرستقراطية الاندلسية ، ولكن هل كون هذا الاتجاه مظهرا أصيلا ومألوفا في المجتمع الاندلسي يعفى الأمراء والملوك من تبعات التفسخ الأخلاقي والتنكر للمثل الأخلاقية الإسلامية^(١) هل يعفيهم هذا وهم الذين يقفون الجزء الأكبر من حياتهم الخاصة في البحث عن اللذائذ ووسائل المتعة كما يقول صلاح خالص نفسه^(٢) .

(١) : انظر ، صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٥٦ - ٥٩ ،

و ص ٩١ - ٩٣ .

(٢) : نفس المرجع ، ص ٩١ .

أى انسجام وتوافق ذلك الذى استطاع المعتمد أن يكيف به حياته العملية والشخصية؟؟ لم نجد فى حقيقة الامر عند استقراءنا لتاريخ المعتمد بالذات ما يدل على انه كان صاحب انجاز تاريخى عظيم لا فى حياة الاندلس عموماً ولا فى حياة اشبيلية خاصة . فما هى اسهامات المعتمد البارزة على المستوى المحلى والقومى التى تفرضه على التاريخ فرضاً كشخصية تاريخية؟؟ حتى فى النواحي الانشائية العمرانية لم نعثر على اسهامات بارزة واضحة تسجل فى صفحته . نعم لقد فرض المعتمد نفسه كشاعر وكإنسان وكملك مترف ، وكبائس فقير خاصمه الزمن وناهضه الدهر . أما فيما عدا هذا فلا . ولهذا فان اتهام بعض المؤرخين للمعتمد بأن انكباه على اللهو الى درجات جاوزت الحد كان سبباً من أسباب تدخل المرابطين لتدارك الوضع المتدهور . لا يفتيه نقض المستشرق الفرنسى بييريز له أو غيره . فالقضية قضية عامة تنسحب على الدول فى أى مكان وزمان ، ولمنحصها أن عدم الاحساس بالمسؤولية والانغماس فى اللهو والمترفات الحضارية الى حدود غير معقولة هى أسباب جوهرية لسقوط الدول وانحدارها .

وهذا ما يفسر تحاملنا على المعتمد بالله فالظرف الذى كانت تمر به الاندلس وقتذاك كان حرجاً ودقيقاً^{كان} . إذ انصارى يشهدون ضغطهم على الممالك الاسلامية . فكان الواجب عليه باعتباره اقوى ملوك الطوائف ، وأفسحهم ملكاً ، وأوسعهم ثراءً وجاهاً أن يصرف النظر عن اهتماماته الخاصة ويعطى الاهمية القصوى لتدارك الموقف العصيب الذى تعرضت له الاندلس وقتها . ولكن عدم المبالاة وعدم الاحساس بخطورة هذا الموقف العصيب كان ما يدور فى الاندلس ليس بمنفى اليه . كل هذا يجعلنا ننحى بالآئمة عليه . ونعتقد اعتقاداً راسخاً أنه كان بمقدور مملكة اشبيلية تزعم ممالك الاندلس وقيادتها نحو شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد على الأقل فى أمر مواجهة النصارى .

(١) : يرى المستشرق هنرى بييريز Henri Peres فيما ينقله صلاح خالص عنه فى كتابه (عن الشعر الاندلسى) أن تهمة الفسق والانحلال التى وجهت لملوك الطوائف هى من وضع مؤرخين عاشوا فى عصرى المرابطين والموحدين . ومن هنا جاء تفسيرهم لسلوك هؤلاء الملوك بتلك القسوة . وفى رأيه أن ملوك الطوائف لا يختلفون عن غيرهم ممن كان قبلهم أو من جاء بعدهم .
أنظر : صلاح خالص : المعتمد ابن عباد الاشبيلي ، ص ٩٢ - ٩٣ .

ومهما يكن من أمر فقد أسرف المعتمد اسرافاً شديداً
فى تحقيق رغباته ولذائذه الحسية والمعنوية ، فقد كان يعبّ من تلك
الذائذ الحسية والمعنوية عباً • اذ كان له فى تلك اللذائذ الحسية
كالخمر والشغف بالنساء ، أو اللذائذ المعنوية كجالس الطرب والتفزل
بالفلمان جولات وصولات لايزيد بحثنا أهمية تبيانها وايضاها •
فقد أسرف فى العبّ من هذه اللذائذ الى حد التهلك والخلاعة^(١) •
ويكفى أن نشير الى أن سلفيه قد عقبا مروءة وشهامة عن التفزل بالفلمان
والتهتك فى أوصافهم • كما يكفى أن نشير الى أننا لم نعثرفى حياة سلفيه
بالذات على موقف فقد أحدهما فيه وعيه تحت تأثير الخمرة وممرأى
من أبناءه كما حدث للمعتمد^(٢) •

ويؤسفنا أن نشير الى أن المعتمد استعان بالنصارى
لتحقيق مآربه وأهدافه التوسعية • وهو أمر لم يقدم عليه أبوه وجده من
قبل كما قلنا سابقا • كما يؤسفنا أن نشير الى أنه كان انتهازياً ومقلباً •
وظهر ذلك واضحاً عندما داهم مملكة قرطبة ، وهو الذى جاء لنجدها
ونصرتها • كما ظهر ذلك واضحاً أيضاً عندما طلب من يوسف بن تاشفين
أن يعهد اليه بمملكة غرناطة بعد خلع مليكها عنها كما سنرى بعد^(٣) •

على أن الموقف الايجابى الواضح والحسنة المميزة الناصحة
فى سجله هى موقفه الاسلامى المشرف باستدعاء المرابطين لتدارك أمر
الأندلس بعد تدهور الأوضاع واشتداد ضغط النصارى عليها كما سنرى بعد
ان شاء الله^(٤) • وكذلك موقفه فى موقعة الزلاقة التى أبلى فيها بلاءً حسناً
مخلصاً النية لله ثم لبني قومه وأخوته من المسلمين •

(١) : انظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٣٥-٣٦ •

— عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٦٠ - ١٦١ • —

صلاح خالى : المعتمد بن عباد الاشبلى : ص ٤٢-٤٣ ، ص ٥٥ - ٩١ •

(٢) : انظر صلاح خالى : نفس المرجع ، ص ٩٣ - ٩٥ •

(٣) : انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ٣٢٢ •

(٤) : انظر بعد ، الباب الرابع ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ •

الباب الرابع

تطور الأوضاع السياسية في الأندلس ونهاية دولة بني عباد

- اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وسقوط طليطلة •
- تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والمعتمد وبيعة ملوك الطوائف والتفكير في الاستمارة بالمرابطيين •
- موقعة الزلاقة •
- قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بني عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف •

اشتداد حركة الاسترداد المسيحي ، وسقوط طليطلة :
=====

عند حد يثنا عن الحرب الاهلية بين ابناء فرد ينادى الاول رأينا
أن الغلبة والنصر كانا من نصيب سانشو الأخ الأكبر الذي عهد له والده بحكم قشتالة .
ورأيناه يوغم أخاه الفونسو بالتزام أحد الاديرة ، وارتداء مسح الرهبان . ورأينا
الفونسو يفر من الديو بمساعدة أخته أوراكا ويلتحق لاجئا ببلاط الملك المسلم المأمون
ابن ذي النون صاحب طليطلة كما مر بنا سابقا (١) وماتركنا بسطه وتفصيله من تلك
الاحداث نعود هنا الى ذكره والتحدث عنه لارتباط ذلك بهذه النقطة بالذات .
فالفونسو فر الى المأمون بن ذي النون الذي استقبله احسن استقبال . فاکرم
وفادته وأحسن عشرته وعلمه معاملة الضيف الملكي العزيز المجلل لا معاملة اللاجئ
السياسي أو الأمير المطرود المخلوع (٢) . ونحن هنا لا نملك تأكيدا واضحا من أن
وراء تلك المعاملة اللطيفة اهدافا سياسية رغب المأمون في جنى جناها فيما لوتخيرت
وتطورت الامور لصالح الفونسو . ولكننا لا نستبعد ان يكون هذا خاطر قد عن
للمأمون وهو يعامل الفونسو تلك المعاملة الكريمة المفرطة . وما يحكى عن تلك الفترة
التي اقام فيها الفونسو في طليطلة . أنه سمع ذات يوم وهو في مكان قصي حوارا دار
في مجلس المأمون عن المدن وحصانتها ومناحتها والوسائل الكفيلة بالتغلب عليها . الخ .
فكان مما سمعه ان مدينة طليطلة لا يمكن ان تسقط بسهولة في يدي مهاجميها لضعف
موقعها وشدّة تحصيناتها الدفاعية الطبيعية أو البشرية ، وأنه اذا اريد الاستيلاء عليها
فان الامر يستوجب ارهاقها بالحصار الطويل ، وتضييق السبل عليها بقطع المؤونة
عنها ، وبتفزع والرعب في نفوس أهلها . الخ . جرى هذا الحوار والفونسو
يستمع اليه بانتباه بالغ ، فملى ذلك في ذهنه وملك عليه خاطره (٣)

ومهما يكن من امر فان اقامة الفونسو ببلاط المأمون لم تطل كثيرا ، اذ تطورت

(١) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ١٨٤ .
(٢) : انظر : J.B. Bury : op cit. ، p 396
- Jan Read : op cit. ، p 102

— محمد عبد الله عنان : . . . دول الطوائف ، ص ٣٩٠ .
(٣) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٣٩١ ، ص ٣٩٣ .

الأمر في اسبانيا النصرانية وانجلى عن مقتل سانشو تحت اسوار قلعة أخته اوراكا .
فبعث اشرف قشتالة وليون كما رأينا الى الفونسو يطلبون منه القدوم لتسليمه مملكة
أخيه^(١) . ويذكر أن الفونسو أخفى نبأ موت أخيه عن المأمون ، وتأهب لمفادرة
المدينة خفية ، ولكن المأمون فطن الى هذه الحيلة فأمر باعتقاله ، غير
أن الفونسو استطاع أن ينجو بنفسه . على ان هذه الرواية لا يعتد بها ، لانه
ثبت ان الفونسو ابلغ الخبر للمأمون الذى اظهر غبطته وسروره لذلك^(٢) ،
وسمح له بمفادرة المدينة ، ولم يطلب منه سوى أن يتعهد بعدم مهاجمة أراضيه
ومساعدته ضد اعدائه من ملوك الطوائف . ثم قدم له من جليل النفائس
وشمين التحف ما أوجب شكر الفونسو له . ولم يكتف بهذا بل خرج يودعه في
موكب ملوكى عظيم^(٣) .

وعلى أية حال فقد تربع الفونسو على عرش مملكة أبيه أو أخيه
— لافرق — كما مر بنا ، ورأيناه يصبح سيد اسبانيا النصرانية النافذ ، وصاحب
الكلمة الاولى والاخيرة فيها . كما مر بنا فى ثنايا تلك الاحداث ذكر شئ من
خصائص سياسته ومعالم شخصيته مما لا حاجة له الآن هنا^(٤) .

وما علاء الفونسو عرش قشتاله وليون وجليقية اخذت حركة الاسترداد
(La Reconquista) مسارا ذا صبغة صليبية^(٥) . اذ حاول الفونسو أن يوحد
صفوف مملكتى ارغونة ونبرة التابعتين لابناء عميه سانشو وراميرو الأول . وبعث
فى نفوس حكام تلك المملكتين روح الوحدة والتآلف ، ونبذ الفرقة والخصومات
والتعاون ضد المسلمين . ثم أخذ يعمل لأول مرة فى تاريخ اسبانيا النصرانية على
التقرب الى الكنيسة الرومانية . فبدل الطقوس الاسبانية القوطية بطقوس
كنيسة روما ، وفتح قنوات للاتصال ببابا روما جريجورى السابع . وفتحت ابواب اسبانيا

(١) : حسين مؤنس : مقال بعنوان : السيد القبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة
التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، ص ٤٤ — ٤٥ .
محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩١ — ٣٩٣ .

(٢) : محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ، ص ٣٩٣ .

(٣) : نفس المرجع والصفحة .

(٤) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٠٧ .

(٥) : نذكر بهذه المناسبة بأن البابا اوبيان الثانى حرم على الاسبان أن يشتركوا فى
الحرب الصليبية فى المشرق لأن اعداء النصرانية (المسلمون) يهددونهم فى عقور
دارهم وانه يكفى النصارى الاسبان فخرا أن يقاتلوا المسلمين فى الغرب (اسبانية) :
انظر : يوسف اشباح : نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

امام الرهبان الكيلونيين (١) وانضوت بذلك الكنيسة القوطية القديمة تحت ظل كنيسة روما . ومن جهة اخرى وسع اتصالاته مع فرنسا جارتها في الشمال والمتزعة للحروب الصليبية آنذاك . ولتأكيد الانفتاح على أوروبا التي تدعى بالولاء لكنيسة روما تزوج من الاميرة كونستانس ابنة احد امراء برجونيو الذين ينتمون الى اسرة كلابيه التي تحكم فرنسا وقتها (٢)

وبدا كما لو ان اسبانيا عادت الى المعسكر الاوسمى الصليبي بعد طول انفصال وغربة . وبات في امكاننا ان نعتبر ان اسبانيا النصرانية غدت تدور في فلك الكنيسة الرومانية وتخضع لرغبات باپواتها . رغم ما قيل من أن الفونسو كان يعارض في كثير من الاحيان رغبات الكنيسة والبابا معا (٣)

وعندما تولى الفونسو تلك المملكة النصرانية شبه الموحدة ، كانت احوال المسلمين في حالة سيئة من التفكك والتمزق ، وتبعث في نفس الوقت على المزيد من الاسى والحزن كما تثير الشفقة والسخط معا . فمملكة طليطلة كانت تدخل آنذاك في نزاع مميت مع جاراتها الممالك الاسلامية ، كما كانت ترنو ببصرها الى تحقيق حلم مليكها القديم الجديد وهو الاستيلاء على قرطبة وانترهاها من يد مليكها

-
- (١) : نسبة الى مدينة كلونى Cluny في فرنسا ، حيث اسس فيها حركة اصلاح ديني مسيحي عرفت بحركة الاصلاح الكيلونية . وقد انبثقت منذ القرن العاشر الميلادي ، حيث اسس وليم الاول التقى دوق اوكتين ديرا في سنة ٩١٠ م . وكانت هذه الحركة تهدف الى تصحيح مسار الكنيسة المسيحية الغربية ، وكذلك تفادي الاخطاء والمفاسد التي تردت فيها بقية الاديرة المعاصرة الاخرى . وقد قام هذا النظام الذي يدعى الجديد على ركيزتين اساسيتين هما التبعية المباشرة للبابوية فقط دون ان يكون للحكام العلمانيين او الاساقفة المحليين حق الاشراف على هذه الاديرة الكيلونية . وثانيهما قام هذا النظام على اساس الطاعة المطلقة ، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد . وقد انتشرت هذه الحركة الاصلاحية الديرية في القرن الحادي عشر الميلادي وشملت معظم اوربا .
- انظر : سعيد طشور : اوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ج ٢ ، ص ١٣ ، ج ١ من نفس الصفحة .
- (٢) : انظر : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .
يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، الجزء الاول ، ص ١٣٨ وما بعدها . - حسين مونس : السيد القميطور وعلاقته بالمسلمين ، ص ٤٧ - ٤٨ . - محمد عبد الله غان : دول الطوائف ، ص ٣٩٧ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ .
- (٣) : محمد عبد الله غان : نفس المرجع ، ص ٤٠٢ .

الجد يد المعتمد ، وقد تحقق له ذلك بفضل الظروف التي سنحت له وقتذاك كما رأينا (١) .
أما المعتمد بالله فقد كان يدبر مع وزيره ابن عمار مشاريع الاحتلال والتوسع على حساب
الممالك المجاورة كفرنطة وغيرها (٢) . وبالنسبة لمملكة سرقسطه فانها كانت تمر آنسذاك
بادوار سيئة في نزاعاتها العائلية المستمرة بين الاخوة من ابناء سليمان المستعين ابن
هود ، ولم يكن بعضهم يتورع من الاستعانة بأمرء الامارات النصرانية المجاورة كأرغونة
ونبرة . بينما نرى البعض الآخر منهم ينشغلون في احيان اخرى في رد عاديات هؤلاء
الامراء انفسهم ، وكذلك رد عاديات امارة برشلونة الجارة المسيحية الثالثة الواقعة في
الشمال الشرقي من سرقسطه (٣) . اما مملكة بطليوس فقد كان ملكها عمر المتوكل مشغولا
في نزاع مع اخيه يحيى المنصور ، وخلافه مع ابن ذى النون (٤) . واما الممالك الاخرى
فقد كانت اضعف وأبعد من أن تؤثر في مجريات الامور السياسة والعسكرية .

وهكذا فما ان اعتلى الفونسو العرش سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٢ م حتى وجد
أمامه ظمما اسلاميا مفككا مضطربا متناحرا . وهياً له هذا تشديد ضغطه على
المسلمين وارهاق ملوكهم بطلب الاتاوات المضمرة عليهم سنويا منذ عهد ابيه
فرديناند . ولم يستثن احداً من ذلك ، حتى حليفه ومضيفه المأمون بن ذى النون ،
فقد فرض عليه جزية سنوية كان يؤديها له طوط او كرها (٥) . وتعتبر هذه الفترة من عهد
الفونسو السادس التي تبدأ من سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٢ م التي تولى فيها عرش قشتاله
وليون وجليقية ، وتنتهي في عام ٤٨٤ هـ / ١٠٨٦ م ازهى فترات حكمه وخاصة بعد
استيلائه على طليطلة (٦) .

ولكى نزيد هذا الرأي توضيحا وتأكيدا ننقل عن ابن الكردبوس وصفه
لتلك الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين ، اذ يقول (٧) وخلص الملك للفض بن فردلند ،
واستبد به واستفحل امره ، واستحكم في المسلمين طمعه ، وصح في قياسه الفاسد أن

- (١) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ١٩٤-١٩٦ .
- (٢) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٠٥ وما بعدها .
- (٣) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ٢٧٩ - ٢٨١ .
- (٤) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع ، ص ٨٨ .
- (٥) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع ، ص ١٨٠ .
- (٦) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٣ ، ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٧) : ابن الكردبوس : نفس المصدر ، ص ٧٦ - ٧٨ .
- (٨) اي الفونسو السادس .

يستخلص جزيرة الاندلس لنفسه • فلم ينم عن شن الغارات ومواصلة الغزوات ، وصادف ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين واختلافا عظيما • وضعف بعضهم عن بعض بأنجاد الرجال ، واللمين في اثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرورا • وهم مع ذلك مشغولون بشرب الخمر واقتناء القيان ، وركوب المعاصي وسماع العيدين • وكل واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية ، متى طرأت من المشرق كي يوجهها الى الفتح هدية ليتقرب بها اليه ويحظى دون مطالبه لديه الى ان ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب وذل الرئيس والمرؤس ، وافترقت الرعية ، وفسدت احوال الجميع بالكلية ، وزالت من النفوس الانفة الاسلامية ، وأذعن من بقي منهم خارج الذمة الى أداء الجزية ، وصاروا للفنش عملا يجبون له الاموال لا يخالف امره احد ، ولا يتجاوز له احد • ووكلوا امور المسلمين الى اليهود ، فعاشوا فيهم عيث الاسود ، وجعلوهم حجابا ووزراء • وكتابا • وتطوف الروم في كل عام على الاندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون) •

وقبل ان نختم الحديث عن هذه النقطة المتعلقة باشتداد حركة الاسترداد

المسيحي لا بد ان نشير الى الاحداث التي سبقت سقوط طليطلة في يد الفونسو • فقد توفي المأمون بن ذي النون بعد قليل من دخوله قرطبة ظافرا ، وخلفه في حكم مملكته حفيده يحيى الملقب بالقادر • اذ كان ابنه هشام قد توفى في حياته (١) فخلف يحيى جده في وسط هذا الجو المشحون المليء بالاطماع الشخصية للاقتراس والتسلط • عدا عن كونه لم يكن على شاكلة جده قوة وحزما وحنكة ودهاء ، بل كان ضعيفا فاسقا • فكان من الطبيعي ان يستغل كل الاعداء والظالمين الفرصة لتحقيق مقاصد هم فأعلن ابو بكر بن عبد العزيز حاكم بنسية وصاحبها استقلاله الكامل التام الناجز عن مملكة طليطلة • ومعنى هذا انها لم تعد ترتبط بها ذلك الارتباط الاسمي الذي كانت عليه في عهد المأمون • وبدأ المقتدر ابن هود يعد العدة للانقضاض على معاقله واستطاع بالفعل الاستيلاء بمدينة شنتبرية • ومن ناحية أخرى أخذ أمير ارغونة وابن عم الفونسو : سانشو راميرز يشدد ^{الضغط} على بعض اطرافها وكذلك فعل المعتمد بن عباد الذي استطاع ان يستأثر ببعض القلاع التابعة لمملكة طليطلة •

(١) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ١٠٦ •

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٧٩ - ٨١ • - محمد عبد الله

خان : نفس المرجع ، ص ١٠٦ - ١٠٧ •

هذا بالنسبة للجبهة الخارجية ، أما الجبهة الداخلية فإنه أى يحيى القادر لم يكن موفقا فيها أيضا ، إذ بدأ خطواته الأولى فى الحكم بالتخلص من وزير جده السياسى الحكيم المدعو بابن الحديدى وكان ذلك بمشورة بعض أعدائه الحاقدين عليه ، وشمر القادر وكأنه قد تخلى من حمل ثقيل . ولكنه كان واهما إذ ما لبث أولئك الذين أشارو عليه بقتل ابن الحديدى ان أثاروا فى وجهه المتعصب والمصاعب مع الخاصة والعامة من أهل المملكة . ولذلك فقد بقتل ابن الحديدى والتصير والموازر والمستشار . وأضافت هذه الأحداث هما ثقيلالا الى صدره بجانب تلك الهموم التى ذكرناها . ولذلك فعندما تطلع حوله يلتمس العمون والتأييد . لم يجد سوى الفونسو ليستمد منه العمون ويطلب منه النصرة .^(١)

ولبى الفونسو دعوته شريطة ان يتنازل له عن بعض الحصون والقلاع التى عينها له بالإضافة الى البهاغ الطائلة التى كان يرهقه بها . واستطالت تلك الاوضاع الحرجة المضطربة من حياة طليطلة حتى ظم ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م فتخرج فيها الموقف الداخلى والخارجى وتدهورت الامور فى البلاد الى الحد الذى نضبت فيه الخزائن ، وشحت الاقوات ، وغلت الاسعار . مما اقضى اخيرا الى قيام ثورة شعبية ضده ، فأضطر الى الفرار من المدينة بأهله وولده الى احد الحصون التابعة له^(٢) ورأى أهل طليطلة ان البلاد فى حاجة الى امير او حاكم قوى حازم يستطيع ان يفرج كربتها ويعيد لها عزتها ، وينقذها من تلك الضائقة التى حاقت بها . فاستقر رأيهم على ان يستنشيوا بالملك عمر المتوكل صاحب بطليوس جارهم القريب منهم . فلبى المتوكل دعتهم وقد مالى طليطلة واستقر بها فى اعقاب سنة ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م واقام هناك نحو من عشرة شهور^(٣)

XX

وفى تلك الاثناء راسل القادر الفونسو السادس مستصرخا به طالبا نجدته وعونه ضد مناوئيه ، وضد عمر المتوكل مذكرا اياه بسالف المودة والصدقة بينه وبين جده . ودهى ان يفتبظ الفونسو لهذه الدعوة وان يظهر قلقه وجزعه على مصير حفيد المأمون حليفه الراحل . ولكنه اشترط عليه مقابل ذلك ان يتنازل له عن بعض الحصون التى سماها له . (فأعطاها له ، فادخل فيها اللعين ثقاته فى الحين

(١) : محمد عبد الله غان : تراجم اسلامية مشرقية واندلسية ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢) : انظر : J.B. Bury : Op. cit. , p 397

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(١) وحصنها أشد تحصيناً (٢) ثم أصطحب معه القادر نحو طليطلة • وضرب عليها الحصار ونازلها منازل شديدة • ولم يجد المتوكل معها بداً من الانسحاب تحت جنح الظلام مؤثراً السلامة تاركاً المدينة تواجه قدرها المحتوم • ولن ندخل في تفاصيل أحداث الحصار الذى ضربه الفونسو على المدينة، فما يهنا هو الإشارة الى ان القادر استطاع ان يعود الى مدينته تحت ظلال الحراب النصرانية طم ٥٤٧٤ / ١٠٨١ م، وأن ينكل بخصومه • ومناوئيه أشد تنكيلاً • كما يهنا ان نشير الى ان الفونسو قد استحصل على ثمن باهظ جدا من الاموال والتحف والهدايا التى قدمها له القادر حتى شعر بالرضى ثم انصرف الى قشتالة ظافراً غانماً (٣) •

أما القادر فقد نفرت منه النفوس، اذ اجتمع على أهل طليطلة عسفـه وعنته، وعيث الفونسو وانتهاكه لاراضى ومزارع الاهالى • وجرى من صروف المصائب والمتاعب ما أثقل كاهل السكان وجعلهم يستصرخون من حولهم دونما مجيب أو سميع • ورأى الفونسو ان الوقت قد حان للاستيلاء على طليطلة، وأنه ما من شىء يحول بينه وبينها ولا سيما وقد أعطته وفاة المأمون جد القادر التى أشرنا اليها سابقا الفرصة للتحلل من عهده له الذى كان قد وعده اياه وهو يفادر طليطلة متوجها الى ليون لتسلم الملك مكان اخيه • ويقوم هذا العهد على أساس احترام الفونسو لسيادة أراضى المأمون وعدم التعرض لها. أما الآن فالظروف التى تجتازها طليطلة على الصعيد الداخلى تتيح لالفونسو فرصة ذهبية لتشد يد الضغط عليها، ولا سيما وهو يعرف بأنها لن تسقط فى يده الا بعد ان ينهكها الحصار ويهددها الجوع وقلة المون، ووجاء

- (١) : هذان الحصنان هما حصن سرية، وحصن قورية • ويعتقد احمد مختار العبادى فى تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس ح ٤ ص ٨٣ انهما كانا يقعان بالقرب من الحدود القشتالية، وانهما هما المعروفان اليوم باسم *Soria* أو *Coria* أو *Conceria* •
- (٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٨٣ - ٨٤ •
- (٣) : ابن الكردبوس : نفس المصدر والصفحات •
- (٤) : انظر :
— ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ١٢٨ • (نقلا عن
المؤرخ الاسبانى منندث بيدال صاحب كتاب : اسبانيا فى عهد السيد •)
— محمد عبد الله خان : دول الطوائف، ص ٣٩٥

استئناف ملوك الطوائف للدور الذي مارسوه مع القادر في مهاجمة اراضيها وانتزاعها
من يده ليضيف ورقة رابحة تضاف الى اوراقه الرابحة الأولى (١).

ويهمنا هنا ان نذكر بموقف المعتمد بالله من تلك الاحداث اى أحداث
مهاجمة طليطلة من قبل الطامعين في خيراتها وارضيتها ، وعلى رأسهم الفونسو .
فالمعتمد عقد بوساطة وزيره ابن عمار مع الفونسو معاهدة يتعهد فيها بدفع الجزية
له ، كما يتعهد في الوقت نفسه - وهذا هو المؤسف - باطلاق يده لمهاجمة اى مملكة
من ممالك الطوائف بما فيها طليطلة . فلم يعد يعترض مشاريعه التي يعدها للاستيلاء
عليها (٢) بل ان الموقف المؤسى الذي انحدر اليه بعض ملوك الطوائف انهم لم يكتفوا
بمساعدة الفونسو في حصاره لطليطلة فحسب ، بل امدوه بالميرة والمونة (٣) كما أصم
البعض الاخر آذانهم عن صيحات استغاثة اهل طليطلة اثناء محاصرة الفونسو
لها . وقد استمر الفونسو يشدد ضغطه على المدينة بكل تصميم وعزيمة . ويرى ان
استمراره في الحصار سيفضى بلاشك الى النتيجة التي يرجوها . ويكفى ان نشير
الى ان حصار قرطبة قد استمر من عام ٤٧٤ الى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٥ م .

ولم تجد محاولة الملك عمر المتوكل ملك بطليوس وهى المحاولة الوحيدة التي
اتسمت بالشهامة والنخوة ، لم تجد شيئاً في انقاذ طليطلة ، وارتدت الكتيبة التي
بعثها بقيادة ابنه مهزومة كسيفة (٤).

سقوط طليطلة :

لم يكن من المستطاع على اى قائد عسكري افتتاح طليطلة عنوة لاستحالة
ذلك ، فقد كانت تتحجب بموقع طبيعي حصين ، فهى تقع على المنحدر الصخري الوعر
لنهر التاجه ويحيط بها شبه جزيرة تزيد من مناعتها منعة وتحصينا . وكانت فى
الواقع شجراً دائماً فى حلوق الحكام والملوك ، ولم يكن من السهل الاستيلاء عليها
وعندما وقعت فى يد المسلمين الفاتحين لم يهنا الولاة الامويون ومن ثم الامراء فالخلفاء

- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٤ .
- (٢) : محمد عبد الله خان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
- (٣) : على ادهم : المرجع السابق ، ص ١٩٩ .
- (٤) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٧٢ .

من بنى امية ايضا بحكمها ، فقد ظلت طيلة تلك الفترة مدينة نائرة مقردة على السلطة المركزية وخاصة ايام حكم الحكام الضعاف . ومما كان يزيد من مقاب السلطة المركزية ان غالبية سكانها كانوا من المولدين الاسبان الذين ظلوا مصدر مضايقات ومشاغبات للحكام والخلفاء دائما . ولهذا فان مدينة بهذه الاوضاع لا يمكن ان تسقط بسهولة الا اذا تعرضت للحصار الطويل واثقلت عليها السكك والدروب لكي لاتمد بالمون والميرة ويمشش الفزع والوهن في نفوس سكانها ، وهو ما استطاع الفونسو ان يستغله احسن استغلال . وكان واثقا من ان المدينة ستضطر اجلا أو عاجلا خاضعة مستسلمة . وبالفعل فقد حدث ما خطط لاجله الفونسو ، انه ما لبث اهل طليطلة ان ضاقوا ذرعا بذلك الحصار الرهيب الطويل وضقت عليهم الارض بما رحبت ، فرأوا ان يداخلوا الفونسو ويستصرخونه ويستعطفونه ، فجاءهم وفد منهم يرجون ذلك ويلوحن له في نفس الوقت بانهم سيطلبون مساعدة ملوك الطوائف ، غير ان الفونسو استهزأ بهم وسفّه آراءهم تلك واستخفها وبعث بطلب رسل ملوك الطوائف اليه ، وعلى رأسهم رسل المعتمد ابن عباد الذين تسابقوا الى خطب مودته والحصول على رضائه فخطبهم جميعا بكل عجرفة وكبرياء ، وطردهم من مجلسه بطريقة مخزية ذليلة . فاسقط في يد الطليطليين ، وخاب كل امل في نفوسهم لانفراج ذلك الكرب عنهم ، وشعروا وقتها ان لامناص من التسليم او الاستسلام بمعنى أدق . واخيرا توصل اهل طليطلة الى عقد معاهدة مع الفونسو تنص على ان يسلموا المدينة له مقابل ان يتعهد بالحفاظ على ارواحهم وممتلكاتهم واماكن عاداتهم .

واخيرا دخل الفونسو السادس طليطلة مكللا بالفار في ١٠ محرم ٤٧٨ هـ / ٦ مايو ١٠٨٥ م ^(٣) ظافرا منتصرا . وعادت طليطلة الى الاسبان مرة اخرى والى الابد ^(٤) .

(١) : عن المولدين ودورهم في مضايقة السلطة المركزية الاسلامية واتعابها يمكن

مراجعة

عبادة كحيطة : الرسالة السابقة ، ص ١٨٦ - ١٩٣ ، و ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٣) : اعتمدنا في الاخذ بهذا التاريخ على المستشرق الفرنسي ليفي برووفنسال ، الذي ينقل هذا التوقيت بالشهر الهجري عن مؤرخ اندلسي بلنسي معاصر لاحداث سقوط طليطلة ويسمى ابن علقمة صاحب كتاب البيان الواضح في الحظم القادح المقفود ، وقد توفي عام ٥٠٩ هـ ، وقد بقيت منه اجزاء مهمة عثر عليها برووفنسال . اما التوقيت الميلادي لسقوط طليطلة فيقول برووفنسال ان يوم ٦ مايو ١٠٨٥ م هو الصحيح على خلاف ما يراه معظم المؤرخين المحدثين من ان سقوط طليطلة قد

حدث في ٢٥ مايو ١٠٨٥ م .

(٤) : للاطلاع على مزيد من اخبار سقوط طليطلة في المراجع الأجنبية يراجع مثلا :
 انظر الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٤٦ ، ق ٢ من نفس الصفحة .

وقد عهد الفونسو بحكم المدينة الى احد رجاله المستعربين • وما يؤسف له ان الفونسو لم
يصف بتعهداته لاهل طليطلة ، اذ لم يمض غير قليل من الوقت حتى تحول جامع طليطلة
بايعاز من الرهبان وزوجة الفونسو الفرنسية الى كنيسة كبيرة ظلت كذلك حتى اليوم ^(١) واستولى
الفونسو بعد ذلك على كافة الاراضي التابعة لمملكة طليطلة الواقعة في شمال نهر
التاجه ^(٢) • وغادر القادر المسلوب الملك والارادة طليطلة تحت ظلال الحراب النصرانية
التي ساندته في الدخول اليها قبل ذلك • فاستقر بمعسكر الفونسو • ثم طلب
القادر من الفونسو ان يساعده في الاستيلاء على بلنسية • وقيل بل تنازل له عن طليطلة
مقابل ان يعهد له بملك بلنسية • وقد استطاع القادر بفضل مساعدة الفونسو ان يستولى
على بلنسية • وان يسلم له اهلها قيادها ^(٤) •

XX

وهذه الصورة الموسية سقطت مدينة طليطلة المنيعة الحصينة. ونزل خبر
سقوطها على المسلمين مدويا كالصاعقة ليس في الاندلس وحدها بل وفي بقية العالم
الاسلامي • وترك سقوطها رنة اسي محزنة لدى المسلمين وخاصة الاندلسيين بالذات •
وفاضت المشاعر الدينية والوطنية في نفوسهم • وعمت الاندلس وقتها موجة من الاستنكار
والتنديد • وانبرى الشعراء والفقهاء والمفكرون يحذرون من منية ذلك وينبهون ويلفتون
الانظار الى الخطر الحقيقي الماحق القادم • وتنقلوا بين اصقاع الاندلس يبثون في
نفوس الاهالي روح المقاومة والجهاد • وذهب بعضهم الى ملوك الطوائف يبثونهم

- Joseph F. O'Callaghan: A History of
MEDIEVAL SPAIN. p 204 - 206

- J. B. Bury. op. cit., 397

- Jan Read: Op. cit., p. 103 & 122-123

(١) : جامع طليطلة : هو جامع باب مردوم نسبة الى باب مجاور له يعرف بالباب المردوم •
وقد بنى عام ٣٩٠ هـ • وقد اقام عليه الاسبان بعد استرداد طليطلة بوقت يسير
كنيسة سانتا كروث • وهو المعروف اليوم باسم كنيسة الكريستوبل لاث •
انظر : مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٢٢٧ • - عد العزيز
سالم : المساجد والقصور في اسبانيا ، ص ٥٠ - ٥١ •

(٢) : محمد عبد الله خان : تراجم اسلامية شرقية واندلسية ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ •

(٣) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٤ •

(٤) : محمد عبد الله خان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٧٦ •

مخاوف الأمة من الاخطار المترتبة على سقوط طليطلة واسطة عقد الاندلس
ودرة جيدها • وسفح الشمو ضمير الأمم وصوتها العالى ووسيلة اعلامها
فى أفراحها وأتراسها وخطوبها مدادا باكيا فيه حرقة الأسى والتفجع،
وفيه لوعة الحزن والاسف لحال المسلمين وتخاذ لهم واستسلامهم للهوان
والذل • وتناقلت الألسن قصيدة رائية باكية لشاعر مجهول تنضح وتفيض
أسى وحزنا ، وهى فى حوالى السبعين بيتا ويقول مطلعها (١) :

لشكلك كيف تبتسم الثفور سرورا بعد ما يئست ثفور

وطفى فى البلاد تيار تشاؤمى يعبر أصدق تعبير عن مخاوف المسلمين
الاندلسيين ويدعو الى الهروب والهجرة خوفا من المستقبل القاتم • وقد
عبر عن هذا التيار الشاعر المشهور المهرروف بابن العسال وهو عبد الله
بن فرج اليحصى عندما قال (٢) -

يا أهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بها الا من الفلط

الثوب ينسل من اطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عد ولا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات فى سفت

أما عن الموقف الذى ساد الاندلس فى اعقاب سقوط طليطلة مباشرة ،
فينقله لنا ابن الكردبوس فى شئ من المرارة والاسى عندما يقول (ولما
حصل الطاغية الفنىش لعنه الله بطليطلة ، شخ بأنفه ورأى أن زمام
الاندلس قد حصل فى كفه ، فشن غاراته على جميع اعمالها ، حتى فاز
باستخلاص جميع أقطار ابن ذى النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبرا
سوى البنيات والقرى المعمورة • وحاز وادى الحجارة الى طليطلة (٤)

(١) : للاطلاع على هذه القصيدة يراجع :

المقرى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها •

(٢) : المقرى : نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ - ٨٦ •

(٣) : يرى أحمد مختار العبادى نقلا عن المستشرق الهولندى دوزى أن المدن الكبرى
كانت تسمى أمهات ، فى حين كانت المدن الصغرى التابعة لها تسمى بنيات •

أنظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٧ •

(٤) : طليطلة هى المعروفة باسم Talavera de la Reina فى مديرية طليطلة ، وتقع

على نهر تاجه على ١٥٠ كيلو مترا غربى طليطلة على مجرى النهر • وهى اليوم

مركز ادارى فى مديرية طليطلة ، وعلى بعد ٣٠ كيلومترا منها توجد اليوم مدينة

اصغر تسمى طليطلة القديمة Talavea la Vieja وهذه تابعة لمدينة قصرش

(١) وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها ، فلم يكن بالجزيرة من يلقي أقل كلب من كلابهم ، فعند ذلك وجه كل رئيس بالاندلس رساله الى الفنش مهنيين ، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين ، وفي أن يشركهم في بلادهم له عاملين ، ولأموالهم اليه جابين ، حتى أن صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين (٢) نهض اليه بنفسه وتحمل هدية عظيمة القدر سنوية مقربا اليه ، وراغا أن يقره في بلده عاملا بين يديه ، فجازاه على هديته بقرد وهبه اياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ، ويعتقد أنه جنته (٣) مما كان يحذر من الفنش من وقوع البأساء . وانتحى الفنش انتحاء الجبابرة ، وأنزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الاعجاب ما أحقر به كل ماش على التراب ، وتسمى بالانبراطور ، وهو بلفتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه من الانبراطور ذي الملتين ، وأقسم لارسال (٤) الرؤساء أنه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحدا ولا يبقى لهم ملتحدا ، سوى من اكتنفه رعايته ، وشملته غايته (٥)

ويضيف ابن الكردبوس قائلا (وكان رسول ابن عباد اليه يهوديا يعرف بابن مشعل فقال له : كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد

وقد سقطت طلبيرة في يد الفونسو السادس سنة ٤٧٥/٨٢٠م ، أي قبل سقوط طليطلة بثلاث سنوات .

انظر ، ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ح ٢ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(١) : الفحص Al fahs اسم يطلق على عدة مواضع بالاندلس وهو يعنى كل موضع يسكن سواء كان سهلا او جبلا بشرط أن يزرع . وهو في اللغة شدة الطلب . أما فحص اللج فقد اختلفت المصادر العربية في تسميته وتحديده مكانه ، فتارة يسمى بحصن اللج وتارة يسمى بحصن الثلج ، وتارة يسمى بالبسيط . وابن الكردبوس يجعله في منطقة طليطلة .

انظر ، ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٤ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) : حسام الدولة ابن رزين : هو يحيى بن عبد الملك بن هزيل بن خلف بن رزين صاحب شنتمرية الشرق أو سهلة بنى رزين كما كانت تعرف

في الجغرافية الاسلامية . وقد تولى حكم شنتمرية الشرق سنة ٤٩٦ هـ ، غير أنه ما لبث أن خلع على يد المرابطين بعد ذلك بوقت قصير .

انظر ، ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ١٠٩ ، ح ١ ، ص ١١٠ .

(٣) : الجنة بالضم كل ما وقى . المصدر السابق ، ح ٤ ، ص ٢١٢ .

(٤) : أي رسل الرؤساء .

(٥) : تاريخ الأكتفاء ، ص ٨٧ - ٨٩ .

منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمراءهم المعتضد ، والمعتمد ،
والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والأمين ، والمأمون .
وكل واحد منهم لا يسأل في الذنب عن نفسه سيفاً ، ولا يرفع عن
رعيته ضيماً ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا
على المناني والعيدان ؟ ! وكيف يحل ببشر أن يقرّ منهم على رعيته
أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سدى ! (١)

ورغم أن هذا الكلام الذي فاه به الفونسو يعبر عن
وجهة نظره في ملوك الطوائف ، ويعنى في نفس الوقت أنه يجد لنفسه
المبرر لمهاجمتهم والاستيلاء على أراضيهم . نقول رغم أن هذا الكلام
صحيح للأسف الشديد ، فإن المسلمين لم ينصبوه حكماً ليقضى لهم
حقوقهم من ملوك الطوائف ، ولم يكلفوه برفع الضرر والحيف عنهم ، بل
ان رغبات الشخصية ، وحماسه القومية والدينية هي التي دفعتهم الى قول
هذا .

(١) : تاريخ الاكتفاء ٤ ص ٨٩ .

تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والممتمد وبقية ملوك
الطوائف والتفكير فى الاستعانة بالمرابطين

اعطى سقوط طليطلة لالفونسو زخما هائلا من الاعتداد والتعالى ، ونفخ فيه ذلك الانتصار الذى لم يكن ليتاح له لو لم يسهم المسلمون بسوء سياستهم فى التعجيل به . نقول نفخ فيه ذلك الانتصار دهب مقيت من العظمة والكبرياء أوحى له بشعور زائف بأنه بساعات امجاد النصرانية ومضى رسومها ، وأب وحدتها وقائد ها الملهم . وصور له ذلك أنه الرجل المنتظر لاهياء ملك القوط القدامى (١) . ولذلك فقد مضى فى استفزاز المسلمين واستثارتهم شوطا بعيدا موقنا بعظم جدوى الورقة التى يلعب بها دائما وهى اختلاف كلمة المسلمين وتفرق وحدتهم . ولم يكن يخطر على باله بأن هناك خاصية من صميم خطئ المسلمين والعرب بصفة خاصة وهى ان المحن والمصائب الكبرى التى تحل بهم تفضى دائما الى جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم ، فسرعان ما ينسى او يتناسى كل واحد منهم خلافاته ونزاعاته الشخصية فى سبيل الذب عن الهدف المشترك والمصير المشترك .

ولذا فان الفونسو ما ان استطاع الاستيلاء على طليطلة حتى بدأ يسيطر على بقية المناطق التابعة لها ، فاستولى باسم القادر ابن ذى النون على بلنسية وملكه أياها او بمعنى ادق جعله نائبا عنه فى حكمها ، وحث الى المقاطعات التى استطاع السيطرة عليها من ينوب عنه فى حكمها . يجبون له الجزية والاتاوات . ثم توجه نحو سرقسطه التى مزقتها الحروب الاهلية بين الموتن ابن المقتدر الذى خلف اياه وبين اخيه المنذر صاحب لاردة . وبعد ان توفى الموتن عام ٤٧٨هـ / ١٠٥٨م استمرت الحروب والمنازعات بين المستعنين ابن الموتن وبين عمه المنذر ايضا . فقد توجه الفونسو عقب استيلائه على طليطلة نحو سرقسطه وضرب حولها الحصار ، وأقسم بايمان مغلظة ان لا يبرح مكانه حتى يفتحها او يموت دونها . ولم تجد شيئا محاولات المستعنين معه باغرائه بدفع الاتاوات والجزية (٢) ولم شاء من الاموال والتحف والهدايا التى يرغب فيها شريطة ان يرفع حصاره عن المدينة . واخذ عيونه وجواسيسه يندسون فى

(١) : حسن احمد محمود : المرجع السابق . ص ٢٤٥ - ٢٥٥ .

(٢) : حسن احمد محمود : نفس المرجع ص ٢٥٥

(٣) : انظر : J.B. Bury: Op. Cit. p. 397-398

- حسن محمود : نفس المرجع ص ٢٥٥ .

صفوف سكان المدينة ويثبون اعلانات براقية زاهية ، ودعايات كاذبة مضللة من أن الفونسو سوف يحسن معاملتهم ويعدهم بالخير ويفنيهم بالاحسان والتجلة . ويذكرونهم بألهى الفونسو البيضاء على اهل طليطلة عندما فرق على ضفافها الساكنين مائة الف دينار . وكان هذا بطبيعة الحال من قبيل ذر الرماد فى العيون لتطمينهم ليس الا ، والا فلم يمض غير وقت يسير حتى تنكر لهادته وتعهداته .

وفى نفس الوقت تحركت قوات قشتالية نحو غرناطة وضربت حولها الحصار ، كما استولت بعض القوات ايضا على حصن لبيط Aledo وهاجمت قوات أخرى بعض اطراف مملكة المرية . وتناقلت بعض كتب التاريخ رواية مفادها ان الفونسو ذهب به الاستعلاء والطمع والفرور حدا جعله يخترق نهر التاجه واتاح له هذا ان يجتاز بقواته القشتالية والليونية لأول مرة نهر التاجه جنوبا الذى كان يشل وقتها حدا فاصلا بين الممالك الاسلامية والنصرانية . فقد ذهب به التعالى حدا جعله يخترق نهر التاجه جنوبا حتى وصل الى جزيرة طريف فى اقصى جنوب الاندلس ، فضرب بقوائم فرسه البحر ثم تبجح قائلا بأنه قد وطأ ارض الاندلس كلها رغم انوف المسلمين وملوكهم وفى الواقع ان وصول الفونسو الى جزيرة طريف حدث بعد ان ساءت العلاقات بينه وبين المعتمد ، وبعد حادثة الرسول اليهودى التى سنعرض لها بعد قليل . وقد بحث الفونسو وهو فى طريف بخطاب الى يوسف ابن تاشفين الذى سيستمين به المعتمد ومقية ملوك الطوائف كما سنرى بعد قليل ايضا .
تدهور العلاقات بين الفونسو وملوك الطوائف : —

مانقلناه سابقا من ردود فعل تجاه سقوط طليطلة ، كان مجرد رد فعل

شعبى فى جميع الاندلس . وكان من الطبيعى ان يأتى رد الفعل ذلك غويا قويا

- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩١ .
- (٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٥٥ .
- (٣) : جزيرة طريف هى عبارة عن رأس بارز فى الطرف الاقصى الجنوبى لشبه جزيرة ايبيريا جنوب غربى الجزيرة الخضراء بقليل . وتنسب الى طريف بن زرق الذى ارسله طارق بن زياد فى مهمة استطلاعية لاختبار احوال شبه الجزيرة قبل عبور المسلمين اليها . وهى اليوم مدينة صغيرة تسمى بنفس الاسم Tarifa .
انظر : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ٤ ، ص ١٩٩ .
- (٤) : حسن محمود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٥ (نقلا عن ابن بسام) .
وانظر كذلك : MUHAMMAD BENABOUD YANGUS MACKAY :
THE AUTHENTICITY OF ALFONSO VI'S LETTER
TO YOSUF B. TASHUFIN. in AL-ANDALUS,
VOL. XL III, 1978, P. 234

يترجم مخاوف الناس ، ويعبر عن قلقهم ثم لاشيء سواه - وهم معذورون في ذلك - فلم يكن لديهم من الامكانات ما يغيرون به الوضع رغم تلويحهم بالثورة . وقد ترجم من معاناة أولئك الناس الشاعر الاديب ابو القاسم خلف ابن فرج الالبيري المعروف بالسميسر عندما قال :

ناد الطوك وقل لهم	مالذي احدثتم
اسلمتم الاسلام فسي	اسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	اذ بالنصاري قمتم
لا تنكروا شق المصا	فصا النبي شقتهم
سنصبر والزمان له انقلاب	وانتم بالاشارة تفهموا

وقال ايضا :

ومع هذا فلم يشق الناس عصا الطاعة ، ولم يثوروا على ملوكهم . ولكن ما جد من ظروف واحداث قلب الاوضاع وخلط الاوراق ، وجعل ملوك الطوائف يفكرون في اتخاذ اجراء حاسم ، ومن ثم كان رد الفعل الرسمي الذي سنتحدث عنه هنا .

ويبدو ان ملوك الطوائف لم يستوعبوا الخطر الحقيقي من سقوط طليطلة في يد الفونسو في بادىء الامر . وانهم شعروا بأن ذلك الحادث انما هو خاص بمملكة طليطلة وحدها ، وانهم اذا ما وطلدوا علاقاتهم مع الفونسو فانهم سيفهمون بقاء عروشهم . ومن المحتمل ان شيئا من هذا حدث وفكر فيه ملوك الطوائف . وربما يفسر لنا هذا الكلام ما جاء في رواية صاحب الاكتفاء - ان صحت - من ان ملوك الطوائف ومن ضمنهم المعتمد بالله قد بعثوا برسولهم لالفونسو في اعقاب سقوط طليطلة مباشرة مهنتين بذلك الفتح العظيم .

وعلى هذا فاننا نقول بكل اسف اننا لم نعثر على رد فعل رسمي تجاه سقوط طليطلة من ملوك الطوائف وخاصة من المعتمد . ولا يقلل من أهمية كلامنا مارواه يوسف أشباخ عن رد فعل مزعوم للمعتمد تجاه سقوط طليطلة . فهو يقول ان المعتمد بعث بخطاب الى الفونسو الذي استكمل احتلال بقية أراضي طليطلة يحذره فيه من التمادي في الهجوم على مملكة طليطلة . وطلب منه ان يحترم بنود المعاهدة

(١) : ابن بسام : المصدر السابق : القسم الاول - المجلد الثاني ٣٧٤ .

(٢) : انظر قبل ص ٢٥٥ .

الموقعة بينهما والتي كنا قد أشرنا الى أن المعتمد عقدها بوساطة وزيره ابن عمار،
فاذا لم يحترم الفونسو نصوص الاتفاقية ، فان ذلك يعتبر خرقا واضحا لها . ويعقب
يوسف اشباخ بقوله : ان الفونسو بحث للمعتمد خطابا ينفي فيه خرقه لنصوص الاتفاقية ،
ويشعره بأن ما حدث انما تم بالاتفاق مع صاحب طليطلة القادر نفسه ، ولكي يسبرهن
عن حسن نواياه بحث له بخمسمائة فارس ليسانده في حربه ضد ملك غرناطة . وبالفعل
توجهت تلك القوة الى اشبيلية ، وان الفونسو عندما شعر بتصميم المعتمد على رأيه ،
يئس من أمر اشبيلية ، فتوجه نحو بلاد الأندلس ليهاجم أراضيهم ويعيث فيها .

فنحن نستبعد هذا ، ان هل كان المعتمد بتلك القوة التي

يستطيع بها أن يناطح الفونسو ويهاجمه ؟؟ فكلنا نعرف أن المعتمد كان يتهالك فسى
استجداء الفونسو لطلب مساعدته ؟؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى فالنزاع بين
مملكتي اشبيلية وغرناطة كان قد حسم بزوال ابن عمار وزوال سياسته ، وانشغاله
بفتح مرسية ثم مقتله أخيرا بشهادة عبد الله بن زيري ملك غرناطة نفسه
كما رأينا سابقا . وكان هذا قبل سقوط طليطلة كما هو واضح .

وعلى أية حال فان أماننا عدة روايات عن بداية تدهور العلاقة

السياسية بين المعتمد وزملائه ملوك الطوائف ، وبين الفونسو السادس . بادئ ذي
بدء لنصف فتور العلاقة بين الفونسو وعمر المتوكل صاحب بطليوس ، ثم نخرج
على النقطة المهمة في موضوعنا وهي فتور العلاقة بين المعتمد والفونسو ، وما أفضت
اليه بعد ذلك . فيروي ان الفونسو بحث في أعقاب سقوط طليطلة الى عمر المتوكل
خطابا فيه من الصلف والعتو ما فيه ، ان جرت كما يقول صاحب الحلل الموشية
(بينه وبين ملك الجلائقة خطوب كثيرة آل حال المسلمين بعمالته الى الضعف والاستيلاء
على بلادهم ، وخطابه ملك الجلائقة بكتاب يرعد فيه ويسبرق ويتشطط عليه
في أداء وظيف من المال كل سنة)^(٣) ويقول صاحب الحلل الموشية أيضا أن
عمر المتوكل أجابه بخطاب أورد نصه ويهمننا اشارته فيه الى أنه مستعد
هو وزملائه ملوك الطوائف الى مقاومة الفونسو ومواجهته .

أما أسباب توتر العلاقة بين المعتمد والفونسو فقد قيل فيها الكثير ،

(١) : تاريخ الاندلس : في عهد المرابطين والموحدين ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

(٢) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) : مجهول ، ص ٢٢ - ٢٣ .

واختلفت فيها الروايات اختلافاً بيناً ، فمن تلك الروايات ما يعمد بفتور العلاقات
وتدهورها الى ما قبل سقوط طليطلة . ان يروى ابن اللبانة معاصر المعتمد وصديقه
وشاعره الاثير لديه في كتابه الذي القه عن بنى عباد ، والمعروف بلقيط الدر
وسقيط الزهر المفقود فيما ينقله عنه المقرئ انه في عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م جاء
رسل الفونسو كالمعتاد لتسلم الجزية السنوية من المعتمد ، وكان على رأس البعثة
سفير يهودى يدعى ابن شالب ، فوجه لهم المعتمد المبلغ المعتاد ، الا ان اليهودى
رفض أخذه ، واحتج بأن الذهب على غير العيار المعتاد ، وهدد بأنه في العام القادم
سوف لن يأخذ مالا ، بل سيأخذ بدلا من ذلك الحصون والقرى . ويبدو أن
السفير اليهودى قد تجاوز مهمته دون ان يكون عنده تفويضا من الفونسو نفسه ،
ويبدو ان ما دفعه الى هذا الموقف المتعجرف هو وثوقه من قوة سيده وتأكده من
الحالة السيئة التى بلغها المسلمون وقتها . ولذلك جاء صلفه هذا من موقع قوة .
وهنا نشعر برد فعل المعتمد عنيفا قويا حازما فيه من الانتصار للكرامة ما يهتج على
الاعجاب ، عندما امر بقتل السفير وصلبه ^(١) . ومع هذا فنحن نتساءل هل كان رد فعل
المعتمد الذى جابه به السفير اليهودى هو انتصار شخصى للمهانة التى الحقها
به السفير ؟؟ ام انه كان رد فعل قومى ؟؟

يلوح لنا من هذه الرواية رأيان هما : اما ان يكون ابن اللبانة قد وهم
في تحديد التاريخ الذى ذكره وهو طم ٤٧٥ هـ . وفى هذه الحالة يصعب علينا
ان نعتبر هذه الحادثة سببا مباشرا لفتور العلاقات بين المعتمد وبين الفونسو
وهى التى تشير معظم روايات المؤرخين على انها قد حدثت في اعقاب سقوط طليطلة
في عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . اما الرأى الثانى فهو ان هذا الحادث قد جرى
في التاريخ المحدد الذى اشار اليه ابن اللبانة الذى كان على اطلاع واسع على
مجريات الامور فى اشبيلية آنذاك بحكم وجوده الدائم فى البلاط الاشبيلية . وفى
هذه الحالة يمكن اعتبار هذه الحادثة مجرد سحابة قاتمة فى العلاقات بين الحليفين
ساق السفير برعوتته المعتمد اليها سواقا .

(١) : نفع الطيب : ج ٥ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .
وقد اشارت الى هذه الحادثة ايضا بعض المراجع الاوربية الحديثة التى طبقت
روايتها رواية المؤرخين المسلمين .
انظر مثلا : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD :
Alfonso VI of León and Castile
BHS, LVI (1979) p. 97

وعلى أية حال فقد كان رد فعلها لدى الفونسو غاضبا ،
(١) فأقسم بأن يأتي بجنود كثيفة (بعدد شعر رأسه حتى يصل بحر الزقاق)
لينتقم منه جزاء فعلته تلك .

هذه الرواية رواها ابن اللبانة كما ذكرنا ، ورواها من بعده
المقرى الذى نقل عنه ، ومن المحدثين دوزى ، كما رواها فى شئ من الاختلاف
يسير صاحب الحلل الموشية الذى جعل تاريخ هذا الحادث عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م .

على أن هناك من الروايات الاخرى ما تؤكد على أن الفتور الذى
ساد العلاقات الاشيلية النصرانية قد حدث فى اعقاب سقوط طليطلة . وهذه الروايات
تروى شأنها شأن ما سبق ذكره أسبابا مباشرة لهذا الفتور . فصاحب الحلل
الموشية يقول : فى معرض حديثه عن هذه الواقعة : (وكان الملاجية ادفنش فى سنة
٤٧٨هـ قد غلب على طليطلة ، واستولى على اعمالها ، وحازها لنفسه ، وكثر السروع
على الاندلس واشتد الخوف وتطرف المعتمد على الله ابن عباد ، ولما ملك ادفنش
اعمال طليطلة وطمع فى الاستيلاء على الجزيرة كلها ، وهابت الملوك أمره لكون
طليطلة نقطة دائرتها خاطب المعتمد على الله أبا القاسم ابن عباد يطلب منه
تسليم اعماله الى رسله وعماله ، وتشطط عليه فى الطلب وأظهر له السرور بالطلب . . .)
(٥) والواقع أن خطاب الفونسو للمعتمد يفيض تبجحا وتهكما وتقريعا ،
فلما وصل كتابه الى المعتمد بعث له بخطاب شديد اللهجة ويعلن له بأن ما حصل
(٦)

(١) : المقرى : المصدر السابق ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ - ٢٧٠ .

(٣) : مجهول : ص ٢٨ - ٣٠ .

(٤) : مجهول : ص ٢٤ - ٢٦ .

(٥) : خطاب الفونسو للمعتمد ، ورد المعتمد عليه كان مثار شك لدى بعض المؤرخين
الأوربيين . ومصدر الشك نشأ من أن الخطابات المتبادلة بين الفونسو والمعتمد -
وبين الفونسو ويوسف بن تاشفين كما سنرى بعد - لم ترد فى المصادر العربية
سوى فى كتاب الحلل الموشية المذكور سابقا . ومن هنا كان مصدر الشك ،
غير أن أنجوس ماكساي ومحمد بن عبود كتبا مقالا فى مجلة :

BHS, LVI (1979)

حاولا فيه اثبات صحة الخطابين المتبادلين بين الفونسو والسلاطين والمعتمد ابن عباد .

أنظر : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD ; op. cit. , P. 96 .

(٦) : عن نص الخطابين المتبادلين بين الفونسو والمعتمد ، انظر بعد الملاحق ،

من تخاذل عن الجهاد واستكثرت الي اللهو والمجون هو ما أتاح له تحقيق أغراضه ، ويبدى في نفس الوقت استعداده هو وزملاؤه من ملوك الطوائف للقاء والفداء والجهاد .

(١) أما رواية عبد المنعم الحميري فهي تروى ما حدث بشكل مفاير دون أن تعرف بالضبط متى حدث الفتور بين الملكين المسلم والنصراني . ولكن ما يلوح في رواية الحميري يشير الى أن الاحداث تلك وقعت بعد سقوط طليطلة . المهم أن سبب فتور العلاقة بين الرجلين عند الحميري تعود الى أن الفونسو طلب من المعتمد أن يسمح لأمرته القبيطية (الكوتيسة) بأن تدخل جامع قرطبة ، وتلد في الجانب الغربي منه . وكان فيما سبق موضع الكيسة قبل تحويله الى جامع في عهد الامويين . كما سأل أن تنزل زوجته في مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لطيب هوائها . فجاء الرسول الى المعتمد وأبلغه تلك الرسالة . فوضح له المعتمد استحالة ذلك ، فما كان من اليهودي أى السفير من قبل الفونسو ، الا أن شرع يتبجح في حديثه مع المعتمد ويهدد ويتوعده ، فاستشاط المعتمد غضبا وتناول محبره كانت في يده ، فرمى بها رأسه ، ثم أمر به فصلب .

وحاول المعتمد أن يأخذ فتوى العلماء فيما فعله ، فأجابه بعضهم بأن ما فعله لا غبار عليه ، لأن الرسول تجاوز حدود مهمته فجاز قتله . وبلغ هذا الخبر الفونسو فأغضبه ، وأقسم أن يفتزو المعتمد في اشبيلية ويحصره فيها . وحشد على وجه السرعة جيشين سير أولهما الى مدينة باجة في غربي الاندلس ، وطلب منه أن يتقابل واياهم عند قرية طريانة ، وحشد جيشا آخر تولى قيادته بنفسه ، واتجه به في مسار آخر بمحاذاة النهر الأعظم أى الوادى الكبير الذى تقع عليه اشبيلية (٢) .

أما ابن الاثير فيروى رواية أخرى عن فتور العلاقات بين المعتمد والفونسو مفادها أن الفونسو بعد أن استولى على طليطلة ، بعث اليه المعتمد الضريبة المعتادة ، فلم يقبلها منه ، وأرسل يهدده ويتوعده بالمسير الى قرطبة ليفتحها ، أو يسلم اليه جميع الحصون المنيعه ، ويبقى

(١) : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، ص ٨٣-٨٤ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ٨٤-٨٦ .

له وللمسلمين السهل • وكان الرسول في نحو خمسمائة فارس • كما يروى ابن الاثير أن المعتمد قد باذر الى قتل اولئك الرسل ، ولم ينجح الا عددا قليلا جدا منهم • فذهبوا الى القونسو وأخبروه ذلك ، فطار صوابه • وكان القونسو يعثرم محاصرة قرطبة ، فعدل عنها الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ^(١) •

تلك خلاصة للروايات التي تناقلتها كتب التاريخ في شرح الاسباب المباشرة لتدهور العلاقات بين المعتمد والقونسو • ومهما يكن من أمر ، ومهما تعددت تلك الآراء التي دفعت بالعلاقات بين الحليفين السابقين نحو الطريق المسدود ، فاننا نعتبرها أسبابا هامشية ثانوية ليست هي السبب الاساسى الجوهرى الذى أدى الى هذا التأزم فى العلاقات • أما الشيء الواضح والأكيد الذى جعل العلاقات تسوء بين الرجلين ، فانه بلا شك الخطر الذى استشعره ملوك الطوائف بعد سقوط طليطلة ، وعندما (تيقن كل من ثار ورأس ولاسيما رؤساء غرب الاندلس كابن عباد وابن الافطس مذهب الفنس فيهم ، وأنه لا يفتح منهم بجزية ولا هدية ، رأوا الرجوع الى الحق أحق ^(٢)) وشمر المعتمد وغيره من ملوك الطوائف لأول مرة بأن موسى التى حلقت - ان جاز هذا التعبير - لغيره ستطاله هو نفسه لامحالة ، وأحسوا جميعا بخطورة الحالة السيئة التى بلفتها الاندلس آنذاك وأحسوا أكثر بأنهم قد أسهموا بسياستهم تلك بترك الجبل على الغارب لالقونسو ليحقق ما يشاء ويريد • وياتوا ينظرون بأسى بالغ بأن ميزان القوى بدأ يميل بشكل واضح الى جانب النصرارى ^(٣) • وربما شمروا أيضا بأن بقاء الممالك الاسلامية فى الاندلس أمر مشكوك فيه لاسيما وأن القونسو يشدد ضغطه على تلك الممالك كلها • وكانت مملكتنا أرغونة ونبرة فى الوقت نفسه تشددان ضغطهما أيضا على مملكة سرقسطة • وكذلك كانت تفعل امارة برشلونة ^(٤) • وأفاق

(١) : الكامل ج ١٠ ص ١٥٠ - ١٥١ •

(٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٨٩ •

(٣) : انظر : ANGUS MACKAY and MUHAMMAD BENABOUD :
Op. Cit. , p. 96

(٤) : انظر : J. B. BURGY : Op. Cit. , p. 398

ملوك الطوائف من سباتهم ، واستشعر المعتمد الخطر باعتباره أقوى ملوك الطوائف ، واعتبار مملكته أوسع ممالك الطوائف مساحة وشرافاً . وجاءت ^{حادثة} الرسول اليهودى لتضيف الى تلك الاسباب سبباً آخرها مباشراً يمس هذه المرة كرامته وعزته الشخصية . وجعلت كل هذه الامور المعتمد ينسف كل خطوط التلاقى مع الفونسو ، ويصل بالعلاقات بينهما نحو الطريق المسدود كما ذكرنا . وجاءت بعد ذلك الخطابات المتبادلة بينهما لتقضى على كل بارقة أمل فى تحسن العلاقات .

ونظر المعتمد حوله ، فوجد أنه أمام خطر نصرانى مائل وضابط ، وبين جبهة أندلسية مفككة ، وموقف عسكري ضعيف لا يسمح بخوض معركة مع النصارى . وسأتت مجالات الاختيار أمامه ضيقة محصورة فى اختيارين أو ثلاثة أحلامها مر . ومع هذا فقد صمم على أن يختار أهون الاختيارين وقعا رغم خطورته ، وهو الاستعانة بالمرابطين . وهو ما سنتناوله بالحديث على التو ان شاء الله .

الاستعانة بالمرابطين :-

لسنا معنيون هنا مباشرة ببسط الحديث عن المرابطين ، وتفصيل نشاطهم وحياتهم ، وركائز دعوتهم . فما يهمنا الاشارة اليه كمدخل الى معرفة الجماعة التى أخرجت بقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس الى ما يزيد عن قرنين من الزمن هو معرفة الخطوط الرئيسية لهذه الدعوة وأصحابها معا . فالمرابطون جماعات من البربر ينتمون الى عدة قبائل منها : لمتونة ، وجدالة ، ولمطة وغيرها . وتنتمى هذه القبائل بدورها الى قبيلة صنهاجة القبيلة الأم التى ينتسب لها البربر البرانسنة فى المغرب والاندلس . وقد تبنى هؤلاء دعوة سلفية تهدف الى نبذ الخرافات والشعوذات التى كانت قد سادت آنذاك فى المغرب . كما تهدف الى الزهد والتقشف والعودة بالاسلام الى ما كانت عليه فى زمن الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين من بعده نقياً صافياً . وقاد هذه الدعوة السلفية وعمل على نشرها بين البربر الأمير يحيى ابن ابراهيم أمير قبيلة جدالة التى هى صنو لمتونة شرقاً ومحتدا . وكان هذا

الأمير قد أهّمه ما آل إليه أمر البربر قومه وقتها من انتشار الجهل والشعوذة والخرافات في صفوفهم . وعندما ذهب إلى المشرق ليحج التقى في طريق عودته في القيروان بتونس بأحد العلماء البارزين فيها ، وأوضح له حالة قومه تلك فكان أن أشار عليه بمراجعة عالم في المغرب الأوسط ليُدلّه على رجل صالح يذهب معه لتفقيه قومه ، ونشر الدعوة السلفية بينهم . وبالفعل فقد دلّوه على رجل يدعى عبدالله بن ياسين ، أبدى استعداده للذهاب إلى مضارب الجدالين واللمتونيين والتي كانت تقوم فيما يعرف اليوم باسم (موريتانيا) . ومن هناك بدأ الشيخ عبدالله بن ياسين يبث دعوته ، وقد أثرت فيهم تلك الدعوة فتبنوها . وقد كانوا يعرفون أيضا باللمثمين ، لأن رجالهم كانوا يتلثمون ، في حين كانت النساء سافرات الوجه . وفي هذا أقوال كثيرة لا مجال لها في بحثنا . وقد سمي عبدالله بن ياسين أتباعه بالمرابطين ^(١) لكونهم قد وافقوه على المرابطة معه في الرباط الذي أقامه للتعبّد وللتدرب على حياة الجهاد .

وهناك تقاطرت أعداد كبيرة من أوئلك الرجال على الرباط الذي رابط فيه عبدالله بن ياسين وأتباعه ، وازداد عددهم يوما بعد يوم . ثم اذن لهم عبدالله بن ياسين بنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله بين قبائل البربر الملمثمين الآخرين الذين كانت قد تفشت فيهم الوثنية . وخاض ابن ياسين هو والامير يحيى بن ابراهيم الجدالي حروب الدعوة . وشغلت هذه الاحداث الفترة من بداية القرن الخامس الهجري حتى الثلث الأخير منه . وبعد يحيى بن ابراهيم تعاقب على امارة المرابطين ابوبكر ابن ابراهيم أمير قبيلة لمتونة ، وخلفه بعد ذلك عدد آخر من أمراء المرابطين . وكان آخرهم الامير يوسف بن تاشفين اللمتوني الذي تنازل له ابن عمه الامير ابوبكر بن يحيى اللمتوني عن امارة المرابطين وملك المغرب ،

(١) : احمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، منشورات وزارة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة ، مجلة للإبحاث المغربية والاندلسية ، العدد الخامس ، سنة ١٩٥٦ م ، ص ١٤٦ - ١٥١ .

وتوجه للصحراء بحيث تفرغ للعبادة ، ولم يكف يطل العقد السابع من القرن الخامس الهجرى / العقد الثامن من القرن الحادى عشر الميلادى حتى كان يوسف بن تاشفين قد بسط نفوذه على معظم أجزاء المغربين الأوسط والاقصى ، وأصبح سيد بلاد المغرب الفعلى (١) .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

من الثابت والأكيد أن التفكير بالاستعانة بالمرابطين

والاستصراخ بهم تم على مستويين اثنين : مستوى شعبى ، ومستوى رسمى . ومن الثابت أيضا أن المبادرة الشعبية قد سبقت المبادرة الرسمية ، كما أن بعض هذه المبادرات الشعبية قد سبقت سقوط طليطلة . فصاحب الحل الموشية يذكر أنه فى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وفدت على يوسف بن تاشفين وفود أندلسية فشكوا اليه ما حل ببلادهم من ضرر النصارى ، فوعدهم خيرا ، وصرفهم الى اوطانهم ، ثم بعث الى الاندلس رسالا لشراء آلات

(١) : عن دعوة المرابطين وقيلام دولتهم أنظر المصادر والمراجع التالية :
- صالح ابن عبد الحليم : الانيس المطرب بروض القوطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . - ابو عبيد البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، المستخرج من كتابه المسالك والممالك نشر البارون (دى سلان) . - ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، نشر ليفى بروفنسال ، تحقيق ومراجعة احسان عباس . - مجهول : الحل الموشية . - ابن خلدون : العبر . - المقرئ : المصدر السابق ، . - السلاوى الناصرى : الاستقصا فى اخبار دول المغرب الاقصى . وهناك بعض المصادر الاخرى وعلى رأسها مصدر مهم للغاية فى التاريخ لمصر المرابطين ودولتهم وعنوانه : الانوار الجليلية (الجليلة) فى محاسن الدولة المرابطية لابي بكر بن الصيرفى ، وقد نشر عليه ليفى بروفنسال أخيرا الا أنه من حسن الحظ أن نقل ابن عذارى فى كتابه المذكور سابقا مادة مهمة من هذا الكتاب . وهناك المصادر المشرقية كالكامل لابن الاثير ، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرها .

أما المراجع العربية والغربية فأهمها :

- حسن محمود : قيام دولة المرابطين . - محمد عبدالله غان : دولة الاسلام فى الاندلس المرابطين والموحدين . - عبد الحيق حموش : ابن تاشفين . - يوسف أشباخ : تاريخ المرابطين والموحدين . - وقد نشر حسين مؤنس ومحمود مكى فى مجلة معهد الدراسات المصرية بمدرية وثائق تلقى الضوء على فترة مهمة من تاريخ المرابطين . فنشر حسين مؤنس

الحرب والعدد والسلاح . وحتى بعد سقوط طليطلة توافدت على يوسف أعداد كبيرة من أهل الأندلس لما بلغهم عنه ما كان عليه من القوة والنفوذ ومن حب للجهاد ، فأخبروه بما حدث من تكالب العدو ، كما أخبروه عن الأحداث الجسيمة المتمثلة بسقوط طليطلة (١) .

ويسروى لنا الحميري (٢) أن فقهاء الأندلس كانوا يذهبون إلى بلاط يوسف بن تاشفين ويسروون أمامه وأمام رفاقه المرابطين ما يدور من فواجع وأحداث دامية تجرى في بلادهم . ويوسف بن تاشفين نفسه يشير إلى أنه قد جاز إلى الأندلس بناءً على الحاح الأهالي الذين بعثوا إليه مستصرخين الكرة بعد الكرة ، بل إنه لم يشر صراحة إلى مراسلة ملوك الطوائف له مع ما يفهم من هذا ضمناً (٣) . وهكذا فإن مسألة التفكير في الاستعانة بالمرابطين كانت أملاً وحلماً راود الكثير من أهل الأندلس فقهاء وشعراء ومفكرين سعوا عند يوسف بن تاشفين إلى تحقيقه ، وتحملوا من أجل ذلك مشاق الجواز ، وهم يعلمون أن المرابطين هم القوة الوحيدة القادرة على رد هجمات النصارى ، بل وعلى الأهم من هذا هو عرقلة السقوط الإسلامي الوشيك في الأندلس ، بل وإيقافه . كما لمس أولئك المفكرون أن ملوك الطوائف أبعد وأضعف من أن يتداركوا ذلك الخطر الماحق لما كانوا عليه من الاختلاف والفرقة والتناحر والتباغض .

أما مسألة الاستصراخ الرسمي فلا شك أن الفضل يعود فيه إلى المعتمد ابن عباد . وفي الواقع أن قضية استئذان المرابطين

-
- في العدد ١ - ٢ ، المجلد الثاني ، سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م بحثاً بعنوان : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس . وكان قد نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١١ ، جزء ٢ ، ١٩٤٩م أربع قطع تتعلق بتاريخ الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين . أما محمود مكي فنشر في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلدان السابع والثامن ١٩٥٩م - ١٩٦٠م بحثاً بعنوان : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين . وغير ذلك من المراجع الأخرى .
- (١) : مجهول : ص ٢٢ - ٢٥ .
(٢) : المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٣) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف " نص رسالة يوسف بن تاشفين إلى المعز ابن باديس صاحب إفريقية " ، ص ٤٤٦ - ٤٤٨ .

احتلت مساحات واسعة من كتب المؤرخين القدامى ومع ذلك لم تستطع أن تشفى غلة ، كما لم تستطع تلك الروايات الكثر أن تقرر حقيقة تاريخية متفق عليها لا لبس فيها ولا غموض . ذلك لأننا لم نجد في تلك الروايات رغم الحشد الهائل من التفاصيل ما يزيل الغموض عن طريق الباحث الثبت . على أننا نستطيع أن نقرر ونؤكد شيئاً واحداً هو : أن المعتمد ابن عباد هو الوحيد من ملوك الطوائف الذي أتاح بدعوته الرسمية للمرابطين أن ينقذوا الاندلس من خطر سقوط محقق .

وقبل أن نورد تلك الأقوال التي أشارت إلى دعوة المعتمد للمرابطين وجهوده فيها ، يحسن بنا أن نقلى الضوء على موضوع هو من الأهمية بمكان . وهو هل كان المرابطون يهدفون إلى مواصلة جهادهم في الاندلس بعد أن استتب لهم الأمور في المغرب ؟؟ . وهل لو لم يدعمهم أهل الاندلس إلى انقاذهم من الخطر النصراني لكانوا أقدموا هم أنفسهم على ذلك ؟؟ .

بادئ ذي بدء نجد رواية لابن خلكان ^(١) - ان صحت - تؤيد ذلك الرأي الذي يقول بأن المرابطيين كانوا يتمنون العبور إلى الاندلس ومواصلة الجهاد هناك ، بل انهم عقدوا العزم على ذلك . وابن الأبار ^(٢) يشير بما يفهم منه أن يوسف بن تاشفين صمم على الجواز إلى الاندلس ، والجهاد في سبيل الله رغبة واحتساباً ، بل وافتح مدينة سبتة عنوة وقتل أميرها في سبيل ذلك . وعندما علم ملوك الاندلس بذلك رأوا أن يتخذوا بادرة سريعة لتدارك ذلك . ونحن في الحقيقة لانستبعد أن المرابطيين كانت تحذوهم رغبة عارمة في مواصلة الجهاد . ونتفق في هذا مع القائلين بهذا الرأي ^(٣) ، فالواقع أنه ما كاد العقد السابع من القرن الخامس الهجري يطل حتى كان يوسف بن تاشفين قد استطاع أن

-
- (١) : وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٨ مجلدات ، المجلد ٧ ، ص ١١٢-١١٤ .
(٢) : الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ١٠٠ .
(٣) : انظر : حسن محمود : قيام دولة المرابطيين ، ص ٢٦٣-٢٦٥ ،
وص ٢٦٧ - ٢٦٨ . - أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ،
ص ٣٢٩ - ٣٣٠ . - عبدالحق حموش : ابن تاشفين ، ص ٦٢ - ٦٣ .

يبسط دعوة المرابطيين على معظم ارجاء المغربيين الاوسط والاقصى • فمن الطبيعي ان يفكر المرابطون بمواصلة جهودهم نحو الاندلس التي تعاني في ذلك الوقت بالذات من الانقسامات وهجمات النصارى الكثير • هذا من جهة ومن جهة أخرى فان التماثل التاريخي والجغرافي بين العدوتين الاندلسية والمغربية يفرض على المغرب ومنطق الاحداث التاريخية والجغرافية ذاته أن يمارس دوره في انقاذ الاندلس وانتشالها من هوة السقوط في براثن النصارى • ومن المؤسف ان نرى هذا الامر مثار شك وسوء ظن من قبل بعض المؤرخين الاوربيين مثل :
الذى يفسر مجيء يوسف بن تاشفين الى المغرب على انه غزو سعى الى تحقيقه على وجه السرعة دونما انتظار الاذن من ملوك الطوائف ، وماكراه منه • وهو قول مفروض فسر به المؤلف مبدأ النجدة الاخوية الاسلامية بتفسير مادي دنيوى • ومهما يكن فاننا نتفق مع القائمين بانه لو لم يبادر الاندلسيين خاصة على المستوى الرسمى الذى ذكرناه الى طلب الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، لكان المرابطون هم الساقون الى التدخل الاسلامى المشروع لتدارك البلاد الاندلسية من الخطر النصرانى المذكور ، سيما وأن صرخات الفقهاء والمفكرين كانت قد توالى على يوسف بن تاشفين تستحثه على عون الاندلس ونصرتها •

أشرنا الى أن الفضل فى مسألة الطلب الرسمى للمرابطيين بانقاذ اخوتهم المسلمين يعود للمعتمد ولا شك ، وحتى هذا الطلب الرسمى من المعتمد لاقى من التناقض فى الروايات حدا بعيدا • فصاحب كتاب الانيس المطرب برووض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس^(٣) وتابعه فى ذلك صاحب كتاب

(١) : انظر :

(٢) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ •

(٣) : صالح بن عبد الحليم : ص ٩٩ - ١٠٠ •

وصالح بن عبد الحليم : هو مؤلف كتاب : الانيس المطرب برووض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المعروف اختصارا بكتاب روض القرطاس او القرطاس فقط بعد أن ظهر مؤلفا لمؤلف يدعى العلمى اسمه الانيس المطرب • فاستطاع هذا الجزء من كتاب ابن عبد الحليم ، واصبح يطلق عليه القرطاس فقط • وأشارتنا الى أن صالح بن عبد الحليم هو مؤلف كتاب القرطاس ، تضع حدا للملابسات التى وقع فيها كثير من المؤرخين القدامى ، وكذلك كثير من المستشرقين والمؤرخين المحدثين فى تحذير مؤلف هذا الكتاب • من الشائع أن الكثيرين ينسبون هذا الكتاب لابن ابي زرع ، وهو ابو العباس احمد ابن ابي زرع أحد علماء وفقهاء فاس فى القرن الثامن الهجرى ، ومصدر الخلط هذا الذى وقع هنا بسبب

الاستقصا للسلوى الناصري^(١) يرويان انه في عام ١٠٨٢/٥٤٧٥م ورد كتاب من المعتمد الى يوسف يخبره بحال المسلمين وما آل اليه أمرهم ، فرد عليه يوسف بأنه سيعمد الى مساعدة الاندلسيين اذا استطاع أن يفتح مدينة سبتة ، ولكن يبدو أن هناك خلطا عند هذين المؤرخين السابقين^(٢) في تاريخ هذه المراسلة بين المعتمد ويوسف ، فهما قد انفردا أولا بهذه الرواية دون غيرهما من المؤرخين ، وثانيا كان المعتمد في تلك الفترة مشغولا بقضية تمرد ابن عمار وخروجه عليه كما ذكرنا سابقا . اضيف الى ذلك ان الحس القومى والاحساس بالمسؤولية لم يثيقتا في نفس المعتمد بعد . ومن جهة ثالثة فاننا نعترف بأن تحريك ملوك الطوائف لم يحدث الا بعد سقوط طليطلة .

وسبق أن ذكرنا أن العلاقة قد ساءت بين المعتمد والفونسو بعد سقوط طليطلة ، وبعد حادثة السفير اليهودى ، وان الفونسو حشد جيشين وجه احدهما نحو مدينة باجة ، ووجه الآخر نحو مدينة اشبيلية ، فحضر عليهما الحصار وهناك عن المعتمد أن يلجأ الى وسيلة يرفع بها الخطر النصراني المالحق .

لا يمكن أن نصدق بأن فكرة الاستعانة بالمرابطين هي فكرة طارئة لمعت فجأة في خيال المعتمد وسرعان ما حققها ؟ فبنو عباد أنفسهم كانوا يشعرون بقوة المرابطين وأهميتها ، حتى ان المعتضد بالله والد المعتمد ، كان يروى عيونه في المغرب ليعرف المدى الذى بلغوه في توسيع رقعة دولتهم في المغرب ، وعندهما علم

وجود شخصيتين ألفا كتابا في تاريخ المغرب أطلقا عليه اسما واحدا

هو الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس .

كما أن منشأ الخلط وقع بحكم كون هذين المؤلفين عاشا في عصر واحد . غير أن محمد الفاسى الاديب والمؤرخ المغربى المعروف اثبت بما لا يدع مجالا الى الشك أن كتاب الانيس المطرب ، أو القرطاس المطبوع والمنشور هو من تأليف ابي على صالح ابن ابي صالح عبد الحليم الذى توفى سنة ٧٢٦هـ . أما كتاب ابن ابي زرع فهو في حكم الضائع .

أنظر : مقال بعنوان : المؤرخان ابن ابي زرع ، وابن عبد الحليم ، مجلة تطوان ، معهد مولاى الحسن للأبحاث المغربية الاندلسية ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .

(١) : ص ٣١ - ٣٢ .
(٢) : من الواضح ان السلوى ينقل في كتابه الاستقصا كثيرا عن صاحب الانيس المطرب . وقد لقي مؤلف القرطاس انتقادا كثيرا من المؤرخين والمستشرقين حديثا للخلط الذى يقع فيه دائما .

أنظر : مقال بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، مجلة تطوان ، نشر معهد مولاى الحسن ، العدد ٥ ، سنة ١٩٦٥ م ، ص ١٣٩ - ١٥٨ مع الحواشى .

بسيطرتهم على معظم المغرب ، وأمر عماله أن يحصنوا مد ينتى جبل طارق والجزيرة الخضراء اللتين كانتا تابعتين له ، كما أن المعتمد شمر بن المرابطيين هم القوة الوحيدة القادرة والمهيئة للوقوف أمام خطر النصارى وتدارك الاندلس قبل فسوات الاوان ، كما أنه لا بد أن يكون على اطلاع بالسفارات الشعبية التي كان بعض أهل الاندلس يقومون بها عند يوسف بن تاشفين لا قناه بالتدخل في الاندلس . ولذا فان المعتمد عندما بعث له الفونسو وهو يحاصره في أراضى اشبيلية خطابا يتهمكم فيه ويذكر بموقفه ويقول له (كثر بطول مقامي في مجلس الذبان ، واشتد علي الحرة فالقنى من قصرك بمروحة اروح بها عن نفسى واطرد بها الذباب غنى) . نقول ان المعتمد عندما ورد له هذا الخطاب فكر ان يطبق فكرته الجريئة وهى الاستعانة بالمرابطيين ، فرد على الفونسو بخطاب قوى حازم يقول فيه (قرأت كتابك وفهمت خيالك واعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللطيفة في ايدى الجيوش المرابطية ، تروح منك لا تروح عليك من الله) وقد ذاع عزم المعتمد هذا في ارجاء الاندلس لما له من الالهية والخطورة ، ولقى بطبيعة الحال الكثير من التأييد والمعارضة .

ولعل أول المؤيد بين هم العامة في الاندلس بطبيعة الحال ، إذ ان هذا

العمل - ان كتب له ان يحدث - فسيخفف حتما عن كاهلهم ثقل الحصار والخراب والفساد الذى يحل باراضيهم . وفى نفس الوقت سيريحهم من الضرائب الباهظة التى يدفعونها لملوك الطوائف ليدفعوها بدورهم الى الفونسو . ونستطيع أن نتفهم هذا الشعور عندما نطلع على المحاوراة التى دارت بين المعتمد وابنه وولى عهده الرشيد الذى اعترض على مسألة الاستعانة بالمرابطيين كما سنرى بعد قليل .

وأما الجانب الآخر من المؤيدين لهذا العزم فهم القضاة والمفكرون الذين

كانو يتحرثون شوقا الى عمل اى شىء فى سبيل تجميع القوى الاسلامية ضد النصارى بعد ان استشرى خطرهم . ولذلك فما ان ذاع خبر تلك المراسلات بين المعتمد والفونسو ، وعلم الناس بان المعتمد سيطلب نجدة المرابطيين ، حتى عقد الفقهاء فى مدينة قرطبة مؤتمرا عرضت فيه الحالة السيئة التى كانت عليها الاندلس آنذاك حتى لقد تحشى أن تعود البلاد نصرانية كما كانت . ولقد اشار بعض الحاضرين من الفقهاء بالاستعانة

(١) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) : الحميرى نفس المصدر السابق ، والصفحات

(٤) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٠ - ٣١ .

(١) من

بمصر افرريقية وهم مجموع القبائل العربية التي رحلت الى افرريقية وطاشت فيها .
للاستعانة بهم ضد النصارى ، غير ان قاضي قرطبة عبد الله بن محمد بن ادهم ،
أبدى تخوفه من قدوم هؤلاء ، وخشى ان يفعلوا بالاندلس مثلما فعلوا بافرريقية ، ولكنه اقترح
الاستعانة بالمرابطين . وقد اطلع المعتمد على ما دار فى هذا المؤتمر ، وأقر ما
توصلوا له من نتائج ، بل وطلب من ابن ادهم ان يكون سفيره الى يوسف بن تاشفين
وبالفعل ذهب الى المغرب وأخبره بذلك .^(٢)

على اننا لا نعتقد بأن المعتمد اتخذ قراره هذا بسهولة ، فقد كان
يقيس حساباته بدقة بالغة وكان يرى ان مجال الاختيارات امامه ضيقة . فما
من سبيل امامه الا خيار واحد او خيارين . ولذا فقد اختار اهون الاختيارين وقعا
كما ذكرنا . ولقد لقي تفكيره هذا من يؤيده ، كما لقي من يعارضه . واذا كنا قد
عرفنا ردود الفعل المؤيدة ، فان ردود الفعل المعارضة تحتاج منا الى وقفة مهمة .
فالمعتمد لقي معارضة قوية من ملوك الطوائف ومن مستشاريه ورجال دولته ايضا ، اذ
جاءته كتب ملوك الطوائف تحذر من خطوته تلك ، وتلفت نظره الى عاقبة ذلك . غير
ان المعتمد رأى ان خطر المرابطين - ان وجد - سيكون ولا شك اقل ضررا من خطر

(١) : كتب حسين مؤنس فى تحقيقه لكتاب ابن الابار : الحلة السيرة حاشية
مهمة بخصوص عرب افرريقية هؤلاء رأينا من الفائدة ان نعتمد عليها هنا .
فالمقصود بعرب افرريقية : العرب الهلالية وهم قبائل (الاشج ، ورياح ،
وزغبة ، وعدي) . وكانت هذه القبائل تقطن فى صحيد مصر على الضفة
الشرقية من نهر النيل . وكان يلى افرريقية (تونس الحالية) من قبيل
الدولة الفاطمية فى مصر وقتذاك البربر السنهاجيين المعروفين ببني زيرى .
وعندما انقلب هؤلاء على الفاطميين وعادوا للمذهب السنى وتركوا المذهب
الشيعى ، ودعوا لبني العباس فى بغداد . رأى الوزير الفاطمى الجرجرائى
او البطائحي على الارجح ان يبعث بهذه القبائل العربية الى افرريقية ،
فوصلوا الى برقة وخربوها ثم خربوا بعد ذلك معظم ما طافوه فى طريقهم .
ثم اتصلوا بالامير المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افرريقية الذى صانعهم
واستعان بهم على ابناء عمه بنى حماد اصحاب قلعة بنى حماد فى الجزائر
الآن . كما استعان بهم على اعدائه من قبيلة زنماتة المؤيدة للامويين .
فطلب المعز بن باديس من زعيم الهلاليين قدوم تلك القبائل من برقة ، وعندما
جاء أولئك الى افرريقية خربوا مدينة القيروان ، وانقلبوا عليه ، فاضطر الى اللجوء
الى مدينة المهديّة والاعتماد بها . وقد وقعت هذه الاحداث فى النصف الاول
من القرن الخامس الهجرى .

انظر : ابن الابار ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ص ٢١
(٢) : ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .
(٣) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٦٥ - ٨٢ .

النصارى • وكان يدرك بان ملكه وملك ملوك الطوائف معه سيصبح سواء أكان ذلك على يد المرابطين أم على يد النصارى • ولذا فقد جاء جوابه لملوك الطوائف وغيرهم من المعارضين على ما يدل على شعوره ذلك • وفى نفس الوقت يدل جوابه هذا على نظرة موضوعية واقعية للأمر • ويوضح هذا الجواب بما لا يدع مجالاً الى الشك على الضرورة الحتمية للاستعانة بالمرابطين فى ذلك الوقت بالذات • مهما تكن نتائج ذلك العمل (١) ولم يصغ الى نصائح بعض المستشارين الذين أشاروا عليه بمدارة الفونسو ، وعقد السلم معه ، واعطائه ما يريد ، بدلا من الاستعانة بالمرابطين (٢) • وعندما طرضه ابنه وولسى عهده الرشيد أجابه بانه يدرك تماما مخاطر الاستعانة بالمرابطين • ولكنه تجاه تلك الاوضاع الخارجية السيئة ، وتجاه النقمة الشعبية العارمة على سياسة ملوك الطوائف طمة ، رأى ان لا مناص من طلب معونة المرابطين •

ولسنا فى حاجة الى التذكير بان الدافع الاساسى لهذا الاستصراخ هو

الخوف من درس سقوط مدينة طليطلة ، ولا نستبعد ايضا ان وخزات الضمير ، وتحرك الاحساس بالندم لديه عندما اتسع المجال للفونسو ليصل الى ما وصل اليه قد اذكى فى نفسه ذلك الشعور القومى ، وسما به وقتها - على الاقل - الى ان يضحى اذا كان لا مناص من ذلك بملكه وامجاده مقابل ان يسعى لبقاء الاسلام والوجود الاسلامى فى الاندلس • ولقد اجاب ابنه الرشيد بتلك الاقوال الخالدة: والله لا يسمع عنى انى قد

اعدت الاندلس دار كفر ، ولا يمكن لى ان اتركها للنصارى فتقوم على اللعنة فى المنابر الاسلامية : حيز الجمال والله عندى خير من حيز الخنازير (٣) أو رعى الجمال خير من رعى الخنازير •

(١) : اجاب المعتمد كل معارضيه بقوله : (يا قوم أنا من أمرى على حالتين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا بد لى من احدهما ، أما حالة الشك فانى ان استندت الى ابن تاشفين او الى ابن فرزند فى الممكن أن يقيا لى وبيقيا على • ويمكن الا يفعل ، فهذه حالة الشك • وأما حالة اليقين • فهى انى ان استندت الى ابن تاشفين فأنا ارضى الله ، وان استندت الى ابن فرزند أسخطت الله ، فاذا كانت حالة الشك فيها طرضة فلاى شىء أذع ما يرضى الله وأتى ما يسخطه ، وحينئذ اقصر اصحابه عن لومه •)

(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣١ •

(٣) : مجهول : نفس المصدر ، ص ٣١ - ٣٢ •

(أى ان كونه مأكولا لابن تاشفين أسيرا • يرمى جماله فى الصحراء خيرا من كونه ممزقا لابن فردند أسيرا يرمى خنازيره فى قشتالة) (١) •

وهكذا ومعيدا عن التفاصيل الواسعة والجزئيات الدقيقة ، نستطيع أن نقول ان مسألة استدعاء المرابطين أصبحت محورا أساسيا لسياسة المعتمد الخارجية وقتذاك • فقد بحث من فوره بخطابات من انشائه هو نفسه ، ومن انشاء بعض كتابه أيضا الى يوسف يستحثه ويستصرخه • (٢)

ورغم اننا قد أفدنا حقا من رواية صاحب الحلل الموشية فى شرح أحداث تلك الفترة ، والخطابات المتداولة بين الفونسو والمعتمد كوسين الفونسو ويوسف بن تاشفين • إلا انه لم يتطرق الى كثير من الأحداث الأخرى المهمة • وكان لابن عبد المنعم الحميرى فضل كبير فيها ، فقد أشار الى ان المعتمد عندما عزم على رأيه وصمم على تنفيذ خاتبة كلا من عمر المتوكل ملك بطليوس ، وعبد الله بن بلقين بن زيورى ملك غرناطة ، فأثفق رأيهم جميعا على ان يبحثوا قضاة مدنيهم اليه • وقد ضم اليهم القاضى ابن أدهم قاضى قرطبة ، والوزير أبو بكر بن زيدون وزير المعتمد • وتوجهت هذه الهيئة مفوضا من ملوكها لمقابلة يوسف بن تاشفين ومواجهته على شروط لا يتعدونها كما يقول ابن زيورى نفسه ، وكذلك ابن الأبار • وقد حدد ابن زيورى تلك الشروط بقوله (وقد كان رسلنا مضوا مع رسل المعتمد الى أمير المسلمين ، على اتفاق ضم بعضنا فيه بعضنا الى حقيقة وعاقدنا امير المسلمين على ان تتصل الايدي على غزو الروم بمعونته ، والا يعرض لاحدنا فى بلده ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه) •

قضية الاستيلاء على الجزيرة الخضراء :-

كثر خوض المؤرخين القدامى فى هذا الموضوع ، ولم نجد للأسف فيما أوردوه فى هذا الصدد آراء مقنعة موضوعية ، إذ تركوا للخيال والتشكيك مكانا كبيرا ، مع انها قضية ليست بذى بال وهى قضية منتهية بنتومة ، قوامها ان يوسف ابن تاشفين رأى هو ومستشاروه عندما جاءتهم دعوة الاندلسيين للانقاذ والنجدة ، رأوا وهم البعيون

(١) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦ •

(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٠ - ٣٦ •

(٣) : المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٧ •

(٤) : التبيان : ص ١٠٣ • - الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ •

(٥) : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٣ •

عن تلك البلاد وطبيعتها الحربية والجغرافية ان يتبصروا أمرهم قبل ان يجتازا الى بلاد لا يعرفونها ، فكان ان أشار عليه أحد كتابه ومستشاريه الاندلسيين بطلب مدينة الجزيرة الخضراء من المعتمد بن عباد وهي الشجر البحري المطل على الضفة الاندلسية من بحر الزقاق أو المجاز ، والتابعة لابن عباد (١) ، كما رغب يوسف بن تاشفين أيضا ان يضع يده على شجر سبتة المطل على الضفة المغربية الاخرى من بحر الزقاق ، ليسهل عليه الجواز الى الاندلس .

(٢) أما مدينة سبتة فقد انعقدت حولها الآراء ، وندر وجود تناقض في الأقوال بشأنها ، فقد طلب يوسف بن تاشفين من صاحبها سقوت البرغواطي ان يسمح بالنزول عليها لأهميتها في مواصلة الفتح والجهاد . فأبى صاحبها ذلك ، فأخبر يوسف بن تاشفين ابن عباد بذلك فسير اليه أسطولا بحريا ضرب عليها الحصار ، وسير يوسف بن تاشفين في نفس الوقت جيشا برياً حاصرها وعلى هذا فلم ينثن صاحبها عن رأيه ، فأقنى الفقهاء بقتاله ، فقوتل ودخل المرابطون البلد هوة وقتلوا صاحبها (٤) . هذه الروايات لا خلاف فيها بين المؤرخين كثيرا كما قلنا .

أما مسألة الجزيرة الخضراء ، فيقال ان الوفد الذي ذهب برئاسة أبي بكر ابن زيدون وزير المعتمد اقترح على يوسف بن تاشفين أخذ مدينة جبل طارق بدلا من الجزيرة الخضراء ، غير ان يوسف بن تاشفين أصر على أخذ الجزيرة . ولما لم يكن مع الوفد صلاحية للتفاوض ، فقد طالبت المدة التي تستلزم المراسلة بين الوفد ، وبين المعتمد حول هذا الموضوع مما أعطى الفرصة للشائعات المغرضة ان تظهر وتكبر . فتظهر المعتمد بمظهر المتعاضد عن التنازل عن الجزيرة الخضراء ، أو تظهره بمظهر المراوغ الذي يبيت أمرا يعود فيه النفع له وحده . ومن هذه الروايات رواية عبد الله بن زيور ملك غرناطة الذي أشار صراحة الى ان المعتمد راوغ في اعطاء رأيه بسرقة حتى يتدبر أمره

- (١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٦ - ٣٨ .
 (٢) : من الأقوال المتناقضة بشأن افتتاح سبتة ما ورد في كتاب روض القرطاس لصالح ابن عبد الحلیم ، وكتاب الاستقصا للسلاوي الناصري الذين يجعلان المقتول في سبتة ابن سقوت البرغواطي يحيى الملقب بضيء الدولة وذلك في سنة ٤٧٧ هـ .
 أما لبوه سقوت فقد قتل في حصار طنجة الذي شهده المرابطون حولها قبل ذلك .
 انظر : الروض القرطاس ، ص ٩٩ - ١٠٠ . الاستقصا ، ص ٣١ - ٣٤ .
 (٣) : سقوت البرغواطي اصله من قبيلة برغواطة الزناتية ومنازلها على ساحل المغرب الاقصى جنوبي طنجة الى اصيلا . وقد تولى سقوت حكم طنجة وسبتة من قبل الحموديين . وقد قتل في سنة ٤٧٦ هـ على يد المرابطين عندما طرقت دعوة المرابطين .
 انظر : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ١ ، ص ٥١ .
 (٤) : ابن خلدون : المصدر السابق ، جلد ٦ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .
 (٥) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ١ ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

مع الفونسو السادس ، مما يعنى ان ابن زيوى كان يقصد بأن المعتمد كان يلعب بورقة الجزيرة الخضراء لثنى الفونسو عن رأيه فى مهاجمة مملكته ، فاننا رأينا ان الفونسو ماض فى غزوه عاد الى يوسف ابن تاشفين وأعطاه الجزيرة الخضراء .

ومن الاقوال الاخرى ان الراضى بن المعتمد حاكم الجزيرة الخضراء كان مترددا فى النزول عنها للمرابطين الذين عبروا البحر نحوها ، رغم انه قد امد هم بالموونة والميرة . فما كان من المرابطين الا ان احدقوا بالجزيرة وحشوا له من يفهمه بأنه سيجد نفسه امام الامر الواقع ، ولذا فلا ماض امامه من التسليم . فبعث الى ابيه على وجه السرعة بذلك ، فأمره باخلاء الجزيرة والتوجه نحو مدينة رندة (٢) .

والواقع انه يخيل الينا ان المعتمد لم يكن مترددا فى اخلاء الجزيرة الخضراء . واما تلك الاقوال التى تشير الى غير ذلك ، فاننا نعتقد انه لا يمكن أن يعتد بها كثيرا ، فعبد الله ابن زيوى خصم المعتمد وقريبه له الحق فى ان يروى ما يروق له . والروايات الاخرى لم تعمل على ان تظهر للمسألة وجهتها الموضوعية .

صحيح ان طلب الجزيرة الخضراء قد فاجأ العباد بين بدليل ما أورده صاحب الحلل الموشية من انتكار ابن المعتمد وولى عهده الرشيد الذى قال لابيه معترضاً :
الا تنتظر الى ما يطلبه هذا الرجل ؟؟ . ولكن المعتمد الذى بات يشعر ان نهاية ملكه محققة سواء اكانت على يد الفونسو او على يد المرابطين اجاب ابنه بقوله : ان طلب الجزيرة قليل فى حق النصر والعمون (٣) . هذا هو المعقول ، فالمعتمد الذى سلم للمرابطين ان يتحكموا فى شؤون البلاد - على الاقل فى فترة الاستنجاذ - لا يضيره ان يتخلى عن الجزيرة لهم ليجتازوا منها الى الاندلس . كما انه اعتل من ان يخلق لنفسه ازمة مع هؤلاء الذين جاءوا لمساعدته وهو المحاصر بأكثر من جيش نصرانى ، كما انه المعنى اكثر من غيره من ملوك الطوائف بعداوة الفونسو .

ومهما يكن فقد اجتازت الجيوش المرابطية بقيادة يوسف بحر الزقاق من ثغر سبتة ، واتجهت نحو الجزيرة فدخلتها واستقرت فيها ، وجاء المعتمد بنفسه وتبعته وفود ملوك الطوائف ترحب بيوسف بن تاشفين ، وتقدم له واجبات الضيافة ومراسم التكريم .

(١) : انظر : المصدر السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) : انظر : على ادهم : المرجع السابق ، ص ٢١٨ .

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٨ .

ولم يتخلف عن المسير الى الترحيب به الا من أقعدته ظروف مرضية أو كبر سن
كحاكم المرية ، أو ظروف أمنية كالمستعين ابن هود الذي كان محاصرا
وقتها من قبل الفونسو^(٢) .

وأخيرا فهناك عدة نقاط بقيت جد يوة بلغت الاهتمام اليها
وهي أولا : أن ما سقناه من احداث لجواز يوسف بن تاشفين الاول للاندلس هو خلاصة
يتراعى لنا أنها موضوعية واقعية لكل ذلك الكم من الروايات الكثيرة المتناقضة^(٣) .
والأمر الثاني ان الفونسو كان على علم بتلك الاتصالات التي كانت
تدور بين العدوتين ، بدليل أنه بحث الى يوسف بن تاشفين بخطاب مليء بالتهديد
والوعيد ، يدل على أن الفونسو السادس كان منزعا جدا لتلك الاتصالات لخطورتها

-
- (١) : عبد الله ابن زيرو : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .
 - (٢) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .
 - (٣) : للاطلاع على ذلك الحشد الكثير من التفاصيل التي يظهر فيها التناقض بوضوح
نحيل القراء الى الكتب التالية :
— عبد الله ابن زيرو : المصدر السابق ، ص ١٠١ وما بعدها .
ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٩٨ — ١٠٠ . عبد الواحد
المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٠ — ١٩٢ . ابن الأثير : المصدر
السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥١ — ١٥٣ . ابن خلكان : المصدر السابق ،
مجلد ٧ ، ص ١١٤ — ١١٦ . صالح بن عبد الحليم : روض القرداس ،
ص ٩٧ وما بعدها . الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٣ — ٩٠ .
ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٠ وما بعدها . مجهول : الحلل
الموشية ، ص ٣٢ — ٤٠ . ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ،
ص ٣٨٤ — ٣٨٤ . السلوى القاصري : المصدر السابق ، ص ٣ وما بعدها .
 - (٤) : خطاب الفونسو ليوسف بن تاشفين كان بعد توتر العلاقات بين المعتمد والفونسو ،
وبعد أن وصل الفونسو الى جزيرة طريف . ومن المحتمل أن يكون الفونسو قد
اطلع ساعته على الاتصالات التي جرت بين المعتمد ويوسف بن تاشفين ،
فبعث بخطابه المذكور في المتن الى يوسف . وقد أورد صاحب الحلل الموشية
أيضا دون غيره من المؤرخين المسلمين نص الخطابين المتبادلين بين الفونسو
ويوسف بن تاشفين . وقد توصل محمد بن عبود وأنجوس ماكاي
الى صحة الخطابين المذكورين . وذلك في المقالة التي كتبها في مجلة :
الأندلس ، وقد استند الكاتبان للدلالة على صحة

على موقفه رغم ما يبديسه من عدم اكتراث ولا ميالة (١)

والأمر الثالث وهو أنه إذا لم يكن للمعتمد ابن عباد فضل المبادرة

الأولى بالاستعانة بالمرابطين ، فإن له الفضل بلا شك في تبني تلك الرغبة الشعبية

التي تتسوق إلى نصرة المرابطين ، أولنقل أنه كان له الفضل في القيام بالمبادرة

الرسمية لذلك . لذا فنحن لسنا مضطرين إلى تبني وجهة نظر حسن محمود (٢) التي

تغمض المعتمد حقه في هذه النقطة بالذات وتتكسر عليه سابقته ، والتي تصور

أيضا دعوته ليوسف وكأنه قد اضطر إليها اضطرارا وسبق إليها سوفا عندما رأى

المرابطين يدقون أبواب الاندلس (٣) . نحن لا نتفق مع وجهة النظر هذه .

والأفأين هي المصادر الاندلسية التي تصور المرابطين كقوم يأترون بأمر أمراء

أشبيلية ويلبون نداءهم للجهاد تلبية السيد التابع ٤٤ .

نحن لاننكر الرغبة الجامحة للمرابطين للتدخل في الاندلس احتسابا

ورغبة في الجهاد التي اشرنا إليها سابقا ، إلا أن المبادرة جاءت من الاندلسيين

أولا ، وجاءت من المعتمد نفسه كضرورة ملحة نعم . وفي هذا ما نعتقد الكفاية

للاشادة بصاحب المبادرة التي أخرجها من طي الأمانى والأحلام إلى حيز الواقع والحقيقة .

== الخطابين على مؤرخ مصرى عاش في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى

وهو شهاب الدين محمد بن سليمان الحلبي (توفى عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٤ - ١٣٢٥م) .

والذى كان يشغل وظيفة ديوان رئيس الانشاء في مصر المملوكية في كتابته :

حسن التوصل إلى صناعة الترس (القاهرة ، ١٨٨٠م ، ص ٤) ومن

الجائز جدا ان يكون المؤرخ المصرى قد نقله عن معاصره صاحب الحلل الموشية

الذى عاش في القرن الثامن الهجرى أيضا .

أنظر :

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٨ - ٣١ . — أحمد مختار العبادى :

المرجع السابق ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) : انظر ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ص ٢٦٩ .

(٣) : انظر ، حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

موقعة الزلاقة

يحمد للمؤرخين القدامى في الواقع جهودهم العظيمة في تتبع أحداث معركة الزلاقة ، والاحداث التي أعقبتها والالمام بمعظم جزئياتها وتفصيلها رغم التباين والتناقض في هذه الروايات بين مؤرخ وآخر ، ولذا فان موقعة الزلاقة خلّدت لحسن الحظ بمعظم أحداثها الجسام ، وما من شك في أنه كان لأهمية المعركة السبب الاساسي لهذا الاهتمام البالغ .

وانذ ذهبنا نتقصى أحداث معركة الزلاقة ذات النتائج البالغة الاهمية والتي سنعرض لها بعدئذ نجد وسط ذلك الحشد من التفاصيل المتباينة خطوط تلاقى اساسية بينها ، كما نجد مجموعة من الحقائق متناثرة نجدها من هنا وهناك .

ولعل أول ما نستطيع استخلاصه من تلك الروايات السالفة ان جهود أمراء الاندلس للجهاد وقتها كانت صادقة وكانت عزائمهم لا تشوبها شائبة ، فقد وحده المصير المشترك القائم الذي تبينوا خطره ، صفوفهم وقلوبهم ربما لأول مرة ، وشعروا بان الوقت يعمل لخير صالحهم ، فأصدقوا الله ثم الناس النية ، وتوجهوا بكل أحاسيسهم نحو انقاذ الوطن والنفس من ذلك المصير الذي ينتظرهم . ولذا فما ان وطئت أقدام يوسف بن تاشفين أرض الاندلس حتى جاءت وفود ملوك وامراء معظم بلاد الاندلس وعلى رأسهم الممتد بن عباد ، فقابلوه بالترحاب الشديد ، وقد موا له الضيافات والهدايا كل بحسب طاقته حتى أنه (١) لم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر وأعان وخرج وأخرج (٢) . ويروي عبد الله ابن زيبري متهججا حقيقة هذا الموقف الجماعي النادر فيقول (٣) والمعجب في تلك السفارة من حسن النيات ، واخلاص الضمائر ، كأن القلوب انما جمعت على ذلك) . ويشير أيضا الى مواقف ملوك الطوائف التي كانت تتوق الى الجهاد ، وقد أعسل كل منهم جهده ، ووطن نفسه على الموت والفداء .

- وقد سارت الجيوش المرابطية تحفها قلوب الاندلسيين ومهجمهم نحو اشبيلية شمالا ، وهناك بقوا في بطحائها مدة ثلاث ايام قدم لهم المعتمد فيها من ضرور
- (١) : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٦ - ٨٨ - عبد الله بن زيبري : المصدر السابق ص ١٠٤
- (٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ . (نقلا عن الضبي صاحب بخية المتحس .)
- (٣) : عبد الله بن زيبري : نفس المصدر ، ص ١٠٤ .

الاكرام والاتحاف جدا عظيما ، جعل لسان يوسف بن تاشفين يلهج بالشكر ، كما سبب ذلك الاتحاف الزائد تصورات خاطئة لدى بعض المؤرخين ، ان استشفوا من ذلك مواقف سياسية ليوسف بن تاشفين لسنا معنيون هنا بايرادها على الاقل في هذه الفقرة (١)

والمهم في الامران الاستعدادات للقاء الفاصل قد اتخذت في اشبيلية ، فهيات أسبابها من مؤن وذخائر وعدد وكل ما يلزم للمعركة الفاصلة . وتوافدت الكتاب الاندلسية من كل صوب نحو اشبيلية ، كما توافدت من المغرب بقية المتطوعين من قبائله ، فلم تتخلف قبيلة عن المشاركة في هذه المعركة . وكان تشوق المرابطين الى الجهاد والقداء عظيما الى الحد الذي اثاروا فيه على يوسف بن تاشفين باجابة الاندلسيين ونصرتهم (٣) وهذا كما لو ان كل شيء قد اُتت للمعركة المصيرية بين المسلمين والنصارى .

أما على الصعيد النصراني ، فمن الطبيعي ان تزعم تلك الاخبار الفونسيو وكان في ذلك الوقت محاصرا للمستعنين بن هود في سرقسطة ، فما ان بلغه جور المرابطين حتى اُتت العدة للتوجه جنوبا ليتخذ من الاجراءات السريعة ما يوجه به الموقف العصيب ، وبعث لابن هود الذي بلغته اخبار قدوم المرابطين ، يطلب منه الاموال التي كان قد رفضها من قبل كشرط للارتحال عن طمتمته . ولكن المستعنين ابى ذلك عليه ، فأضطر الفونسيو الى الانسحاب سراعا نحو طليطلة . (٤)

واستشعر الفونسيو لأول مرة خطورة الموقف ولم يعد في مقدوره ان يلعب

بورقة الخلافات والفرقة بين ملوك الطوائف ، بل ووجد امامه صفا موحدا وجيشا

(١) : من الذين شككوا في هذا الاكرام الزائد عبد الواحد المراكشي ، وفي الواقع لا يمكن قبول رواياته على غلاتها ، فهو قد كتب كتابه سالف الذكر في عصر الموحدين . وكان بوقا من ابواقهم في ذلك الوقت رغم انهم قد اساءوا اليه اخيرا . فهو يقول عند ما اخذ يصف لقاء المعتمد بيوسف (. . .) واظهر من بره واكرامه فوق ما قد يظنه امير المومنين ، وقد م اليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك . وكان هذا اول ما وقع في نفس يوسف التشوف الى مملكة جزيرة الاندلس (. . . الخ)

انظر : المعجب ، ص ١٩٠ - ١٩١

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٦٩

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ - ٣٣

(٤) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

اسلاميا كيفا . وشعر أن المعركة القادمة ستكون ^{معركة} عميدة ومصير وليست معركة حصن أو اتاوات . ولذا فقد سارع الى ترميم علاقاته المتدهورة مع ممالك النصارى وأشعرهم بخطر المعركة . فهي مواجهة حاسمة فاصلة بين الاسلام والنصرانية ، فهبت الى ابن عمه سانشو راميرز ملك أرغونة . يطلب منه الامداد ، كما جاءته امدادات من مملكة ثبرة وبرشلونة ، وجند على وجه السرعة قوات من ليون وجليقية واستوريش وقشتالة ، وطلب النجدة من ولايات فرنسا فجاءته كتائب من الفرسان من لانجدوك وبروفانس ورجنديه ، كما طلب من قائده اليرمون البرهانس ^(١) الذى بعثه مع القادر بن ذى النون نحو بلنسية ليملكه اياها ، فاجتمعت له بذلك اعداد هائلة أسلمت له قيادها بطبيعة الحال ^(٢) .

تحديد مكان المعركة :-

لم يأت تحديد مكان المعركة بخط عشواء . أو من قبيل الصدفة المحضة ، بل كان مبنيا على حسابات دقيقة اسلامية ونصرانية على السواء . فلقد كان المكان الذى شهد احداث تلك المعركة يتبع من الناحية الجغرافية مملكة بطليوس وغير بعيد منها ، وهو الذى تسميه المصادر الاسلامية الزلاقة ، بينما تسميه المراجع الاسبانية *Sacralias* وتعرف الآن باسم *Sagrajas* . ولم يكن يفصل هذا المكان عن المعسكرين سوى ثلاثة أميال هى القدر الذى يشكل عرض نهر وادى يانه والذى يبعد شمالا

(١) : البرهانس أو البارهانس *Alvar Fañez* هو قائد قشتالي مسيحي ، ويقال انه كان ابن أخ للسيد القمبيطور الذى استولى على بلنسية . وقد قتل فى عام ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م . ويعتبر من أكبر قواد الملك الفونسو السادس . انظر ابن القطان : نظم الجمان ، ج ٢ ، ص ٦٤ ، وج ١ ، ص ٧٠ .

(٢) : انظر : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ . - سعيد عاشور : اوربا فى العصور الوسطى ، ص ٥٣٣ . - محمد عبدالله عنان : مواقف حاسمة ، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ . - على أدهم : المرجع السابق ،

في اتجاه نهر التاجية ويسمى اليوم جوسرد (١) ، وتقع الزلافة بين بطليوس
وقورية (٢) .

فعلى الصعيد الاسلامي كان يوسف بن تاشفين يميل على
عادته الى التوعدة والحذر الشديد ، فخشى من التوغل شمالا نحو طليطلة
ومقبة اراضي الفونسو ، وكان يميل كما يفهم من رواية عبد الله بن زيري
الى أن يكون اللقاء على ارض اسلامية حتى اذا تجلت المعركة لصالح المسلمين
يكون قد ضمن السلامة وهو في ارض اسلامية ، أما اذا انجلت المعركة عن
هزيمة المسلمين فتكون اراضي المسلمين ماوى يلجئون اليه . بل
اننا نفهم من رواية ابن زيري أيضا أن يوسف بن تاشفين كان يؤثر عدم
اللقاء أصلا . فلربما كان يتمنى أن يكون النصارى قد أخافهم وأرعبهم
وصولهم الى الاندلس ، فلا تحدث معركة ، وهو الفريب عن تلك البلاد التي
لا يصرف لقصر المدة خباياها وجغرافيتها بعد (٣) . كما أن التحليل الحديث
لدوافع ذلك التدبير الحربي الهادف الى اختيار بطاح بطليوس مكانا
مناسبا للمعركة ، يلقى الضوء على فهم تلك الحسابات الدقيقة التي بنى
عليها ذلك الاختيار . وفي هذا فنحن نؤيد تحليل عبد الحق حموش (٤)
لذلك التدبير الحربي . فالواقع أن يوسف بن تاشفين خرج من المغرب
وهو يعلم أن أماته أكثر من لقاء وأكثر من معركة ، فلو أنه فكر في شئ
سلسلة من الحروب الصغيرة الخاطفة مع الاسبان حتى ولو كان ذلك للمناوشة ،
لكان قد حكم على جيشه بالتبديد والانهاك والتفريط في القوة فيما لا طائل منه .
ولذا فقد فضل لقاء رئيسيا حاسما تجتمع فيه زهرات شباب الجيش
وفتوته المتأججة التي لم تهدها بعد تلك المعارك الصغيرة ، فكان
أن رنا بنظرته العسكرية الفاحصة أن ينصرف الى الجانب الغربي من الاندلس ،
اذ عرف أنه مركزا الثقيل في الممالك الاسلامية والاسبانية على السواء . فطليطلة
عاصمة الفونسو غير بعيد عن بطليوس ، واشبيلية وأراضيها الواسعة ، فضلا عن أن

-
- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ١ ، ص ٩٣ . - محمد عبد الله غان :
دول الطوائف ، ح ٢ ، ص ٣٢١ .
- (٢) : ابن الكردبوس : نفس المصدر السابق ، ص ١٠٥ .
- (٣) : نفس المصدر والصفحة .
- (٤) : ابن تاشفين ، ص ٦٧ - ٦٨ .

مملكة بطليوس تقع غير بعيد عن الجزيرة الخضراء جسر عبوره وامداداته • ولهذا فقد كان اختيار هذا المكان منى على الحسابات الدقيقة ، وليس على الصدفة وحدها ^(١) • وما يماثل هذا التحليل تقريبا رأينا تفسيرات أخرى مشابهة ، فالواقع أن يوسف بن تاشفين ومن معه لو فكروا في التوجه صوب طليطلة ومحاصرتها لكان قد ازداد توغلمهم في بلاد النصارى ، ولطالت بذلك خطوط مواصالاتهم ولسهل من ثم على الفونسو أن يقضى عليهم وهم منهكين • ولذا فقد آثر يوسف بن تاشفين وأركان حربه أن يكون اللقاء ما ن تم - في بطحاء بطليوس لاسيما وأنهم قد علموا بتحريك الفونسو نحو بطليوس ^(٢) •

أما على الصعيد النصراني فقد كان للفونسو حساباته الدقيقة أيضا ، فهو قد رغب أن يكون اللقاء في أرض المسلمين ، فاذا أسفرت المعركة عن هزيمته انسحب الى بلاده وهو مطمئن الى أن المسلمين سوف لن يتبعوه الا بعد أن يتخذوا استعداداتهم لجولة أخرى تحتاج بطبيعة الحال ليمض الوقت ، هو نفسه الذي يمكنه من النجاة بنفسه من الهزيمة ليستعد لجولة أخرى من جديد • وصان بلاده في نفس الوقت من آثار المعركة والقتال ، أما اذا كان النصر حليفه فهو بلا شك المستفيد • تلك كانت وجهة نظره ^(٣) ، والواقع أن حساباته هذه لها ما يبررها ، مما يعنى أن النصارى لم يكونوا بأقل اضطرارا من المسلمين في أن تكون الحرب في بطحاء بطليوس وعلى أراضى المسلمين ^(٤) • ولكن رغم وجاهة هذه النظرية العسكرية النصرانية ، الا أنه كان عليه من الأولى أن يجبر المسلمين الى الدخول معه في معركة يختار لها هو مكان اللقاء • فلو أنه استقر في طليطلة وتحصن بها ، لكان أغرى المسلمين الى محاصرته ، ولقطموا تلك المسافة بين بطليوس وطليطلة ، حتى اذا أنهكهم التعب وكدهم الالهاق ، انقض عليهم فأثخن في صفوفهم ^(٥) •

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٧ - ٦٨ •

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ - ٢٧٥ •

(٣) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٧ - ٨٨ •

(٤) : حسن محمود : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٧٥ •

(٥) : نفس المرجع أيضا ، ص ٢٧٤ •

المعركة الفاصلة :-

كان على يوسف بن تاشفين أن ينظم صفوف القوات الاسلامية ، وكانت قد بلغت من الكثرة ما تستوجب معه فصلها الى معسكرين • فارتأى أن يكون الاندلسيون في جيش أو معسكر خاص ، ويكون هو نفسه في معسكر آخر من المرابطين • وولى كما يفهم من الروايات سالفة الذكر المعتمد قيادة المعسكر الاندلسي ، في حين تولى هو قيادة جيش قواته المرابطية ذات الثقل الحرس الكبير^(١) . وتلاقت الجيوش الاسلامية والنصرانية في بطحاء الزلاقة وجهها لوجه ، وبدأت المراسلات بين الفريقين ، فبعث يوسف الى الفونسو بخطاب يطلب منه على مقتضى السنة النبوية أن يختار واحدا من الأمور التي نصت عليها السنة عند لقاء الكفار وهي : الاسلام أو الجزية أو الحرب ، غير أن الفونسو غضب من هذا الخطاب وبعث لملوك الطوائف يقرعهم ويؤتبهم^(٢) . وكان قد حصلت بينه وبين يوسف بن تاشفين من قبل خطابات متبادلة • تهجم فيها الفونسو على يوسف بن تاشفين كثيرا • فكان رد يوسف بن تاشفين عليه موجزا قويا حازما هو ذاته جواب هارون الرشيد لنقفور ملك البيزنطيين عندما قال له " الجواب ما تراه لا ماتسمعه "^(٣)

وعلى أية حال فلم يبق إلا أن تحدد ساعة اللقاء

بين الفريقين كما كانت عليه المادة العسكرية وقتذاك • فجرت مراسلات بين الفريقين حدد فيها يوم المعركة ، غير أن الفونسو كان يببّيت في الواقع مكيدة للمسلمين • تتبّه لها المعتمد ابن عباد ولقت نظر يوسف بن تاشفين اليها • وبالفعل فلم يهاجم الفونسو قوات المسلمين في اليوم المتفق عليه ، ولكنه هاجمهم في اليوم السابق له^(٤) ونشبت في ذلك

-
- (١) : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٩ - ٩٠ .
(٢) : الحميري : نفس المصدر ، ص ٩٠ - ٩١ .
(٣) : مجهول : الحلل الموشيه ، ص ٢٨ - ٣٠ - المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٨٨ - ٩٩ .
(٤) : انظر ، عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ - ١٩٦ .
ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ١٠ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .
المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٧ - ١٠١ .

الوقت المعركة الهائلة بين المسلمين والنصارى ، وكانت فى الواقع معركة غير متكافئة
فى العدد والعدة • فقدم الاندلسيون صدمة شديدة وارتبكت صفوفهم وتمزقت •
وفى الحقيقة ان ما حدث كان نتيجة لحدوث خلل فى تنفيذ الخطة • اذ كانت الخطة
العسكرية التى وضعها يوسف بن تاشفين كما يتراعى لنا تقوم على أساس ان يتلقى
الاندلسيون الصدمة أو الضربة الاولى حتى اذا تورط النصارى فى مهاجمتهم معتقدين
بان هؤلاء هم الجيش كله ، بادريوسف الى معسكر النصارى ، فاشعل فيه النار وقضى
على الموجودين فيه ، فيعود الفونسو لتدارك ذلك ، فقتضه قوات يوسف المستعدة
والنشطة حتى ذلك الوقت • وفى نفس الوقت تطبق عليه القوات الاشبيلية الاخرى • غير
انه لم يكتب لهذه الخطة ان تطبق بخذا فيرها ، اذ يبدو ان تدخل الفونسو بكل قواته
وثقله قد أربك صفوف الاندلسيين^(١) ، فبدأت صفوفهم تتمزق ، وكثرت الانسحابات فى
صفوفهم ، وتحمل المعتمد ابن عباد وصحبه القليل عيب ذلك الموقف الحرج •
وأبلى فيه بلاء حسنا ، فكان يومى بنفسه فى النزال حتى أنه أصيب أصابات بالغة •
كل ذلك وضغط النصارى يزداد على الاندلسيين ويزداد تحمل المعتمد لعيب ذلك •
حتى كاد الامل يذوى فى نفسه • وهنا طلعت عليه كتيبة مرابطية بقيادة القائد
المرابطى المعروف داود بن عائشة • فنفست الكثير عن الاندلسيين ، وفى نفس
الوقت تحول يوسف لتنفيذ الشق الثانى من الخطة بكامل قواته وكامل قواه • وأعطت
هذه الخطة ثمارها مباشرة ، وتحول النصارى من موقع الهجوم الى موقع الدفاع ، وتنفس
الاندلسيون الصعداء ، والمعتمد بالذات • واخيرا اتجلت المعركة عن انتصار المسلمين
انتصارا باهرا خالدا • وقد وقعت هذه الموقعة على الأرجح فى ١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ /
٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م ، ونزل المعتمد وهنأ يوسف بن تاشفين على ذلك الفتح المبين •
كما هنأه أيضا بقية ملوك الطوائف ، وبعث المعتمد الى ابنه وولى عهده الرشيد يعلمه
نبا النصر العظيم ويطلب منه ان يوزع ذلك النبا للمسلمين فى المملكة^(٢) •

وهكذا انتهت هذه المعركة بانتصار الاسلام على النصرانية فى لقاء تاريخى

يضاف الى الايام الخالدة فى تاريخ المسلمين كبدر والقادسية واليرموك وغيرها •

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٦ •

(٢) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩١ - ٩٢ •

(٣) : الحميرى : نفس المصدر ، ص ٩٣ - ٩٤ •

ومن المفيد أخيراً أن نلسم بالأسباب أو العوامل الحربية التي أدت إلى انتصار المسلمين في هذه المعركة ، فقد استخدمت فيها خطط عسكرية جديدة • كما استخدمت فيها أسلحة جديدة من قبل المرابطين لم يعهد لها النصارى من قبل •

وفي الحقيقة إن المسلمين كانوا أحكم وأزكى في خططهم العسكرية التي وضعوها من النصارى • فالخطة التي اعتمدها النصارى وكانوا يعتقدون أنها جديدة تلاشت أمام الخطة التي وضعها يوسف وأركان حربه ، فالنصارى كانوا يعتمدون خطة الفارس الفرد ، فيما وضع المسلمون خطة تحتوي تلك الخطة النصرانية وهي خطة الجيش الكامل • فكما أن أبرز ما يميز خطة النصارى العسكرية عن قوة الفارس المثقل بالدروع والحديد ، كان أبرز ما يميز الخطة الإسلامية هو المواجهة بقطائع كاملة من الجيش تدك الخطة النصرانية دكا كما أن خطة الكمان القديمة الجديدة التي تلجأ لها الجيوش الإسلامية دائماً كانت عاملاً آخر من عوامل النصر • وإضافة إلى هذا فقد أنزل المرابطون إلى ميدان القتال فرقا يمكن أن نسميها مع شيء من التجاوز فرق الصاعقة • وتتكون من كتائب مشاة كان عددها في تلك المعركة أربعة آلاف مقاتل من السودان ، مسلحين (٢) بدرق اللطم ، وسيف البند ، ومزاريق الزان (٤) وفي أيديهم السهام ، فأخذوا يطعنون الخيل التي فزعت بفرساتها وأحجمت عن التقدم ، فجمحت بأصحابها • أما بالنسبة للأسلحة التي استخدمت لأول مرة في تلك المعركة ،

فقد كان لها دور رئيسي في النصر ، إذ كان من عوامل النصر نزول الجمال لأول مرة (٥) في تاريخ الحروب الإسلامية النصرانية في إسبانيا • فقد أمر يوسف كما يقول ابن خلكان (بعبور الجمال فعبور منها ما أغشى الجزيرة ، فارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة (ولا خيلهم) رأوا جملاً قط ، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمال ومن رغاؤها) ويضيف قائلاً (وكان ليوسف رأى مصيب فكان يحدق بها عسكرة

-
- (١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٥ - ٦٦ •
(٢) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٠-١٠١ (نقلاً عن ابن خلكان) •
(٣) : نقل ابن خلكان عن ابن حوقل في كتابه المسالك والممالك ، أن لطمه : بلية عند السوس الأقصى (في المغرب الأقصى) بينها وبين مدينة سجلماسة (أيوما) انظر : وفيات الأعيان ، ص ١١٤ - ١١٥ •
(٤) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٠-١٠١ (نقلاً عن ابن خلكان) •
(٥) : المقرئ : نفس المصدر والجزء والصفحات •
(٦) : العبارة في الأصل جاءت على هذا النحو (ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا خيلهم) وقد أعدت صياغتها على هذا النحو في المتن زيادة في الايضاح وضعها لأبي لبسن •

ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمع منها (٠)

وبالإضافة الى الجمال فقد استخدم المرابطون الطبول الكبيرة

التي كانت تشق بأصواتها الهائلة عنان السماء ، فكانت ترتعد لها قلوب النصارى وتصمم آذانهم . والواقع أن الشعوب الصحراوية التي كانت ولا تزال تعيش في الصحراء في افريقية تعرف أهمية ذلك النوع من الاسلحة المعنوية في حروبها . فقد عرف المرابطون من القبائل الزنجية التي كانت تعيش في نواحي نهر السينغال والنيجر الطبل المعروف بطبل جنادة الذي ينسب الى غينيا GUINEE (١) ، كما يذكر أن المرابطين استخدموا سلاحا خفيفا كان له دور في القتال شديد حتى لقد كاد أن يذهب ضحيته الفونسو نفسه . هذا السلاح هو الخناجر المقوسة والتي يطلق عليها المرابطون الاطاس أو الطاس (٢) .

هذه العوامل المادية والمعنوية أدت الى كسب المسلمين لهذه

المعركة الفاصلة . ولكن هناك عامل قبل هذا ومعه هو سلاح الحمية والحماس الذي أو لنقل سلاح العقيدة ، فقد كان لهذا السلاح الدور الاساسي في الانتصار ، فقد كانت النفوس صادقة في اللقاء ، مخلصه في الأداء ، مرابطين وأندلسيين على السواء رغم النكسة الأولى . أخلصوا النية لله وصدقوا العزم ، وكان يذكي هذا العزم الفقهاء الذين انتشروا في صفوف الجيش الاسلامي برمته يلهبون الحماس ويذكرونهم الفوائد الالهية ورياح الجنة ، ويذكرونهم الشهادة أو النصر المؤزر المشرف . فأعد هذا كله شحنات هائلة من القوة ، فاندفعوا الى القتال دفعا يرومون الفوز بأحد الحسينيين النصر أو الشهادة . وهكذا تحقق لهم ذلك النصر العظيم المؤزر .

بقيت أخيرا عدة نقاط لم نشأ أن نتحدث عنها في سياق حد يثنا

عن وصف معركة الزلاقة حفاظا على هذه الصورة الرائعة التي رسمناها لمعركة الزلاقة من أن تشوه . باعتبار أن هذه المعركة من المعارك المهمة في تاريخ الاسلام عامة ، وفي تاريخ الاندلس خاصة والتي تمثل ذروة حركة جهاد المرابطيين والاندلسيين ضد النصارى والأسبان . وأول هذه النقاط محاولات التشكيك في ولاء المعتد ويوسف لبعضهم البعض ، وبالتالي ولاء المرابطيين والاندلسيين لبعضهم البعض قبل وأثناء وبعد المعركة . وقد أشار الى هذه المواقف بعض المؤرخين القدامى وتابعهم فيها

(١) : احمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٢) : احمد مختار العبادي : مقال بعنوان : دراسة حول كتاب الحلل الموشى في

ذكر الاخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، سنة ١٩٥٥ م ،

(١) بعض المستشرقين • فمن مواقف التشكيك بموقف المعتمد قبل معركة الزلاقة مارواه ابن الأثير بدون رواية من انه عندما تراعى الجمعان " المسلمون والنصارى " جاء من ينصح يوسف بأن يأمر المعتمد بأن يكون في المقدمة خوفا من الا ينصح المعتمد يوسف ولا يبذل نفسه ، ففعل ذلك يوسف (•)

اما عبد الواحد المراكشي^(٢) فيشكك كما دلت عليه في صدق نيات يوسف وينظر اليه كأي طامع انتهازي ، وليس كرجل عمت شهرته في التمسك بأهداب الدين العالم الاسلامي فيقول في معرض روايته لاحداث استنجاد المعتمد بيوسف انه لم يقدر المواقب تماما • ولا يدرك أنه قد سئل سيفا عليه يحسبه له • وهو موقف تشكيكي ظالم بلا شك • وكان قد أشار في مكان آخر الى ان يوسف كان حريصا على ان يظهر للاندرلسيين وللمعتمد انه لم يأت الا للجهاد فقط ، وأنه دائم الحرس على أن يظهر التعفف والتأفف من الاثامة في الاندرلس بل انه يروى ان يوسف كان يقول في أكثر أوقاته (كان أمر هذه الجزيرة عدنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسر حسوا في ارتقاء^(٣)) •

اما اثناء معركة الزلاقة فيروى ابن الكردبوس رواية غريبة وهي انه عند احتدام المعركة وعند هزيمة الاندرلسيين في الصدمة الاولى أعلم يوسف بذلك (فقال اتركوهم قليلا للفناء فكلا الفريقين من الاعداء ، فلما تحقق ان اكثرهم قد أسر وقتل رأى انه قد آن أن يفترس العدو ، ان قد تباعد عن محنته •••) •

أما دوزي^(٥) فيقول في معرض وصفه لاحداث معركة الزلاقة ان المعتمد بعث الى يوسف يستحثه أن يتقدم بجيشه على عجل ، أو أن يوافيه على الأقل بالمدد الكبير الكافي ، وقد كان يوسف قد وضع خطة لا يستطيع التحول عنها ، فلم يبادر الى تلبية طلبه ، وكان قليل الاهتمام بما يصيب الاندرلسيين ، وقد صاح لهذه المناسبة قائلا : وماذا يهمنى اذا كان نصيب هؤلاء جميعا الهلاك ، انهم جميعا اعداء •

-
- (١) : انظر الكامل ، ج ١ ، ص ١٥٣ •
 (٢) : انظر : المعجب ، ص ١٩٠ - ١٩٢ •
 (٣) : يسر حسوا في ارتقاء : مثل عربي مشهور يضرب لمن يريك أنه يعينتك ، وانما يجر النفع الى نفسه •
 انظر : الميداني : مجمع الامثال ، ج ١ ، ص ٤١٧ •
 (٤) : انظر : الاكتفاء ، ص ٩٤ •
 (٥) : انظر : المرجع السابق ، ص ٣٠٢ •

وهذا ولا شك موقف مغرض لا يمكن ان يقدم عليه يوسف اطلاقا .

اما بعد معركة الزلاقة فقد رأينا عدة مواقف تشكيكية في موقف يوسف والمعتد على السواء ، فمن هذه المواقف ما رواه عبد الواحد المراكشي أيضا ^(١) ان يوسف بعد انتصار الزلاقة رغب في التجول في بلاد الاندلس للتغزه وهو يقصد غير ذلك ، اى للاطلاع على ~~البلاد~~ الاندلس والناس . فحقق له ذلك اى الاطلاع على احوال البلاد . وكان في كل ذلك يظهر اجلال المعتد وثأبيده واعتراؤه بافضله ، وانه اى يوسف رهن اشارته . ويبدو لنا هذا مستحيلا ، اذا علمنا بأن يوسف قد اضطر الى الانسحاب الى المغرب مباشرة بعد معركة الزلاقة فأتجه الى اصبيلية فبقى فيها ثلاثة ايام ثم توجه نحو الجزيرة الخضراء ومنها الى المغرب ^(٢) .

وعلى نفس نغمة عبد الواحد المراكشي اى نغمة اعجاب يوسف بالاندلس ومناظرها وخيراتها ، ورغبته في امتلاكها على نفس هذه النغمة يضرب المستشرق الفرنسى ل . أ . سيد يو ^(٣) . عندما يقول : بأن يوسف طمع في تملك الاندلس التى اعجبته خيراتها ومناظرها . وان اهل الاندلس عندما شعروا بنياته الخفية ، فكروا فى اجباط ما رمى اليه .

وفى الحقيقة ان هذه المواقف التشكيكية لا يمكن الاعتداد بها ، ويكفى ان نشير للاستدلال على وجهة نظرنا الى تلك الرسالة التى بعثها يوسف بن تاشفين الى المعز بن باديس امير افريقية يشرح له ما حدث قبل واثناء وبعد معركة الزلاقة من احداث بالتفصيل فهى تدل دلالة واضحة على سلامة موقف الاندلسيين ، وموقف المعتد بالذات - على الاقل فى تلك الفترة فقط - .

كما ان من النقاط التى صرفنا النظر عن الاهتمام بها هى الجالفة المنقولة من جانب المؤرخين المسلمين فى تقديراتهم الخاطئة لعدد المشتركين فى القتال من النصارى ، وفى عدد القتلى وعدد الناجين ايضا . وهى تقديرات لاتمثل الحقيقة

- (١) : انظر : المصدر السابق ، ص ١٩٤ .
- (٢) : انظر : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٨٩ .
- (٣) : انظر : تاريخ العرب العام امبراطورية العرب ، وحضارتهم ، ومدارسهم الفلسفية والعلمية والادبية ، ص ٢٨٥ .
- (٤) : انظر نص رسالة يوسف لامير افريقية المنقولة من مخطوط رقم ٤٤٨ الفزيرى بمكتبة الاسكوريال التى اوردها محمد عبد الله عنان فى كتابه : دول الطوائف ، ص ٤٤٧ - ٤٤٩ .

كثيرا ، فكل ما يمكن أن نستخلصه من تلك الروايات المختلفة أن عدد الجيش النصراني كان يفوق بلا شك عدد الجيش الاسلامي أندلسيين ومرابطين . وعلى هذا فنحن نستبعد ما أوردته الروايات الاسلامية من أرقام مبالغ فيها ^(١) . حتى ما جاء في رسالة يوسف لأمير افريقية السابقة لانستطيع أن نتقبلها بسهولة . اذ تقول الرسالة ان عدد الذين نجوا من النصراري بعد المعركة واستطاعوا الفرار بما فيهم الفونسو وحاشيته لا يزيد عن ألفي فارس ، لانستطيع قبول هذه الرواية ، اذا علمنا بأن أقل تقديرات المؤرخين عن عدد جيش النصراري تصل الى ثمانية وأربعين ألف فارس ، بل ان بعض الروايات تجعل عدد الناجين من المعركة من النصراري لا يزيد عن عشرة فرسان فقط .

وأخيرا فائنا نقرر كما قلنا سابقا بان معركة الزلاقة قد وقعت على الأرجح في يوم ١٢ رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر طم ١٠٨٦ م غاضبين النظر عن الاقوال المتناقضة في هذه النقطة بالذات ^(٢) .

نتائج معركة الزلاقة :-

نكاد نجزم بأن معركة الزلاقة - على عظم أهميتها -

لا يمكن ومنظرة موضوعية فاحصة لسير الحوادث في الاندلس في تلك الفترة أن نستخلص منها وهدها أي المعركة النتائج والآثار البعيدة المدى

(١) : تصل اقصى تلك التقديرات المبالغ فيها حدا وصلت به رواية صاحب الحلل الموشية أن عدد القتلى ٣٠٠ ألف فارس ، اما بقية التقديرات الاخرى فتعددت ، فمنها ما يقدر عدد جيش النصراري ٢٨٠ ألف فارس ، ورواية اخرى تقول ان عدد الجيش النصراني ٦٠ ألف فارس ، في حين قالت رواية اخرى ١٥٠ ألف فارس . اما عدد الفارين فتصل رواية الحميري بهم الى تسعة اشخاص فقط ، وبعض الروايات الاخرى تصل بهم الى مائة فارس والبعض الاخر الى ٥٠٠ فارس . وهكذا فهي تقديرات مبالغ فيها لا يمكن قبولها .

أنظر : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٤٩ ، و ص ٥٠ . الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٨ . ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . محمد عبد الله غان : مواقف حاسمة ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ . ودول الطوائف ، ص ٣٢٥ - ٣٢٨ ، و ص ٤٤٩ .

(٢) : اختلف المؤرخون ايضا في تحديد السنة والشهر الذين وقعت فيهما معركة الزلاقة ، فبصرف النظر عن رواية النويري كما جاء في كتاب حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، التي تؤرخ لمعركة الزلاقة بأنها وقعت في طم ٤٧٧ هـ ،

التي تركت بصماتها لردح من الزمن على الصعيدين الاسلامي والنصراني
مما . فالنظرة التاريخية الموضوعية للأحداث تجعلنا نقرر في أن قوة
المرابطين الفتية وحماستهم للجهاد منذ أن قامت دعوتهم في غربي
افريقية كان هو العامل الرئيسي في تحقيق هذا الانتصار الحاسم على
النصرانية في موقعة الزلاقة ، وهو الانتصار الذي مدّ في عمر الوجود
الاسلامي في الاندلس بمعنى أنه وكما أشرنا سابقا أن التدخل المرابطي
ترتبت عليه نتيجة مهمة توازي في أهميتها جميع ما ترتب على موقعة
الزلاقة من آثار . هذه النتيجة هي الفسحة الطويلة من الزمن التي بلغت
أربعة قرون في عمر الوجود الاسلامي في الاندلس ، فبقاء الوجود الاسلامي
لأربعة قرون أخرى كان نتيجة مباشرة كما يتراءى لنا للتدخل المرابطي .
ونردد بهذه المناسبة مع القائلين بأننا لانستطيع أن نقرر على وجه التحقيق
ما الذي كانت ستؤول اليه الأمور لو لم تتح للأندلسيين سانحة قدوم
المرابطين ؟؟ . ولكن ما نستطيع اقراره هو أن التدخل المرابطي قد أنقذ
الاندلس وقتها من خطر السقوط ، فكان تدخلهم في الوقت المطلوب سببا أساسيا
في شل تقدم حركة الاسترداد المسيحي وتعطيل مسيرتها .
(١)

====
وبغض النظر عن رواية ابن خلدون وابن الكردبوس اللذين يجعلان تاريخ وقوعها
عام ٤٨١ هـ ، بغض النظر عن هذه الروايات فإن الثابت أنها وقعت في عام
٤٧٩ هـ ، وفي ١٢ من شهر رجب منها . أما بعض الروايات الأخرى كرواية
ابن الاثير وبعدها الواحد المراكشي فتجعل وقوعها في شهر رمضان من نفس السنة ،
في حين كانت رواية صالح ابن عبد الحليم صاحب روض القرطاس هي الرواية
الصربية الصحيحة والدقيقة التي حددت تاريخ المعركة حتى بالوقعت المعجمي
(الميلادي) .

أنظر : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٨ ، وح ١ ، ص ٩٢ .
عدها الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .
ابن خلدون : المصدر السابق ، مجلد ٦ ، ص ٣٨١ . ابن خلكان :
المصدر السابق ، (فيما ينقله عنه المقرئ في ج ٦ ، ص ٩٤ - ٩٥)
و ص ١٠٠ - (١٠١) . الحميري : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ .
ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٩٨ - ١٠٠ . ابن الاثير : المصدر
السابق ، ج ١٠ ، ص ١٥٣ . صالح بن عبد الحليم : المصدر السابق ،
ص ٩٦ . حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨١ . محمد عبدالله
عنان : دول الطوائف ، ص ٣٢٣ .

(١) : عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

وبعد هذا اذا ذهبنا نتقصى ما ترتب على معركة الزلاقة من نتائج وآثار بعيدة ، فاننا سنشعر بالقبضة لتلك النتائج . فلقد صححت المعركة في الواقع خلافا حدث في توازن القوى في شبه الجزيرة اليبيرية . فبانتصار الزلاقة عاد لشبه الجزيرة توازن القوى - وان لم يعمر طويلا (١) - وزالت على الاقل وقتها - فكرة قشتالة التي لا تقهر . وتبين للمسلمين في الاندلس آنذاك أنه بحد أدنى من الترابط والتآلف والوحدة يمكن لهم الوقوف في وجه المؤامرات والواجهات النصرانية الخطرة . ومنفس أهمية هذه النتيجة وفي موازاتها كان انتصار الزلاقة انتصارا للكرامة والمزة الاندلسية ، وعادت للأندلسيين الثقة بأنفسهم . وارتفعت روحهم المعنوية (٢) . وتخلصوا في ذروة الانتشاء بالانتصار من الآثار النفسية المتردية التي كانوا عليها قبل المعركة . وعاد لأسبانيا المسلمة وقتها شعاع هائل من روح الثقة والأمل ، وهبت فيها روح العزيمة والاصرار والثقة - وان كان هذا لم يعمر طويلا أيضا للأسف .

أما بالنسبة لأسبانيا النصرانية فقد تركت تلك المعركة

بما ترتب عليها من نتائج بصماتها على الفكر والنفسية النصرانية . فالواقع أنه لم يكتب لحالة الشعور باليأس والأسى اللتين ترتبتا على هزيمة النصارى أن يستمر طويلا . صحيح ان المعركة قلبت الموازين وهطلت حركة الاسترداد التي سار بها الفونسو الى الأوج . وأصيب النصارى بحالة من الذهول والتفجع ، الا أن ذلك لم يستمر طويلا - والتبعة في هذا تقع على الاندلسيين بالذات - فهبّ النصارى من عثارهم يجمعون القوى من جديد وأدت فورة المرابطين المتأججة بالحماسة الدينية الى رد فعل نصراني مواز لها في القوة ، فحل الاصرار والعزيمة على تدارك الأمور بسرعة مكان الذهول والأسى . وأذكت الكنيعة المسيحية في غربي أوروبا شعور النصارى بأن ما حدث لا يعدو أن يكون نكسة مؤقتة ، واندفعت تحثهم على تجاوز هذه النكسة والعمل بسرعة على صد شعور اليأس والذهول واحلال الحماس الديني والقومي مكانه استعدادا للقائه آخراً .

(١) : صلاح خالص : المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ٢٦٠ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

فالكثيعة اعبرت الموقعة صفحة من صفحات الحروب الصليبية ظللها العثار والتخبط .
ولذا فلا بد من طي هذه الصفحة سريعا . والاستعداد لصفحة أخرى مشرقة (١) .

أما على الصعيد المرابطي فقد تركت هذه الموقعة أكثر من أثر ونتيجة
فبادء ذي بدء قررت هذه المعركة البداء من ذلك الوقت ارتبطت الاندلس بالقلك
المغربى . فأصبحت لاكثر من قرن ونصف تدور حوله ، وثقتى بهداه . وأصبحت العدوتان
تكونان دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش فى عهدى المرابطين وبعدهم الموحد بن (٢) . ويأتى
بعد ذلك النتيجة المهمة الثانية التى جعلت من المرابطين الامل والمنقذ والمسعيل بعد
الله . فقد زاد انتصار الزلافة من تعلق قلوب الاندلسيين بالمرابطين وسط هذا الحب
لهم ، والاعجاب بهم الى الذروة . والتفت حولهم قلوب المسلمين من الطبقات العامة
والوسطى . وكان يذكى هذا الشعور ويوجهه الفقهاء الذين اوحوا للناس - حتى ولو
لم يكونوا فى حاجة الى ذلك - ان المرابطين هم ملهم الوحيد بعد الله ، وهم
المنقذ بن لهم من عسف وجور وظلم وتقا من ملوكهم وامرائهم . وتحقق لديهم هذا الشعور
ورسخ عند ما طالب يوسف بن تاشفين الملوك بعد الموقعة برفع المكوس والضرائب عن
كاهل السكان والتخفيف عنهم . فأشربت النفوس جبه هو وصحبه . ولم يعارض هذا
الشعور الفياض بالمحبة والاعجاب والتقدير الا بعض المتزلفين والتفصيين من الادباء
والشعراء . والوزراء الذين خشوا على مكاسبهم من ان تتعرض للخطر . وهم الشعور
بالاعجاب والثناء للمرابطين ويوسف ابن تاشفين بالذات بقية انحاء العالم الاسلامى ،
حيث بلغت اصداء المعركة اسماع المسلمين فى المشرق . فائى عليه كثير من الفقهاء
والادباء والمفكرين واعبروه القائد الاسلامى الحكيم المثالى الذى تتمثل فيه معظم صفات
الحاكم الاسلامى الحقيقى (٤) .

واخيرا فقد اسهمت هذه المعركة فى رفع يوسف ابن تاشفين فى المغرب ذاته ،
وساعدت على حل جميع مشكلاته الداخلية ، فاستكانت له القبائل الثائرة ، وخشى كثير
من الحاقدين بن عليه ان يمرضوا به بعد ان احاطت به هالات المجد والفخار بوصفه علمنا
من اعلام الجهاد (٥) .

(١) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ . - محمد عبد الله خان : مواقف

حاسمة ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢) : احمد مختار العبادى : المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

(٣) : حسن محمود : نفس المرجع اعلاه . ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٤) : نفس المرجع اعلاه ، ص ٢٨٤ .

(٥) : نفس المرجع ، ص ٢٨٥ .

قضاء يوسف ابن تاشفين على مملكة بني عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف

الموقف السياسي بعد معركة الزلاقة :-

لم تكن معركة الزلاقة رغم الانتصار الباهر الذي حققه المسلمون فيها معركة حاسمة قاطمة ، فهي قد وضعت العلاج للمشكلة أو الداء ولكنها لم تستمر في تقديمه أو بمعنى آخر هي قد عرفت الداء ولكنها لم تعالج بكل الدواء ، ولذلك فقد جاء ذلك الانتصار ناقصا هتورا ، حتى لقد بدأ بعد بضعة شهور من انتصار الزلاقة وكأن الأمور قد عادت الى ما كانت عليه سابقا ، فلا أثر مادي لذلك الانتصار لا على الصعيد الاسلامي ولا على الصعيد النصراني . فعلى الصعيد الاسلامي عادت الأمور لما كانت عليه سابقا من التفكك والانحلال والانصراف الى ما تعطل من حياة العبث والمجون ، واتضح لكل ذي بصيرة أن الاندلسيين قد استبرأوا ذلك التفكك ونسوا في غمار ذلك الاهتمام الاقليمي الضيق أو تناسوا بمعنى أوضح بأن وحدة الاندلس باتت شيئا من مخلفات الماضي غير ذات قيمة وتلاشت من أفكارهم أي فكرة أو طردوا منها بالأحرى أي فكرة تهدف الى الحفاظ على الوطن والحفاظ على وحدته ، بأي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد - على الأقل في تلك الظروف الحرجة التي اشتدت فيها الحملة النصرانية الشرسة - وبات الوطن في نظر أولئك السلوك لا يحدد تلك الرقعة الصغيرة التي يضمون أيديهم عليها ، وتلك التي سعوا الى توسيعها مع الزمن بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة . أما أن يتبادر الى أذهانهم أن العدو لا يفرق بينهم ولا يستثنى أحدا ، أما أن يفكروا بأنهم ليسوا قادرين على تحمل عبء القتال والدفاع عن وجودهم بتلك النظرة والسياسة الاقليمية الضيقة ، أما أن يتبادر الى أذهانهم بأن الوحدة ولا شيء غيرها المنفذ الوحيد من الخطر المائل ، أما كل هذا فقد نسوه أو تناسوه مدفوعين في ذلك برغبات ذاتية آتية ضيقة ليست من الدين والقومية والوطنية في شيء ^(١) إطلاقا ، بل أننا انفقنا ذلك الموقف الرسمي الموحد الذي ظهر على المسرح السياسي في ابان

(١) : للاطلاع على مزيد من هذه المواقف المؤسسية أنظر :

- على حبيبته مع المسلمين في الاندلس ، ص ٢٣١ - ٢٤٠ ، و ص ٢٥٢ - ٢٥٦ .

اشتداد حركة الاسترداد المسيحي في عهد فرديناند الأول - حتى وان كان ذلك الموقف لم يخرج عن حدود الاستنكار والشجب والتنديد - ولم نجد مثلاً من يبادر الى عقد مؤتمر وطني تطرح فيه سلبيات وايجابيات ما حدث قبل وأثناء وبعد موقعة الزلاقة ، اذ كان حرياً بهم عقد هذا المؤتمر لتدارس الأمر لاسيما وأن المرابطين قد أفسحوا المجال أمامهم لاتخاذ ما يرونه من تدابير وبدائل عسكرية وسياسة أخرى . بل ان المرابطين أرهاقوا أنفسهم بالاستعجال بالعودة الى المغرب تاركين بعض الحاميات لمساعدتهم وشد أزهم . فعلوا ذلك لتطمين أولئك الملوك من أن تبادر الى أذهانهم وساوس أو أي نيات سيئة تجيش بها صدور المفرضين . (١) وعندما انتهت المعركة أصر يوسف بن تاشفين على مفادرة الأندلس سراعاً (٢) خوفاً من أن يفسر تباطؤه في العودة بتفسيرات سيئة - وقد كان - والشئ الوحيد الذي أصر عليه يوسف بن تاشفين ومن منظور اسلامي بحث وليس من منظور فوقى استعلائى هو الرغبة في نبذ الخلافات والفرقة ونسيان الأحقاد والأضغان لاتناسيها فقطه وتوحيد الكلمة وجمع الصفوف (٤) . ولكن من يسمع ومن يعقل ؟؟ حتى لو وجد المدرك لخطورة ذلك الموقف ولصدق وجهة نظر يوسف بن تاشفين وغيره من الداعين الى الوحدة والتجمع . حتى هذا خشى من ذلك المد أن يؤثر في مكاسبه وامتيازاته (٥) . نقول انه كان حرياً بهم أن يتداعوا الى عقد مؤتمر وطني تطرح فيه سلبيات وايجابيات تلك الفترة ، ولكنهم لم يعوا الدرس أبداً . لأن ذلك كان في نظرهم يعد تفريطاً في المكاسب والامتيازات رغم أن الكل خاسر . صحيح أن هذا التباين والتناقض

-
- (١) : عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .
 - (٢) : انظر الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩٤ .
 - (٣) : انظر عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٤ وما بعدها .
وأنظر أيضاً ، عبدالكريم التواتى : مأساة انهيار الوجود العرسى بالاندلس
بالأندلس ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
 - (٤) : عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
 - (٥) : على حبيبه : المرجع السابق ، ص ٣٣٨ .

في المواقف والسياسه جاء وليد واقع اجتماعى مفكك الى طوائف واجناس واعراق
وأديان مختلفة (١) • لكن المحنة الواحدة تسمو بالخلافات وتترفع عن الصغائر والاحسن
العرقية والطبقية والمذهبية • والمحن توحد القلوب والمواقف • وهذه خاصية من
أبرز خصائص التاريخ البشرى عموما وهى عند العرب والمسلمين اظهر وأبرز •

نعم نحن لانظلم ملوك الطوائف، فقد اجتمعت كلمتهم لأول مرة فى معركة
الزلاقة ، ولكن ما نواخذهم عليه هو عدم استغلال تلك الفرصه التى توحد وافيها لأول
مرة • فما ان انتهت الزلاقة حتى طردوا سيرتهم الاولى •

ولذا فأنا نعتبر نتائج انتصار الزلاقة المادية نتائج أمنية فقط فيما يخص
الاندلسيين بفض النظر عن الآراء التى تجعل فضل بقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس
أربعة قرون أخرى نتيجة رئيسية لمعركة الزلاقة • نقول بفض النظر عن هذا الحقيقة
ان رغبة المرابطين فى التدخل فى الاندلس رغبوا احتسابا ، واستدعاء الاندلسيين للمرابطين
الذى جـاء متوافقا مع تلك الرغبة يعتبر فى حد ذاته نتيجة لاشتداد حركة الاسترداد
المسيحى والتى وافقت فى نفس الوقت تأجج روح الجهاد لدى المرابطين منذ قيام دولتهم •
وليس نتيجة فورية لمعركة الزلاقة • ولا نتصور بأنه لو لم ينتصر المسلمون فى معركة
الزلاقة لكان المرابطون قد انسحبوا مؤثرين السلامة وتركوا الاندلس لمصيرها المظلم •
لا نتصور أن هذا كان سيحدث • فالمرابطون كان يحركهم فى تدخلهم فى الاندلس
هدف وروح جهادية طارئة لا يعطل سيرها ولا يوقف امتدادها الهزيمة فى معركة أو
فى معركتين • اننا نعتقد أن الهزيمة لو وقعت سوف لن تشيهم عن هدفهم الاستراتيجى
القاضى الى ابقاء الوجود الاسلامى فى الاندلس • وبالتالى حماية الجناح الشمالى للدولة
المرابطية من خطر النصارى • ولا سيما وقد رأينا الفونسو السادس يصل بقواته حتى جزيرة
طريف على الساحل الاندلسى المقابلة للساحل المغربى ومحت من هناك برسالة ليوستف
ابن تاشفين يهدده فيها ويتوعده • اننا نعتقد ان المرابطين كانوا مستعدين من أجل
ذلك الى خوض معركة او عدة معارك لاتهمهم نتيجتها بقدر ما يهمهم الوصول أخيرا
الى تحقيق الهدف الاستراتيجى الذى اتضح لهم وقتها •

(١) : انظر قبل التمهيد ص ٤٣ - ٥٠

(٢) : من الذين تبناوا هذا الرأى كثير نذكر منهم على سبيل المثال :

— محمد عبد الله غان : مواقف حاسمه ص ٢٩٠ - ٢٩٢ • — عبد

الكريم التواتى : مأساة انهيار الوجود العربى بالاندلس ص ٢٩٨ •

(٣) : محمد عبد الله غان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس

ص ٢٥ - ٣٠ •

اما لماذا لم يجعل المرابطون من موقعة الزلاقة موقعة حاسمة؟ وهم القادرون لو شاءوا - فان الامر يقتضى ان نشير الى انهم ربما قد فكروا باذى ذى بدء ان يتركوا قضية الوطن الجريح لملوك الطوائف ، لعلمهم يكونوا قد تعلموا من الدرس القاسى الذى مر بهم . لا ندعى ان هذه هى سياسة المرابطين فى تلك الفترة . ولكننا نضمن ان يوسف بن تاشفين فضل ان يكون منقذا وقت الشدة فقط أو بمعنى آخر "يجوز ان المرابطين آثروا ان تكون المواجهة بين ملوك الطوائف الذين سيتحملون بالضرورة مسؤولياتهم وبين النصارى باعتبارهم أى ملوك الطوائف هم أصحاب الارض والحق . ويكونون هم ورائهم يمدونهم بالتأييد السياسى والعسكرى والبشرى أيضا . ذلك لانه حتى تلك اللحظة لم يدرك فى خلد المرابطين ان ملوك الطوائف سيتقاسون عن انقاذ الوطن ، كما لم يدرك بخلدهم ان يبادر أوكك الملوك الى خيانة قضيتهم الاولى وطعن حلفائهم المرابطين فى الظهر بطلب المعونة من النصارى . (١) لذا فاننا قد نضمن بان المرابطين شاءوا ان يكونوا ردفاء للاندلسيين لا نوابا عنهم فى مقاتلة النصارى . ويبدو لنا ان هذا الهدف كان استراتيجيا فى تفكير المرابطين ثم جاءت بعد ذلك عوامل أخرى ، وجدت ظروف أخرى جعلت المرابطين يتوقفون عند ذلك الحد من الانتصار الذى حققوه فى موقعة الزلاقة . من تلك العوامل أن المرابطين كانوا حريصين على تنفيذ الاتفاق الذى بموجبه جازوا الى الاندلس وهى الشروط المحددة التى اشترطها ملوك الطوائف للسماح للمرابطين بالجواز الى الاندلس والى اشرفنا اليها سابقا . والشىء الآخر انه لا يمكن ان يثق يوسف بن تاشفين ثقة عمياء بملوك الطوائف وهو الذى يعلم علما اكيدا بأنهم لولا الحاجة الاضطرارية الفائقة له لما طلبوا منه المساعدة . وصحيح أننا قلنا انه فى أبان معركة الزلاقة كانت نيات ملوك الطوائف صادقة مخصصة لله ، ثم لعباده . ولكن من يستطيع ان يضمن ليوسف بن تاشفين ان ذلك الموقف الموحد الذى اضطروا اليها اضطرارا سوف يستمر ويمتد اجله؟؟ أما الشىء الثالث الذى يجب ان لا يغيب عن بالنا من تلك العوامل فهو ان المرابطين لهم التزاماتهم ذات الاولوية تجاه مملكتهم فى المغرب وهى التزامات مهمة جدا لا يمكن ان تنسيهم اياها التزاماتهم الجديدة فى الاندلس . بل انه قد حدثت دواعى واعتبارات مغربية فى تلك الفترة بالذات أى بسميد موقعة الزلاقة . فرضت على يوسف ان يعود

(١) : انظر بعد ص ٣١٨ - ٣١٩

(٢) : عبد الله بن زيوى : المصدر السابق ، ص ١٠٣ . - ابن البار : المصدر

السابق والجزء ، ص ٩٨ - ٩٩ . - عبد الواحد المراكشى : المصدر

السابق ص ١٩٨ .

سريما الى بلاده . هذه الدواعى والاعتبارات هى وفاة ابن عمه ابوبكر بن عمر أمير
المرابطين السابق على الأرجح^(١) . فاضطر الى القفول مباشرة الى المغرب ليأخذ
البيعة لنفسه . تحسبا لأى حادث يبادر فيه بعض أمراء المرابطين لاغتصاب
الامارة مستغلا غيبة يوسف بن تاشفين وانشغاله بحركة الجهاد^(٢) . ويعتقد جازمين
بأنه ليس فى هذا الموقف ما يسبب الخجل ليوسف بن تاشفين أو يقدرح فى موقفه
اطلاقا سواء أكان ذلك لتركه ساحة المعركة ، أو لاسراعه الى المغرب .

ويؤسف المرء ان يجد لدى بعض المؤرخين القدامى مواقف تشكيكية

استخلصوها من تباين وجهات نظر كل من يوسف بن تاشفين والمعتمد بعد معركة
الزلاقة ، فالحميرى يقول فى معرض وصفه لمعركة الزلاقة : (ولما انحاز الطاغية
بشردمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأتى ابن تاشفين
واعتذربأن قال : لو اتبعناه اليوم لقى فى طريقه اصحابنا المنهزمين راجعين الينا
منصرفين ، فيهلكهم بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع الينا اصحابنا ويحتموا بنا
ثم نرجع اليه فنحسم داءه . وابن عباد يرغب فى استعجال اهلاكه ويقول ان فر
أماننا لقيه اصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه . ويوسف مصر على الامتناع
من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرندلند وهو لا يلقى على شئ وأصحابه
يتساقطون فى الطريق واحدا بعد واحد من أثر جراحهم فلم يدخل طليطلة الا فى
دون المائة . وتكلم الناس فى اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقال شيخ ابن عباد : لم يخف

(١) : تخبط للاسف بعض من المؤرخين القدامى فى تفسير استعجال يوسف بن تاشفين
للذهاب للمغرب بعد أن بلغته اخبار وفاة ابن عمه ابى بكر بن عمر . فأكثر
الروايات القديمة وتبعهم بعض المحدثين تقول انه رجع الى بلاده خلفه ما بلغه
خبر وفاة ابنه ابوبكر ، فيما يقول البعض الاخر ان السبب فى رجوعه هو استيائه
من الاحوال التى رأى عليها ملوك وامراء الطوائف . ولكن كل من هذين التفسيرين
لا يبدو مقنعا . ولكن التفسير الصحيح لذلك هو وفاة ابن عمه ابى بكر بن عمر
عام ٤٨٠ هـ ، كما اشار الى ذلك حسن محمود ، واحمد مختار القبادى فى
تحقيقه لكتاب الاكتفاء .

أنظر : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ - ٢٨٨ . ابن الكردبوس :
المصدر السابق ، ح ٨ ، ص ٩٥ .

(٢) : حسن محمود : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

على يوسف ابن عباد اصاب وجه الصواب والرأى فى معاجلته ، ولكن خاف أن يهلك العدو الذى من اجله استدعاه ، فيقع الاستغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : انما أراد ابن عباد قطع جبال يوسف من العودة الى جزيرة الاندلس (١) . ويبدو ان هذا القول غير مقنع ولا موضوعى ايضا ، فحتى تلك اللحظة لم تجد بوادر سوء تفاهم أو خلاف بين المعتمد ويوسف . بل ان يوسف أشاد فى رسالته التى بعثها للمعز بن باديس المشار اليها سابقا ، يشيد بالمعتمد ويشنى عليه ويشكره على كرمه الفائق وموقفه الوطنى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى هل كان المعتمد بتلك السذاجة التى يعتقدها البعض من أن تتبع الفونسو وقتله - ان حدث - هل كان سيقضى على حركة الاسترداد التى دشنها النصارى من عهد فرديناند الاول منهاجا ودستور حياة ؟؟ . قد يقتل الفونسو ، وقد يؤثر ذلك على حركة الاسترداد نفسها . ولكن لن تقف حركة الاسترداد أبداً فهناك عدة ممالك نصرانية عدا قشتالة وليون وجليقية تتحرق شوقاً الى شن حملات الاسترداد كملكة نبرة وأرغونة ومرشلون . كما ان الطابع الصليبي الذى اتخذته موقعة الزلاقة سوف يذكى تلك الحركة ويوجبها (٢) ، وسوف تدفع هذه العوامل خلفاء الفونسو نحو مواصلة سياسته تلك . لانجد تفسيراً واقعياً لرغبة المعتمد فى المتابعة سوى الرغبة للجامحة فى استغلال تلك الوحدة التى تحققت فى الاجهاز على العدو لانهاكه على الاقل أو لتعطيل حركة الاسترداد الى امد يستطيع فيه المسلمون أن يحققوا شأواً بعيداً . أما اذا نظرنا الى المسألة من ناحية اصرار يوسف على عدم المتابعة ، فاننا نرى ان ذلك التفسير الذى استخلصه المؤرخون تبسيطاً ساذجاً للأمور ، وتحليلاً سطحياً خالياً من الموضوعية والمنطق . فيوسف لديه أكثر من سبب وسبب لعدم المتابعة . هى التى ذكرناها سابقاً ، فضلاً عما عرف عن يوسف دائماً من التحوط والحذر . فهل كان يسمح فى لحظة فرح عاطفى مقفلاً جج بتحمل مغيبة التورط فى لقاء آخر مع النصارى وداخل اراضيهم هذه المره ؟؟ .

وعلى أية حال فقد انصرف يوسف الى المغرب مشيماً من قبل المعتمد وغيره من ملوك الطوائف بالاحترام والثناء (٣) . وطلب من ملوك الطوائف أو طلبوا منه هم ذلك لا فرق - ان تظل بعض القوات المرابطية فى الاندلس للمساعدة على رد غديات

(١) : انظر ، الروض المعطار ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(٣) : الحميرى : المصدر السابق ، ص ٩٤ .

النصارى • وارهبا بهم فى نفس الوقت • لا لشيء آخر رغم ما تذهب اليه استنتاجات
(١)
• عبد الواحد المراكشى

تسرى لو لم يضع يوسف تلك الاعتبارات فى مخيلته ، ولو لم تأت الاخبار
من المغرب التى أزعجته الى هناك بسرعة ، هل كان يكتب بعد المشيئة الالهية
لموقعة الزلافة ان تكون حاسمة ؟؟ • نعم قد نخمن هذا ، ولكن جاءت تلك الظروف
وأملت عليه تلك الاعتبارات ان يكتفى بذلك القدر من الانتصار ، فجاء نصر الزلافة
ناقصا ومبتورا •

الموقف العسكرى بعد معركة الزلافة : —

قلنا ان الامور طدت الى ما كانت عليه قبل موقعة الزلافة ، وانصرف كل أمير
الى الاهتمام بقضايه الاقليمية فقط ، وانعكس انسحاب المرابطين على الموقف العسكرى
المسيحى ، فالفونسو الذى كان قد خاطب امراء النصارى والقوى النصرانية فى أوربا
يناشدهم المساعدة الفورية عقب هزيمته فى معركة الزلافة ، فقد م عليه من فرنساكل
من دوق برجنديا ولانجدوك وبعض فرسان مقاطعة نورماندى • رأى بـ
انسحاب المرابطين ان يصرفهم الى بلادهم اذ ليس ثمة ما يدعوا الى وجودهم بعد هذا
ولكن هؤلاء فضلوا القيام باستعراض للقوى النصرانية الصليبية • فارتدوا الى انحاء
نهر الابرو شمالا وتوقفوا عنده (٢) وساعدوا من هناك سانشو راميرز ملك ارغونسه
فى حربه مع ابن هود ملك سرقسطه • وتعرضت مدن مملكة بنى هود كقطيطة ووشقة ،
وطرطوشة الى عيث هؤلاء وتخريبهم (٣) • وانصرف الفونسو الى تركيز هجماته وطلعاته
العسكرية المتعددة ، فهاجم اراضى المسلمين حتى وصل الى اشبيلية فعكف فى اراضيها
وظهر فى الافق خطر نصرانى ماحق جاء هذه المرة من حصن لـ
الذى كنا قد اشرنا اليه سابقا فقد بنى الفونسو هذا الحصن عقب استيلائه على طليطلة
فى منطقة تقع بين مرسية ولورقه على رأس جبل شاهق ، وشحن وورد بالسلاح والعتاد

(١) : انظر المعجب ، ص ١٩٩ - ٢٠١ •

(٢) : انظر حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٨ - ٢٩٠ • - محمد

عبد الله غان : مواقف حاسمة ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ •

(٣) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٩٩ • - حسن محمود

نفس المرجع ، ص ٢٩٠ •

وأسند الفونسو قيادته الى احد فرسانه النبلاء وهو الكونت غرسيه خيمينيس^(١) ، واتخذ الفونسو من هذا الحصن قاعدة للهجوم على اراضي المسلمين في مرسية ولورقه وعموم شرقي الاندلس^(٢) ، وكان في الواقع شوكة في حلق المسلمين تخرج منه الفلوات الخاطفة مرة ناحية الشرق ، ومرة أخرى ناحية الغرب تعيث وتفسد^(٣) ، وتمرض شرقي الاندلس ومدنه مرسية وشاطبة ودانية وغيرها من مدن الشرق الى خط سير صليبي حقيقي كان يشنه وينذيه القائد القشتالي المشهور القمبيطور أو القمبيطور أو القمبيطور الذي كان قد انشق على سيده الفونسو السادس من قبل ، وبدأ يمرض خدامته على ملوك المسلمين وخاصة ملوك سرقسطة يحارب أعداءهم من المسلمين والنصارى على السواء . وعندما سحب الفونسو جيشه وقائده البرهانس المذكور سابقا من بلنسية للاستعداد لمعركة الزلاقة ، عرض القمبيطور خدامته على القائد ابن ذي النون صاحبها الذي ملكه اياها الفونسو كما ذكرنا سابقا .

والواقع انه لا يمكن أن يمر بنا ذكر القمبيطور أو السيد كما كان يطلق عليه دون أن نلم بنبذة قصيرة عن هذا الرجل الذي أفردت له كتب التاريخ والادب والملاحم الاسبانية مكانا قلما حظى به مواطن اسباني حتى الآن . فقد قيل الكثير الكثير حول هذا الرجل ، وحول سيرته وخاصة بعدما تحول الى بطل اسطوري قومي عند الاسبان ، رغم أن البحث العلمي الحديث قد أثبت انه لم يكن يوما من الايام بالفارس النبيل ، وبالوطني المجيد ، بل ثبت انه كان أفقا مجولا فنى الاندلس يقدم خدامته لمن يدفع له أكثر .

الاسم الحقيقي للقمبيطور أو السيد هو رودريجو دياز ديبيبار
Rodrigo Diaz de Vivar . وكان أبوه فصلا تابعا للملك فردناند الأول^(٥)

(١) : غرسيه خيمينيس : GARCIA GIMENEZ ، أحد قواد الملك الفونسو السادس ، وهو الذي احتل قلعة لبيط من قبله . ومن هناك اخذ يشن الفارات على المدينة ونواحيها .

انظر : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ح ٤ ، ص ١٠٠ .

(٢) : محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ٣٣٤ .

(٣) : محمد عبدالله غان : نفس المرجع والصفحات .

(٤) : ابن الكردبوس : نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ . — مجهول : الحلل الوشبية ، ص ٥٤ - ٥٥ .

(٥) : نشأ نظام الافصال كنتيجة مباشرة لنشوء نظام الاقطاع في أوروبا في القرن

وقد ولد في عام ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م ، ودخل هو ابنه في خدمة البيت المالكي ، والتحق الابن خاصة بسانشو الابن الاكبر لفرد يناند وأصبح تابعا له ، ثم رسمه هذا فارسا .
عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م . وقد خاض رودريجو معاركه ضد شقيقه غارسيا وراميرو ملكي نبرة وأرغونة ، ثم حارب في معية الجيش القشتالي الذي استنجد به المقتدر بن هود ملك سرقسطة ضد اعداءات ، راميرو الاول ملك أرغونة الذي قتل في تلك المعركة .
وعندما توفي فرد يناند وقسمت مملكته بين ابناؤه الثلاثة سانشو والفونسو وفارسيا ، وكذلك بين ابنتيه أورাকা والبيره كما قلنا سابقا قام نزاع بين الاخوة ، واستطاع سانشو ان يستولى على مملكتي أخويه الفونسو وفارسيا . ولعب رودريجو دورا رئيسيا في المعركة التي انتصر فيها سانشو على اخيه الفونسو . وكان هذا اول نفور بين الرجلين .
وقد كافأ سانشو رودريجو بأن عينه القائد العام للجيش ، فعلا صيته وتنامى مجده .
ومن ذلك الحين اخذ لقب القبيطور - الكبيطور (الكبيادور) يلصق به . وقد قيل الكثير حول معنى هذا اللقب ، وكان يعتقد انه يعني الفارس البطل ، ولكن التفسير

===== في القرن الثامن الميلادي . وقد جاء نظام الاقطاع كحتمية ضرورية عسكرية وسياسية نشأت في دولة الفرنجة عندما تعرضت في ذلك الوقت لغارات الفكيكج والمسلمين والمجريين . ولذلك وجد الفرد العادي في ظل تلك الاوضاع الامنية المتدهورة نفسه امام خيارين لتأمين السلامة لذاته : اما ان يكون عبدا فن تكون حمايته من واجبات السيد ، او ان يصبح جنديا لدى الملسوك والامراء الذين ازدادت حاجتهم الى الاتباع المسلحين آنذاك لدرجة ملححة شديدة . ونظام الافصال يعني ببساطة التفسيرات ان يسلم مالك الارض ذات المساحة المحدودة ارضه لسيد او نبيل قوى ، ثم يعود فيتسلمها منه كأقطاع ، وبذلك يصبح فصلا او تابعا اقطاعيا له . او هو بمعنى آخر تعاقد بين السيد او النبيل ومالك الارض ذات المساحة المحدودة يقوم على اساس من الحقوق والواجبات المتبادلة .

اما حقوق السادة على اتباعهم (افصالهم) فهي حقوق مالية واجتماعية وحرية . ملزمة تجب عليهم تأديتها والوفاء بها في حدود ما يقضى به العرف الاقطاعي . اما اهم الحقوق والالتزامات التي القاها النظام الاقطاعي على السيد فهي حماية افصاله وولايته وتحقيق العدالة لهم .

ويجب ان نلاحظ اخيرا ان نظام الافصال يتخذ شكلا هرميا يأتي الملك في قمته . والفارس العادي في اسفله .

انظر : سعيد طشور : اوربا في العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٦٨ .

الصحيح الذي استقرت عليه معظم الآراء للمستشرقين المهتمين بالدراسات الاسبانية تقول ان معناه القائد صاحب الفارات في السهول والفحوص (١) . وعندما قتل سانشو تحت اسوار سمورة قلعة اخته اوراكا ، استنفي اشرف قشتالة وليون شقيقه الفونسو من بلاط المأمون ليلي العرش مكانه كما ذكرنا آنفا . ويحكى هنا الكثير عن بداية النفور والكراهية بين الرجلين ، فردريق باعتباره القائد العام للجيش وبرز كونهات الدولة ورجالاتها هو الذي استعد عن حكم المرء الفونسو ليشغول عرش اخيه . وقد أرتأى ردرىق هو والاشرف الاخرين ان يحلف الفونسو قسما يعلن فيه براعته من مقتل اخيه . وتولى ردرىق نفسه مهمة تلاوة القسم ، وكان هذا ما اوغر صدر الفونسو عليه . ولذا فما كاد يستقر في عرشه طم ٤٦٢هـ / ١٠٧٢م حتى عزل ردرىق عن قيادة الجيش ، وولى مكانه احد الفرسان الاخرين المناوئين له وهو غرسيه اوراكا نبيذ (٢) ، ولكنه مع هذا لم يصرفه عن خدمته ، بل ظل تابعا له ثم زوجه من احدى فتيات الاسرة الحاكمة وهى قريبة الفونسو وتدعى خمينا او شمينا Jimena . وعندما بدأ الفونسو يطالب مملكة اشبيلية بالجزية باعتباره وارث حق اخيه ظوسيا (الذى قبض عليه) فى أخذ الجزية من ملوك بنى عباد بحث برسل من جملتهم رودريجو (أورنبريق) لأخذ الجزية فبقوا هناك . وعندما ساءت العلاقات بين مملكتى اشبيلية وغرناطة على النحو الذى رأيناه سابقا تطلع عبد الله بن زيوى ملك غرناطة الى طلب مساعدة الفونسو ومحث له بجملة رسل من بينهم قائد الجيش العام غرسيه اوراكا نبيذ عدو السيد ومنافسه . وحدث ان تلاقت كتاب اشبيلية وغرناطية فى تلك الفترة فخرج كلا من ردرىق وغرسيه لمساندة حليفى الفونسو : المعتمد وعبد الله بن زيوى . وتلاقى الخصمان وجها لوجه لحساب المسلمين ، وانتصر فى هذا اللقاء ردرىق على خصمه غرسيه فقبض عليه ، ولكنه اطلق سراحه فيما بعد . وقد ذهب القائد العام للجيش القشتالى اللينونى غرسيه اوراكا نبيذ الى ملكه الفونسو وشكيا له ما حدث فاغضبه ذلك . ويبدا وان مهمة ردرىق (ردرىجو) لم تكن محدودة بزمان معين ، فقد مكث فى اشبيلية لدى المعتمد فترة ، ثم عاد عام ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م الى عاصمة ملكه ، فاغلق عليه الفونسو وابنه لما فعل . على انه لم يمرض بعد ذلك وقت قصير حتى ضاق الفونسو من تابعه للاخطاء التى كان يرتكبها ، فطرده ونفاه عن مملكته وكان نظام الافصال يحفظ للتابع المنفى حقوقه التى كانت له كاملة

(١) : عن الفحص انظر قبل ص ٤٣٥

(٢) : غرسيه اوراكا نبيذ Garcia Ordonez او غارسيا ردونى قائد قشتالى من فرسان سانجه (الثانى) ملك ليون ، ثم اصبغ من اتباع الفونسو السادس ملك قشتاله ، وهو الذى يسمى فى المصادر العربية (غرسيه ذا القم النبوز او القم المعوج) .

انظر : ابن القطان : المصدر السابق ج ١ ص ٧

وخرج رديق من قشتالة ، واتجه نحو مملكة سرقسطة • وهناك تدخل في نزاع
الاخوة من ابناء سليمان المستعين ثم بين احفادهم • وبدأت من تلك الفترة اسطورة
السيد الكهيدور بطل الملاحم والاساطير •

وكانت احوال ممالك الطوائف وقتها تبعث على الاسى والحزن فقد دخل
رديق ليعمل لحساب هذا مرة ولحساب ذاك مرة اخرى ، وحارب في احايين اخرى
بنى قومه النصرى امراء نبرة وارغونسة ورسلون • وغدا في ذلك الوقت رجل شرقى
الاندلس القوي يعيش هنا وهناك ، ويعرض خدماته لمن يدفع له اكثر ، واصبح حرا طليقا
بعد انفصاله عن سيده الفونسو ليعمل ما يريد • واضطر حكام منطقة شرقى الاندلس
الى مداراته ومهادنته في احايين كثيرة •

وعندما اعلن ابو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية الفعلى استقلاله
الكامل عن طليطلة في اعقاب وفاة المؤمن بن ذى النون تطلع امراء سرقسطة الى
ضمها الى مملكتهم • وأوحوا الى قائدهم المرتزق رديق بذلك ، فبدأ يعد العدة
لهذا • غير ان الامور تطورت في وسط الاندلس عن احداث خطيرة اسفرت عن سقوط
طليطلة وخروج يحيى القادر حفيد المؤمن بن ذى النون كما ذكرنا سابقا • ثم رأينا
الفونسو يرضى القادر بتسهيل احتلاله لبلنسية التى اسلمت له قيادها بالفعل ، ثم
رأينا رد فعل سقوط طليطلة وهو استدعاء المرابطين ، وما أدى الى حشد الحشود ،
فاضطر الفونسو ان يستدعى قائده البرهانس لمشاركته الحرب ضد المسلمين • وهنا يعلن
رودريجو عن خطته المفاجئة التى استغل^{فيها} ذلك الطرف اللقيق ، فاتفق مع المستعين
ابن هود ملك سرقسطة على ان يهاجم بلنسية في ذلك الوقت الذى كان فيه الفريقان
المسلم والنصرانى يستعدان لخوض معركتهما الفاصلة • وجرى الاتفاق ايضا انه
اذا استولى رودريجو (القهيطور) على المدينة تكون الفنائم له ، والمدينة ذاتها
تكون من نصيب ابن هود • وعندما اسفرت معركة الزلاقة عن انتصار المسلمين
تيقظ الحس الوطنى عند رودريجو (السيد) وهو اللقب الذى اطلقه عليه المسلمون
عندما كان في سرقسطة • فبادر الى سيده القديم فصالحه عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م •
وقد عهد اليه الفونسو لسخبرته الطويلة بمشاكسة منطقة شرقى الاندلس ، وهى الاحداث
التي عرضنا لها من قبل • ومن هنا فقد اخذت اعماله تستعيد الطابع الشرعى

فى نظر النصارى بطبيعة الحال • ولكن روح المغامرة والانتهازية جعلته سرطن ما يتنكر لمليكه ، فيعود ليعمل لحسابه الخاص ، اذ مضى يعاود اعماله العدوانية فى اراضى المسلمين وشرقى الاندلس كلها ، ولم يكف بهذا بل هاجم الممالك النصرانية ايضا كملكة برشلونة ، وشدد ضغطه على امارة بنى رزين ، والبونت ، ومريطر وغيرها من الحصون ، كما شدد من تضيقه على اهل بلنسية وارهاقهم بطلب الاتاة والهدايا والتحف • ووافقت هذه الاحداث الفترة التى افاق منها الفونسو بعد معركة الزلاقة ، وبعد انسحاب المرابطين الى المغرب • فبدأ يستفيق من هول الفاجعة ، وتنامى الى سمعه ما يحدث فى شرقى الاندلس فرغب ان يسبق برودريجو اليها ، واستعان لهذا الغرض بقوات بحرية من جنوة وبيزا • ولكن برودريجو هاجم اراضى مملكة سيده اى قشتالة نفسها ، فأهبط الفونسو الى العودة لبلاده •

وهكذا فقد غدا السيد القمبيطور يعمل لحسابه الخاص بعيدا عن مضايقات سيده الفونسو ، وبعيدا عن بنى هود الذين دهمتهم بعد موقعة الزلاقة القوات الفرنجية التى حشدتها الفونسو فى اعقاب المعركة كما ذكرنا سابقا ، والتى كانت قد توقفت عند سرقسطة بعد ان صرفها الفونسو الى بلادها •

كل هذه الامور كانت تحدث والقادر الضعيف يترامى على اعتاب السيد القمبيطور الذى غدا بعد انشغال الفونسو حاميهِ الوحيد • وكان السيد القمبيطور يشتت فى طلب الجزية ، وفقد طلب من القادر فى ذلك الوقت ان يعطيه مائة الف مثقال من الذهب كضريبة سنوية ، مما جعل الاهالى يضيقون بتلك الاوضاع الصعبة والحرجة حتى تدخل المرابطون تدخلهم الثانى فى شؤون الاندلس ، وهو التدخل الذى آثرنا التحدث عنه بعد ان نلم بحياة السيد القمبيطور ، واعماله التى افضت هى واعمال الفونسو العدوانية الى التدخل المرابطى الذى سنتحدث عنه على التو •

(١) : انظر قبل ص ٣٠٤ .

(٢) : هذا العرض عن السيد ونشاطه الذى بدأ فى قشتالة ووصل الى اكثر اجزاء

الاندلس ، واستخلصناه من الكتب والدوريات العربية والمعربة التى تحدثت عن السيد وحياته • ولعل اهم ما يمكن الاشارة اليه من مراجع مهمة فى حياة السيد :

— ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، الفصل السادس ص ١٦٦ —

١٩٧ • والفصل السابع ص ٢٠٠ — ٢٣٦ • — حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الاول ، مايو

١٩٥٠ م ، ص ٣٧ — ٨٧ • — شكيپ ارسلان : الحلل السندسية ، ج ٢

٢٣٥ — ٢٣٦ مع الحواشى ، ج ٣ ، ص ٥٠ — ٧٢ مع الحواشى •

الجـ واذا الثاني للمرابطين الى الاندلس وسداية الوحشة
والنفـ وربيع يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف :

رسمنا في حد يثنا عن الموقف العسكري بعد معركة الزلاقة ملامح عدة
عن الحالة الضنكة التي عانى منها المسلمون في شرق الاندلس بعد الموقعة مباشرة ،
ورأينا كيف أنه تعرض لعدوان نصراني صليبي مباشر من الفونسو ، ومن حامية
حصن لسيط ، ومن السيد القمبيطور ، واذا كان غرب الاندلس قد ارتاح وقتها من غزوات
النصارى ولعدتها ، اتهم بفضل وجود الحامية المرابطية التي تركها يوسف بقيادة ابن
عم الامير سير بن أبي بكر لتساعد ^(١) على تحريرهم مع النصارى هناك ، فان شرق
الاندلس بالذات كان يعاني من ضغط النصارى وهجومهم المركز . ولقد كانت صورة
الوضع في شرق الاندلس تبدو آنذاك قائمة حالكة ، فالتفتت الاسلامي هنا أوضح
وأؤكد . ان كان شرق الاندلس بالذات يوج بعدة امارات صغيرة ، كشاطبة ، موشقورة
ولورقة ، وطرطوشة ، وغير ذلك . وهي امارات ضعيفة تعجز امكاناتها المادية
والعسكرية من ان تقاوم ملك الطوائف الكبرى المجارة فضلا عن النصارى . وكانت
هناك ايضا مملكة بلنسية صاحبة الحظ العاثر وقتها والتي كتب لها ان تكون هندفا
لمطامع وتطلعات الطامحين في خيراتها من المسلمين والنصارى على السواء فلقد
كانت بلنسية أشهى أمانى المستعنين بن هود ، وهو من أجل الاستيلاء عليها لا يرى
مانعا من الاستعانة حتى بالشيطان نفسه المتمثل بالسيد القمبيطور ^(٢) . وهي نفس
الوقت هدفا للسيد القمبيطور نفسه الذي نصب ذاته حاميا وحيدا لها بعد أن
سحب الفونسو حاميته عنها عندما اقتضته دواعي الاستعداد لمعركة الزلاقة ان يفعل
ذلك مضطرا . فرضى صاحبها القادر او لنقل ارغم على ان يكون السيد القمبيطور
حاميه وحاميا معا .

وبالاضافة الى هذه الاوضاع الدقيقة الحرجة فقد كان هناك النزاع بين
المعتمد ابن عباد وابن رشيق حاكم مرسية . وهو نزاع طويل وضع له يوسف
ابن تاشفين اخيرا حدا جاء لصالح المعتمد . ولمعرفة شيء عن هذا النزاع يحسن
بنا ان نعود قليلا الى الوراء عند حد يثنا عن تمرد الوزير محمد ابن عمار على

(١) : انظر قبل ص ٣٠٠ .

(٢) : انظر قبل ص ٣٠٠ .

على ملكه المعتمد ، اذ رأينا وقتها ان ابن رشيق الذي ساعد الوزير بن عمار على احتلال مدينة مرسية قد استغل فرصة غياب محمد بن عمار عن حماية المدينة للأسباب التي ذكرناها سابقا . واستغل ايضا من قبل تقاعد ابن عمار عن حماية استقلاله بالمدينة وافتقاره الى مواصفات رجل الدولة أو مواصفات القيادة . استغل ابن رشيق هذا وأعلن استقلاله بالمدينة لحسابه الشخصي (١) ولقد ساءت العلاقات بين المعتمد وابن رشيق ، فالمعتمد كان يشعر وهو على حق أن المدينة فتحت باسمه وبجيشه ، وهى لذلك تعتبر حقا من حقوقه أو جزءا من ملكه . وابن رشيق يرى غير ذلك ويرى نفسه أنه أحق من المعتمد بالمدينة . وط الذي يميز غيره من المنتزعين والمتسلطين عنه؟؟ . لاشيء فى رأيه اللهم الا التفاوت الزمنى . ولذا فقد استقل بالمدينة وأعلن للملأ ان أهلها قد اختاروه حاكما لها ، بل انه أعلن ان المعتمد لم يقدمه على مرسية وانما الذى قدمه عليها هو ابن عمار (٢) . وبه هى أن تسود حالة من الفتور والنفور علاقة المعتمد بابن رشيق . وجاء ضغط الاحداث وما أفضى اليه من سقوط طليطلة ، فتدخل المرابطيين ، فموقعة الزلاقة ليصرف نظر المعتمد عن حسم خلافه مع ابن رشيق .

ولقد أضرت هجمات النصارى سواء أكانت تلك التى يشنها الفونسو أم السيد القبيطور أم حامية لبيط بالاهالى فى شرقى الاندلس ، وتعرضت أراضيهم وممتلكاتهم للنهب والسلب والتخريب والفساد ، وجأروا بالشكوى دوما مجيب أو سميع . فقرر رأيهم أن يجتازوا البحر نحو يوسف بن تاشفين يشكون له ما حصل ببلادهم ممن عدوان النصارى ، ويستصرخون شهامته ودينه ومروته . فأصغى اليهم ووعدهم خيرا ، وصرفهم الى بلادهم وكان ذلك فى عام ٥٤٨١هـ / ١٠٨٩م . ولقد ألفت هذه الاحداث الخطيرة تبعات كثيرة على المعتمد باعتبار مملكته اقوى الممالك ، وباعتباره اقوى ملوك الاندلس قاطبة وباعتباره المعنى أكثر من غيره بهجوم النصارى واعتداءاتهم المتكررة ، خاصة وأن اعتداءاتهم قد وصلت الى اطار المرية المجاورة التى تعرضت لهجوم القائد القشتالى غارسيا خيمينس ، وفى نفس الوقت تعرضت مرسية لاعتداءات القائد النصرانى

-
- (١) : انظر قبيل ، الباب الثالث ، ص ٢٢٨ .
 (٢) : عبد الله بن زبيرى : المصدر السابق ، ص ٨١ .
 (٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ .

الآخر البرهانس . وتعرضت مدينة لورقة التابعة اسما للمعتمد لاعتداءات بقية قواد الفونسو^(١) . فرأى المعتمد ان الصب قد ألقى عليه وحده أكثر من أى ملك آخر فعمل على اتخاذ اجراء سريع فجهز جيشا بقيادة ابنه المعتمد بعد ان تقاعس ابنه الآخر الراضى عن اداء المهمة مما أدى الى ان يحتب عليه والده ويتدربه كثيرا كما رأينا سابقا^(٢) . ولكن هذا الجيش هزم عند لقاءه بالقوات القشتالية وعاد ادراجه نحو اشبيلية^(٣) . وحاول المعتمد ان يوثق علاقاته مع المعتمد بن صمادح امير المرية والوقوف فى وجه الاعداء صفا واحدا . غير ان هذا لم يجد شيئا^(٤) ورأى المعتمد وقتها ان لامناس من الاستعانة بيوسف بن تاشفين مرة أخرى .

وفى الواقع لم يكن عبور المعتمد الى المغرب ومقابلته ليوسف بن تاشفين خالصا لوجه الله ، رغم ما حاول تأكيده ليوسف من أنه لم يأت الا رغبة واحتسابا وانتصارا للاسلام وللمسلمين .^(٥) قد يكون هذا أحد أسباب توجيهه نحو المغرب والتمنى على يوسف بالجواز ، الا اننا لانرى مانعا من قبول كلام الملك عبد الله بن زيوى الذى يقول (وان المعتمد بن عباد ، لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراه ان يضع ابنه الراضى بمرسية عوضا عن الجزيرة صار بنفسه الى أمير المسلمين ، وجاز اليه البحر يريسه الطمانينة ويحكم معه ماشاء من عمل مرسية وغيرها) . وفى نفس الوقت شرح له الحالة الحرجة التى يمانى منها المسلمون من جراء وجود الحامية النصرانية فى حصن لبيط . (وعظم له شأن لبيط وأنه فى قلب البلد وان لاراحة للمسلمين الا يفقده)^(٦)

وعلى أى الاحوال وحتى وان كان المعتمد قد صدر فى جوازه الى يوسف عن رغبة شخصية ، فان الاوضاع قد باتت لا تطاق . والواجب الدينى يفرض على يوسف

- (١) : انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ١٠٠ - ١٠١
 (٢) : انظر قبل الحساب الثالث ص ٢٣٥
 (٣) : يقول ابن الكردبوس ان الذى قاد الجيش هو الراضى وأنه قد هزم وقتل أكثر جنوده ، ولكن هذا وهما من ابن الكردبوس ، فالمعتمد بعد ان شعر بعدم اهتمام ابنه الراضى وتقاعدته غضب عليه ، وسعت واحدا آخر من ابناؤه وهو المعتمد الى لورقة . وقد انهزم هذا الجيش فعلا وطد ادراجه نحو اشبيلية .
 انظر : الاكفـاء ، ص ١٠١ . - الفتح ابن خاقان : القلائد ص ٣٤ .
 (٤) : انظر عهد الواحد المراكشى : المصدر السابق ص ١٩٦ - ١٩٧ .
 (٥) : انظر مجهول : الحلل الموشية ص ٥٤ - ٥٥ .
 (٦) : المقصود بها طبعها الجزيرة الخضراء التى اخلاها المعتمد للمرابطين ، وطلب من ابنه الراضى ان يتوجه الى مدينة رنده .
 (٧) : المصدر السابق ص ١٠٨ .

ان يبادر مرة ثانية الى التدخل • ويتراعى لنا انه من تلك اللحظة قد اتضح له عدم أهلية ملوك الطوائف وصلاحيتهم • وشعر في هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر ان وصيته لملوك الطوائف بعد موقعة الزلاقة بنبذ الفرقة والتناحر قد ذهبت أدراج الرياح (١) كما تحقق لديه ما كان قد راوه وهو منصرف الى المغرب بعد أن أطلع على خلافات ملوك الطوائف من عدم أهليتهم وصلاحيتهم (٢)

ومع ذلك فقد لبى يوسف نداء المعتمد له وجاز الى الاندلس وبعث من هناك الى رؤساء الاندلس ليوافوه عند قدومه • وبالفعل وافاه معظم رؤساء الاندلس ورافقه من الجزيرة الخضراء حتى حصن لسيط • حيث ضرب عليه الحصار (٣) وقد تحصنت بداخله الحامية النصرانية واثقة من مناعة الحصن وقوة تحصيناته ، وواثقين أيضا من تحوطهم للأمر بثكد يس الطعام والمون ، وفوق هذا كانوا واثقين من مجيى الفونسو لانقاذهم (٤)

وفى الحقيقة محمد هذه الفترة التى كان الحصار مضروبا فيها على لسيط هى التى قررت مصائر ملوك الطوائف • فلقد صمد الحصن أمام الحصار الرهيب الذى ضربه يوسف والاندلسيون عليه ، ولم تجد شيئا كل الوسائل العسكرية التى لجأ الى وضعها وتنفيذها الجيش الاسلامى (٥) واستطالت بهذا مدة الحصار • وظهرت ليوسف وقتذاك حقيقة الوضع المولم فى الاندلس وقد رسم ابن زيوى نفسه صورة واضحة دقيقة لذلك الوضع الذى شهده وعاصره وشارك فيه أيضا • فيقول (وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أصفان سلاطين الاندلس ، ورعيتهم فى ذلك يأتون أفواجا ، شاكين لما وجدوا لمن اسندوا اليه ، فالراضى منهم يلتمس الزيادة ، والساهط يرجو الانتقام ، وجعلوا فى شكوايهم فقها ، وسائط يقصدون نحوهم : منهم الفقيه ابن القليعى قد صار خباؤه

(١) : عبد الله بن زيوى : المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٢) : عبد الله بن زيوى : نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٤ - ٥٥

(٤) : انظر : عبد الله بن زيوى : نفس المصدر اعلاه ، ص ١٠٨

(٥) : انظر نفس المصدر ، ص ١٠٨ - ١٠٩

(٦) : هو الفقيه يحيى بن محمد بن حسين الفسائى المعروف بابن القلاعى (ت ٤٤٢ هـ)

١٠٥٠ - ١٠٥١ م) • وقد نأى به حبه للسياسة والوظائف عن سميت العلماء ووقارهم • وقد قام بدور رئيسى لدى المرابطين فى خلع عبد الله ابن زيوى ملك غرناطة •

انظر : عبد الله ابن زيوى : المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٢ ، ص ١١٦ - ١١٨

١٢٧ - ١٢٨ • - حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨٥ - ٨٦

بتلك المحلة مغنطيسا لكل صادر ووارد ، يجد بهم السبيل الى الطلب للقدر
الذى قدره الله . ورأى سلاطين الاندلس عند ذلك من تحامق رعائهم وامتناعهم
عن مفارم الاقطاع التى كانت عليهم ، مع احتياجهم الى الانفاق ، ماقلق به وساء
الظن من أجله ، جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتحف
متوالية ، لو فرط منها فى شىء لانخرمت عليهم الاحوال ، ثم رعائهم تمتنع من تأديته
ما تقوم به الحال الموصوفة ، فلا حيلة الا بين صبر يودى الى ملامة توجب عوثة ، أو
امتناع يودى الى استئصال كالذى جرى . ونسمع فى هذا كله من أهل جهاتنا تهددا
وعصيانا انكرناه ، ولا تتم به مملكة ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة . ولقد كان القليمى
المذكور فى تلك المحلة يخاطب اخوانه بحضرتنا اللامعطين شيئا ، ويعدهم بما كان ،
فلما كان يأتهم الحفز منا ، ويقعدون بنا ، ونحن احوج ما كنا اليه للانفاق ، ولا سيما
فى تلك المحلة التى عدتنا فيها الاقوات الا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك
ضرر شنيع . وطالت تلك المحلة الملعونة ، فكانما ^(١) مطلق أبان الطيب من الخيف ،
وكشف العورات ، فلم يزد الرؤساء الا توحشا ، ولا الرعية الا تمسكوا ، ولا
الداخلون على مثل هذه النوبة الا طمعا ، وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ،
وهم فى اسباب الخرق : فمن اغتر منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب وشغله ذلك
ما هو فى سبيله ، ومن ميز انفراد ، لم يجد معينا حتى توغل فى اللجة واخذته
الحملة ، وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا ، وسعدا للمرابطين مقبلا . ^(٢)

هذا التصوير الدقيق للاوضاع يوضح لنا عدة حقائق منها : ان الرعية

فى معظم ممالك الطوائف وصلت الى حد لا يمكن معه ان تستمر تدفع ثمن خلافت ونزوات
الملوك والرؤساء فى تحقيق مجد ذاتى ، وتوسع تصب خيراته فى جيوسهم وحدهم .
ولذا فعند ما لمحووا بريقا من عطف يوسف وشفقته عليهم ، ^(٣) تطلعوا نحوه راغبين اليه
ان ينقذهم من عسف ملوكهم وأمرامهم الذين يفرضون عليهم الضرائب والمكوس الباهظة .
ورأوا فى قوة المرابطين الفتية ما يمكن معه التفاؤل بانقشاع الخطر النصارى الذى اسهم
الرؤساء بسوء سياستهم فى اذكاهم . بل ولاح لهم بريق من الامل والتفاؤل بسحق
ذلك الخطر المائل .

والامر الثانى او الحقيقة الثانية ان الفقهاء تزعموا وقتها رفع راية الاستنكار
والاحتجاج على الوضع المزرى الذى وصلت اليه الامور فى الاندلس . بل انه تزعموا

(١) : المقصود به بدهة المعسكر الذى ضرب الحصار على الحصن .

(٢) : المصدر السابق ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) : انظر قبل ص ٢٦٧ وما بعدها .

التعبير عن رغبات الرعية ومطالباتها ، ومضوا في عداوتهم لملوك الطوائف حدا بعيدا جدا قطعوا فيه كل خطوط الرجعة وجائل الود مع هؤلاء الملوك . وتعلقوا بيوسف يرجونه ويستعطفونه ان يضع حدا لتلك الاوضاع . واصبح الفقهاء في حقيقة الامر قوة خطيرة يحسب ملوك الطوائف حسابها . وسنرى بعد قليل صورا لهذه المكانة التي بلغوها . والتي يلوح لنا انهم ما كانوا ليلفوها لو لم يشجعهم يوسف بن تاشفين على ذلك . وقد وصل الامراخيرا الى ان ينتصرتيارهم الداعي الى خلع ملوك الطوائف وتسليم الاندلس جملة الى ابن تاشفين (١) .

اما الحقيقة الثالثة التي نستخلصها من كلام ابن زيري ، فهي ان هناك بعضا من المنتقمين من امراء المرابطين كانوا يوهقون ملوك الطوائف وامرائها بطبائهم التي لا تنتهي . ولا نستبعد ان يحدث هذا فهو شيء مألوف يقع دائما . ولقد كلف اغضاب ابن زيري لاحدهم كثيرا ، فقد كلفه ضيقه من طلبات احد قواد المرابطين ملكه وعرشه كما سنرى بعد ان شاء الله .

والمهم ان هذه الصورة هي التي كانت تسير الامور وفقها في حصار ليبيط ، وتوضح ليوسف ان هناك هوة عميقة تفصل الرعية عن ملوكها ، كما ان هناك هوة عميقة ايضا تفصل بين الملوك والفقهاء والعلماء على النحو الذي رأيناه . بل ان هناك تباينا واضحا واختلافا مريفا بين الملوك انفسهم ، فقد طفت خلافتهم الى السطح ، وبدأوا ينشرون خلافتهم واحقادهم علانية وجهارا . واخذ كل واحد منهم يدس على الآخر ماشاء له من اشاطات ودعوى مضللة . وبدأت المزايدات بين هؤلاء الملوك بعضهم البعض تقوى وتشتد . ان اعلن ابن رشيق حاكم مرسية انه قائم بدعوة يوسف بن تاشفين ، بل افضى به الامر الى ان جعل الخطبة في مملكته باسم يوسف بن تاشفين ، واستمال اليه الامير سينر بن ابي بكر ودفع له الاموال والتحف . اما المعتمد فقد ساءم ذلك وعمل من ثم على استمالة احد قواد يوسف وهو المدعو قرور الحشمي ودفع

(١) : آنخيل جنتال بالانشيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، مترجمة حسين مونس ، ص ٩٨ .

(٢) : عبد الله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٣) : هذا القائد هو : قرور او جرور الحشمي كما كان يعرف في بعض المصادر

المرسية ايضا هو احد ابرز قواد المرابطين في الاندلس . وقد كان وصوليا

انتهازيا هدف في كثير من الاوقات الى خدمة مصالحه الخاصة . وقد اسهم

بدور ملحوظ في خلع عبد الله بن زيري ملك غرناطة .

انظر : عبد الله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١١٠ ، وص ١١٤ - ١١٦ ،

ص ١٥٥ - ١٦١ . - ابن ابار ، المصدر السابق والجزء ٦ ، ج ٢ ،

ص ٦٢ .

(١)

لسه الكثير كما يقول ابن زيوى ، واشتكى ليوسف من ان ابن رشيق خارج عليه ، وان
المدنية من الناحية الرسمية لا تزال تحت سلطته بدليل انه كان يدفع جزيتها السنوية
للقونسو . واستشار يوسف الفقهاء في ذلك فاقترحوا بان تعود السلطة في مرسية
للمعتمد . فسمح يوسف للمعتمد بالقبض على ابن رشيق ، ولكنه طلب منه ان لا
يقتله . والظاهر ان يوسف رأى في ذلك الوقت الحرج ان مداراة المعتمد والتودد
اليه اجدى من مداراة ابن رشيق حتى وان كان قد دعى باسمه . فلقد خير في تلك
الفترة الاعيب ملوك الطوائف واحاييلهم . ورأى ان ابن رشيق لم يفعل ذلك الا من
أجل الايقاع بينه وبين المعتمد ، وانه انما فعل ذلك ليتخلص من الملامة والمواخظة في
مده يد العون والمساعدة للتصاري في حصن لبيط . وفي الوقت الذي كان فيه يوسف
يحاول تهدئة خواطر ملوك الطوائف ، كان البعض منهم يمارس هواية الصيد في الاحوال ،
فيحكى ان المعتمد بن صامح صاحب المرية أخذ يتودد لامير المسلمين يوسف بن
تاشفين ويظهر له الودعة والاخلاص والنصح حتى استطاع ان يتمكن من قلب يوسف .
ومن ثم عمل على ان يوغر صدره على المعتمد ، ويلقى اقوالا سيئة على لسان المعتمد
حتى تمكن بالفعل من ايفار صدره عليه . ويروى عبد الواحد المراكشى هنا ان حوارا
دار بين المعتمد والمعتمد حول يوسف ، فقام هذا بنقله الى ابن تاشفين . ونحن
لا نستبعد ان يكون المعتمد قد أفصح لزميله ملك المرية عما يدور في خلده وخلد غيره
من ملوك الطوائف . ويخيل لنا انه لم يكن يتوقع ان يبادر المعتمد بنقل مسادر
بينهما الى يسوسف ومهما يكن فان عبد الواحد المراكشى يروى ان المعتمد قال
للمعتمد في معرض حوارهما ان اقامة يوسف قد طالت في الجزيرة فاجابه المعتمد :
(لو عوجت له اصبعى ما اقام بها ليلة واحدة هو ولا اصحابه . كأنك تخاف غائلته ،
واى شيء هذا المسكين واصحابه ؟ ، وانما هم قوم كانوا في بلادهم في جهنم
من العيش ، وغلام من السمر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجارا ،
فاذا شبعوا اخرجناهم عنها الى بلادهم . . . الى امثال هذا القول من تحقير امرهم ،
وأعانه على ذلك قوم من وجوه الاندلس .)

- (١) : عبد الله ابن زيوى : المصدر السابق ، ص ١١٠ .
(٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ - ٥٦ .
(٣) : عبد الله بن زيوى : نفس المصدر السابق ، ص ١١٠ - ١١١ .
(٤) : انظر : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ص ٨٥ - ٨٧ .
عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٨ . الفتح
ابن خاقان القلائد ، ص ١٤ - ١٥ .
(٥) : نفس المصدر السابق ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

وعلى اية حال فهمها يكن في هذا الحوار من المكابرة والتحدى والضيق الذي جاش به صدر المعتمد في ساحة ضيق وغم ، فانها تعطينا المثل على انحطاط الاخلاق والمثل الى درجة سحيقة لدى ملوك الطوائف وقتها ، حتى بين الاخ واخيه . ان يروي ابن زيري ان اخاه تميم صاحب مالقة قد عاود تشكيه وتظلمه منه لدى يوسف ابن تاشفين ، وكان تميم الذي شكى اخاه عبد الله بعد موقعة الزلاقة مباشرة ، عاد مرة اخرى ليشكوه الى يوسف ويكرر ذلك حتى ضاق يوسف ذرعا بهذا الاسفاف ولكنه مع هذا بعث لعبد الله يطمئنه ويهدئ من روعه ويعلمه (ان غرناطة أكد عليه من مالقة لاحتياجه الى الاجتياز عليها في غزواته ، وما اشبه ذلك من المرافق) . (١)

استطالت مدة الحصار الى نحو بلغت فيه اربعة شهور . لم يجد معها (٢)

كما ذكرنا كل الوسائل التي استخدمها الجيش الاسلامي في الحصار ، بل انه ما كان يزيد المعاناة الاسلامية حرجا ان مجموعات من هؤلاء المحاصرين النصارى كانت تتسلل خارج الاسوار وتفتك بمحلة المسلمين ، ثم تعود ادراجها نحو الحصن ثانية . وعندما حسم الخلاف بين المعتمد وابن رشيق على النحو الذي رأيناه ، غضب اتباعه واقاربه ، فانسحبوا من المعركة والتحقوا بمدد يفتهم . ومن هناك حصنوا المدينة وقفلوها في وجه المعتمد والمرابطين ، بل وقطعوا الميرة عن المعسكر الاسلامي . ومن الطبيعي ان يؤدي هذا الى اختلال الامور ، فانتشرت المجاعة في المعسكر وقلت الاسعار ، كما ادى هذا الى حدوث ارتباك داخل صفوف الامراء والملوك ، فخافوا ان يصيبهم ما حل بابن رشيق ، وساء ظنهم بيوسف ، وساء ظن يوسف بهم اكثر . وشعر يوسف بحض طول هذه المدة ان من المستحيل الاستمرار في الحصار لا سيما في وسط ذلك الجو المحموم من الاقاويل والشائعات ، ووسط ذلك التفتت والتمزق مع استمرار المقاومة الشديدة من النصارى . وصدق ان نقلت عيون المسلمين وجواسيسهم المنبثة داخل المعسكر النصراني غم الفونسو للتقدم نحو الحصن وانقاذ حاميته المحاصرة . (٦)

- (١) : عبد الله ابن زيري : المصدر السابق ، ص ١١٣ .
 (٢) : صالح بن عبد الحليم : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
 (٣) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .
 (٤) : عبد الله بن زيري : نفس المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٣ . - مجهول :
 الحلل الموشية ، ص ٥٥ - ٧٧ .
 (٥) : حسن محمود : نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
 (٦) : عبد الله بن زيري : نفس المصدر ، ص ١١٤ .

وتبين ليوسف ان رفع الحصار والانسحاب عن الحصن الى اقرب مدينة اسلامية هو الحل
الواجب عليه اتباعه . وبالفعل انسحب نحو مدينة لورقة ومكث فيها بعض الوقت ،
ومن هناك اتجه نحو بلادهم . وبالفعل ما كاد يوسف يتم الانسحاب حتى جاء الفونسو
الى حصن لبيط (١) فاقنذ حاميته ، ثم انسحب الى طصته طليطلة ، فجاء المعتمد
فوضع يده عليه ، وفي قول آخر ان الفونسو احرقه وسحب الحامية القشتالية منه .

وهكذا فقد جاء جواز يوسف هذه المرة مخيبا لآماله ، كما نيقن تمام
التيقين ان ملوك الطوائف لا يمكن الاعتماد عليهم في هذه المرحلة الخطرة من تاريخ
الصراع بين الاسلام والنصرانية ، وتلاشت من ذلك الوقت فكرة الجبهة الموحدة ، وساءت
على يوسف اذا ما اراد ان يعيد التوازن السياسي والعسكري في الاندلس بين المسلمين
والنصارى ان يتخلى نهائيا عن ان يكون رديفا لملوك الطوائف . ومعنى هذا ان يتخلى
تماما عن فكرة الجبهة الموحدة ، ليواجه ملوك النصارى مباشرة وجها لوجه ، ومعنى هذا
ايضا ان يعمل منذ الآن على ان يستعد للمواجهة بين القوة المرابطية الفتية المتأججة
حماسا للجهاد ، وبين القوى النصرانية الصليبية المتأججة حماسا هي الاخرى
الى مواصلة حركة الاسترداد . وشعر يوسف انه لا يمكن ان يحقق ما تبلور في ذهنه
بعد حصار لبيط الفاشل الا باتخاذ خطوة جريئة مع ملوك الطوائف ، هذه الخطوة هي
ازاحتهم لمصلحة الجهاد الاسلامي ضد الزحف النصارى في الاندلس فقد فرضت عليه
الظروف التزاما دينيا وادبيا تجاه الاسلام والوجود الاسلامي في الاندلس . ومقتضى
هذا الالتزام تهيأت النفوس في الاندلس والعالم الاسلامي الى قبول اي قرار او اي خطة
يتخذها يوسف ابن تاشفين .

وكانت الفترة الاخيرة من حصار حصن لبيط والفترة التي اعقبها بعد ذلك
حالة السواد في حياة ملوك الطوائف ، فقد آذنت شمسهم بالمغيب ، ولم يعد الزمن
يعمل لصالحهم ، فقد انقضت عليهم العاقبة ، والخاصة ، وشمت بهم ممالك النصارى وطعمت ،
ونفر منهم المرابطون ومدوا ، بل انهم فقدوا الثقة وحسن الظن في بعضهم البعض .
واخذوا هم انفسهم يحيكون الدسائس والاقاويل ضد بعضهم بعضا . وحمل القهها .

- (١) : السلاوي الناصري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٢ .
- (٢) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٥ - ٥٧ .
- (٣) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

لواء الدعوة للاطاحة بهم وصرحوا بذلك ، وساحت لهم المكانة العالية التي تحققت لهم
والتي فرضتها الاحداث على ملوك الطوائف فرضا ان تحكوا بموافقة يوسف وتأسيده في
مصائر هؤلاء الامراء والملوك كما حدث لابن رشيق ، وقد فهم هذا الى ان جا هروا
ملوك الطوائف بأنهم سيكررون ذلك ويفعلوه .

وفي هذا الصدد يوسفنا ان تشير الى ان بعض الروايات الغربية فسرت
رغبة الفقهاء هذه بتفسيرات بعيدة عن النزاهة والموضوعية ، اذ يقول
ان فقهاء الاندلس سعوا لدى يوسف بن تاشفين الى خلع ملوك الطوائف لتبرمهم من
الحرية الدينية الواسعة الممنوحة من قبل ملوك الطوائف انفسهم . ويخيل لنا ان هذا
القول فيه من المغالطة والمجافاة لتعاليم الاسلام التي اثبتت رحابة افقها في منح
جميع الطوائف الدينية حرياتها في ممارسة شعائرها الخاصة بها . والظاهر ان
المؤلف الغربي كان يصدر في ذلك عن روح مسيحية متعصبة تبدو في ثنايا كتابه
اذ يبدو انه كان حانقا من وقوع الاندلس تحت سلطة قوة اسلامية فتية ، بدلالة
انه كان يستعمل عند الحديث عن دفاع المسلمين عن انفسهم عبارات الفزور
والانتهاك *INVASION* . وكان يشدد على ان الصراع هو
صراع ديني باستعماله دائما لفظي : المسيحية والاسلام في مواجهة عدائية .

وايا ما كان الامر فان تلك الفترة التي اعقبت حصار لييط حفلت بالكثير
من الاخطاء السياسية الفادحة ، كما حفلت بانعدام الكثير من الاخلاق والقيم
والمبادئ ، فبات كل من تهيأ له قدر من المسؤولية ، او وضعت الظروف في
مواجهة الاحداث يعمل لحسابه الخاص ، وسادت الاندلس وقتها اجواء محمومة من
حالات الريبة والتشكك والابتزاز والانتهازية والخيانة . حتى أولئك الذين كانوا يعملون
تحت قيادة الامير المرابطي المسلم ، او الملك النصراني ، او ملك من ملوك الطوائف
لم يتخرجوا من ان يعملوا لحسابهم الخاص ، وتجلت وقتها روح العصر بأبرز صورها .
نقول حتى بعض قواد المرابطين انساق في لهات محموم للاستفادة من ذلك الوضع
كما رأينا سابقا ، وكما حدث لعبد الله بن زيري مع القائد المرابطي قرور الذي مارس
معه عملية ابتزاز واضحة .

- (١) : انظر عبد الله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١١١
(٢) : انظر : J. B. Bury, Op. Cit., p 399
(٣) : انظر عبد الله بن زيري : نفس المصدر السابق ، ص ١١٤ - ١١٦ .

ولسنا هنا نقف مدافعين عن ابن زيور وغيره من ملوك الطوائف ،
ولن ننزلق في الاخذ باقواله على علاتها ، كما لن ننزلق في الحكم عليه دون أن نخضع
ما حدث للتحليل الموضوعي . فلا ننظر الى ما حدث الا من خلال منطوق العصر .
ولن نأخذ من كلام عبدالله بن زيور الا ما يتفق وسير الحوادث فقط . فالواقع أننا
اذا نظرنا الى الامور نظرة تحليلية موضوعية كما ذكرنا نجد أن ما فعله ابن زيور لم
يخرج عن منطق وروح العصر ابدا . واذا أردنا أن نقيم ما فعله في تلك الفترة
يجب علينا أن ننظر اليها بالمقاييس التي كانت سائدة آنذاك ، وليس بالمقاييس
المثالية والحالية أيضا . فابن زيور كان يتعرض وقتها لضغوط داخلية وخارجية مما
ضغوط داخلية يشنها عليه الفقهاء وخاصة قاضي حضرته القليعي بدافع ديني ربما ،
أو بدافع شخصي ^(١) ربما ، أو ربما بالاثنتين معا ، كما كان يتعرض في نفس الوقت
لمضايقات القائد المرابطي قرور له ، ويعانى هو وغيره من ملوك الطوائف من تدمير
السكان وسخطهم من جهة ثالثة . أما الضغوط الخارجية فقد بدأ الفونسو يشن
غاراته على مالوك الطوائف وبالذات على مملكتي غرناطة واشبيلية ^(٢) .

وفوق هذا وذاك فقد سيطرت حالة من الشك على اذهان واهل
ملوك الطوائف من نوايا يوسف ، مثلما سيطرت عليه هو نفسه ، فالامراء وقد رأوا ما حل
بابن رشيق قد اثابهم حالة من الريبة والجزع . وفي نفس الوقت بلغ يوسف
من التقزز حدا جعله يرفض ما طلبوه من بقاء مجموعات من الجيش المرابطي
في الاندلس ، بل وخاطبهم مؤثما (اصلحوا نياتكم ، تكفوا عدوكم) ^(٣) .

اذا فنحن لا نحلل مواقف كل من الفريقين الا من هذا المنظار ،
أى منظار فقدان الثقة وحسن الظن ، ومن منظار الريبة والتشكك المتبادل تبعا لذلك .
وعلى هذا فنحن نتفهم دوافع ابن زيور فيما فعله من وجهة نظرة الخاصة . فقد أوجت
اليه كل تلك الاعتبارات التي اشرنا اليها بأن يحصن مملكته ^(٤) ويتخذ اسباب التحوط
والحذر من النصارى والمرابطين على السواء رغم ما حاول أن ينفيه عن نفسه من
أنه لم يفعل ذلك الا تحوطا من اعتدات النصارى ، أو على أسوأ الأحوال - في تقديره -

(١) : انظر : عبدالله بن زيور : المصدر السابق ، ص ١١٢ ، ص ١١٦ - ١١٩ .

(٢) : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .

(٣) : عبدالله بن زيور : نفس المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

أن يجد ما فعله تفهما من يوسف لما في ذلك من النفع للمرابطين (فسيكون بذلك للمسلمين حماية وانجرار الى غد ٠٠٠) نقول رغم الدفاع المستميت الذي أظهره عبدالله ابن زيبري من انه لم يفعل ذلك الا للأسباب التي ذكرناها (٢) فانه قد قصد في الواقع المرابطين أكثر مما قصد به النصارى .

أما قضية تعاقدته مع الفونسو السادس ودفعه الجزية له ، فتحاج الى وقفة متأنية . فعبدالله ابن زيبري شعر أكثر من غيره بتهديد يدات الفونسو وقواده له ، وعندما جاءه القائد القشتالي البرهانس المذكور سابقا يطلب منه مالا له خاصة ، أعطاه اياه (٣) . وتأكد هنا ما ذكرناه سابقا من أن الكل كان يعمل لحسابه بطريقة أو بأخرى . ثم لما جاء الفونسو وهدد ابن زيبري بالقتال ان لم يعطه الجزية ، عقد معه هذا مضطرا معاهدة ودفع له بموجبها جزية مقدارها ثلاثين ألف شقال عن ثلاثة أعوام (٤) .

هذه هي المسألة التي أخذت على عبدالله بن زيبري ، وهي التي جعلت البعض يرميه بالخيانة ، مع اننا لو نظرنا الى الأمر بنفس النظرة الموضوعية التي عالجتنا بها ما سبق لرأينا أنه لم يكن بدعا في الأمر وحده ، فقد دفع ابن هود صاحب سرقسطة الجزية لالفونسو اتقاء لشربه (٥) ثم ان منطلق العصر وقتها كان يستسيغ ذلك ولا يستغربه ، فقد حصلت سابقا قبل موقعة الزلاقة وقبل حصار لبيط من معاهدات مع النصارى لدفع شربهم ، بمعنى اننا لم نجد في هذا الموقف وخاصة أن عبدالله ابن زيبري دفع الجزية من أمواله الخاصة ما يدل على خيانة للمرابطين ، فالأندلس لم تكن تقع وقتها من الناحية الرسمية الصرفة تحت سلطة المرابطين ، كما أن عبدالله ابن زيبري لم يكن نائبا عن نواب يوسف بن تاشفين في الأندلس . هذا

(١) : عبدالله ابن زيبري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

وأنظر كذلك :

(٥) : عبدالله ابن زيبري : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٦) : نفس المصدر ، ص ١٢٦ .

من جهة ، ومن جهة اخرى لو ان المعاهدة نصت على كف يد مملكة غرناطة عن مساعدة المرابطين ، ولو ان المعاهدة نصت على ان تسمح مملكة غرناطة لالفونسو لمهاجمة الممالك الاخرى^(١) كان ذلك طعنا للمرابطين ما في ذلك شك . نعم هي استسلام ذليل وتغليب للمصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، بل هي خيانة للقضية الاسلامية نفسها انزلق فيها عبد الله ابن زيوي هو وغيره من ملوك الطوائف .

اما غضب يوسف بن تاشفين على عبد الله بن زيوي ، وجوازه الى الاندلس للقضاء على استقلال مملكة غرناطة فانه في نظرنا يعود الى ان يوسف بن تاشفين فرضت عليه الاحداث والتبعات الدينية والقومية والادبية ان يتدارك امر الاندلس عموما لئلا ينزلق غير واحد من ملوك الطوائف الى نفوس يده من القضية والعودة للاهتمام بالقضايا الاقليمية البحتة . فرضت عليه هذه التبعات ان يتدارك الاندلس ويفرض عليها هيمنتته وسلطته بعد ان اتضح له ان ممالك الطوائف لا يمكن الركون اليها . فضلا عن ذلك فيوسف بن تاشفين هو الذي فرضت عليه جماهير الاندلسيين وفئات اخرى كالقهاء وغيرهم ان يكون صاحب السلطة والنفوذ في الاندلس دون ملوكهم .

وهكذا فقد فوضت تلك الالتزامات والاعتبارات يوسف بن تاشفين لاتخاذ ما يراه من اجراء مع ملوك الطوائف ، وحتى ولو افضى ذلك الى خلعهم وازاحتهم . ولذا فقد بادر الى بعث خطاب ذي لهجة حادة الى عبد الله بن زيوي يستنكر فيه ما اقدم عليه ويتهدده بالمعاقبة^(٢) . والواقع ان عبد الله بن زيوي شعر بجزع شديد وشعر بانه مطلوب حتما ، فقد كان يعاني وقتها من تمزق داخلي وحركة عصيان يقودها القهاء وبعض قواد الدولة ورجالها الذين ما ان راوا علاقاته تسوء مع يوسف بن تاشفين ، حتى بادروا الى الاستفادة من هذا لحسابهم الخاص ، فأخذوا يزايدون عند يوسف بن تاشفين^(٣) على ملكهم ، ويرمونهم بكل صفات الضعف والخيانة ، وبعدم قدرته على قيادة الدولة . . . الخ

وساءت ايضا علاقة عبد الله بن زيوي بالمعتمد الذي شعر بأن المعاهدة التي عقدها مع الفونسو ستؤثر عليه وعلى مملكته ، ولذا فقد بدأ يظهر العداء له

(١) : عبد الله بن زيوي : المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

(٣) : نفس المصدر والصفحة .

رغم انه نفى في دفاعه الحار عن نفسه كل ذلك نفيا قاطعا ، بل انه اشار الى انه قد صرف رسل الفونسو الذين جاؤوا اليه يفتدرون عما سبب له ثماقده معهم من اللفظ وسوء الظن ، فصرفهم منعاً لاي التباس .

على ان التردد الذي كان يطبع تصرفاته ، واصغائه الى آراء المستشارين المتناقضة والتي كان يطبقها دون تمييز جعله يدخل في خلافات مع سكان مملكته من اليهود والبربر الزناتيين وغيرهم ، كما دخل في نزاعات مع بعض قواده ورجال دولته ، وسائر هؤلاء الى الدس عليه عند يوسف بن تاشفين مما أوغر صدره عليه كثيراً ولم تجد شيئاً محاولاته ارساله الرسل الى يوسف بن تاشفين كما تدهورت اخيراً علاقته بالمعتمد كثيراً عندما اراد ان يستفيد من نزاع المعتمد مع أقارب ابن رشيق الذين استقلوا بالمدينة بعد قبض المعتمد على ابن رشيق كما قلنا . وقد أضر عبد الله ابن زيوى لارسال الرسل مرارا الى يوسف بن تاشفين ليشرحوا له وجهة نظره . ولكن حتى هؤلاء الرسل رأوا ان دولة عبد الله بن زيوى قد دالت أو اوشكت على الزوال فدسوا عليه وهم المبعوثون من قبله عند يوسف بن تاشفين . ويقول احد رسل عبد الله ابن زيوى الذي ذهب مع أحد قضاة غرناطة الى يوسف بن تاشفين سفيرا (أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أنى كفتته هو القاضى ضرب عنقه) .

وجهز يوسف بن تاشفين ^{جيشاً} وتوجه نحو سبتة ومن هناك عبر البحر الى الجزيرة الخضراء وتوجه منها الى قرطبة حيث اجتمع هناك بالمعتمد الذي شكى له ما فعله ابن زيوى مما أوغر صدره عليه أكثر . ولكن يوسف بن تاشفين اراد ان يهاجم النصارى قيل ان يصفى حسابه مع مملكة غرناطة . وكان يهدف من ذلك الى ان يفهم الفونسو انه صاحب النفوذ في الاندلس ويفهمه ويحذره في نفس الوقت من مد يد العون لمملكة غرناطة . او ربما كان يهدف الى بث الذعر في نفوس النصارى حتى لا يبادر الفونسو باستغلال تلك الفرصة وطعنه من الخلف .

(١) : عبد الله بن زيوى : المصدر السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٣٠ - ١٤٤ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

والقاضى الذى يقصده ابن زيوى فى المتن هو ابو الاصبح عيسى بن سهل ابن عبد الله الاسدى . وكان طالما جليلاً ولكنه تورط فى الاشتغال بالسياسة .

انظر : حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٨٥ .
(٥) : حسن محمود : المرجح السابق ، ص ٣٠٣ .

والمهم ان المرابطين توجهوا نحو طليطلة وحاصروها وشنوا عليها هجمات
مركزة ، ووصلوا في هجومهم الى اقصى حدود مملكة طليطلة سابقا . وعندما
شعر المرابطون انهم قد حققوا ما أرادوا توجهوا نحو مملكة غرناطة حيث يقبع عبد الله
ابن زيروى خائفا يتربص ، فبعث اليه يوسف بن تاشفين طالبا منه القدوم بسرعة . ولم
يتردد يوسف بن تاشفين فبدأ يهاجم مدن وأراضي مملكة غرناطة فكانت تستسلم اليه
بسرعة مذهلة ، فالكل كان يطمع في ان يتبدل حاله نحو الاحسن ، حتى سكان غرناطة
كلهم ، ابدوا فرحهم وسرورهم حتى الخدم من النساء والخصيان (كل طامع نفس
اقبال الدنيا عليه ، والخروج عن نطاق القصر الى راحة التسريح . . . الخ) .

وأخيرا بعث يوسف بن تاشفين الى عبد الله ابن زيروى يؤمنه في نفسه
دون امواله ، ولم يجد ابن زيروى بدا من التسليم ، فسلم نفسه الى امير المرابطين رغم
انه قد قلب الامر على جميع الواجه ووضعت (٣) الاحتمالات ومنها الاستعانة بالنصارى
ولكنه لم يجد امامه الا ان يسلم نفسه له . وكان ذلك في ١٣ رجب ٤٨٣ هـ وقد نفى
الى المغرب واستقر في مدينة اغمات اخيرا . ورأى يوسف بن تاشفين ان يضع حدا للججاج
تميم شقيق عبد الله وتشكيكاته المتكررة ، فاطبق عليه واستصفى امواله ، وبعثه مهنيا
الى المغرب الاقصى شأنه شأن اخيه .

وهكذا فقد قضى يوسف بن تاشفين في جوازه الثالث على استقلال كل من
مملكتى غرناطة ومالقة ، وبقى عليه ان يصفى بقية حساباته مع ممالك الطوائف الاخرى .
قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة اشبيلية وعلى بقية ممالك الطوائف :-

كانت علاقة المعتمد بيوسف بن تاشفين والمرابطين عموما حتى اثناء حصار
يوسف لمملكة غرناطة حسنة على وجه العموم ، ولكن خطأ المعتمد انه كان يرى نفسه صاحب
الفضل في ذلك التحول الايجابى الذى جاء لصالح المسلمين في الاندلس . كما انه
اعتقد انه لم يعد للمرابطين غنى عنه في تحقيق سياستهم واهدافهم في الاندلس . وجاءت
مسألة تسليم ابن رشيق له لتمطيه زخما يروى فيه ذلك الاعتقاد . وقد يكون في هذا

(١) : عبد الله بن زيروى : المصدر السابق ، ص ١٤٧ - ١٥١ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٥١ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) : نفس المصدر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

شيء من الصحة ، ولكنه يبدو وأنه قد أغرق كثيرا في ذلك الاعتقاد حتى لقد ظن ان يوسف بن تاشفين سوف يعهد اليه بمملكة غرناطة التي قضى على استقلالها ونفسى ملكها الى المغرب على التو . ويقول عبد الله بن زيور ان يوسف بن تاشفين قد ألمح للمعتمد بذلك صراحة ، وانه تلقف هذا الوعد بالابتهاج والسرور^(١) . ولكننا نرى المعتمد يشكك بينه وبين نفسه في ذلك الوعد^(٢) ومع ذلك فانه مضى في تصوره لأهمية دوره الى حد بعيد جعله هو وزملاؤه ملوك الطوائف ينفضون أيديهم عن عبد الله ابن زيور وقت محنته بل ويزايدون عليه عند يوسف بن تاشفين باطلاء على ماكتبه لهم عبد الله بن زيور يحذرهم من أن الأمر سيطلبهم هم من بعده^(٣) . وكان المعتمد يتمجل سقوط غرناطة لتفضي اليه لقمة سائفة ، ولكن يوسف ابن تاشفين لم يكن بتلك السذاجة حتى يسلم المعتمد مملكة غرناطة . فهو قد كون عن ملوك الطوائف والمعتمد بالذات تصور واضح جلي وهو عدم أهلية هؤلاء في قيادة بلاد الاندلس ، كما رسخ لديه تصور واضح وهو أن انقاذ الاندلس من خطر الهجمات النصرانية الشرسة لن يتحقق الا باقصاء هؤلاء عن الاندلس . ولذا فعندما استنجز المعتمد يوسف وعده ، قابله هذا بكل فتور ولم يصغ له . ووقتها فقط أدرك المعتمد حقيقة نفسه وحقيقة الوضع السياسي في الاندلس .

والواقع أن رأى يوسف في المعتمد لم يكن بأحسن من رأيه في

ابن زيور وغيره من ملوك الطوائف ، فيوسف بن تاشفين قد لمس عيانا عند قفوله الى بلاده بعد موقعة الزلاقة المدى الكبير الذي بلغه المعتمد في الانصراف الى المترفات ووسائل المتعة والاهتمام الفائق بالتأنق بالقصور وتزيينها الى غير ذلك من الأمور التي تستنزف موارد الدولة . ولمس أيضا مقدار العنت والارهاق الذين تعانيهما العامة والطبقات الكادحة التي تدفع ثمن هذا الترف والبذخ المقوت^(٤) . كما أن الأمير سير بن أبي بكر الذي تركه يوسف في الاندلس لمساعدة ملوك الطوائف في رد عادات النصراني ضج بالشكوى من حال ملوك الطوائف وخاطب يوسف بقوله (ان الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أشقى العيش وأنكده ، وملوك الاندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه^(٥)) ولكن يوسف ابن تاشفين لم يظهر منه بعد ذلك ما يريب المعتمد ويجزعه ، ولما شعر بأن المعتمد ربما يعتقد أنه قادر على استغلاله كمخلب قط

(١) : عبد الله بن زيور : المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) : نفس المصدر ، ص ١٦٥ .

(٣) : نفس المصدر ، ص ١٦٦ .

(٤) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

(٥) : المقرئ : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ١٠٤ .

لخدمة مصالحه ومشاريعه ابدى نفوره منه عندما استنجزه وعده • وفي هذه اللحظة فقط بدأت علائق الرجلين ببعضهما تسوء وتفسد •

اذا فقد حدث هذا الاحتكاك والنفور الاول بين حليفى الامس فى بطحاء غرناطة بعد القضاء على استقلالها ، وللتو نشط الوشاة والانتهازيون الى الاستفادة من هذا الوضع ، وكثرت بينهما السعيات والوقية (١) • واقترح بعض المرابطين القبض على المعتمد وثقافه ، ولكن يوسف بن تاشفين لم يشأ ان يفعل ذلك دونما ذنب ظاهر يبرر القبض عليه ، ولذلك رفض مطلبهم •

وتهيأ المعتمد لمفادرة معسكر يوسف بن تاشفين وقد وضحت النهاية امام ناظره وعرف حقيقة ذاته وحقيقة الوضع الذى وصل اليه ملوك الطوائف كما ذكرنا • ولذلك اتخذ ائمة المفادرة على وجه السرعة ، وقد تفادى مقابلة يوسف بن تاشفين عندما طلب اليه ان يقابله فاخذ عن مقابلته وقفل مسرط الى بلاده والتقى فى طريقه بالمتوكل بن الافطس فحذره مما لمسه من المرابطين قائلا له (والله لا يسد له ان يسقينا من الكأس الذى اسقى به عبد الله بن بلقين •) ثم عاد الى بلاده وسداً بالفصل يتخذ اجراءات التحصن والتسحوط تحسباً لما تحمله الايام القادمة •

وأراد يوسف بن تاشفين قبل ان يتوجه الى بلاده مقابلة المعتمد بصفة رسمية للتفاوض فى شأن الاحداث الراهنة ، غير ان المعتمد اجاب يوسف اجابة لبقة وواقمية فى نفس الوقت كان منها (ان ذلك كان وقت كنت ضيفاً ، وتريد السفر فلزمتنى معونتك بنفسى وجميع اموالى ، والآن انما انت جار لى مثل باديس وحفيده ، وانت اقدر منى على الشربجنودك فلا يمكنى التخليرو بنفسى ، عسى انك تريد اخذ بلدى ، اذ لاتصح لك غرناطة الا بما يضاف اليها من الاندلس (٢)) •

-
- (١) : محمد عبد الله خان : دول الطوائف ، ص ٣٤٣ •
 - (٢) : عبد الله بن زيور : المصدر السابق ، ص ١٦٨ •
 - (٣) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٧ - ٥٨ •
 - (٤) : عبد الله بن زيور : نفس المصدر السابق ، ص ١٦٩ •

وهذه المواجهة المكشوفة التي جابه بها المعتمد يوسف بن تاشفين لم تعد هناك اى خطوط التقاء بين الفريقين: الاندلسيين والمرابطين، وحل العداء المكشوف والاستياء السافر الصريح محل المجاملات ودواعى الضيافة وغيرها • وبدأ المعتمد وغيره من ملوك الطوائف ينظرون الى المرابطين كهريق خصيم وليس كأخوان يثقون بهم، وفى نفس الوقت أراد يوسف بن تاشفين بعد ان اتضح له موقف المعتمد ان يحذره من اى خطوة طائشة يفكر فيها، وكذلك طلب منه ان يطبق احكام الشرع ويلقى المظالم والمكوس، ويلتزم المرابطة ومدافعة النصارى (فامتنع ابن عباد جهده ونهى على الشر)

وعلى اية حال فقد غادر يوسف بن تاشفين الاندلس متوجها الى بلاده وقد اتضحت له معالم الصورة • والظاهر انه كان يخشى ان يتخذ اى اجراء فى حق ملوك الطوائف حتى لا يلام عليه • ولذلك فقد قبح فى بلاده هناك طيلة الشهر الذى انقضت على مفاد رتبته للاندلس بعد سقوط مملكة غرناطة فى شهر رجب ٤٨٣ هـ •

والظاهر انه كان مترددا ايضا فى اتخاذ اى اجراء لا يستند على الشريعة ولم يكن الفقهاء فى حاجة الى ان ينتظروا الاشارة منه ، فقد كانوا متلهفين على ازاحة ملوكهم وتسليم البلاد الى المرابطين دفاط عن العقيدة والوطن ولذا لم يفتقد اجتماعهم على وجه السرعة واصدروا فتوى شرعية صريحة تجيز ليوسف بن تاشفين خلع ملوك الطوائف جزاء لهم على ما اقترفوه فى حق الله والعباد والوطن وحلوا يوسف بن تاشفين من عهده لهم بعدم الاضرار بهم • واقتره بان خلعهم ليس حقا من حقوقه باجباره مفوض شرعى من المسلمين فى الاندلس فحسب بل هو واجب دىنى مسؤول عنه أمام الله • وقالوا له (هؤلاء الرؤساء لا تحل طاغتهم ولا تجوز امارتهم لانهم فساق فجرة ، فأخلعهم ها ، فقال لهم وكيف يجوز لى ذلك وقد طهدتهم وارتبطت معهم على ابقائهم ؟ فقالوا له ان كانوا طهدوك فهاهم قد ناقضوك ، وأرسلوا الى الفئس ان يكونوا معه عليك ، حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود امرهم اليه ، فبادرهم بخلعهم بجمعهم ، ونحن بين يدي الله المحاسبون ، فان اذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون •

فانك ان تركتهم وانت قادر عليهم ، اعدوا بقية بلاد المسلمين الى الروم . وكنت انت
المحاسب بين يدي الله تعالى . (١)

ومع هذا التفويض الواضح الصريح ، فقد رأى يوسف بن تاشفين ان يحصل
على تأييد علماء المشرق الاسلامي في خطوته تلك ، فبعث برسول الى المشرق لمقابلة
الامام الغزالي وغيره من علماء الاسلام هناك لينقلوا اليهم رغبته في التخلص من ملوك
الطوائف ورغبته في الحصول منهم على سند شرعي . ويبدو ان تطورات الاحداث في
الاندلس قد دفعت الى الهادرة بتنفيذ خطته في القضاء على ملوك الطوائف دون الانتظار
الى الحصول على فتوى الامام الغزالي وغيره من علماء الاسلام بالمشرق ، اذ ان ممن
المعروف ان رد الامام الغزالي واعتراف الخليفة العباسي المقتدي بيوسف اميرا للمسلمين
انما جاء بعد ذلك ، وبعد ان قرر يوسف القضاء على مملكة اشبيلية وغيرها من ممالك
الطوائف في اعقاب قضائه على استقلال مملكتي غرناطة ومالقة . (٢)

- (١) : ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .
(٢) : محمد عبد الله هان : عصر المرابطين والموحدين ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .
(٣) : بعث يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي المقتدي بامر الله رسولين من قبله
هما عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الاشبيلي وولده القاضي ابو بكر ،
وذلك لاخذ التفويض الشرعي من الخليفة بخلق ملوك الطوائف ، ولاخذ مرسومه
الخلافي بتولي العدوتين واليا عليها من قبله . وقد وصل السفيران الى
بغداد وقابلا الخليفة واستحصلوا منه على المرسوم الخلافي بذلك . وقد
قابل السفيران في بغداد الامام ابو حامد الغزالي حيث نقلوا اليه رغبة
يوسف في خلق ملوك الطوائف ، ورغبته في الحصول على سند شرعي من
علماء وفقهاء المشرق بعد ان استحصل على تأييد فقهاء المغرب . وقد اصدر
الامام الغزالي فتوى شرعية تبيح ليوسف خلعهم ، كما حملها رسالة مؤيدة
ليوسف بن تاشفين . وقد اتجه القاضي ابو بكر بن العربي بعد وفاة والده الى
مصر حيث تقابل مع العلامة الاندلسي الاصل الاسكندري السكني ابا بكر بن
الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك ، وقد حصل منه على فتوى اخرى تبيح
ليوسف خلع ملوك الطوائف ايضا .

واخيرا وبعد بضعة اعوام من خروج القاضي ابن العربي عن الاندلس عاد
الى موطنه حاملا رسالتى الغزالي والطرطوشي ، ومرسوم الخليفة المقتدي ليوسف
ابن تاشفين .

ويجب ان نلاحظ هنا ان يوسف بن تاشفين بعث رسوليه الى الخليفة

المقتدي وليس المستظهر ابنه كما توهم البعض ، وذلك لان السيوطي صاحب

كتاب تاريخ الخلفاء اشار الى ذلك ، وبالاضافة الى ابن الاثير في كتابه : الكامل

ولقد رأى يوسف بن تاشفين أن يترك لقواده المشهورين آنذاك مهمة اقضاء ملوك الطوائف ، فاضطلع قائده العام الامير سير بن ابي بكر بالدور الرئيسي في ذلك . ولقد تضاربت الاقوال في وصف ما جرى في ذلك الوقت ، فبعض الروايات تشير الى أن يوسف بن تاشفين أشار على الامير سير بأن يخلع ملوك الطوائف عموماً الا المعتمد ، فقد أمره بأن لا يتعرض له أبداً الا عند ما ينتهي من اقضاء بقية ملوك الطوائف في حالة رفضهم لما عرضه عليهم من الانخلاع عن ممالكهم والرحيل الى العدو ، اذ كان يوسف قد أمره بذلك وأمره أيضاً بمقاتلتهم اذا رفضوا ذلك ، وعند ما استطاع الامير سير أن يقضى على استقلال ملوك الطوائف بعث ليوسف بن تاشفين يطلب منه رأييه تجاه المعتمد ، فكتب اليه يأمره بأن يعرض عليه ما عرضه على زملائه فاذا رفض قاتله شأنه شأنهم . ولكن المعتمد لم يرد على خطاب الامير سير بن ابي بكر بشيء فنازله هذا وقتله . هذه رواية ، اما الرواية الأخرى فتقول أن يوسف بن تاشفين لما انتهى الى مراكش ولّى على الاندلس قائده الامير سير بن ابي بكر اللطوني وفوض اليه جميع أمورها كلها ، ولم يأمره في شأن ابن هباج بشيء ، فسار الامير سير بن ابي بكر نحو اشبيلية وهو يظن أن ابن عباد اذا سمع به فانه سيخرج اليه ويتلقاه عملي بعد ويحمل اليه الضيافات فلم يفصل ، وتحصن منه ولم يلتفت اليه فراسله سير بن ابي بكر أن يسلم اليه البلاد ويدخل في طاعة أمير المسلمين ، فامتنع ابن عباد فعند ذلك تقدم سير الى حصاره وقتاله . (٢)

ويبدو خلافاً لكل ما قيل ان هذه السفارة بدأت بعد القضاء على ملكتي غرناطة ومالقة عام ٤٨٣ هـ ، ومعد أن وقر في ذهن يوسف من عدم صلاحية ملوك الطوائف . أما مسألة التلقب بأمره أمير المسلمين فنحن نتفق مع حسين مؤنس في انه لقب محلي اطلقه المرابطون على يوسف بعد أن رفض التلقب بأمر المؤمنين كما نصح بذلك . ولذلك فقد تلقب بأمر المسلمين وناصر الدين ، ولم يتعرض الخليفة العباسي المقتدى وخاصة بعد بلاء يوسف الحسن في موقعة الزلاقة ، وهذا خلافاً لما اعتقده السيوطي وغيره من أن المقتدى هو الذي لقب يوسف بذلك اللقب ، اذ يذكر حسين مؤنس في مقاله بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، ان الخليفة المستظهر بن المقتدى بعث لعلي بن يوسف بن تاشفين بخطاب اطلق عليه فيه لقب : مقسيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المرابطية . مما يعني أن لقب أمير المسلمين لقب محلي .

أنظر : ابن الاثير : المصدر السابق ، مجلد ٨ ، ص ١٤٣ . — مجهول : الحبل الموشية ، ص ١٩ - ٢٠ . — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢٤ - ٤٢٥ . — حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، العدد ١ ، ٢ ، ص ٦٣ - ٦٤ . — محمد عبدالله غان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤١ - ٤٢ .
(١) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .
(٢) : السلاوي الناصري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣ - ٥٤ .

ويخيل لنا ان هاتين الروايتين لا يمكن الركون اليهما ، فالواجهة المكشوفة مع ملوك الطوائف بعد سقوط مملكة غرناطة كانت مع المعتمد بن عباد . وقد رأينا ابن زيري يروي لنا جواب المعتمد ليوسف الذي سقاه ، وابن زيري شاهد عيان واقرب للاحداث وتبدو روايته معقولة منطقية ، ولذلك فنحن نستبعد ان يكون يوسف قد آثر ترك المعتمد حتى تسقط ممالك الطوائف كما تقول رواية المقرئ ، كما نستبعد ان يكون الامير سير قد تصرف من تلقاء نفسه كما تسمى رواية السلاوي . ولكن الرواية الاقرب للمنطق والوجهة العسكرية البحتة هي رواية صاحب الحلل الموشية . ان يذكر انه عندما استقر رأى يوسف بن تاشفين على اقصاد ملوك الطوائف ، واتجه نحو ثغر سبتة طم ٤٨٤هـ / ١٠٩١م كما ذكرنا . ومن هناك اشخذا الاستعدادات لمنازلة ملوك الطوائف ، وجهز قطائع او كتائب كل كشيبة عبارة عن جيش كامل وعين عليها اربعة من قواد ، عهد الى كل واحد منهم بمهمة معينة في منطقة معينة ايضا . ويظهر من خلال هذه الخطة ان يوسف قد وضع خطة عسكرية استراتيجية تهدف الى الاطهاد على كل نواحي مملكة اشبيلية ومقبة ممالك الطوائف في آن واحد . فعهد لابن عمه الامير سير بن ابي بكر بالتوجه نحو اشبيلية ، ثم اذا فرغ من امرها توجه نحو بطليوس حيث ابن الافطس . وعهد لقائده الآخر ابي عبد الله بن الحاج بالتوجه نحو قرطبة ومنازلة الفتح ابن المعتمد فيها ، وعهد لقائده الثالث قرور او جرور الحشمي بالتوجه نحو مدينة رنسة التي كان يتولاها يزيد الراضي بن المعتمد . وعهد اخيرا الى قائده الرابع زكريا بن واسنو بالتوجه نحو المرية حيث المعتصم بن صمادح (١) .

وهكذا فقد تهيأت الجيوش المرابطية لممارسة دورها كل فيما يخصه ، فاتجه الامير سير بن ابي بكر نحو اراضي مملكة اشبيلية فنازل بعض المواقع وافتتح في طريقه جزيرة طريف التابعة لها . وتوجهت كشيبة اخرى نحو مدينة جيان فحاصرتها ودخلتها صلحا كما في رواية صاحب القرطاس (٣) . وهناك رواية لابن الخطيب تقول ان القوات المرابطية انهزمت امام القوات النصرانية التي استنجد بها المعتمد عندما بدأت مضايقة المرابطين له (٤) .

والواقع ان ما اشار اليه ابن الخطيب من مجيء النصارى لمساعدة المعتمد امر لم يقم عليه الدليل ، فلم يذكر احد غيره ذلك . ولكن هذا لا ينفي اطلاقا ان المعتمد

-
- (١) : مجهول : الحلل الموشية : ص ٥٩ - ٦١ .
(٢) : عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
(٣) : صالح بن عبد الحلیم ص ١٠٠ .
(٤) : اعمال الاعلام ص ١٦٣ .

فكر في الاستعانة بالنصارى والفونسو على وجه التحديد • وهو ما كان يتوقعه يوسف بن تاشفين ، ولذلك كان مترددا في الاجهاز على مملكة ابن عباد حتى تبين له علانية خبيثة اتصاله بالنصارى • والمعتمد نفسه لم ينكر ذلك ، فعندما وجد نفسه محاصرا من قبل الجيوش المرابطية (وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل اذ ذاك الى الرومى يستغيث به ففقد عنه خيفة من التفرير ، وهى حجة أمير المسلمين على بن عباد ان قال له : ظفرت بكتبك الى الرومى ، وارسالك عنه (١) • ولقد كانت اجابة المعتمد على خطاب يوسف بن تاشفين تدل دلالة قاطعة على انه غير مستعد اطلاقا الى تسليم مملكته الى المرابطين حتى لو أفضى به الامر الى مواجهة يوسف بن تاشفين • وفى الواقع ان هذا الاجراء من الناحية البشرية الصرفة ربما يتيح لنا أن نتفهم - من وجهة نظره - دوافعه الى الاستعانة بالنصارى •

وعلى أية حال فقد أتاح المعتمد بجوابه ليوسف

ابن تاشفين المبرر لأقصائه وخلمه مستندا في ذلك على سند شرعى ملموس • وثقول رسالة المعتمد ليوسف بن تاشفين التى دافع فيها عن نفسه فى طسب الاستعانة بالنصارى : (لو فعلته قبل أن تؤخذ بلادى بطرا واشرا ، كت ألام !) • وأما بعد أن رأيت طلبى فى الروح ، اضطررتنى الضرورة الى ذلك للمدافعة ولو يوما واحدا (٢) •

ومن كلام عبد الله بن زيرى نتبين أن الفونسو قد تقاعس عن

مد يد العون الى المعتمد خوفا من التفريره فى أول الأمر ، ولكنه عاد الى تقديم نصرته بعد قليل كما سنرى بعد •

كانت جيان أول قاعدة عبادة تسقط فى يد المرابطين ، وقد

توجهوا بعد ذلك نحو مدينة قرطبة عاصمة الخلافة القديمة وضرب عليها القائد المكلف بافتتاحها محمد بن الحاج حصارا (٣) يد ا طال لمدة شهور عدة ، مما اضطر حاكمها الفتح بن

(١) : عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ •

(٢) : نفس المصدر والصفحة •

(٣) : وفى رواية اخرى لصالح بن عبد الحليم صاحب كتاب روض القرطاس تقول (ان الذى

فتح قرطبة هو القائد : بطى بن اسماعيل) •

المعتمد الملقب بالمأمون الى أن يبحث بآله وولده الى حصن المدور الذى حصنه وشحنه بالاسلحة والعتاد^(١) ويقول ابن خاقان ان اهل قرطبة كانوا يتوقون الى أن تقع مدينتهم فى ايدى المرابطين ولذلك اخذوا يدعون داخل المدينة شعاعهم . وعلى اية حال فان الفتح لم يستطع البقاء طويلا فى حصاره ، فقد استطاع المرابطون التسلل ناحية السور ومن ثَم أُطبقت جيوشهم على المدينة فى شهر صفر من عام ٤٨٤هـ / مارس ١٠٩١م . وافتتحت المدينة عنوة وقتل الفتح بن المعتمد وقطع رأسه وحز ، ثم طيف به على سن رمح^(٢) .

واتجه المرابطون اثر ذلك الى الاستيلاء على بقية معاقل المملكة الاشبيلية فاستولوا على كل من مدينة ابدة ، وسياسة ، وشقورة ، ثم استولوا على حصن المدور وأخيرا قلعة رباح . مما يعنى أنهم قد استطاعوا احكام سيطرتهم على معظم اراضى الوادى الكبير ، ولم يبق من معاقل مملكة اشبيلية سوى رندة وقرمونة واشبيلية ومرتلنة^(٤) . على انه لم يمض وقت يسير حتى سقطت قرمونة بدورها فى ربيع الاول عام ٤٨٤هـ / مايو ١٠٩١م . ثم جاء الامير سيور بن ابي بكر نحو اشبيلية فحاصرها بقوات ضخمة أوحى للمعتمد أنها قضية حياة أو موت ، وسقوطها تسقط مملكته كلها . ولذلك بعث مرة أخرى الى الفونسو السادس يستصرخه . وهنا تحرك الفونسو السادس عندما شعر بخطورة ما يجرى فى اسبانيا الاسلامية ، ويات ينظر للخطر المرابطى على انه ليس قاصرا على الممالك الاسلامية ، بل يتعداها الى شبه الجزيرة الاسبانية كلها . ولذا فقد بادر فوراً الى تجهيز حملة الى وجه السرعة بقيادة قائده البرهانس اختلف فى عددها ، وكذلك اختلف فى عدد الجيش المرابطى^(٥) . والتقت الجيوش المرابطة والقشتالية بالقرب من اشبيلية ، وانتهى اللقاء بانتصار المرابطين انتصارا باهرا^(٦) .

وفيه من خلال الروايات المتعددة لاحداث حصار اشبيلية عدة أمور منها : أن حصار اشبيلية قد طال الى نحو أربعة شهور ، وان المدينة قد

- (١) : ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٢ .
- (٢) : نفس المصدر والصفحة .
- (٣) : محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .
- (٤) : نفس المرجع والصفحة .
- (٥) : نفس المرجع ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .
- (٦) : نفس المرجع والصفحات .

استبسكت في الدفاع حتى لقد أثار إعجاب واستغراب القائد المرابطي
الامير سير بن ابي بكر^(١) كما يفهم من سياق تلك الروايات أن ثورة شعبية
داخلية قد نشبت في الايام الاخيرة من الحصار بالتواطؤ مع المرابطين وقد دعت
بدعوتهم هدهفت الى اثاره جمو من البلبلة والقلق في المدينة تتج للمرابطين
الدخول الى البلد في ذروة الانشغال بذلك . غير أن المعتمد الذي وقف على
مخططهم هذا لم يشأ أن يعاقبهم بالقتل كما هو متوقع ولكنه أثار الصفع
عنهم^(٢) . كما يفهم أيضا أن ثورة اخرى قد نشبت وكاد المعتمد يذهب
ضحيتها قتيلا على يد أحد الفرسان المرابطين الذين استطاعوا بمساعدة
أولئك الثوار أن يتسللوا الى المدينة غير أن المعتمد بذل جهدا واضحا
في الدفاع عن نفسه وعن مد ينته . الا أن الامير سير وضع خطة عسكرية
تهدف الى احراق السفن الراسية في شاطئ الوادي الكبير . فقد وضع
هذه الخطة لتصادف في الوقت نفسه الثورة الداخلية بوساطة أعوانه هناك
وبالفعل ما كاد يتنفس المعتمد الصعداء في ذلك اليوم الذي نشبت فيه
الثورة الثانية حتى كانت القوات المرابطية قد أنهت مهمتها باحراق السفن
في عصر ذلك اليوم نفسه وهو الثاني والعشرين من شهر رجب ٤٨٤ هـ / سبتمبر
١٠٩١ م^(٣) . وعم الفزع والرعب سكان المدينة وبذل المعتمد جهده في
الدفاع واستمات في سبيل ذلك . وعندما يأس من المقاومة عن له أن يتحصر
ويقتل نفسه بيده ولكنه عاد بعد ذلك (فصرفه تقاه عما كان نواه)^(٤)
وسقطت المدينة أخيرا في يد المرابطين وقتل في أثناء ذلك عدد

(١) : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ . — محمد عبدالله عنان :
دول الطوائف ، ص ٣٥١ .

(٢) : عبدالواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(٣) : هذا هو التاريخ الصحيح كما جاء في رواية عبدالله بن زيري المعاصرة .
وكما ورد في الروايات النصرانية التي تؤرخ ذلك بتاريخ ٧ سبتمبر
الموافق تماما للتاريخ الهجري المذكور كما يقول محمد عبدالله عنان .

أنظر : عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ . — محمد عبدالله عنان :
دول الطوائف ، ص ٣٥٢ . ح ١ من نفس الصفحة .

(٤) : ابن خاقان : قلائد المقيان ، ص ٢٢ — ٢٥ .

كبير من الجيش الاشبيلي وأفراد من الشعب • كما قتل ابن للمعتمد
اسمه مالك • أما المعتمد فقد قبض عليه وقيده وكبل وانتهب الجنود
القصور الفخمة وجميع ما قد روا عليه (١)

وهكذا كانت نهاية هذا الملك الذي كان يعتبر وقتها
أقوى ملوك الطوائف ، وتعتبر مملكته أكبر تلك الممالك وأقواها ،
فسقطت سريعا في مدة يسيرة • وهذا انما يدل على وهن الاساس
الذي قامت عليه ، وعلى ما أصابها من تصدع داخلي اجتماعي خطير
جعل السكان يتوقنون الى استبدالها بعد أن ملّ الناس هذه الدولة (٢)
وضجوا بالشكوى من تصرفات وسياسات ملوكها التي تستنزف الموارد
والمحاصيل •

وقد أشرنا الى أن فرقة من الجيش المرابطى توجهت بقيادة قرور
أوجرور الحشمى الى زنده لمحاصرة يزيد الراضى بن المعتمد وحاصره
فعلا • وامتنع هذا بالقلمة وكانت زنده حصينة تماما بتحصيناتها
الطبيعية والبشرية • ولذا فلم يكن فى امكان المرابطين الاستيلاء
عليها بسرعة لانها كانت قادرة على مواصلة المقاومة طويلا بفضل ما كان
لها من حصانة • وقد حاصرها المرابطون فى الوقت الذى كانوا يحاصرون

(١) : يرجع فى اخبار ثورة وسقوط اشبيلية الى :

— عبدالواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ — ٢٠٤ •

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الرابع — المجلد الاول ، ص ٤٢ •

و ص ٤٥ — ٤٦ • — عبدالله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٧٠ •

— ١٧١ • — صالح بن عبدالحليم : المصدر السابق ، ص ١٠٠ — ١٠١ •

— ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٣ — ٢٥ • — المقرئ :

المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩ (نقلا عن ابن اللبانة معاصر

تلك الاحداث) • — ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ١٦٤ — ١٦٥ •

والاحاطة ، ج ٢ ، ص ١١١ — ١١٢ • — محمد عبدالله هان : دول

الطوائف ، ص ٣٥٠ — ٣٥٥ •

(٢) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٧٨ •

فيه اشبيلية ، وعند ما سقط المعتمد أسيرا في يد المرابطين امتنع
يزيد الراضى فيها ولم يصغ لنداءات المرابطين له ، وصمم على المقاومة
حتى النهاية ، غير أنه استجاب لنداء أبيه له واستعطافه إياه .
ويبدو أن المعتمد تعرض لضغط مرابطى شديد ليطلب إلى ابنه بالاستسلام ،
فاضطر الابن تحت الحاح والده وبعد تأكيدات من المرابطين بضمن حياته
هو وأولاده وخاصته إلى النزول عن المدينة وتسليمها إلى القائد المرابطى .
غير أن هذا القائد ما عثم أن غدربه فقتله ^(١) . ويحمل ابن زيرى ^(٢) على
عدوه قرور ويتهمه بالقيام بأعمال شنيعة فى زندهة . ولكن ما يهمنا هنا
هو أن زندهة قد سقطت فى يد المرابطين ، وأنهم لم يفوا بتعهداتهم
نحو الراضى فقتلوه .

أما مدينة مرتلة أو مردلة التى تحصن بها الابن الثالث

للمعتمد وهو الملقب بالمعتد ، فقد حاصرت القوات المرابطية ، فامتنع
بها وتحصن . وكانت مرتلة ضيقة حصينة على غرار حصانة زندهة .
ولكنه استجاب لنداء أبيه ووالدته اعماد الرميكية ، فنزل عن المدينة
للمرابطين ، فقبضوا عليه ، وصادروا جميع أملاكه وأمواله ^(٣) .

وبهذه النهاية زالت دولة بنى عباد فى عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١ م

بعد حكم ناهز سبعين عاما . كانت فيه دولة بنى عباد دولة الممالك
الاسلامية فى الاندلس آنذاك وأقواها وأبرزها رونقة وبها . وحمل
المعتمد بآله وأهله إلى المغرب الأقصى حيث استقر به المقام هناك
فى مدينة أغمات ، حيث بقى هناك يتجرع المرارة والأسى ، ويجتر
الذكريات السعيدة لملكه وهنائه .

ومن الضرورى أن نشير هنا إلى أنه قد جرت محاولة

فاشلة لاعادة سلطان دولة بنى عباد قام بها ابنه عبد الجبار الذى

(١) : انظر عبد الله بن زيرى : المصدر السابق ، ص ١٧١ . — عبد الواحد المراكشى :

المصدر السابق ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ . — ابن خاقان : قلائد المعيان ،

ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) : انظر المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٣) : عبد الواحد المراكشى : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

استقر بدمينة أركش مدة من الزمن وتحصن بها ، غير أن هذه المحاولة
باعت بالفشل والخذلان وقتل عبد الجبار على يد المرابطين وسحقت ثورته .
وقد تركت ثورته هذه مضاعفاتها السيئة على أبيه في منفاه ، فشدد
المرابطون عليه الخناق . وخاف المرابطون من جراء ذلك أن تؤدي تلك
الثورة الى احداث وردود فعل أخرى ، فاشتطوا في معاملته وتقييده
وتكبيله .^(١)

ويبقى أخيراً في قصة مأساة المعتمد ما أتهم به ظلماً
وعدواناً ، ومالحق بشخصه من فرية واختلاق ، أعنى بذلك قصة زائدة
(ابنة المعتمد) التي عرضت قضيتها كتب المؤرخين النصراني قديماً^(٢) . ولقد
عرضت قضية زائدة (ابنة المعتمد) كما يزعم أولئك المؤرخون وسط ستار
من الشك والتضليل . وقد ظلت هذه القضية مشار جدل منذ القرن الثامن
عشر الميلادي وحتى أوائل القرن العشرين^(٣) عندما أثبت البحث العلمي خطأ
ذلك الاعتقاد ، وأثبت أن زائدة ليست ابنة المعتمد ، كما أثبت البحث

(١) : أنظر ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٨ - ٢٩ . - المقرئ :
المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٢) : الواقع أن المؤلفات الاسبانية هي التي أشارت الى هذه القضية . ولم تشر
أية رواية اسلامية لهذه الاحداث اطلاقاً اللهم الا الروايتين اللتين اعتمد
عليهما ليفي بروفنسال في تحقيقه لشخصية زائدة ، وهي رواية ابن عذارى
في كتابه البيان المغرب في اخبار سنة ٥٠١ هـ (١١١٨ م) ، وكذلك رواية
الونشريشى صاحب كتاب الميعار المغرب والجامع المغرب من فتاوى
أهل افريقية والاندلس والمغرب ، طبع فاس سنة ١٣١٤ هـ . نقول
عدا هذين النصين في المصادر الاسلامية لم تشر الى تلك الاحداث
الا الروايات النصرانية : كمدونة الاسقف رودريغ الطليطلى المؤرخ
الرسمي في عهد الملك فرديناند القديس والتي وضعها عام ١٢٤٣ م
وهي رواية بعيدة عن الاحداث تماماً ، وكذلك رواية للمؤرخ بلايو
أوفيدو معاصر الفونسو والتي رواها من بعده أسقف توى
في كتابه : *Chronicon Mundi* الذي يعود الى عام ١٢٣٦ م .
حتى لقد نشأ في ظل تلك الروايات النصرانية ما يعرف بملحمة زائدة
المسلمة :

انظر ، ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٥٥ .

(٣) : ليفي بروفنسال : نفس المرجع ، ح ٢ ، ص ١٥٣ .

العلمي أن المعتمد لم يقدم زائدة ولا غيرها إلى الفونسو كما تزعم الروايات النصرانية المذكورة .

وخلاصة تلك القضية أن الروايات النصرانية تشير إلى أن المعتمد عندما رأى خطر المرابطين يحدد بمملكته اتصل بالفونسو وعرض عليه أن ينزل له عن قونقة ووندة ، واقليش وأوكانيا وكونسويجرا ، وغيرها من الأماكن ، كما أنه قدم له - وهنا مكان التشكيك والتضليل - ابنته زائدة لتكون زوجة له . كل ذلك مقابل أن يساعده في مواجهته للمرابطين . وبالفعل وافق الفونسو على ذلك وتزوج زائدة وأنجب منها ابنه الوحيد سانشو الذي قتل في موقعة اقليش عام ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م . بين المرابطين والنصارى والتي انتهت بانتصار المرابطين^(٢) . ولقد أشارت تلك الروايات النصرانية أيضا إلى أن المرابطين عبروا إلى الأندلس لمحاربة المعتمد ومعاقبته لأنه زوج ابنته لألفونسو^(٣) .

وفي الحقيقة أن ليفي بروفنسال قد استوفى في كتابه " الاسلام في المغرب والأندلس " جميع ماورد حول هذه القضية . ووصل إلى خلاصة منطوية وتاريخية قاطعة بأن المرأة التي أشارت إليها المراجع النصرانية قد إما وحديثا ليست ابنة المعتمد . بل كته أي زوجة ابنه الفتح الملقب بالمأمون حاكم قرطبة الذي قتل كما قلنا على يد المرابطين . ولقد ذكرنا أن الفتح عندما رأى محاصرة المرابطين له بعث بزوجته وأبنائه إلى حصن المدور . وقد هي هذه الزوجة زائدة فعلا . ومن هنا ربما اختلط الأمر على المراجع النصرانية . فجعلتها ابنة المعتمد . وعندما رأت زائدة المرابطين يطبقون على حصن المدور بعد مقتل زوجها الفتح ، توجهت فارة بنفسها وأولادها إلى قشتالة فدخلت في حماية الفونسو السادس . وهناك استطاع الفونسو اغراءها واقناعها بأن تكون خليمة له . وأثمر هذا اللقاء عن انجاب زائدة مولودا ذكرا

(١) : تسمى معركة اقليش في كتب التاريخ المسيحية باسم : معركة القوامس السبعة

لاشترك سبعة من كبار قوامس قشتاله فيها .

انظر ، ابن القطان : نظم الجمان ، ح ١ ، ص ٧ .

(٢) : ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٣) : نفس المرجع ، ص ١٥٦ .

سمى بسانشو ، وكان الابن الوحيد لألفونسو . وقد تنصرت زائدة ، وهدت باسم ايزابيلا ، وفي رواية أخرى باسم ماريما . وقد توفيت زائدة عند ولادتها ابنها سانشو عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . ثم ما لبث ولدها سانشو أن توفى صبيا لما يتجاوز العاشرة من عمره في موقعة اقليش كما أشرنا منذ قليل^(١) .

وهكذا استطاع ليفي بروفنسال أن يثبت أن التي اتخذها الفونسو عشيقة وخليلة هي زائدة كنية المعتمد وليست ابنته . ونفى بالأدلة المنطقية التي لاتجيز وقوع ذلك عقلا من أمير مسلم كان في ذلك الوقت على خلاف مع فقهاء حضرته وفقهاء الاندلس عموما حدوث ذلك كما أثبت بالأدلة التاريخية الاسلامية حقيقة شخصية زائدة^(٢) . كما أن من المفيد أن نذكر هنا بالمرافعة المنطقية والتاريخية التي وردت في كتاب دول الطوائف لمحمد عبدالله عنان^(٣) .

غير أن هذه القضية رغم كونها قد بست فيها منذ العقد الثالث من القرن العشرين ، الا أن هناك من المؤرخين الأسبان المعاصرين من لم يقتنع بعد بحقيقة ذلك كالمؤرخ الاسباني رامون منندث بيدال صاحب كتاب أسبانيا في عهد السيد^(٤) ، كما وجد من المحدثين العرب أيضا من لم يقتنع بذلك أيضا^(٥) .

-
- (١) : أنظر ليفي بروفنسال : المرجع السابق ، ص ١٥٤ ، و ص ١٥٧ ، و ص ١٦٠ .
 - (٢) : انظر النص في المرجع السابق ، ص ١٥٢ - ١٦٢ . والحواشى .
 - (٣) : ص ٣٤٥ - ٣٤٨ والحواشى .
 - (٤) : أنظر ليفي بروفنسال : نفس المرجع ، ص ١٥٢ - ١٦٣ مع الحواشى في نفس الصفحات أيضا .
 - (٥) : أنظر مثلا : حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ، و ح ١٠ من نفس الصفحة .

الأيام الأخيرة في حياة المعتمد بالله :-

استولى المرابطون على اشبيلية ، واستولوا من قبل على قرطبة وبقية معاقل المملكة العبادية ، وقتل في أثناء تلك المواجهات المسلحة بين المرابطين والعباديين بعض أبناء المعتمد ، فبكاهم أحر بكاء • وسبق هو وبقية عائلته الى المغرب الأقصى • وعبر البحر نحو طنجة • ثم استقر به المطاف أخيرا في مدينة أغمات ^(١) حيث طس في شتاف من العيش مدة أربع سنوات تقريبا من عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م وهو العام الذي خلع فيه كما قلنا حتى عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م الذي توفي فيولم يتعد السادسة والخمسين من عمره على الأرجح ^(٣)

وهذه النهاية المساوية أقل نجم ذلك الملك الفريد المترف الاديب السياسى الذى أثار بأعماله وسياسته من الاشفاق والعطف عليه أكثر مما أثار من النقض والقدح له • أقل نجمه وغابت شمسه التى كانت تسطح فى سماء الاندلس عطرا وشذا وألقا أدبيا رفيعا • وسبق الى منفاه فى مشهد حزين رقت له القلوب وسالت فيه العبرات • وأذكت مأساته هذه ومحتته التى اتخذت مسحة روائية كانسان طريق منفى فقير بعد العزة القساء والملك الفسيح والمجد

-
- (١) : أغمات بليدة وراء مراكش (فى المغرب الأقصى) بينهما مسير عشر ساطت وهى الان قرية صغيرة •
انظر ، عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ح ٢ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ •
- (٢) : اتفقت أقوال معظم المؤرخين أن وفاة المعتمد كلفت فى ظم ٤٨٨هـ •
انظر مثلا : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ٤٦ • وكذلك ح ١ من نفس الصفحة • ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة ، مجلد ٢ ، ص ١١٩ • ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٦٦ جزءا ، ح ٥ ، ص ١٥٧ •
- (٣) : ذلك لان البعض قال انه كان يبلغ عند وفاته الحادية والخمسين ، ويقال البعض الاخر الخامسة والخمسين ، وقال عبد الواحد المراكشى الحادية والستين ، وكان قد قال قبل ذلك الحادية والخمسين • غير أن الثابت أنه ولد عام ٤٣١هـ فى حياة جده القاضى أبى القاسم •
انظر : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، وكذلك ح ٣ من نفس الصفحة •

الأثيل والذكر التالد . نقول أذكت مأساته ومحتته هذه عطف المؤرخين
والادباء والناس قد يما وحد يثا ، واستدرت لفترة طويلة من الزمن عطفهم
وجبوهم عليه .^(١)

والحقيقة أن ما آلت اليه نهاية المعتمد تحز في النفس
وتؤثر في الحشا . فلقد عمومل للأسف بقسوة لامعنى لها من قبل يوسف
بن تاشفين والمرابطين على السواء ، معاملة لاتليق بملك مخلوع أذله
الزمن . ولم يراع يوسف بن تاشفين معاملته بما تستوجبها الشريعة من
الرحمة بكبير أو عزيز في القوم خاصه الزمن وأذله . ويكفى أن نشير
في وسط ذلك الكم الكبير من العاطفة الجياشة نحو المعتمد الذي تناول
فيه أولئك المؤرخون والادباء حياته في المنفى ، يكفى أن نشير الى
عدة حقائق مؤلمة مرة منها أن المعتمد عاش للأسف الشديد
طوال مدة المنفى تلك في فاقة وعوز شديد بين وضيق عليه المرابطون
الخناتى وكفوا عنه أسبابا من المعيشة لاتليق حتى بلغ (من حال
المعتمد على الله بأغمات أن آثر حظيانه وأكبر بناته أجمعت الى أن
تستدعي غزلا من الناس . تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر
من اختلالها فأدخل عليها قيما أدخل غزل لبنت عريف شرطة
أبيها ، كان بين يديه يبزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه الا في ذلك
اليوم)^(٢) هل كنا نصدق - لو لم يشر المعتمد نفسه لذلك -
ان يبلغ ضيق ذات اليد والحال بالمعتمد وناته ان يعملن في الغزل
والنسيج ؟؟ . وهل كنا نصدق أن تبلغ به وأبنائه الفاقة الى أن
يعمل أبناءه في الحدادة أو الصياغة ؟؟ . هذا ما حدث فعلا ورواه
المعتمد في أشعار باكية حزينة .

والحقيقة المؤلمة الثانية في نهاية المعتمد الفاجعة
أن المعتمد عمومل بقسوة شديدة من قبل يوسف بن تاشفين الذي كان يكن

(١) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٥٨ - ٥٩ . على أدهم :

المرجع السابق ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) : عبد الواحد المراكشى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٣) : انظر ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٧ - ٢٨ . عبد الواحد المراكشى :

نفس المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

(٤) : انظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ - ٣٣٧ (نقلا عن ابن اللبائث)

يكن له حتى وقت قريب كل امارات السود والاعجاب ^(١) . ولكن هذا الاعجاب
والود انقلب الى كره عميق وقسوة بالفئة ليست مستساعة اطلاقا .
اذ يذكر المعتمد نفسه ان يوسف بن تاشفين لم يكف باذلاله بالعيشة
الضنكة التي رتبها له وقبل ذلك نفيه واستيلائه على ملكه لم
يكف بذلك بل وكبّله بالاغلال والقيود ومعظم أيامه تلك زيادة في
اهانتة وذلك ^(٢) . وهو موقف غير محمود من أمير المسلمين . وما يزيد
الاستياء أكثر ان يوسف بن تاشفين قد صدر في معاملته للمعتمد
تلك عن تحيز وكره مصري . والا فما الفرق بين المعتمد وعبدالله
وتميم ابني زيري البربريين ؟؟ فقد عامل يوسف بن تاشفين عبدالله
وشقيقه معاملة حسنة وفك اسارهما وأطلق لهما بعض أموالهما
وأجرى عليهما رزقا كفاهما معرة السؤال والاحاف . حتى ان عبدالله
بن زيري عاش عيشة هنية كما يقول هو نفسه وأنجب أولادا وبناتا ومات
وقد ترك لهم ثروة لابأس بها ^(٣) . أما المعتمد فقد عامله بنفير ذلك كما
رأينا وكذلك عامل أمراء بنى الافطس الذين قضى عليهم . مما جعل
مسألة اتهامه بالتحيز والعنصرية مطروحة للتساؤل . بل وقد نقص
اهجاب بعض المؤرخين بيوسف بن تاشفين لمعاملته القظة للمعتمد ، حتى لقد
حمل عليه بعضهم في ذروة تعاطفه مع المعتمد بعبارات قاسية غير مستساعة .
كما استفحل المؤرخ الهولندي دوزي ذلك الموقف فاتهم يوسف بأنه كانت تنقصه
فضيلة الشهامة ازاء المغلوبين .

على أنه يجب أن ننبه الى أن دوزي كان يصدر في حكمه ذلك
عن بغض يكاد يكون شخصيا ، لان اعجابه بالمعتمد بن عباد جعله يكره من
خلعه عن عرشه ^(٦) .

- (١) : كما جاء في رسالة يوسف بن تاشفين الى المعز بن باديس امير افريقية المذكورة
سابقا التي يمدح فيها المعتمد ويثنى عليه .
انظر : محمد عبدالله خان : دول الطوائف ، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .
(٢) : انظر ، ابن خاقان : القلائد ، ص ٣٣ - ٣٤ . - رضا الحبيب السويسي :
ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، ص ١٧٦ .
(٣) : ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ، ح ١ ، ص ٣٨١ .
(٤) : نعتي بذلك ابن الاثير .
انظر النص في كتاب : المعتمد بن عباد لعلی أدهم ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .
(٥) : ملوك الطوائف ، ص ٣٦٤ .
(٦) : حسين مؤنس : بحث بعنوان : سبع وثائق جديدة ، ص ٥٧ .

والحقيقة الثالثة المؤلمة أنه حتى وان كان للمعتمد أخطاء مميتة وقاتلة - وانها في بعضها كذلك - فان الأمر يقتضى من الناحية الانسانية البحتة حسن المعاملة والحفاظ على الكرامة والعزة من أن تدهس وتمرغ . هذا فضلا عن الناحية الدينية التي تفرض كما قلنا على الغالب معاملة المغلوب بالحسنى وتفرض كذلك الرحمة والرأفة به . ثم اذا كان يوسف ابن تاشفين قد أخذ على المعتمد استعانته بالنصارى وتأليبهم على المسلمين فيجب عليه حينئذ أن لا يفرق في المعاملة بين أمراء وملوك الطوائف الذين وقعوا في الخطأ ذاته ومع ذلك وضع يوسف بن تاشفين يده في أيديهم . ونعني بنو هود في سرقسطة فقد صانعهم أمير المسلمين وهادئهم وهم الذين لم يستعينوا بالفونسو فقط بل واستعانوا من قبل ومن بعد بممالك النصارى المجاورة كنبجة وأرغونة ومرشلوننة ، كما استعانوا بالسيد القهيطور لتحقيق أغراض ذاتية ضيقة كما قلنا . ومع هذا فقد صانعهم يوسف بن تاشفين وهادئهم وأبقى على ملكتهم بل ومعهم للمستعنين بن هود يطئنه ويهدئ من روعه ^(١) . وألح على ابنه وولى عهده على أن يصانع أمراء سرقسطة ويهادئهم حتى يكونوا فيصلا وحاجزا بينه وبين النصارى ^(٢) . وفي هذا ما يثير التساؤل من أن يوسف بن تاشفين كانت تحركه أغراض أخرى غير الدوافع الدينية . والا ألم تكن قوة المرابطين الفتية بقيادة على مواجهة ممالك النصارى والوقوف أمامها وجها لوجه مطمئنة هذه المرة على نفسها من أن تطعن من الخلف أى من ملوك الطوائف الذين انمحي أثرهم وذهب رسمهم ؟؟ .

والحقيقة الرابعة أنه لم يكن هناك مبرر لتلك القسوة حتى من الناحية الأمنية المحضة . فالمعتمد لم يكن له ثقل سياسى أو عسكري فى الاندلس يخشى منه . ومعنى آخر لم يكن المعتمد حاكم عموم الاندلس الذى تجمعت القلوب حوله . فالمعتمد لم يزد على أن يكون

(١) : كما تشير الى ذلك الخطابات المتبادلة بين يوسف بن تاشفين والمستعنين بن هود

التي تطمئن المستعنين ، وتظهر رضا يوسف عليه .

انظر ، مجهول : الحلل الموشية ، ص ٥٩ - ٦١ .

(٢) : انظر ، محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٧٢ .

أحد ملوك تلك الممالك الكثيرة التي كانت تموج بها الاندلس وقتها .
نعم هو أعظم ملوك الطوائف ودولته كذلك ولكنه في كل الأحوال لم يكن
الاحكاما إقليميا لمنطقة معينة من الاندلس لم تكن هي نفسها تكن المودة
والمحبة للمعتمد وآله . اذاً فليس هناك ثقل سياسى أو عسكرى يخشى
منه يوسف بن تاشفين فيضطر حذرا الى معاملته بتلك القسوة وانفهام
مؤيدى المعتمد بمقام جدوى التفكير بأى محاولة لاعادة سلطانه وسيطرته
على أراضى مملكته الذاهبية . بل ان الرعية رغم ما أظهرته من تعاطف مع
المعتمد عند خلعها وخروجه من طصته كانت تتوق الى التخلص من
العباديين ومن كل ملوك الطوائف جملة وتتوق أيضا الى الانضواء تحت
السلطة الاسلامية العادلة الجديدة (١) . حتى ثورة ابنه عبد الجبار فى آرکش
لم يكن لها أى مضمون سياسى واسع . صحيح ان عبد الجبار استطاع
أن يجتذب اليه أعدادا كبيرة من المؤيدين والمنافحين ولكنه لم يدع يوما
من الايام باسم أبيه ولم تكن ثورته على عنفها لتؤلب الاندلسيين جميعا
ضد المرابطين وتفرض على يوسف كارها أن يطلق سراح المعتمد ويعيده
الى عرشه مثلا . فهى مجرد فقاءة وتوفيرة غضب لم تلبث يسيرا حتى تلاشت
بمقتل عبد الجبار . ومع هذا فقد عمل المعتمد بمعد ثورة ابنه معاملة
اقسى كثيرا من سابقها (٢) .

وعلى أى الأحوال فقد ظلت هذه المعاملة القاسية

المهينة للمعتمد تاريخ يوسف بن تاشفين المشرق وسجله الناصح بظلال
قائم دأكن . وقد شقى المرابطون كما يقول عبد القادر زمامة بقضية المعتمد
وكيل لهم بالحق والباطل مانشاهده فى آثار الاقلام الشرقية والغربية (٣)
وغدت مسألة تلك المعاملة جزءا لا يتجزأ من تاريخ يوسف تواجه كل من
تعرض لتاريخ يوسف بن تاشفين بالكتابة والقراءة ، أو تعرض للأحداث
السياسية التي لازمت سقوط ممالك الطوائف .

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣١ . — عبدالله بن زبيرى : المصدر

السابق ، ص ١٠٩ .

(٢) : على أدهيم : المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

(٣) : عبد القادر زمامة : مقال بعنوان المعتمد بن عباد فى المغرب ، مجلة تطوان ،
العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م ، ص ٣٤

وقد حمل بعض من المؤرخين والادباء قد يما وحده يشا
على يوسف بن تاشفين واتهموه بأوصاف نابها أن نضمها رسالتنا ، ومن
هؤلاء المؤرخين القدامى ابن الاثير الذي أساء الى يوسف اساءة بالغة .
ومن المستشرقين دوزي (٢) أما من الأدباء المحدثين فقد كتب الشاعر المصري
احمد شوقي مسرحية شعرية عنوانها (غانية الاندلس) تتعرض لتكبسة
المعتمد ونفيه في عبارات يشوبها التهكم والحقد على المرابطين ويوسف
ابن تاشفين بالذات .

وقد انبرى بعض الادباء والمفكرون المنارية حد يشا الى
الرد على اولئك الذين اتهموا يوسف بن تاشفين . فقد كتب مصطفى القصرى
مقالا فى مجلة : البحث العلمى المغربية عنوانه : الشعر فى خدمة الحقيقة
والتاريخ ، وقد انصب فى أساسه على الرد على أحمد شوقي الذى كتب
مسرحية غانية الاندلس وعاب عليه أن يسخر الفن لخدمة الفن وحده
بدلا من أن يسخره لخدمة الحقيقة والحياة . وكانت مناسبة هذا المقال
هو أنه أقد عرضت فى مدينة مراكش عام ١٩٣٣ م مسرحية غانية الاندلس
على مسرحها الشعبى . فانبرى شاعر مراكش آنذاك محمد بن ابراهيم
الى الرد على شوقي ، فكان من جملة ما نظم متعرضا لمحنة المعتمد :

بنى العرب أوطانا بنى الشرق وحدة	بنى الضاد ، أبناء الحنيف بنى المجد
يمز علينا القصر يفقد مجده	ويمسى ابن عباد به نحس السعد
يمز علينا أن نراه مصفدا	يساق الى أغمات يوسف فى القيود
ولكن لنصر الدين دين محمد	وانقاده من بؤرة الهلك والنكد
نضحى بعباد وآخر كابنه	ومثله ممن لا يفيد ولا يجدى (٣)

وقد أوجت هذه الأجواء لمصطفى القصرى كتابة مقاله المذكور ،
وقد تناول مسألة معاملة يوسف للمعتمد بالتحليل والتعليل . وقد أورده

(١) : انظر النص فى الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٣٦ .

(٢) : انظر قبل ، ص ٣٨٠ .

(٣) : مصطفى القصرى : مقال بعنوان الشعر فى خدمة الحقيقة والتاريخ ، مجلة

البحث العلمى المغربية ، المركز الجامعى للبحث العلمى ، العدد الاول ،
السنة الاولى ، ابريل ١٩٣٤ ، ص ١١٢ - ١٢٨ .

نقاطا مهمة جيدة تساؤله في معرض حديثه عن نية يوسف في خلع ملوك الطوائف جملة بما فيهم المعتمد ، فقد قال (ولما تحقق المعتمد من نوايا يوسف لم يقل مرة ثانية بأنه يفضل : رعى الجمال عند أمير المسلمين على رعى الخنازير عند ملوك النصارى ، بل فضل رعى الخنازير واستنجد بالفونسو الذي ما كان أسرعه لتلبية طلبه ^(١) ، ومن هذه النقاط أيضا التي أخذها القصرى على المعتمد - وهو على حق في هذا - متفاخر به المعتمد ذات مرة :

واغدوا الى فعل المعاصى مهرولا وان أطلب الطاطات فالقيد فى رجلى ^(٢)

ومع هذا فان القصرى لم يتخل عن مفر بيته فى معرض تحليله لهذه القضية ، وكان عليه أن ينظر للأمر من كل جوانبه كما نزعم أننا قد فعلناه .

بقى أن نشير أخيرا الى حياته البائسة فى المنفى ،

فقد رصدتها كتب الادب قديما وحدثا بدرجة أوسع ورصدتها كتب التاريخ بدرجة أقل ، كما أذكت حياته هذه شاعريته وأجبتها . وقد نفى كما ذكرنا الى أغصان وأقام فيها كما يقول على أد هم ^(٣) (أسيرا قد ضيق عليه ، كاسف البال كسير القلب ، يسام سوء المعاملة ويتجرع مر الهوان وتزدحم على خواطره الهموم ، وتطوف به ذكريات ملكه السابق ومجده السالف ، وليس الى جانبه صاحب ولا خد ين يفضى اليه بالأمه ومواجهه ، ويطارحه الحديث الذى يرفه به عن نفسه ، ويخفف من أساه ولوجه ، ولكنه مع ذلك كان يتجلك ويماسك ، ويتذرع بالصبر) .

ومما كان يؤنس وحشته ووحدته زيارة بعض من شعراء

دولته الأوفياء الذين أذهلتهم نهايته وأدهشتهم محتته ، فقد موا عليه فى ظل تلك الظروف الدقيقة الحرجة ، ووفدوا عليه (وفادة وفاء لا وفادة استجداء ^(٤)) ، فمدحوه وشهدوا من روحه المعنوية وعزيمته . وتكررت

(١) : انظر ، مصطفى القصرى : المقال السابق ، ص ١١٤ ،

(٢) : انظر ، مصطفى القصرى : نفس المقال ، ص ١٢٨ .

(٣) : المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٤) : ابن خلكان : المصدر السابق ، ص ٣٤ - ٣٥ .

زيارات بعض منهم له . كالشاعر ابو بكر الداني المعروف بابن اللبانة الذي ألف كتابا في أيام بنى عباد والبيداء على انتشار نظامهم وضمنه مقطوعات شعرية في رثائهم ومدحهم وسماه " نظم السلوك في مواظب الملوك " ، كما ألف كتابا آخر غيره هو كتاب " سقيط الدر ، ولقيط الزهر " وكلها كتب مفقودة للأسف تعرضت لتاريخ بنى عباد من نشأة دولتهم حتى نهايتها . وكانت ويارات هؤلاء الشعراء الاصفياء توقد ليله القاتم وتبعث فيه ضياءً متألقا لا يلبث أن يخبو سرهما بعد مفارقتهم اياه .

وعندما أحس بنهايته وشعر بدنو الاجل نظم قصيدة

باكية أمر بكتابتها على قبره ويقول مطلعها :

(١)

قبر الفريب سقاك الراح الغادي حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

ولن نمضي طويلا في تتبع أيامه الاخيرة فقد رصدتها كتب الادب والتاريخ قد يما (٢) وحديثا كما قلنا ، وكان فيها من المأسى والفاجعات ما لا تحتاج معه الى خيال ناسر وبالفئة شاعر .

وتوفى المعتمد اخيرا في شهر شوال عام ١٠٩٥/٥٤٨٨ م

وكانت جنازته متواضعة مهسية . وكان من المفارقات كما يقول ابن بسام (٣) من النادر الفريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الفريب بعد عظيم سلطانه وجلالة شأنه فبارك من له البقاء والعزة والكبرياء (٤) وقد ظل قبره لفترة من الزمن مزارا لعدد كبير من محبيه على مر العصور (٥)

(١) : رضا الجيب السويسي : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٢) : للاطلاع على مزيد من حياة المعتمد في المنفى تراجع الكتب التالية :-

- ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٤٦-١٩٤

والقسم الرابع ، المجلد الاول ، ص ٤٦-٦٧ . - ابن الأبار : المصدر

السابق والجزء ، ص ٥٨-٧٠ . - المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ،

ص ٢٠٣-٢٣٨ . - ابن الاثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٧٤٨-

٢٥٠ . - ابن الخطيب : الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج ٢ ، ص ١١٢-١٢٠ .

- رضا الجيب السويسي : المرجع السابق ، ص ١٤٧-١٩٤ . - صلاح خالص :

المعتمد بن عباد الاشبيلي ، ص ١٨٢-٢٥٠ . - علي أدهم : المرجع السابق ،

ص ٢٨٥-٣٢٧ . - عبد الوهاب غزام : المرجع السابق ، ص ٧٢-٨٤ .

مصطفى الشكعة : الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، ص ٥٣٣-٥٤٠ .

(٣) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الاول ، ص ٤٦ .

(٤) : المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٣٧-٢٣٨ ، ص ٣٥٦-٣٥٧ .

القضاء على ممالك : ألمرية ، واطليوس ، وسرقسطة ، وبلنسية
وغيرها من ممالك الطوائف :-

وأخيرا فلن نمضي طويلا في تتبع مجريات سقوط بقية ممالك
الطوائف الاخرى ، فلننا معنيون بهذا من جهة ، ومن جهة أخرى
لم تمن كتب المؤرخين القدامى في استقصاء ذلك ، فقد اكتفت في معظمها
بتتبع سقوط مملكة اشبيلية بحكم عطفهم على المعتمد من جهة ، وبحكم
أهميتها القصوى دون هذه الممالك من جهة أخرى . ومع ذلك فادبا نشير
في اقتضاب بالغ الى أن المرابطين استطاعوا القضاء على استقلال مملكة
المرية في اعقاب سقوط اشبيلية مباشرة ^(١) ، كما استطاعوا أن يسقطوا
الامارات الصغيرة في شرقي الاندلس ويضموها الى نفوذهم في عامي
٤٨٤ و ٤٨٥ هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٢ م . ثم سقطت مملكة بطليوس بيد المرابطين
في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م بعد أن حاول المتوكل بن الافطس الاستعانة
بالفونسو شأنه شأن المعتمد فلم يفده ذلك . ولم يستطع الفونسو أن
يقدم مساعده له . وقد سقطت بطليوس بيد المرابطين وقبضوا على
مليكيها ثم ما لبثوا أن قتلوه هو وولده . وسقط بطليوس بيد المرابطين
انضوى كل غرب الاندلس تحت سيادة المرابطين ^(٣) .

ولم يبق من ممالك الطوائف في الاندلس التي لم تقع
تحت سلطة المرابطين سوى مملكتي بلنسية وسرقسطة . أما سرقسطة
فقد أراد المرابطون الابقاء عليها كحاجز يفصل بينهم وبين النصارى كما
أشرنا . وكان هذا من حظ أميرها الذي كان يهدد النصارى بالمرابطين ،
ويهدد المرابطين بالنصارى ^(٤) . ولم تسقط مملكة سرقسطة بيد المرابطين

-
- (١) : ابن الابار : المصدر السابق ، ص ٨٨ - ٩٠ .
 - (٢) : انظر ، محمد عبدالله غان ، ص ٣٦٦ .
 - (٣) : انظر ، عبدالله بن زيري : المصدر السابق ، ص ١٧٢ - ١٧٤ .
 - محمد عبدالله غان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٣٦٨ - ٣٧٠ .
 - (٤) : مجهول : الحليل الموشية ، ص ٦١ .

(١) الا فى عام ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، وان بقى بعض أبناء المستعين بن هود يتولون بعض حصون مملكتهم النسيمة حتى عام ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م عندما أجبر النصارى هؤلاء على اخلاء ذلك المعقل ، وهو مدينة روطنة (٢) فى الثغر الأعلى .

أما بنسية فقد تعرضت وقتها لخطوب كثيرة ومحن شديدة أكثر من أى مملكة من ممالك الطوائف الأخرى . وجعلها السيد القبيطور حلبة لممارساته العدوانية وهجماته المركزة . وقد ثارت ثورة ضد القادر حاكمها وذهب ضحيتها أخيرا ، ثم تولى ادارة شؤونها القاضى ابن جحاف أحد أعيان بيوتاتها وقاضيتها آنذاك . غير أن السيد القبيطور استطاع فى ذروة انشغال يوسف بن تاشفين بملوك الطوائف الاستيلاء على بنسية والقبض على القاضى ابن جحاف ثم أحرقه بعد ذلك فى حادثة قل نظيرها فى التاريخ البشرى عموما . وأصبح هو حاكمها المطلق (٣) .

ولسنا هنا فى صدد شرح الاحداث التى وقعت بعد ذلك . فما يهنا هو الاشارة الى أن يوسف بن تاشفين لم يستكن الى الدعة تاركا بنسية تقع تحت يدي السيد القبيطور . فلم يكن حال يوسف بن تاشفين كذلك ولكن انشغاله بتصفية ممالك الطوائف حال دون تقدمه العمون لها . ومع هذا فقد بحث بقواته لمساعدة القاضى ابن جحاف حاكمها الجديد . وابتدأت محاولات المرابطين لنجدة بنسية فى شكل كئائب وفرق قليلة المدد حتى توجه الجيش المرابطى برمه بعد أن انتهى من قضية اقضاء ملوك الطوائف واستطاع هذا الجيش بقيادة الأمير مؤدلى الاستيلاء على بنسية من يد زوجة السيد القبيطور الذى كان قد توفى قبل ذلك . وكان تاريخ سقوط بنسية فى يد المرابطين عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م .

(١) : محمد عبدالله خان : دول الطوائف ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ .

(٢) : روطنة Rueda : فى التقسيم الادارى الاندلس كانت تابعة لمدينة سرقسطة (الثغر الأعلى) وهى اليوم تابعة لمدينة وشقة Huesca .

انظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ٥ ، ص ٢٤٦ .

(٣) : حسين مؤنس : السيد القبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، ص ٥٦ - ٦١ .

(٤) : يراجع فى اخبار بنسية واستيلاء السيد القبيطور عليها :

وهذا الاستيلاء على بلنسية دانت معظم الاندلس الاسلامية
الى دولة المرابطين الفتيحة وأصبحت المدوتان المغربية والاندلسية
دولة واحدة عاصمتها مراكش .

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

وهكذا سقطت ممالك الطوائف صريعة تصرفات ونزق
ملوكها . وسقطت صريعة أهوائها الاقليمية الضيقة . ومطامعها
التوسعية التي لا تهدف الا الى امتلاء جيوب ملوكها وأمراءها فقط .
والواقع أن القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى
يعتبر من القرون الفاصلة فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية بقسميها
الاسلامى والمسيحى . ولقد شهد أحداثا جساما ، وترتب على كل حدث
من هذه الاحداث نتائج خطيرة . فلقد شهد هذا القرن زوال الدولة
الأموية التى بسطت سيطرتها المركزية على معظم أجزاء شبه الجزيرة
الايبيرية فى معظم الأوقات وكانت النتيجة المباشرة لهذا أن تصدعت
وحدة الاندلس ولم تعد قط حتى فى ظل المرابطين والموحدين الى سابق
وحدتها وتماسكها . وكانت النتيجة التالية لسقوط الدولة الأموية هى
ظهور ممالك الطوائف التى دخلت فى منازعات مع بعضها البعض ، وشغلت
أحداثها ومشكلاتها بلاد الاندلس منذ سقوط الدولة نهائيا عام
٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر
الميلادى . وشهد هذا القرن أيضا اشتداد ساعد الممالك النصرانية
وظهور معظمها كامارات مستقلة مارست كل واحدة منها سياسة الاسترداد
منفردة فى أحيان كثيرة . ومجتمعة فى أحيان أخرى فى الأقل . وكان من
جراة قيام ممالك النصارى كدول مستقلة أن وضعت هذه الممالك سياسة
الاسترداد نصب عينها . ودخلت فى نزاع مع ممالك الطوائف المتفككة المتنازعة
وأدى هذا فى النهاية الى حدوث مضاعفات خطيرة لهذا التدخل الذى أدى

====
ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، الفصل السادس ، والفصل
السابع . مع الحواشى . - حسين مؤنس : نفس البحث اعلاه ، المجلة التاريخية
المصرية ، ص ٣٧ - ٨٤ مع الحواشى . - محمد عبد الله غان : دول الطوائف ،
ص ٢٣١ - ٢٥٢ مع الحواشى . - شكيب أرسلان : الحليل للسندسية ، ج ٥٢ ص ٤٢٥ - ٤٢٦

بدوره في النهاية الى تدخل المرابطين ، وكان هذا تحولا عظيما في سير الحوادث أيضا . فقد أدى هذا الى أن تقع بلاد الاندلس لأول مرة تحت السيادة المغربية وأدت تبعيتها السياسية للمغرب هذه الى أن تدخل طرفا في نزاع المرابطين مع خصومهم الموحديين في المغرب ، ولذا فعندما مالت الكفة لصالح الموحديين في المغرب ، دخلت الاندلس في تبعيتهم السياسية حتى سقوط دولتهم في المغرب . وفي خلال ذلك كانت القوى السياسية النصرانية تعمل جاهدة على استرجاع الأراضي والاصقاع شيئا فشيئا من يد المسلمين حتى انتهى بهم الأمر أخيرا الى أن سقطت الاندلس الاسلامية في أيديهم نهائيا في نهاية القرن الثامن الهجري / الخامس عشر الميلادي .

وإذا ذهبنا نتقصى أخطاء ملوك الطوائف والأسباب التي أدت الى سقوط دولتهم ، فإننا نشير الى أن قدر الاندلس بحكم جغرافيته وبحكم وضعه الاجتماعي هو الوحدة . والوحدة المركزية المستندة على قوة حكم مركزي ، أما التفتت والتجزؤ فهو شيء شاذ ، فالقاعدة هي الوحدة وما عداها هو الشاذ . أما عن اخطاء ملوك الطوائف التي أسهمت في التمجيل بسقوط دولهم فهي عديدة ولن نجد في هذا المقام أبلغ من عبارات مصطفى الشكعة في وصف ملوك الطوائف ان يقول (لقد اسقطوا أنفسهم بأيديهم وليس بأيدي أعدائهم ، لأن الذي يعطى عدوه وسائل الغلبة ويسلمه أدوات الانتصار بتصميمه على بث التفرقة وانماء التباغض ، وتوسيع شقة الخصام ، ومحاربة أخيه وابن عمه والاعتداء على بني قومه في غمر دارهم ، والتوسع على حسابهم فتحا وأرضا عوضا عن أن يبسط يده للاتحاد ويفتح قلبه للحب ويشد أزر أخيه ويؤلف قلبه ، وينطلق الجميع صفا واحدا لحرب العدو . أقول أن الذي يصنع ذلك باشغال نار الفرقة واشاعة روح البغضاء ، وإثارة الحرب بين الاهل ، والانصراف عن مد جسور المودة والمحبة بينهم فضلا عن ايقاع الظلم والكتب بمواطنيه وقرض الجور والظفيان على محكوميه ومصادرة حرياتهم وسلب أموالهم وفرض الحرمان والفقر عليهم فرضا . نقول ان مثل هذا الحاكم يكون هو نفسه صانع الهزيمة بقومه ، ويكون هو نفسه مقدم النصر هدية لاعدائه

وأعداء قومه ، ولقد فعل بعض زعماء المسلمين ذلك في الاندلس ،
فضاعت الاندلس بمجدها ، وساء المتعاضون أو الظالمون من زعمائها
بعمار الهزيمة ولعنة التاريخ (١) .

كما لن نجد في وصف حالة البذخ واللهو التي كان
عليها ملوك الطوائف أفضل من عبارات السياسي الأديب الفقيه
ابن حزم فيما ينقله عنه محمد كرد على عندما يصف انشغال هولاء
في اللهو (وهمة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسممه ، ولهو يقطع
به أيامه) (٢) ، كما لا نجد أفضل من كلام ابن بسام فيما ينقله عنه
حسن محمود في شرح واقع ملوك الطوائف (ولم ينزل أديبارهم على
ما ذكرت يستشري ، وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسرى حتى أذن
الله لأمير المسلمين رحمه الله في افساد سعيهم وحسم أدواء بنفيهم
والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميمة ورأيهم ، فجعلت البلاد
عليه تنثال والمنابر باسمه تزهو وتختال واستمر ينثر نجومهم
ويطمس رسومهم (٣) .

وفي الحقيقة ان كل شيء كان يؤذن بالخطر في
شبه الجزيرة الايبيرية منذ زمن طويل وحتى قبل سقوط طليطلة
وما أدى ذلك الى احداث متعاقبة انتهت بسقوط ممالك الطوائف . ذلك
لأننا لو عدنا قليلا الى الوراء ، لهالنا أن نعترف بأن حادثة سقوط
طليطلة وما تبعها من احداث جسام كانت ستحدث في عهد الملك
فرديناند الأول والد الفونسو السادس .

فلقد رأينا هذا الملك يشدد ضغطه على ممالك الطوائف
ولاسيما الكبرى منها ، ويلعب بورقة المساعدات والاستصراخ به للحصول
على ما يريد . وبدأ يترجم في كثير من أعماله وغزواته ضد المسلمين
لما رسمه من سياسة واضحة تهدف الى استرداد أراضي الآباء

-
- (١) : الادب الاندلسي ، موضوعاته وفنونه ، ص ٥٠٧ - ٥١٠ .
 - (٢) : الاسلام والحضارة العربية ، ط ٣ ، ح ١ ، ص ٢٦٦ .
 - (٣) : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٩٧ .

والأجداد ، وكانت حراجة الوقت ودقة الظروف فى ذلك الوقت تتأثر
بالخطر المائل المحدق ، ولكن العناية الالهية أخرت أو أجلت ذلك
السقوط بوفاة فرد يساند نفسه ، فتتفلس المسلمون الصعداء .

وقد وثق فرد يساند فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أبوه
سانشو العظيم من قبل وهو تقسيه مملكته بين ابنائه كما ذكرنا
سابقا . وقد استقر الأمر أخيرا بعد خطوب كثيرة لألفونسو السادس
وغدا بعد ذلك الملك الأقوى والأكثر نفوذا فى اسبانيا كلها بمعه
أن انضوت تحت حكمه معظم مملكة أبيه ، وأصبح خطره يلاحق كل
ملوك الطوائف . واخطت لنفسه كما قلنا سياسة تقوم على تجويع
أعدائه واقتصاص قواهم العسكرية والمالية حتى يسهل عليه بعدئذ
الانقضاض عليهم وبذلك رأينا يندو بكل أسى الشخص الوحيد
فى الاندلس القادر على فرض رأيه ، أو قل رغباته بمعنى أدق .

والواقع أن تلك الفترة من تاريخ اسبانيا كانت مضطربة
شديدة الاضطراب ، فكما أن الاندلس الاسلامية كانت تعاني من
الانقسام والتفتت والتجزؤ ، كانت ممالك النصارى تعاني من الحروب
الاهلية العائلية ، ويعانى سكانها كثيرا من المصاعب والمقاعب
التي جررتها عليهم هذه الحروب . فاذا كان ملوك الطوائف قد دخلوا
فى نزاعات مسلحة مع بعضهم البعض للفوز بأكبر قدر من الأراضى
والاصقاع فان الممالك النصرانية دخلت هى الاخرى فى احداث
أخطر وهى الحروب الاهلية المدمرة بين الأخ وأخيه .

ونحن اذا أردنا أن نتقصى السياسة التى سار عليها
الفريقان المتنازعان ، فلا يمكننا أن نتفاضى عن أخطائهما السياسية .
ولا يمكننا ألا أن نؤاخذ كلا الفريقين على سياستيهما تلك . فملوك
الطوائف دخلوا فى حروب واقتتال على حساب أراضى بعضهم البعض .
وكان هذا خطأ استراتيجيا صرف أنظارهم عن الحقيقة الكبرى وهى
أن الوجود الاسلامى أصبح فى كل بقعة محاطا بالاعداء النصارى
المتربصين بالمسلمين والانقضاض على أراضيهما وانتزاعها منهم القطعة
تلو القطعة .

وكان الخطأ الاستراتيجي الثاني الذي وقع فيه ملوك الطوائف هو الاستعانة بالنصارى ضد بعضهم البعض ، إذ انعدم عندهم كل شعور بالايمان والوطنية ، وندر لديهم كل احساس باستشعار الخطر الآتى من الشمال . واهتموا بالصفائر والترهات والرغبات الجامحة للتوسع على حساب بعضهم البعض . ونسوا في غمار ذلك أو تناسوا كما قلنا عدوهم اللدود المترصرون بهم . وكانوا لا ينظرون الى أبعد من أنوفهم ، ففرقت كلتهم وتمزق شملهم . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل سمعوا بكل ابتذال الى الاستعانة بالنصارى كما قلنا في سبيل الوصول الى هدف شخصي ضيق محدود ، وسمحوا لأنفسهم على موافقة النصارى على ما يطلبونه شريطة مد يد المساعدة لهم ، واستأغوا التفريط فى القلاع والحصون وتسليمها للنصارى فى سبيل تلك الاهواء والاغراض الشخصية . فصلوا ذلك دون أن يشف لهم جفن حياء أو دون أن يعقد لهم حاجب خجل انتصارا للاسلام والعزة الوطنية . وهانوا على أنفسهم فسهل على النصارى اهانتهم واذلالهم ، وانتهى بهم الانحطاط الى الترامى على أهباب ملوك النصارى فاستحقوا قسوة ابن حزم الفقيه الاندلسى عليهم عندما قال فيما ينقله عنه محمد عبد الله عنان (والله لو علموا ان فى عبادة الصليبان تمشية أمورهم لبادروا اليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى الى بلادهم وربما يحمونهم عن حریم الأرض وحشروهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا ، فأخلوها من الاسلام ، وعسروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفا من سيوفه)^(١)

ونعتقد أن فى رأى ابن حزم هذا وقسوته عليهم ما لا حاجة بعده الى الاسترسال فى ذكر أخطائهم السياسية والدينية والوطنية . أما ممالك النصارى فكان من الممكن لها أن تحقق ماتريد لو لم يقع ملوكها فى أخطاء سياسية تماثل بعض الأخطاء التى ارتكبتها

(١) : دول الطوائف ، ص ٤٢٢ .

ملوك الطوائف المسلمين • فان المتروصد لاحداث تلك الفترة يلاحظ أن ممالك النصارى لم تكن بأحسن حالا من ممالك المسلمين • فقد اضطرتهم الخلافات بينهم الى أن يطلبوا العون والمساعدة من المسلمين • اعدائهم مما يعنى أنهم لم يكونوا أصدق حسبا فى وطنيتهم من المسلمين • ومعنى هذا أيضا أنه لم تكن تحركهم الغيرة الوطنية فقط • بل كانت الأثرة والأهواء الشخصية تلمب دورا مؤثرا • وكأشكلة على ذلك أن غارسيا وراميرو أبناء سانشو العظيم شقيقى فرد يناند طلبا المساعدة والعون من المسلمين • ورأينا القونسو السادس كمشال آخر يلجأ الى بلاط المأمون ابن ذى النون • ويلتجى أخوه غارسيا الى بلاط المعتمد بالله •

ونحن هنا نتفق تماما مع على أد هم فى تحليله لأحداث تلك الفترة المضطربة من تاريخ أسبانيا كلها • اذ يقول - ونحن معكم فى أن الظرف السياسى فى الصراع الدائريين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا النصرانية كان متوقفا على من من الفريقين المتخاصمين يسبق الآخر الى لم الشعب وتوحيد الجهود • ورض الصفوف • وجمع القوى (١) •

ومع ذلك فاننا نمتربأن ملوك النصارى كانوا أكثر وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين • فقد كانوا يرون فيها مسألة حياة أو موت • وقضية كرامة وعزة كما هى قضية أرض وتراث شرعى لهم وقع غصبا فى يد أجنبية وعليهم أن يرفعوا عنها تلك اليد (٢) • ولذلك فقد جاءت تحالفاتهم التى اضطروا اليها اضطرابا تخدم بلفتة هذا العصر الناحية التاكتيكية وليست الاستراتيجية • ولا يقلل من قيمة هذا الجهد ظهور الرغبات الشخصية والأهواء الذاتية فى سلوكيات بعض من ملوكهم وأمراءهم • ولذا فعندما أتاحت لهم الفرصة لرض الصفوف وتوحيد القلوب بادروا مدفوعين بتلك الرغبات الجامحة الى الانقضاض على المسلمين وانتزاع أراضيهم • ولقيت حماستهم الدينية أصدا • واسعة من الترحيب فى اوربا • فانبرى هؤلاء يقدمون لهم العون للاسهام فى ذلك الواجب الدينى كما حدث فى أحداث بريشتر • وعندما ساعدت مجموعة من الاوربيين القونسو السادس فى حصاره لطليطلة • وعند حدوث موقعة الزلاقة وما بعدها •

(١) : المعتمد بن عباد • ص ١٩٣

(٢) : نفس المرجع والصفحة •

(الباب الخامس)

أهم مظاهر التطور الحضارى فى اشبيلية فى عهد بنى عباد

- نظم الحكم
 - الحياة الاجتماعية
 - الحياة الاقتصادية
 - الحياة العلمية والأدبية
 - الممران
-

نظم الحكم

أولا : النظم السياسية :-

لم تكن النظم السياسية في مملكة اشبيلية تختلف كثيرا عن بقية النظم السياسية في ممالك الطوائف الأخرى . فقد كان يجمع تلك الممالك التي بلغ تعدادها أزيد من عشرين دولة نظم حكم متطابقة ، وهي النظم التي كانت سائدة بصفة عامة في الدولة الأموية في الأندلس^(١) ، على أن مملكة بني عباد تميزت هي ومملكة قرطبة في مبدأ نشأتيهما بنظم حكم جديدة لم تألفها السدول الإسلامية ليس في الأندلس فحسب ، بل وفي المشرق الإسلامي أيضا .

أ - نظام الحكم الرئاسي القائم على الشورى :

ان مما يشد الانتباه ، أن نشهد قيام نظام متطور في مملكة اشبيلية وقرطبة . ان قام فيهما خاصة بنظام حكم رئاسي يقوم على الشورى . وهي خطوة سياسية حضارية رائدة نالت وقتها الكثير من الثناء والاعجاب وان لم يكتب لها الاستمرار للأسف ، كما لم يكتب لها أن تسمى الممالك الإسلامية الأخرى في الأندلس .

ولقد أعطى هذا النوع المتطور غير المألوف من نظم الحكم وقتها نتائج بالغة الأهمية في تسلك الملكيتين الناشئتين . وان كانت هذه النتائج أبرز وأوضح في مملكة قرطبة منها في مملكة اشبيلية . ان أحسن السكان تلك النتائج في حياتهم المعاشية اليومية كما تذكر

(١) : عن نظم الحكم في الأندلس في عهد الدولة الأموية ، أنظره هشام سليم عبد الرحمن أبو رميلة : نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة ، رسالة ماجستير قدمت الى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م (لم تطبع) .

كتب التاريخ نقلا عن ابن حيان المعاصر وغيره من تبدل نحو الأحسن والأصلح^(١) . ولم يكن انفراد رئيسى قرطبة واشبيلية بالسلطة العليا التنفيذية فى ذلك النظام الرئاسى الشورى ليؤثر من بعيد أو قريب فى الحياة المعيشية للسكان ، مع ما فى ذلك من تكاسسة لتلك الخطوة الحضارية الرائدة .

غير أن هذا النظام المتطور لم يكتب له الاستمرار كما أسلفنا . وإذا كان قد ظل ينظر اليه طويلا فى مملكة قرطبة على أنه حكم رئاسى شورى متميز ، إلا أنه لم يكتب له الاستمرار فى اشبيلية نفسها . إذ أنه استمر قائما فى قرطبة منذ خلمت طاعة بنى أمية نهائيا فى عام ٤٢٢ هـ وحتى وفاة الرئيس أبى الحزم ابن جهور عام ٤٣٥ هـ . وعندما توفى الرئيس أبى الحزم لم يسم خليفة له ، وفى هذا ما يعنى أنه لم يكن ينظر الى الحكم وكأنه ارث شرعى ، بيد أن الاهالى وقد رأوا ما تحقق لمملكتهم على يد رئيسهم الراحل من رخاء وحبوحة ، فضلا عما يتمتع به ابنه أبى الوليد محمد بن جهور من صفات الصلاح والرشاد ، ندادوا بتعيينه خلفا لأبيه^(٢) . على أن ما تجدر الإشارة اليه أن هذه الظاهرة هى أول وآخر سابقة فى حياة قرطبة ، إذا غدا نظام الحكم بعدها وراثى عائلى شأن ممالك الطوائف الأخرى .

أما مملكة اشبيلية فلم يطل بها عمر ذلك النظام ، الشورى طويلا ، إذ سرعان ما ضاق القاضى محمد بن اسماعيل كما أسلفنا ذرعا بأعضاء المجلس الرئاسى ، فعمل من ثم على تقليص نفوذه شيئا فشيئا حتى اضمحل شأنه تماما ، فانفرد القاضى بالأمر وحده^(٣) . ومع هذا لم يتخل (عن رسم القضاء ، ولم يتسم بسمه الملك) . على أنه كان من الواضح جدا رغم

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الثانى ، ص ١١٤ -

ص ١١٧ . - ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١ - ٣٢ .

ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . - الضبى :

المصدر السابق ، ص ٣٥ (نقلا عن الحميدى فى جذوة المقتبس) .

(٢) : انظر خالد الصوفى : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : ابن خاقان : مطمح الانفس ، ص ١٢ .

هذه القناعة الشكلية المحضة أن القاضي كان يسير قدما في تحويل الأمر الى نظام حكم ملكي وراثي . وظهر هذا جليا عندما سمي ابنه اسماعيل حاجبا للخليفة هشام المزعوم . الأمر الذي يعنى أنه المؤهل من بعده لقيادة البلاد . وعندما قتل اسماعيل في قتله مع البربر كما مر بنا سمي القاضي ابنه الآخر عبادا حاجبا للخليفة مكان أخيه . ولما توفى القاضي خلفه ابنه عباد على التو في تسلم أزمة الحكم بهدوء ودون الحاجة الى التشاور والتباحث كما حدث في مملكة قرطبة . ولم يعد يمتلك المعتضد وابنه المعتمد من بعده ذلك الاستحياء والتعفف من التلقب بالملك واتخاذ الألقاب السلطانية .

ب- نظام التفويض الخلفي :-

أما نظام الحكم الثاني الذي ميز الحياة السياسية في اشبيلية عن مثيلاتها في ممالك الطوائف الأخرى ، فهو مسألة إعادة الخلافة الأموية في ظل قضية ظهور الخليفة هشام المؤيد على النحو الذي رأيناه سابقا . فقد ادعى العباديون أنهم قائمون دونه ، وأنهم المفوضون من قبله في حكم بلاد الاندلس عموما ، وليس في اشبيلية فحسب . ومن هنا فقد اتخذ أولياء اليهود في هذه الدولة لقب حاجب الخليفة (٢) . وهو لقب كان له في قاموس الحكم آنذاك أهمية بالغة ويشبه منصب رئيس الوزراء الآن . وهذه الصفة رأى العباديون فرص سلطانهم على ممالك الطوائف إذ أنهم يستمدون هذا السلطان من سلطان الخلافة صاحبة السلطة الشرعية في الاندلس .

ولقد شغلت هذه المسألة بكل انعكاساتها السلبية والايجابية المملكة العبادية ردحا من الزمن . وأخيرا أسدل الستار عليها نهائيا عندما زعم المعتضد أن الخليفة هشام قد توفى ، وأنه عهد

(١) : انظر قبل ، الباب الأول ، ص ١٠١ .

(٢) : انظر بعد ، (النظم الادارية) ، ص ٢٦١ - ٢٦٣ .

اليه أن يكون أميرا على الأندلس كلها (١) .

ولعل الأثر الحضارى الذى نستخلصه من هذه القضية السياسية بكل ما لها وما عليها ، هو أنه بصرف النظر عن أهمية الخلافة الشرعية فى نفوس السكان ، فان مملكة اشبيلية كانت تطمح من ذلك كله الى أن تسبغ على نظام حكمها الاستبدادى الصيغة الشرعية .

خصائص الحياة السياسية فى اشبيلية :-

وفى ما عدا هذين النظامين ، فان الحياة السياسية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد قد اتسمت بسمات خاصة لا غنى لنا عن الإشارة إليها ، لتتضح لنا - فى ظلها - صورة نظام الحكم بصفة عامة فى هذه الدولة . فلو أردنا فى الواقع أن نقسم نظام الحكم العبادى فى عدة كلمات لقلنا بأنه نظام ملكى وراثى فردى استبدادى مطلق يضطلع فيه الملك بكل السلطات ، ما عدا السلطة القضائية بطبيعة الحال .

أما الخاصية السياسية الأخرى التى ميزت الحياة السياسية فى اشبيلية فهى كنه ما يعنيه اصطلاح الوزارة ، ومن ثم صلاحيات الوزراء المطلقة أو المقيدة فى الدولة العبادية . فالوزارة فى اشبيلية بل وفى معظم ممالك الطوائف هى وزارة تنفيذ وليست وزارة تفويض . ومع ذلك فاننا نلاحظ أن وزارة التنفيذ هذه لم يكن لها ثبات المعنى الذى كانت تعنيه فى المشرق الاسلامى . فاستخدامنا لهذا الاصطلاح السياسى هو محص محاولة للفهم والتقريب ، إذ أن لقب الوزير كان شائعا جدا فى الأندلس ، وكان يطلق على كل من يتولى ادارة دائرة حكومية ، كما كان يطلق على كل من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء الطوائف فى الأندلس ، وهو ما سنراه لاحقا عند حديثنا عن النظم الادارية فى دولة بنى عباد .

(١) : أنظر قبل الباب الثانى ، ص ١٢١ .

أما الشخص الذي كان يساعد ملوك الطوائف بشكل رئيسي على جميع الأصعدة فقد كان يطلق عليه ذو الوزارتين * أي وزارتي السيف والقلم .

أما في اشبيلية ، فلم يكن لدى الوزارتين ، فضلا عن الوزير أي أهمية بالغة في صناعة القرارات ، ووضع الخطط ، فلم يسك الوزير الا موظفا لدى الملك المبادى ينفذ قراراته ويتلقى تعليماته . أما الخطة ، أما القرار ، أما تقرير السياسة الواجب اتباعها عند كل ظرف سياسى ناشئ فقد كانت في يد الملك المبادى وحده ، فلم يتمتع أحد من ذوى الوزارات ، أو الوزراء بسلطات واسعة وصلاحيات عريضة في تلك المملكة . والظاهرة الوحيدة التي خالفت هذه القاعدة هي حالة الوزير محمد بن عمار الذي شفعت له صداقته الأثيرة للمعتمد ، ودالته العظيمة عليه ، أن يتمتع بصلاحيات واسعة . ومع هذا فقد ذهب ضحية تجاوزه لصلاحياته على النحو الذى أسلفناه .

وتكاد مملكة بنى عباد تكون الوحيدة التي تميزت بهذه الخاصية السياسية . أما غيرها من ممالك الطوائف الأخرى ، فقد كان للوزير في بعضها أهمية بالغة في تقرير وتوجيه سياسة الدولة ، حتى لقد طغى نفوذ بعض الوزراء على نفوذ الملوك والأمراء أنفسهم كما حدث في مملكة قرطبة حيث طغى نفوذ الوزير ابن السقاء على حاكم البلاد نفسه (١) ، وكما حدث في مملكة المرية ابان حكم زهير العامري ، حيث طغى نفوذ الوزير العربي أحمد بن عباس على نفوذ زهير نفسه (٢) . وكما وقع في مملكة غرناطة حيث استأثر بعض الوزراء فيها في عهد باديس ابن جيوس بمعظم النفوذ والسلطات . بل وقد تحولت الوزارة في عهد الوزير اليهودى ابن تغرالة الى ما يشبه وزارة التفويض (٣) .

-
- (١) : خالد الصوفى : المرجع السابق ، ٧٥ - ٧٦ .
 - (٢) : ابن عذارى : المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٢ .
 - (٣) : عبد الله بن زيوى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٦٠ - ٦٣ .

ونخلص من هذا كله الى أن الوزارة افتقدت في مملكة بنى عباد
أى قيمة سياسية لها ، وقبح الوزير في دائرته وخاصة في عهدى القاضى محمد
ابن عباد وولده المعتضد خائفا متوجسا من غضبهما عليه ، أو تعرضه بحجة نزوة
من نزواتهما • ويصدق هذا أكثر ما يصدق على عهد المعتضد بالله على الأخص •

وهناك خاصة سياسية أخرى تميزت بها الحياة السياسية في المملكة
العبادية أكثر من بقية ممالك الطوائف فى الأندلس آنذاك ، هذه الظاهرة هى أن
بنى عباد لم يكونوا يطبقون سماع أصوات الانتقاد لهم ، وكانوا يعطون على الإيقاع
بخصومتهم بالبطش والقوة أنا ، وبالحييلة والخديعة أنا آخر • فقد كان القاضى
وولده المعتضد يسميان من خلال وسائل البطش والتنكيل الى أنهم
خصومهما بأن الدور سيطر عليهم تاليا • فيضطر هؤلاء الى مغادرة مد ينتهمهم
والالتجاء الى الدويلات الأخرى ، أو يضطر بعضهم الى مبارحة الأندلس
كلها • ونذكر فى هذا الصدد قصة الوزير أبى حفص عمر بن الحسن
ابن عبد الرحمن الهوزنى الذى كان أحد علماء اشبيلية المرموقين • وكان
صدقا أثيرا للمعتضد قبل افضاء الأمر اليه ، ولكن المعتضد توجس منه ،
وأحس هذا أن المعتضد قد تضايق منه ، فاستأذنه فى السفر الى
خارج اشبيلية ، فأذن له • وغادر بلاده واستقر بمرسية أخيرا •

وعندما هاجم النورمان برشتر على النحو الذى رأيناه
سابقا لم يستطع الهوزنى السكوت على ذلك الاغضاء المتعمد فى نصرة
المسلمين الذى قابل به المعتضد الحادثة • فبعث له بخطاب يرجو
منه اتخاذ الاجراءات اللازمة للدفاع عن الاسلام • وقد مررنا تلك
المراسلات بين الرجلين التى لم تسفر عن شئ • وقد عرفنا آنذاك موقف
المعتضد وجوابه على رسالة الهوزنى • ولكن ما لم نذكره آنذاك هو
الشق الثانى من جواب المعتضد له الذى يشير عليه بالعودة الى بلاده •
وبالفصل عاد الهوزنى الى اشبيلية واسند له المعتضد بعض الأعمال
الجليلة ، على أنه كان طوال فترة بقاء الهوزنى فى بلاطه يحبك له
الجائل حتى استطاع ذات يوم أن يقضى عليه ويقتله بنفسه (١) •

(١) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى ، المجلد الأول ، ص ٦٨-٩٠ •

ابن بشكوال : الصلة ، قسمان ، القسم الاول ، ص ٤٠٢ •

والقصة الثانية تدل دلالة واضحة على أن المعتضد لم يكن يطبق سماع أصوات الناقدين له الحاقدين عليه حتى وإن لم يكونوا ذرورى أهمية سياسية واجتماعية فى اشبيلية • هذه القصة رواها عبد الواحد المكنشى (١) عند ذكره لقصة التحايل التى كان يتحايل بها المعتضد للقضاء على خصومه • وخلصتها أنه اعتدى على اموال أحد رجال اشبيلية ، وكان ضريرا ، مما اضطره الى الارتحال عن الاندلس كلها • والتوجه الى مكة المكرمة • ومن هناك أخذ يدعو على المعتضد فبلغه ذلك فبعث له بدنانير غمستها فى السم • ورفض الرجل أخذها فى بادئ الأمر ، بل واستعجب لذلك ، ولكنه تحت الحاح رسول المعتضد تسلمها منه ، فتمكن السم فى جسمه • فمات من ليلته ، ومن هذه القصص ما يروى من أنه بعث لرجل من عامة اشبيلية من الذين نفاهم عنها فن قتله وحمل رأسه له •

كما أن هناك خاصية سياسية طبعت الحياة السياسية فى اشبيلية بطابع خاص ، وهى أن العباديين وخاصة فى عهدى القاضى وولده المعتضد ، حرصوا على أن يبعدوا بقية العائلات الأرستقراطية الاشبيلية عن المشاركة فى الحكم ، ودفنهم قهرا الى اعتزال الحياة العامة • وكان ذلك يتم كثيرا بالترغيب والترهيب ، حتى اضطرت بعض عناصر من هذه الطبقة الى مهاجرة الوطن والالتجاء الى الدولات الأخرى • مثال ذلك ما حدث للفقير والطبيب الاشبيلى محمد ابن مروان بن زهرر جد الأسرة الطبية الاشبيلية المشهورة الذى اضطرت مضايقات القاضى محمد بن اسماعيل الى مفادرة وطنه ، فلهق بشرقى الاندلس وأقام بها بقية عمره (٢) • أما البعض الآخر فقد اضطرت مضايقات العباديين وخاصة المعتضد الى الابتعاد عن الحياة السياسية والانغماس فى حياة اللهو والطرب والمتع الحسية ، مع الاهتمام بجمع الثروات من عقارات وأراض ومساكن (٣)

(١) : المصدر السابق ، ص ١٥٣ •

(٢) : ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٨٧ - ١٨٨ •

(٣) : انظر صلاح خالص : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، ص ٤٦ •

و ص ١٥١ - ١٥٤ ، و ص ١٦١ - ١٦٥ •

كما تميزت الحياة السياسية في اشبيلية شأن معظم ممالك الطوائف بانتهاج سياسة الاحلاف والمحاور التي شقيت بها معظم هذه الممالك . فعملت كل واحدة منها الى الدخول في محالقات ثنائية وأحيانا ثلاثية ضد بعضها البعض كما مر بنا سابقا مما لا حاجة الى اعادته تكراره ثانية .

ويخيل لنا أخيرا أن ملوك بني عباد كانوا لا يشذون في نظرتهم للحكم والسلطان عن غيرهم من ملوك الطوائف الآخرين ، إذ كان بعض ملوك الطوائف يرى أنه جدير وحقيق بالدولة التي أقامها على ظلال الحرب والسيوف ، أو ربما كانوا يعتقدون أن العناية الالهية قد اختارتهم لذلك . ويحضرنا في هذا المقام ما فاه به اسماعيل بن ذي النون مؤسس دولة بني ذي النون في طليطلة وهو ما يصور من وجهة نظره أحقيته وجدارته في الاستئثار بحكم مملكته . وقد بلغ في هذا القول حدا جعله يفتئت حتى على الصحابة الراشدين رضى الله عنهم . يقول ابن بسام (فقد كان اصحابه حفظوا عنه كلمات في سبيل ذكر السلف الصالح زيادة الى مساوئه ، وذلك أنه نوظر في شأن الأمير لبني أمية ، فقال والله لو نازعني سلطانى هذا الصديق لقاتلته ، ولما سلمت له ، فكيف أسلم سلطانى لمن يدعى اليه بنى أمية : ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان ، خبط باطل الذين لم يسبق لهم صحبة ولا أدخلهم السلف الصالح فى شورى الامامة .)

(١) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٥ وما بعدها ، والباب الثانى ، ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) : المصدر السابق ، القسم الرابع - المجلد الاول ، ص ١١١ .

٢ - النظم الادارية :-

أما عن النظم الادارية فلم يستطع ملوك الطوائف بصفة عامة ولا بنو عباد بصفة خاصة أن يضيفوا شيئاً جديداً إليها أو أن يقوموا بتطويرها هو قائم منها . فقد اكتفوا بما وصل الى أيديهم من التنظيمات الادارية التي ورثوها عن الدولة الأموية والدولة العباسية اقتناعاً منهم ربما بأن هذه التنظيمات - وقد بلغت أوجها في عهد الدولة الأموية - كافية وواقية بمقتضىات الحكم في عهدهم ، فضلاً عن أن الاهتمام الأكبر في عصر ملوك الطوائف كان موجهاً الى الاشتغال بالعلم والأدب ، والأخذ بمظاهر العمران وفخامة الملك .

وهكذا فإذا أردنا أن نعرف التنظيمات الادارية وغيرها من التنظيمات الحضارية الأخرى التي سارت وفقها ممالك الطوائف يجب أن لا تنسب عن بالنا هذه الحقيقة ، وهي أن هذه التنظيمات تعتبر استمراراً لما سبقها في عصر الدولة الأموية أو بمعنى أنه إذا أردنا التحدث عن التنظيمات الادارية في دولة بني عباد - وهي موضوع فقرتنا هذه - فأنما نتحدث عن التنظيمات الأموية بعينها مع الأخذ في الاعتبار بأنه قد جرى في عهد هذه الدولة بعض التحويل والتغيير الطفيف في تلك التنظيمات .

المناصب الادارية العليا في الدولة :-

الحجابة :-

نال منصب الحجابة في الاندلس أهمية سياسية بالغة ، وكان يعتبر وخاصة في خلال عهد الدولة الأموية ، والدولة العباسية ، وابان الفترة أهم منصب سياسي اداري تنفيذي بعد منصب الخليفة مباشرة . ذلك لأن طبيعة وظيفة الحاجب في الاندلس في عهد الدولة الأموية اختلفت عن طبيعة وظيفة الحاجب في الدولة العباسية بعض الشيء .

ان عدا فن أن وظيفة الحاجب في الأندلس حجب الأمير أو الخليفة
عن الخاصة والعامّة كما هو الشأن أيضا في الدولة العباسية ، فان من
خصائص وظيفته أن يكون واسطة بينه وبين الوزراء ومن دونهم فسي
المسئوليات الوظيفية في الدولة .^(١)

وكان الحاجب يختار عادة من بين تلك الجماعة التي
كان يختصها بنو أمية لاعتنائهم والتشاور معهم في مجريات الأمور
الهامة في الدولة . فكان يختار من بين هذه الجماعة ، ويسمى بعدئذ
بالحاجب .^(٢)

ولسنا معنيين هنا ببسط الحديث لتتبع وتطور
وظيفة الحجابة ، فإنا يهمننا الإشارة إليه هو أن الحاجب عدا في عهد
الدولة الاموية وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر وابنه الخليفة
هشام المؤيد أهم شخصية سياسية بعد الخليفة مباشرة ، بل ان
اهميته كسفت مكانة الخليفة هشام المؤيد . وكان الحاجب يضطلع
بمعظم السلطات في الدولة وكانت مهمته تمنى القيام بممارسة سلطات
الخليفة نيابة عنه ، فكان هو الرئيس المباشر للإدارة المركزية والعسكرية
والمدنية والمسؤول عن ولايات الدولة ، والأمن العام ، وكان له حق
مقابلة الخليفة يوميا وتقديم تقريره له .^(٣)

ومفهوم هذا العصر يمكن اعتبار الحاجب بمثابة رئيس
للوزراء ، ويهمننا أن نشير الى أن منصب الحجابة في الأندلس كان وراثيا
في أغلب الأحيان .

ولعل من نافلة القول أن نشير الى أن أعظم الحجاب
ذكرا في الأندلس وأبعدهم صيتا هو الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر .^(٤)

(١) : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٢) : شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، في الاخبار والاثار الاندلسية ، ج ١ ،

ص ٢٥٠ - ٢٥١ . (نقلا عن ابن سعيد صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب) .

(٣) : هشام سليم ابورميّة : رسالة عن نظم الحكم بالأندلس في عصر الخلافة ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٤) : عن المفهوم الذي أضفاه الحاجب محمد ابن أبي عامر ونيه لمنصب

وفى عصر ملوك الطوائف حافظ هذا المصعب على نفس
أهميته التي كان عليها فى تلك العهود دون أن يعنى ذلك وجوده فعليا .
فكان الملك منهم كما يقول ابن سعيد فيما ينقله عن شكيب أرسلان (. . .)
لعظم اسم الحاجب فى الدولة المروانية ، وانه كان نائبا عن خليفتهم
سمى بالحاجب ، ويرى أن هذه السمة أعظم ما تنوفس فيه وظفر به ،
وهى موجودة فى أمداح شعرائهم وتواريخهم (٢) .

وعلى هذا فقد استشرى كثير من ملوك الطوائف
الى التلقب بلقب الحاجب . ومن هؤلاء الحاجب منذر بن يحيى
التجيبى حاكم سرقسطة قبل سليمان بن هود (٣) والحاجب محمد
بن عبدالله البرزالى أمير قرمونة وغيرهما . (٤)

أما بنو عماد أنفسهم فمن الطبيعي أن يحرسوا
على التمسك بنظم الدولة الاموية السياسية والادارية ، وخاصة بعد
أن تبنا قضية الخليفة هشام المزهوم . ولقد رأينا ملوكهم يعهدون
بحجابه باب الخليفة لأبنائهم الكبار أولياء عهودهم . فقد سمي
القاضى ابو القاسم ابن اسماعيل ابنه اسماعيل حاجبا للخليفة هشام .
ولما قتل اسماعيل بن القاضى محمد سنة ٤٣١ هـ ولى القاضى ابنه
الثانى عماد (المعتضد فيما بعد) مكانه . وحرص المعتضد عند ما
آل اليه الأمر أن يسير على نفس السياسة فولى ابنه اسماعيل الحجابه ،
ثم لما قتل اسماعيل على يد أبيه انتدب المعتضد ابنه المعتمد
ليحل محله . واستمر ذلك التقليد حتى بعد أن انقطعت دعوة الخليفة
هشام أيضا . وقد حرص المعتمد بدوره على أن يطلق هذا اللقب
على غير واحد من أبنائه على سبيل التشرىف (٥) .

== الحجابه ، والدور المؤثر الذى مارسوه من خلال ذلك فى حياة
الاندلس أنظر :

هشام سليم ابورميلا : الرسالة السابقة ، ص ١٣٣ - ١٤٩ .

(١) : أى أحد ملوك الطوائف آنذاك .

(٢) : الحلل السندسية ، ج ١ ، ص ٢٥١ .

(٣) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الاول - المجلد الاول ،

عمالة الأقاليم :-

درج العباديون بعد موجة التوسع والسيطرة التي تهيأت لهم ، وخاصة في عهدى المعتضد ، والمعتمد ، على أن يولوا أبناءهم عمالة أو ولاية الاقاليم المفتوحة . وقد مرّ بنا أن المعتضد ولسى ابنه المعتمد حكم مدينة شلب بعد سقوطها في يده ، كما أن المعتمد نفسه عهد لكثير من أبناءه بولاية المدن والأقاليم في مملكته كسراج الدولة عباد الذي تولى حكم مدينة قرطبة بعد سقوطها بيد العباديين . وعندما قتل سراج الدولة على يد ابن عكاشة كما أسلفنا عهد المعتمد لابنه الفتح الملقب بالمأمون بحكم المدينة حتى سقطت على يد المرابطين كما ذكرنا ، وأسند لابنه الثالث يزيد الراضى حكم مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم رنده . كما أسند لابن الآخر المعتمد حكم مدينة شلب ثم أركش كما مرّ بنا . ومن المؤكد أنه كان لهذا التنظيم الإدارى بعدا ومغزى سياسيا أكثر مما يعنى مجرد التشريف .

الوزارة :-

أشرنا فيما سبق الى أن ممالك الطوائف استمرت تطبق فى دولها الأنظمة السياسية والإدارية التى كانت سائدة بصفة عامة فى الدولة الأموية ، ومن هذه الأنظمة : نظام الوزارة . ولذا فنحن مضطرون هنا الى معرفة نظام الوزارة فى الدولة الأموية ليسهل علينا فهم طبيعة هذا النظام وأهميته فى الدولة العبادية موضوع الرسالة .

== ص ١٥٣ - ١٥٤ . - محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ،

جزءان ٥ ج ٢ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٢

(٥) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٩١ ، والباب الثانى ، ص ١٤٧

والباب الثالث ، ص ٢٣٣ - ٢٣٨

والواقع أن الوزارة في الأندلس مرت بأطوار متعددة ،
فالأمراء الأمويون الأول اختاروا جماعة من الذين استرشدوا فيهم الصلاح
والخير وأسندوا اليهم مهمة اعانتهم في تصريف شؤون الدولة ، ثم
أسندوا لهذه الجماعة أعمال ووظائف مختلفة يقوم كل واحد من هذه
الجماعة بإدارة جهازها . ويقول ابن خلهون (وأما دولة بني أمية
بالأندلس ، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا
خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزير فجعلوا الحسبان المال وزيرا ،
وللترسيل وزيرا ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر في أحوال
أهل الثغور وزيرا ، وجعل لهم بيت يدرسون فيه على فرش مفضدة
لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفرد للتردد
بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بباشرة السلطان في
كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ، ولم ينزل
الشان هذا إلى آخر دولتهم ، فارتفعت خطة الحاجب على سائر
الخطط) (١)

وقد تطور نظام الوزارة في الدولة الأموية على مر الزمن
إلى أن أصبح يشكل ما يعرف اليوم بمجلس الوزراء (٢) وكان الأندلسيون
يستعملون كلمة خطة بمعنى وزارة (٣)

على أن هذا المنصب فقد دلالاته العملية شيئا فشيئا
مذ دالت دولة بني عامر ، وما تبع ذلك من أحداث أدت إلى ظهور
خلفاء أمويين ضعاف ثم الفتنة فقيام ممالك الطوائف . فأصبح لقب
الوزارة يطلق على من كان قريبا من بلاط أحد ملوك أو أمراء
الطوائف بحيث (صار اسم الوزارة عاما لكل من يجالس الملوك ويختص
بهم) (٤)

-
- (١) : المقدمة ، ص ١٩٩ .
(٢) : عن الوزارة وتطور نظامها في عهد الامارة فالخلافة الاموية انظر :
هشام سليم ابورميلا انظر ، الرسالة السابقة ، ص ١٤٩ - ١٥٢ .
(٣) : هشام سليم ابورميلا : نفس الرسالة السابقة ، ص ١٥٦ .
(٤) : ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

على هذه الصورة كانت الوزارة في ممالك الطوائف
وان لم نسمعنا المصادر الأندلسية وغيرها بذكر تفاصيل تنظيم الخطط
أو الدوائر الحكومية التي كانت موجودة في ممالك الطوائف عامة وفي
مملكة بنى عباد خاصة ، فكلما حلتها اليينا من أسماء الوزراء في مملكة
بنى عباد لا يعدو أن يكون لقباً تشريفياً حصل عليه ذلك الشخص
من خلال مصاحبته لملوك بنى عباد واختصاصه بهم . وقد عرفت
دولة بنى عباد كثير من الذين كان يطلق عليهم لقب وزير مثل : الوزير
ابن اللبانة ، و ^{بن}أبي الحسن أبي اليسع ، و ^{بن}أبي بكر ابن القصيرة وغيرهم .
أما المنصب الوزاري الذي كان له مدلول اداري تنفيذي كبير فهو
منصب ذي الوزارتين الذي يعنى وزارتي السيف والقلم ^(١) ، وكانت مهمة
حامل هذا اللقب هي أن ينوب عن الملك كما يقول ابن سعيد ^(٢) في
الشؤون المدنية والعسكرية معاً ^(٣) . ومن الذين اشتهروا بهذا المنصب
الرفيع في عهد المعتضد ابن عباد الشاعر القرطبي الأشهر ابو الوليد
أحمد ابن زيدون الذي كان يطلق عليه دائماً ذو الرياستين ، و ذو
الوزارتين ^(٤) .

ومن الذين اضطلموا بهذا المنصب في عهد المعتمد
الشاعر المشهور محمد ابن عمار الذي سما بهذا المنصب الى مكانة
سياسية بارزة قل نظيرها في ممالك الطوائف جميعها ^(٥) لدرجة أن
المعتمد كان يفوضه في التحدث باسمه مع ملوك النصارى واطلاق
يده في عقد المعاهدات معهم ^(٦) .

- (١) : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٠ .
- (٢) : شكيب أرسلان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥١ . (نقلا عن ابن سعيد) .
- (٣) : انظر هشام سليم ابورميكة : الرسالة السابقة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- (٤) : انظر عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٨١ .
- (٥) : عن المكانة السياسية التي يلحقها الوزير محمد ابن عمار انظر :
صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي ، ص ٧٠ - ١٠٣ .
- (٦) : انظر قبل ، الباب الثالث ، ص ٢٠٠ .

خطة الكتابة :-

تعتبر هذه الخطة أو الإدارة الحكومية بالضبط من أجل مناصب الدولة الرفيعة في الدولة الاموية ، ثم في ممالك الطوائف أيضا وقد صنفت هذه الخطة الى ادارتين أو ديوانين هما : كاتب الرسائل ، وكاتب الزمام (كاتب الجهبذة أو كاتب الاشغال الخراجية) (١)

أما كاتب الرسائل فقد كان له أهمية مرموقة أكثر من الأهمية التي حظى بها كاتب الزمام ، وجاءت هذه الأهمية من كون صاحبها مكلفا^{كان} بتحرير المراسلات الخلافية ، والقرارات السلطانية ، وانشاء الرسائل وعثها للعمال والملوك والأمراء الأجانب . وقد شهدت خطة الكتابة تطورا متعاقبا في الاندلس منذ الفتح حتى قيام الخلافة . فقد كان الكاتب في عصر الولاة ثم الامارة الاموية وحتى عهد الامير عبدالرحمن الاوسط يضطلع بكتابة الرسائل الرسمية للدولة ويطلق عليه لقب كاتب الرسائل (٢)

أما في عهد عبدالرحمن الاوسط فقد تطورت خطة الكتابة بحيث أصبح كتاب الرسائل بمثابة وزراء ، فكانوا يحملون لقب وزير بالاضافة الى لقب الكاتب ، ويقال للكاتب : الكاتب الوزير (٣) وكان الامير عبدالرحمن الاوسط أول من اتخذ كاتبيا خاصا له ، وسار الأمراء والخلفاء من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة (٤)

والتطور الآخر الذي شهدته خطة الكتابة كان في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر ، ذلك لأن تشعب مسؤوليات كاتب الرسائل

-
- (١) : محمد كرد علي : المرجع السابق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
 - (٢) : انظر هشام سليم ابورميلا : الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ .
 - (٣) : انظر ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
 - (٤) : انظر هشام سليم ابورميلا : نفس الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ .

وكثرتها جعلت الخليفة عبد الرحمن الناصر يبادر الى توزيع مسؤولياتها بين أربعة من كبار الموظفين ، يحمل كل واحد منهم لقب وزير ويختص فقط بالأمر الموكل اليه وحده .^(١)

أما الخطة الادارية الأخرى بالنسبة للكتابة فهي ادارة كاتب الزمام أو الجهبذة أو الأشغال الخراجية . وكان مجال عمله الأساسي هو الاشراف على ادارة الأموال العامة واحصاء الجند وتقديم أرزاقهم وأعطياتهم^(٢)

وبالنسبة لممالك الطوائف عامة ومملكة بنى عباد خاصة لم تسعفنا كتب التاريخ والأدب بشيء ذي بال عن هاتين الخطتين ، وان كان الأمر يختلف بعض الشيء بالنسبة لخطة كاتب الرسائل . ان يبدو أن الأمر استمر على ما كان عليه في عهد الدولة الأموية ، بل يمكننا أن نخمن بأن مكانة كاتب الرسائل قد ازدادت أهميتها آنذاك بسبب التنافس بين ملوك الطوائف في الاستئثار بالموهوبين من العلماء والادباء والكتاب . ومن أشهر الكتاب في عهد الممتضد بالله ابن عبد البر^(٣)

واسمه عدالله بن يوسف . أما في عهد المعتمد فقد كان أشهر كتابه هما أبو بكر ابن القصيرة ، وأبو بكر ابن الجند^(٤)

(١) : أنظر هشام سليم ابورميعة : الرسالة السابقة ، ص ١٦٢ . (نقلا عن ابن غزاري) .

(٢) : هشام ابورميعة : نفس الرسالة السابقة ، (نقلا عن ابن خلدون) .

(٣) : هو ابن الحافظ الفقيه الاندلسي الشهير يوسف بن عدالله المعروف

بابن عبد البر أيضا . صاحب التصانيف الواسعة التي أشهرها

كتاب : الاستيعاب في الفقه .

أنظر : ابن غزاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٦٦ .

(٤) : أنظر مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٢ - ٣٦ .

خطة الشرطة :-

ومن أهم المناصب الادارية فى الأندلس فى عهد الدولة الأموية ، وفى عصر ملوك الطوائف خطة الشرطة . وكان يطلق على من يليها لقب صاحب الشرطة ، ومن صلاحياته النظر فى الجرائم الجنائية وغيرها . ومن اختصاصاته أيضا حق اقامة الحدود على شاربي الخمر ، ومرتكبي الزنا . وقد يعهد اليه ان كان ذا مكانة عظيمة فى الدولة بايقاع النقل شرعا بدون استئذان من السلطان . كما كان يطلق عليه أيضا صاحب الليل ، وتنقسم خطة الشرطة الى ثلاثة أقسام : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى ، والشرطة الصغرى (١) . وكانت هناك خطة أخرى تشبه خطة صاحب الشرطة ، ويطلق على القائمين عليها ، لقب الدرابيين ، وتشبه خطة العسس أو الارباع فى المشرق (٢) .

وفى عهد بني عباد رأينا من خلال محنة المعتمد بالله فى المنفى أنه كان هناك خطة من خطط الشرطة يطلق على متوليها لقب : عريف الشرطة . وأن مهمته الرئيسية كانت تنظيم خروج ودخول المعتمد من قصره واليائه (٣) .

وهكذا فقد رأينا أنه كان لبني عباد بعض التنظيمات الادارية الخاصة بهم التى ابتكروها ، أو طوروها ، كما شاهدناهم يستفيدون من بعض التنظيمات الادارية الأخرى فى تصرف شؤون دولتهم .

(١) : عن خطة الشرطة وتنظيماتها وصلاحيات صاحبها ، أنظر :

هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة ، ص ٢٨٧ - ٢٩٢ .

(٢) : محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

(٣) : انظر قبل الباب الرابع ، ص ٣٣٧ .

٣ - النظام المالي :-

أولا : الموارد :-

لم تسعفنا المصادر الأندلسية بشيء ذي بال عن هذا النظام الهام من أنظمة الحكم . ولعل السبب في ذلك يعود لعدم وجود أنظمة عبادية مالية بحته أصلا . وعلى ذلك فإنتنا نستطيع أن نخمن بأن النظام المالي سار في هذه المملكة على نفس النظام الذي سارت عليه الدولة الاموية تقريبا .

أما الموارد المالية في دولة بني عباد فإننا نستطيع أن نؤكد بأنها هي نفسها الموارد التي كانت مطبقة في بقية أنحاء الاندلس ، لابل في الممالك الاسلامية انطلاقا من كون هذه الدولة دولة اسلامية بطبيعة الحال . مع ملاحظة وجود الاختلاف بين دولة وأخرى بحكم ظروفها وأوضاعها الخاصة .

وعلى هذا فان الموارد المالية في مملكة بني عباد

لا بد أن تكون على النحو التالي :-

أ - الموارد الثابتة :-

١ - زكاة المشور : وهي الزكاة المفروضة شرعا على الأراضي الزراعية ، وقطعان الماشية ، وكانت تستحصل من المسلمين بطبيعة الحال بحكم كونها أحد أركان الاسلام الخمس .

٢ - الخـراج : ومن الموارد الثابتة لخزينة الدولة

الخـراج ، وكان على صنفين :-

الصنف الأول : هو ما كان الملاك يؤدونه عن أملاكهم مسلمين ودميين على السواء فيما كان يعرف بأرض الأخصاس ، والأرض المقطعة ، وأرض الصلح . فكانان المسلمون والدميون يدفعون خراج أرضهم حسبما

(١)
نصت عليه الشريعة الاسلامية .
أما الصنف الآخر : فهو الذى كان يعرف بالمكوس . وهذه
تحصل من التجار وتفرض على السلع البضائع القادمة الى الدولة
وخاصة عن طريق البحر . وكانت فى دولة بنى عباد تحصل على
ضفة نهر الوادى الكبير الذى يشطر عاصمتها اشبيلية . وكان
تحصيل المكوس على درجة من الأهمية للدولة العبادية اذ كانت
عائداتها من أهم موارد الدولة بحكم اتساع الدولة العبادية
وحكم الحركة التجارية التى شهدتها . وكان للمكوس أنظمة
وقوانين مرعية ، ينفذها ويشرف عليها شخص يدعى بالمتقبل^(٢) .
وتمثل المكوس ما يعرف اليوم بـ (الرسوم الجمركية) .

٣- الجزية : وهى مورد أساسى لخزينة الممالك الاسلامية
بصفة عامة . وكانت مملكة اشبيلية تزخر بعدد كبير
من الذميين (أى النصارى واليهود) ، وهى جزية
تستحصل من هؤلاء الذميين الذين لم يعتنقوا الاسلام
وعلى هذا فيجب على (أولى الأمر أن يضعوا الجزية
على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها
فى دار الاسلام ، ويلتزم لهم ببذلها حقان ، أحدهما
بالكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين ،
وبالحماية محروسين)^(٣) .

-
- (١) : أنظر هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة ، ص ٢٢٠-٢٣١ .
محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٤٧ - ٦٩ .
(٢) : للاطلاع على المزيد من هذه الفقرة ، أنظر :
محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٧١ - ٧٢ .
(٣) : هشام سليم أبو رميلة : الرسالة السابقة (نقلا عن الماوردى
فى الأحكام السلطانية) ، ص ٢١٨ .

وتختلف الجزية المأخوذة من الذمى باختلاف وضعه المالى ،
ولا تؤخذ الا من الرجال الأقوياء القادرين على القتال والحرب ،
ومما يذكر أن هذه الجزية كانت تتناقص دائما بسبب اعتناق
هؤلاء الذميين للإسلام (١)

ب- الموارد غير الثابتة :-

وبالإضافة الى الموارد المالية الثابتة فهناك موارد أخرى ،
كانت الممالك الاسلامية فى الأندلس • تستوفيهما من السكان •
ومن هذه الموارد العائدات المالية التى كانت ترد عن طريق
نظام المشاركة • ونظام المشاركة يعنى أن يشارك الملاك
الفلاحين فى المحصول الناتج عن أراضيهم ، أى أن يقدم
الملاك أراضيهم للفلاحين يزرعونها لهم بالمشاركة ، فلهؤلاء
حصّة من المحصول ، ولأولئك حصّة أخرى • وكان هذا النظام
يعرف أيضا بالمقاسمة والمناصفة (٢)

وعرفت الأندلس موردا ماليا آخر يعرف بالحشد ، وهو
(ضريبة مالية كانت تفرض فى الأندلس على أصحاب الضياع
فى الريف ، وعلى الناس فى المدن مميونة للخليفة على شؤون
الحرب ، وكان الناس أولا مكلفين بالخروج الى الحرب ، وكان عليهم
أن يخرجوا الى الحشد عندما يجيئ أوان الصائقة ، ثم
استبدلت بضريبة مالية أو عينية لمن لا يريد الخروج ، ثم
أصبحت ضريبة مالية خالصة تؤدى للحشد أو الحشاد
فى كل منطقة (٣)

-
- (١) : أنظر محمد بركات البيللى : نفس الرسالة السابقة ، ص ٦٨ - ٦٩ •
 - (٢) : ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، حاشية رقم ٤ ، ص ٣٦ •
 - (٣) : ابن الأبار : نفس المصدر والجزء ، حاشية رقم ٢ ، ص ١٠ •
وأنظر كذلك هشام سليم ابورميطة : الرسالة السابقة ، ص ٢٣٥ •

وهناك مورد آخر يسمى ضريبة القطيع أو المشاهرة ، وتعنى
فى مطلق الأحوال جزية على الرؤوس (١) .

وهناك أيضا منارم مفروضة على أموال السكان فى الاندلس
واشبيلية بطبيعة الحال ، وكانت تفرض على الفئم والدواب
وغير ذلك . وكذلك كانت هناك ضريبة تفرض على بعض
البيهات فى الأسواق فى بعض البلاد (٢) .

وأخيرا كان هناك نوع آخر من الموارد المالية وهو ما كان
يعرف بالقبالة . ومقتضى ذلك النظام كانت تمنح بعض القرى
والمقاطعات لتقبلين من حاشية الأمير أو المتعهدين بلفسة
هذا العصر ، تعطى لهم بقبالة معينة محددة ، فيأخذونها
ويستخرجوا منها أقصى ما يمكن استخراجه ، كى يوفروا
لأنفسهم ما يزيد على قيمة القبالة (٣) .

ثانيا : النفقات :-

تلك هى أهم موارد الدولة العبادية ، وهى تنقص
وتتزايد تبعا للظروف والأحوال فى الدولة . ومن الطبيعي أن تكون
هناك نفقات عامة تصرف فيها الدولة الكثير من هذه العائدات
المالية . ويأتى على رأس هذه النفقات العامة ، رواتب الجنود
والموظفين . ولقد مررنا سابقا أن بنى عباد قد جندوا قوات
نظامية وقوات أخرى من المرتزقة والمبيد (٤) ، ومن البدهى أن تدفع
لهؤلاء أعطيات جزيلة لتنفيذ مشروعاتها التوسعية دائما (٥) .

-
- (١) : انظر محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٨ - ١٩ .
 - (٢) : انظر هشام سليم ابورميلا : نفس الرسالة السابقة ، ص ٢٣٣ - ٢٤٠ .
 - محمد بركات البيلى : نفس الرسالة السابقة ، ص ٧٠ .
 - (٣) : انظر احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٤١ .
 - (٤) : انظر قبل الباب الاول ، ص ٨٣ .
 - (٥) : احسان عباس : نفس المرجع السابق ، ص ٤٠ . — محمد بركات البيلى :
الرسالة السابقة ، ص ٧٤ - ٧٥ .

أما القناة الأخرى التي تصرف فيها موارد الدولة ،
فهى الثغرة التي فتحها ملوك الطوائف على أنفسهم بالاستمانة
بملوك النصارى وخاصة الفونس والسادس ، فقد كانت الجزية التي
يستحصلها الفونسو من الدولة العبادية وخاصة فى عهد المعتمد
ثقيلة باهظة ، تستنزف قدرا هائلا من موارد الدولة .^(١)

وأما القناة الثالثة التي كانت تستنزف موارد الدولة ،
فهى النفقات الباهظة التي كان العباديون ينفقونها على بذخهم
ومترفاتهم الخاصة ، كبناء القصور ، والدور ، واقتناء فاخر الأثاث
والرياش ، وسائر صنوف المتعة والأبهة والفخامة ، وكذلك صلاتهم
وأعطياتهم للشعراء والأدباء وغيرهم .^(٢)

٤ - الجيش والبحرية :-

- الجيش :-

لا نملك فى الواقع تفاصيل واسعة عن الجيش العبادى
سواء أكان ذلك فى مسألة عدد أفراد قواته المسلحة ، أم عن
كوادره ورتبه ٠٠٠ الخ . وكل ما نملكه من تفاصيل عنه هو ما يتعلق
بالعناصر البشرية المكونة له . وقد سبق لنا أن رأينا القاضى
محمد بن اسماعيل يكون على وجه السرعة جيشا تنوعت قواته من
جنسيات مختلفة ، كالعرب ، والصقالبة ، والبربر ، والنصارى ٠٠٠ الخ^(٣) .

والأمر الثانى الذى عرفناه عن الجيش الاشبيلى
أنه كان يستعين فى بعض الأحيان بقوات مرتزقة من النصارى ،

- (١) : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣٩ .
- (٢) : أنظر احسان عباس : نفس المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٤ .
- (٣) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٣ وما بعدها .

والبربر وغيرهم • ويبدو أن ذلك كان أمرا شائعا في الأندلس آنذاك (!)

والأمر الثالث أن العباديين حرصوا كثيرا على أن يعهدوا لأبنائهم في معظم الأحيان بقيادة الجيش ، وكانت قيادة الجيش غالبا ما تكون لولى العهد الذى يجمع بين هذين المنصبين • وقد رأينا عددا كثيرا عن دولة القاضى محمد ابن اسماعيل • أن ولده اسماعيل ولى العهد كان فى ذات الوقت القائد العام للجيش ، الذى يضطلع دائما بمهمتى المواجهة والتوسع • وما ينطبق على اسماعيل ابن القاضى محمد ينطبق على اسماعيل بن المعتضد • وقد رأينا هذا أيضا فى معرض حديثنا عن انشاقه وتمرده على والده المعتضد • وعندما قتل اسماعيل عين المعتضد ابنه الآخر محمدا وليا للعهد ، وقائدا عاما للجيش ، واضطلع شأن غيره من قادة الجيش بمهمتى المواجهة والتوسع أيضا • وحتى فى دولة المعتمد ، فقد عهد لأبنائه بقيادة الجيوش • وقد رأيناه يفضب على ابنه يزيد الراضى الذى أظهر تقاعسا لموسى ، فعهد لابنه الآخر المعتضد بقيادة الجيش المتوجه لصد غارات النصارى عن مدينة لورقة (٢) •

ونادرا ما كان يتولى قيادة الجيش اناس آخرون من غير أبناء العباديين أنفسهم • وقد عثرنا على حالتين فقط ، قاد فيها أحد القادة من عامة الشعب ، الجيش العبادى : الحالة الاولى هى عندما شكلت القوات البربرية المتحالفة ضد القاضى محمد ابن اسماعيل جيشا توجه نحو أراضى اشبيلية • فعكس فى مزارعها

-
- (١) : رأينا صورا عديدة لهذا كما حدث عندما استعان ملك سرقسطة وغيرهم بالسيد القمبيطور وغيره من الذين كانوا يقدمون خدماتهم لمن يدفع لهم •
أنظر : حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية •
(٢) : أنظر قبل الباب الاول ، ص ٨٨ - ٩٠ ، وص ٩٩ - ١٠٢ ، والباب الثانى ، ص ١١٩ ، وص ١٢٦ - ١٣٠ ، والباب الثالث ، ص ٢٣٧ •

وأراضيها • فتصدى لهم قائد احدى فرق الجيش العبادى : أيوب ابن عامر اليحصبى وفرق شملهم^(١) • والحادثة الثانية هى عندما ولى المعتضد قائده عبدالله بن سلام قيادة الجيش الذى عهد له بفتح الجزيرة الخضراء • وقد تم له ذلك فعلا •

البحرية :-

أما بالنسبة للبحرية ، فلم يكن يضاهى الدولة العبادية فيها سوى مملكة دانية التى أسس فيها ملكها مجاهد العامرى أسطولا بحريا حربيا كبيرا استطاع به أن يفتح جزيرة سرديانية وغيرها من الجزر الشرقية فى البحر المتوسط^(٢) ، ولذا فان دولة بنى عباد تعتبر الدولة الثانية من دول الطوائف التى اهتمت بالاسطول البحرى سواء أكان ذلك فى وقت السلم ، أم فى وقت الحرب • وقد أفادتنا بعض كتب التاريخ والأدب فى ذكر بعض الاشارات عن ذلك الاسطول •

أما الاسطول البحرى الحربى ، فقد رأينا عدة اشارات له فى كتب التاريخ مررنا بها فى بعض الفصول السابقة • من هذه الاشارات ما رواه المؤرخون من أن مدينة الجزيرة الخضراء التى كانت تابعة لأمرأ بنى حمود قد حوصرت برا وبحرا الى أن سقطت نهائيا فى يد المعتضد عام ٤٤٦ هـ^(٣) • ومن تلك الاشارات أيضا ما رويناها عن الحميرى عن الاسطول الحربى الذى بعثه المعتمد لمساعدة يوسف بن تاشفين عند افتتاحه لمدينة سبته^(٤) •

أما كتب الأدب^(٥) فقد حفظت لنا فى أشعار الشعراء الذين مدحوا المعتمد بن عباد ما يلقى بعض الضوء عن ذلك الأسطول ،

-
- (١) : يوسف أشباخ : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤١ •
 - (٢) : أنظر محمد عبدالله غان : دول الطوائف ، ص ١٩٠ - ١٩٤ •
 - (٣) : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣١ •
 - (٤) : الروض المعطار ، ص ٨٧ •
 - (٥) : أنظر محمد بركات البيللى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد (رسالة ماجستير) ، ص ١٠٩ مع الحواشى •

ووصف قطعه ومنشأته • وقد أجمعت هذه الأشعار على أنه كان للعباد يمين اسطول حرسى ساعد هم فى الكثير من مشاريعهم التوسعية وغيرها •

أما الاسطول التجارى البحرى ، فقد كان له أيضا
• مهمة اقتصادية رئيسية فى نقل صادرات وواردات الدولة العبادية (١) •

• النظام القضائى :-

كانت خطة القضاء تعتبر أعظم الخطط الشرعية فى الاندلس بطبيعة الحال • وكان الاندلسيون يطلقون على من يتولى القضاء فى المدن الكبيرة والعواصم : اسم القاضى ، أما فى المدن الصغيرة وبقية القرى ، فقد كان يطلق على من يتولى القضاء فيها : مسدد الخاصة • ويطلق على الشخص الذى يشغل منصب قاضى القضاة فى الأندلس قاضى الجماعة (٢) •

ويلحق بخطة القضاء مجموعة من الخطط ، مثل خطة الموارث ، وخطة المظالم ، وخطة الأعباس (الأوقاف) ، وخطة السوق ، وخطة الشورى (٣) • وخطة السوق يطلق عليها أيضا وهو الشائع خطة الحسبة أو الاحتساب • وتشبه مهمة هذه الخطة أو الإدارة ، مهمة البلديات فى العصر الحاضر كمرافعة الأسواق ، وعمليات البيع والشراء ، ومراقبة المكييل والموازين ... الخ وكان لهذه الخطة أنظمة وقوانين مدونة يعمل بمقتضاها المسؤولون عن هذه الخطة (٤) •

أما خطة الشورى فقد كانت خطة أخرى لصيقة بخطة القضاء • ويقول حسين مؤنس (كان يقوم بأمر القضاء فى الاندلس هيئتان : الفقهاء المشاورون ، والقضاة ، فأما المشاورون فكانوا جماعة من كبار الفقهاء

-
- (١) : الرسالة السابقة ، ص ٨٧ •
 - (٢) : عن خطة القضاء أنظر المادة الواسعة التى كتبها هشام سليم أبورميلىة : الرسالة السابقة ، ص ٢٦١ - ٢٧٢ ، وكذلك ص ٢٨٠ - ٢٨٦ •
 - (٣) : محمد عبدالله غان : الخلافة الاموية والدولة العامرية ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ •
 - (٤) : محمد كرد على : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٨ •

والعلماء يختارهم الأمير أو الخليفة ليستشيرهم في أمر القضاء والاحكام .
ولم يكونوا هيئة بمعنى الكلمة تجتمع معا في مجلس خاص كالوزراء ، بل كانوا
فردا يختار الأمير من يراه صالحا للشورى ، ثم يبعث اليه بما يريد
ليفتي فيه ، وقد يستقدمه الى القصر .

وكان المشاورون أعلى من القضاة مرتبة ، بل كانوا في مراتب الوزراء
من حيث المكانة والجاه . وفي بعض العصور ، تميز بعض المشاورون ، حتى
صار كالرئيس لهؤلاء المفتين ، ويسمى لهذا برأس الفتياء ، أو رأس المشيخة ،
وقد يسمى شيخ المرأسين ، أو شيخ البلد . وكانت المشورة أو الفتياء
أعلى المناصب التي يطمح اليها الفقيه ، وان لم تكن منصبا حكوميا محدد
الوظيفة والراتب والسلطان . وكان المشاورون يبدون رأيهم في القضاة فلا يعين
كبارهم الا برأيهم . أما القضاة ، فهم المعروفون ، وأكبرهم قاضي قرطبة أو قاضي
الجماعة ، وكانوا في منزلة الفقهاء المشاورين ، وقد يمتاز عليهم اذا أهلتهم
مكانته لذلك (١) .

وقد تولى منصب قاضي الجماعة بقرطبة في عهد المعتمد

مجموعة من القضاة منهم القاضي محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور القيسي ،
ثم القاضي عبدالرحمن بن سوار بن أحمد بن سوار ، ثم عبد الله بن أدهم وغيرهم (٢) .
كما تولى خطة الشورى في اشبيلية ، كما يفهم من رواية ابن الابار عبيد الله
الرشيد بن المعتمد ، وكان يساعده في المشاورة بعض الفقهاء منهم
القاضي أحمد بن منظور القيسي (٣) .

-
- (١) : ابن الابار : المصدر السابق والجزء ، ح ١ ، ص ٢٠٢ .
وأنظر كذلك حسين مؤنس : شيوخ العصر ، ص ٢٧ - ٣٤ .
(٢) : ابن بشكوال : المصدر السابق ، القسم الاول ، ص ٣٠٤ . والقسم الثاني ،
ص ٣٣٧ ، و ص ٥٤٧ .
(٣) : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٨ .

الحياة الاجتماعية

تعمدنا بادئ ذي بدء أن نقسم الحياة الاجتماعية الى قسمين : مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة ، ومظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة . ذلك لأن المؤرخين والأدباء القدامى لم يهتموا بالنسبة للنواحي الاجتماعية بالذات في أحايين كثيرة الا بالاهتمام بحياة الأمراء والحكام والوجهاء والخاصة بدرجة أساسية . أما عن مظاهر الحياة الاجتماعية لدى عامة الناس فلم تقل من اهتمامهم الا اليسير وداخل نطاق المظاهر الأساسية للحياة الاجتماعية كالأعياد والمواسم والمتنزهات . . . الخ . ومن هنا فقد رأينا أن نتحدث عن أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة أولا حسبما استخلصناه من كتب التاريخ والأدب ، ثم نشنى بعد بالحياة الاجتماعية لدى الخاصة .

أ - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى العامة :-

الأعياد والمواسم :-

من الطبيعي أن يكون على رأس الأعياد في كل مجتمع اسلامي عيدي الأضحى والفطر . والمجتمع الاشبيلي شأنه شأن غيره من المجتمعات الاسلامية كان يحتفل باستطلاع هلال شوال ، وكان العامة يتجمعون لرؤية الهلال حتى يفوز أحدهم بالسبق في رؤيته لتحديد يوم عيد الفطر .

أما بالنسبة لعيد الأضحى ، فقد كان الاحتفاء به عظيما ، وكان من عادات أهل اشبيلية والاندلسيون عامة شأنهم في ذلك شأن اخوانهم المسلمين أن يخرجوا الى الصلاة في أبيهم حلالهم وأناقتهم ، ثم يعفدون الى بيوتهم فيذبحون أضحياتهم ، وكان المهدم منهم

يكفى بجمع رؤوس الخراف والقيام بتشبيطها أى عرضها على النار
حتى تنضج (١) .

وكانت الأعياد مواسم اقتصادية مؤد هرة لبائعي الخراف
والعطور وغيرهم . وكان العطارون يعرضون فى حوانيتهم أرقص
العطور وأغلاها وأجودها (٢) .

ومن الأعياد الأخرى التى احتفل بها الاشبيليون :
عيد النيروز ، وهو حلول أول يوم من أيام فصل الربيع وهو عيد
فارسي الأصل . كما احتفل الاشبيليون النصرى أيضا بأعيادهم
الدينية وعلى رأسها عيد الفصح وغيره (٣) .

الأزياء والملابس :-

وكان للتقليد الاجتماعى الرفيع الذى أدخله المغنى المشرقى
المشهور زرياب على الملابس الاندلسية دورا مؤثرا فى حياة الاندلسيين ،
فقد شغفوا بذلك وطبقوه بسرعة ، وساعدتهم طبيعة الأندلس الخلابة
أيضا فى أن تترك شمائلهم وترهف أحاسيسهم وانعكس ذلك على
أزيائهم وعلى غيرها من مظاهر الحياة الاجتماعية .

فقد ألف الاندلسيون والاشبيليون بطبيعة الحال لبس
الملابس الخفيفة البيضاء المنسوجة من الكتان والقطن فى فصل الصيف ،
كما ألفوا لبس الملابس الصوفية الثقيلة ذات الألوان الداكنة فى فصل
الشتاء (٤) .

وكان عامة السكان فى الاندلس يسرون حاسرى الرأس
من غير غطاء ، والوحيدون الذين كانوا يتمسكون هم العلماء والفقهاء ،

(١) : محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية ، رسالة
ماجستير مقدمة الى كلية الآداب - جامعة القاهرة ، طم ١٩٧٨ ، ص ١٥١ .

(٢) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥١ .

(٣) : الرسالة السابقة ، ص ١٥٣ .

(٤) : الرسالة السابقة ، ص ١٤٣ .

أما الطيلسان فقد كان شائعا في الأندلس وكان الشيوخ يلقونه على رؤوسهم ، وكان الخضاب أى صبغ الشعر واللحية بالحناء شائعا أيضا (١) .

أما المرأة الاشبيلية فقد كانت ترتدى ثوبا يسمى " الاتب " وهو عبارة عن ثوب يلقى على عاتق المرأة من غير كم ولا جيب . وكانت الاشبيليات يرتدين اليعطاف وهو عبارة عن تاج صغير مرصع بالجواهر وأعله ريش الطواويس ، كما أكثرت المرأة الاشبيلية من استخدام الحناء والمطور والكحل (٢) .

وقد خالف الأندلسيون المشاركة في التقييد بملابس معينة في أفراحهم وأتراحهم . فقد كان الأندلسيون عموما يلبسون اللباس الأبيض في الحزن على عكس المشاركة الذين يلبسون الملابس السوداء عند الموت (٣) .

الارتداد الى الاماكن العامة :-

المتنزهات :

تمتعت اشبيلية نفسها بالطبيعة الخلابة التي حفتها من كل الجوانب . وكان نهر اشبيلية أو الوادى الكبير الذى يشطر المدينة الى شطرين أحد معالم التنزه والسياحة فى المدينة ، فقد كانت المراكب والسفن الصغيرة تقطعه ليلا ونهارا (٤) . ومن أهم الضواحي الجميلة التى كان يرتادها أهل اشبيلية ، ضاحية طريانة التى لا تبعد كثيرا عن العاصمة ، ثم جزيرة تيطل ووادى الطلح (٥) . كما كان مرج الفضة و متنزه السلطانية من أهم

(١) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٤٤ .

(٢) : الرسالة السابقة والصفحة .

(٣) : المقري : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ ، و ص ٣٩٩ .

(٤) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٤ .

(٥) : أنظر المقري : نفس المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٥ .

المتنزهات الاشبيلية التي كانت متنفسا للأهالي يمارسون فيها هواياتهم
فى السباق والطيراد • وقد تميزت هذه المتنزهات بوجود الفساقى
المائية الرائعة ^(١)
الحمامات : ^(٢)

كانت الحمامات فى القرون الوسطى الاسلامىة من أهم
مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمع الاسلامى ، وقد تميزت مدينة اشبيلية
بوجود أعداد كبيرة من الحمامات فيها • وكان للنساء حمامات خاصة
بهن ^(٣) •

ويعتبر الذهاب للحمام فرصة عظيمة للرجال والنساء
للتخلص من جهامة الحياة ، واغلال التقاليد ، وكانت الحمامات
تزخر بوجود الخدم الذين يقومون بخدمة المستحمين ، كالحلاقين
والطيبابين • وكذلك كان الحمام يزخر بالخدم الذين كانوا يلبسون
ظهور وأجساد الرجال ويطلق عليهم الحكاكين ^(٤) •

ب - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية لدى الخاصة :-

لكى نستطيع أن نتعرف على الحياة الاجتماعية للخاصة
أو الطبقة الأرستقراطية ، ولكى نتعرف على أهم مظاهر التطور الاجتماعى
فى المجتمع الاشبيلى ، لابد لنا من العودة الى التذكير بالتركيب
الاجتماعى للمجتمع الاندلسى حتى يسهل علينا فهم تلك الحياة
الاجتماعية الطبقيية ، وفهم أهم مظاهر تطورها •

(١) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٤ •

(٢) : عن الحمامات الاسبانية الاسلامية أنظر :

ليوبولد و توريس ريباس : بحث بعنوان الأبنية الاسبانية الاسلامية •
تعريب عليه ابراهيم العنانى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات
الاسلامية ، العدد الاول ، ١٣٧٢ / ١٩٥٣ م ، ص ١٠٨ - ١١٣ •

(٣) : محمد بركات البيللى : الرسالة السابقة ، ص ٤٨ •

(٤) : محمد بركات البيللى : نفس الرسالة ، ص ٥٣ •

فأشبيلية شأنها شأن غيرها من ممالك الطوائف كانت تضم أخلاطا بشرية عرقية ودينية مختلفة ، كالمغرب والبربر والصقالبة ، والمستعربين ، والمولدين ، واليهود . . . الخ . وكان المولدون يشكلون ثغلا سكانيا مهما في المجتمع الأندلسي^(١) . ومن الطبيعي جدا أن يكون لكل فئة أو مجموعة من هذه المجموعات العرقية والدينية عاداتها وتقاليدها وأعرافها التي تحرس على أن لا تذوب وتتلاشى في وسط ذلك الخضم البشري المتعدد الأجناس .

على أن هذا يجب أن لا يسوقنا الى البالغنة والتهويل كثيرا . فالمجتمع الأندلسي في الواقع - والمجتمع الأشبيلي جزء منه - كان قد بلغ في الفترة منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، من التآلف والانسجام والتزواج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي مرحلة أو تركيبا اجتماعيا بمعنى أدق يمكننا نعمته بالمجتمع الأندلسي بكل خصائصه ومميزاته المعروفة في كتب التاريخ والأدب^(٢)

وعندما نفعل أو نسقط من التوافق والتماذج السكاني لهذا المجتمع الأندلسي الناحية السياسية ، فإننا نؤكد على ظاهرة عامة مميزة في هذا المجتمع . هذه الظاهرة هي أن العناصر المكونة لهذا المجتمع الأندلسي دخلت طوال تلك الفترة أي منذ الفتح وحتى القرن الخامس الهجري موضوع بحثنا في مطاحنات ومعارك حربية ضد بعضها البعض دفاعا عن كينونتها ووجودها ومصالحها . ولم تنس فئة من تلك الفئات السكانية من الناحية السياسية فقط حقيقة التركيب الاجتماعي لمجتمعها الذي تعيش فيه ، فلم تتحرج عن الأخذ بأسباب المناحي الأخرى للحياة ، الاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية والعمرانية أيا كان مصدرها .

(١) : لطفى عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ، ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) : انظر التمهيد ، ص ٤٣ - ٤٩ .

ويتوجب علينا ثانية التعرف على ميزة أخرى فى طبيعة تركيب المجتمع الأندلسى ليسهل علينا فهم أهم مظاهر التطور الاجتماعى فى حياة المجتمع الأرسطوقراطى الأشبيلى . فالمجتمع الأندلسى كما أسلفنا لم يكن مجتمعا طبقيا عنصريا ، وإنما كان مجتمعا طبقيا ينقسم بكل عناصره العرقية والدينية الى طبقات ثلاث هى الطبقة الأرسطوقراطية أو طبقة الخاصة ، والطبقة الوسطى ، والطبقة العامة . بمعنى أن كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث تجمع فى رحابها كل أو معظم تلك العناصر العرقية والدينية الموجودة فى الأندلس (١) . وكان لكل طبقة من هذه الطبقات تطلعاتها وأوضاعها وهمومها الذاتية وفلسفتها ونظيرتها الخاصة للحياة .

على أن ما نستطيع الخلوص اليه من ذكرنا لذلك الواقع الاجتماعى الطبقي ، هو أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والعلمية ، والأدبية ، فضلا عن الحياة السياسية ، كانت مرتبطة أولا وأخيرا ببلاطات ملوك الطوائف ، والطبقة الخاصة التى تدور فى فلكها والتى تشترك أولئك الملوك فى ذلك الدفع الحضارى (٢) . فضلا عن ذلك فإن هذا التطور الحضارى الذى شهدته بلاطات ملوك الطوائف فى شتى مناحى الحياة ، إنما تم بفضل العائدات المالية الضخمة التى تهيأت لهمؤلاء الملوك والأمراء ، وبسبب التنافس الشديد بين ملوك الطوائف فى هذا العصر فى جعل بلاطاتهم مركزا من مراكز التقدم الحضارى طلبا للمجد والشهرة والصيت الذائع .

(١) : أنظر التمهيد ، ص ٤٣ - ٤٩ .

(٢) : عقد صلاح خالص فى كتابه : اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، فضلا مهما جدا أوضح فيه ما أشرنا اليه فى المتن ، من أن الحياة الأندلسية فى شتى مناحيها قد ارتبطت بالطبقة الأرسطوقراطية ، فهى الموجهة وهى المنفذة ، وهى المضلعة بكل الأدوار بحكم ما تهيأت لها .

بقى أن نشير أخيرا إلى أن المجتمع الأشبيلي الأرستقراطي
في عهد بني عباد وعلى الخصوص في عهد المعتضد والمعتمد غلبت
عليه حياة المجون والخلاعة والتهاك^(١) . ويعتد المعتمد بالذات أنموذجيا
حيث لهذا اللون من الحياة .

وقد يعزى شيوع تلك الجوانب الانحلالية داخل المجتمع
الأشبيلي الأرستقراطي إلى البيئة الأسبانية السهلة المرححة .

على أن هذا يجب ألا يقودنا إلى قبول هذا القول
على علته . صحيح أن للبيئة تأثيرها في حياة الفرد والجماعة ،
غير أنها لا يمكن أن تكون السبب الرئيسي الذي صرف طبقة الخاصة
إلى ذلك اللون من الحياة العابثة الآهية ، ذلك لأن حياة المجنون
والانحلال والتهاك لا يمكن أن تسود في مجتمع مسلم إلا إذا ضعف
الوازع الديني في النفوس .

(١) : أنظر في هذا الخصوص :

- ابن حزم : طوق الحمامة في الألفه والآلاف ، ص ١١٥ - ١١٦ ، ص ١١٩ .
- ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، ص ٣٦ .
- ٣٧٠ - ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٩ ، ص ٦٠ .
- ص ٧٤ ، ص ١٧٢٠ - ابن خاقان : القلائد ، ص ٦ - ١١٠ .
- المقرئ : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ ، ص ٢٨٠ ، ص ٣٩٥ .
- ابن دحية الكلبي : المطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ٧ - ٨٠ .
- صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ٩٠ - ١٠١ .
- والمعتمد بن عباد : ص ٦٠ - ٧٢ ، ص ٩٣ - ٩٦ .
- ومحمد بن عمار الأندلسي : ص ٢٩٧ - ٣٠٠ .
- جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٦٨ . - احسان عباس :
- تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٥٢ . - أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ،
- ص ٢٣٥ . - رضا الحبيب السويسي : ديوان المعتمد بن عباد ،
- ص ١٠٣ .

واعتقد في أنه ليس ثمة ما يدعو إلى رصد جوانب تلك الحياة الآهية للمجتمع الاشبيلي الأريستقراطي ، ذلك لأنهم لا تتطوى بطبيعة الحال على أي مضمون حضاري يتماشى مع ما أخذنا نفسنا عليه في هذا البحث .

وما يجب الإشارة والتأكيد عليه في هذا الصدد هو أن ذلك الانحلال ، وتلك المظاهر العجونية الخلاعية كانت ظملا من عوامل انهيار ممالك الطوائف أمام الزحف النصراني الذي أدى من ثم إلى تدخل الروابطين وقضااتهم على ممالك الطوائف وعلى رأسها مملكة بني عباد .

الصيد والسباق :-

فيما عدا تلك الاهتمامات العجونية لطبقة الخاصة التي عرضنا صفحا عن ذكرها ، فإن هناك مظاهر اهتمام أخرى ميزت الحياة الاجتماعية للخاصة . ولم تخل منها حياة الأسرة العبادية المالكة ، وحياة الوزراء وطبقة الأريستقراطية .

ويأتى في مقدمة هذه الاهتمامات الصيد . فكون اشبيلية مدينة نهريّة وسريّة جعل أهلها يخرجون للصيد في نهريّ الوادي الكبير وفي البر . ولسنا في حاجة إلى التذكير بأنه من الطبيعي أن تختلف نظرة الأهالي للصيد باختلاف وضعهم الاجتماعي والمادي ، فإذا كانت العامة تخرج للصيد ابتغاءاً للمعيشة وطلباً للرزق ، فإن طبقة الخاصة تطلبه للتسلية . وكان الاهتمام بالصيد السري أكثر من الصيد النهريّ للثمة التي تضفيها مطاردة الطيور والفضلان والأرانب وغير ذلك ، وقد استعمل الاشبيليون في عملية الصيد الكلاب والبراة كما هو الشائع في الصيد . وغالباً ما كانت تشهد رحلات الصيد هذه جلسات اخوانية قبل وأثناء وبعد تناول ذلك الصيد الشهى (١) .

(١) : أنظر محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١٥٥ .

واهتمت الخاصة بالسباق أيضا • وكان العباديون أنفسهم يشاركون في تلك السباقات • وأبرز من اهتم بالسباق المعتاد بطبيعة الحال • وكثيرا ما كان يتخلل هذه السباقات الفكاهات الأدبية والاستجازات الشعرية (١) •

الفناء والموسيقى :-

أما الفناء والموسيقى فقد اشتهر الاشبيليون بالمرح والدعابة والتهكم والتندر ، وأثر ذلك في نفسياتهم وفي نظرتهم للأمور فبمدت حياتهم عن الجد والتجهم ومالت الى الهزل والرقصة (٢) فكانوا كما يقول ابن سعيد المقرئ (أخف الناس أرواحا وأطبعهم نوادا) وأجملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب قد مزنوا على ذلك ، فصار لهم ديدنا حتى صار عندهم من لا يبتذل فيه ولا يتلاعن مسموتا (٣) •

ونخلص من هذا الى أن هذه الحياة المرحية السهلة لأهل اشبيلية جعلتهم يتعلقون بالفناء والموسيقى ، وقد غدت اشبيلية في عهد بني عباد مركزا رئيسيا للفناء والموسيقى ، وكانت في الوقت نفسه مركزا مهما لصناعة الآلات الموسيقية التي تصدرها الى بقية بلدان الأندلس • وأهم هذه الآلات هي : العود والكرباج ، الخيال ، والبروطجة ، والرباب ، والقانون ، والمؤنس ، والزلامي ، والبوق ، ... الخ (٤) •

-
- (١) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ •
 - (٢) : أنظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٨ •
 - (٣) : المقرئ : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٠ •
 - (٤) : المقرئ : نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥١ •
- محمد كرد علي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٧ •

ولقد استشهد كثير من المؤرخين والادباء قد يما وحد يثا
للدلالة على الحياة المرححة الضاحكة التي تميوت بها اشبيلية بحسولة
الفيلسوف الاندلسى المشهور ابن رشد فى مجلس للمناظرة بشمان
فضائل مد يئتى اشبيلية وقرطبة ، وكانت هذه المناظرة قد حصلت
بينه وبين الطيب الاشبيلى ابى بكر محمد بن زهر فى مجلس الخليفة
الموحدى المنصور . وقد طال الجد ل بين الرجلين الى أن ختمه
الفيلسوف القرطبى بقوله (ما أدرى ما تقول ، غير أنه اذا مات عالم
بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان
مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية (١) .

الألعاب الرياضية الذهنية :-

ومن الألعاب الرياضية الذهنية التى مارستها الخاصة
كالوزراء والوجهاء وغيرهم الشطرنج ، وقد مر بنا سابقا الحميلة
اللطيفة التى لعبها الوزير محمد ابن عمار لرد غارات الفونسيو
السادس ، وكيف أنه قد استطاع الوصول الى ذلك عندما ثغلب على
الملك النصرانى فى لعبة الشطرنج ، كما مارست الخاصة أيضا
اللعبة بالنرد ، كما عرف أهل اشبيلية لعبة اللطمة والمقصر ،
وغير ذلك (٢) .

(١) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) : أنظر محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١٥٦ .

الحياة الاقتصادية

أ - النشاط الاقتصادي :-

بقى أن نشير أخيرا الى أهم أوجه النشاط الاقتصادي في الدولة العبادية ، وهي الزراعة والتجارة والصناعة . ونجد من الضروري هنا التأكيد على نقطة هامة في هذا الصدد ، وهي أن معظم ما كتب عن هذه الفاعليات الاقتصادية الثلاث ، إنما يركز على عمومياتها الاشبيلية الموروثة . وذلك لأن بنى عباد لم يكن لهم جهد مذكور في سن أنظمة وقوانين ، أو عمل مشاريع بارزة للارتقاء بهذه الفاعليات ، ربما لانشغالهم بالتوسع والسيطرة ، الذي أحجمهم في نزاع ومشكلات مع جيرانهم من ملوك الطوائف ، أو ربما اعتقاداً منهم بأن هذه الفاعليات كافية وافية لمسيرة الدولة الاقتصادية . ولهذا فإن هذه الفاعليات أو الأوجه الاقتصادية في دولة بنى عباد تعتبر امتداداً للعصور الاسلامية السابقة ، واستمراراً لأنظمة وقوانين موروثة مرعية .

أما الزراعة ، فقد كانت أبرز أوجه النشاط الاقتصادي على الاطلاق ، بفضل الطبيعة الزراعية للانندلس عموماً ، وبفضل الطبيعة الزراعية التي امتازت بها اشبيلية ، من حيث خصوبة التربة ، ووفرة المياه ، وللقوانين والانظمة التي وضعها الاشبيليون للارتقاء بالزراعة . كنظام الملكية العقارية ، الذي يقوم على أساس تفتيت الملكية القروية الكبيرة الى مجموعة متعددة من الملكيات الصغيرة^(١) ، وكنظام المشاركة الذي مر بنا ذكره^(٢) . حيث يقاسم الفلاحون الملاك المحصول الزراعي ، وكان هذا عاملاً مهماً في تحسين أوضاع أولئك المموزين الذين لا يمتلكون الأرض ، فكان الملاك الأغنياء يشاطرونهم الانتاج الزراعي مقابل جهدهم العضلي .

(١) : أنظر محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ٨١ .

(٢) : أنظر الباب الخامس قبل ، ص ٣٧٢ .

وقد زرع أشبيلية معظم الفلات الزراعية المعروفة ،
ولكن أهم الفلات الأشبيلية على الإطلاق الزيتون ، والقطن ^(١) ، والتين ،
ثم قصب السكر . وكان الفلاح الأشبيلي ذا خبرة ودراية عظيمة
بالفلاحة وطرق الري ، وكان لطرق الري والسدود التي أنشأها
المسلمون في الأندلس أثر كبير في تقدم الزراعة الأندلسية عموماً .
وقد عرف الأشبيليون أيضاً طريقة تخصيص أنواع معينة من النباتات
لكل نوع من أنواع التربة كما أدخلوا نباتاتاً أخرى جديدة ، وأدخلوا
السواقي والقنوات وغيرها ^(٢) .

ومما يدل على شدة اهتمام الأشبيليين بالزراعة ، أن ألف
بعضهم كتباً مهمة عن الفلاحة وشؤونها ومن هؤلاء ، ابن بصال ^(٣)
الذي عاش في عصر العهد البين ، وألف عن الفلاحة كتاباً مهماً أسماه
كتاب الفلاحة ، وقد عاش في عصر المعتمد وأنشأ بستاناً زرع فيه جميع
ما جمعه أثناء رحلاته خارج الأندلس وقد سمي هذا البستان : بستان
السلطان ثم تبعه بعد ذلك بفترة غير بعيدة ، ابن العوام الأشبيلي
الذي ألف كتاباً عن الفلاحة أسماه كتاب الفلاحة أيضاً ^(٤) .

-
- (١) : أنظر محمد بن عبد الغنم الحميري : المصدر السابق ، ١٩ - ٢١ .
(٢) : محمد بركات البيلى ، الرسالة السابقة ، ص ٧٩ ، و ص ٨٤ .
(٣) : هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال ، أو ابن بصال الطليطلى ،
عاش في أشبيلية في القرن الخامس الهجري ، وقد كان يخدم المهتمسند
ابن عباد - فيما يظن - في مجال الزراعة . وقد ألف كتابه : الفلاحة
الذي يقع في ١٦ فصلاً . وقد نشره وعلق عليه وترجمه كل من : خوسيه
ماريا مياس بيكروسا الأستاذ بجامعة برشلونة ، ومحمد عزيمان
السكرتير العام لوزارة التربية والثقافة للمنطقة الخليفة بالمغرب ،
مفشورات معهد مولاي الحسن - تطوان - ١٩٥٥ م ، وقد كتبت
نبذة عن هذا الكتاب في مجلة معهد الدراسات الإسلامية منقولة من
مقدمة مجلة تطوان التي قدمت لكتاب ابن بصال .
أنظر ابن بصال : كتاب الفلاحة . نشره وترجمه خوسيه ماريا مياس بيكروسا .
زأوية الكتب : نقد وعرض المجلد الخامس ، العدد ١-٢ ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
(عدد خاص بمناسبة مرور خمس سنوات على انشاء الصحيفة) ص ٨ .
(٤) : محمد بركات البيلى : نفس الرسالة أعلاه ، ص ٧٩ - ٨١ .

الصناعة :

عرفت لشبيلية بحكم الطبيعة الوفيرة والزراعية لها ،
عدة صناعات قامت على الانتاج الزراعى والحيوانى ، كصناعة النسيج ،
وصناعة عصر الزيتون واخراج الزيت منه ، وصناعة السجاد وصناعة
طحن الفلال وغير ذلك .

وجانب هذه الصناعات ، توجد صناعات أخرى ،
كصناعة آلات الحرب ، كالسيوف والدروع وغير ذلك ، وصناعة مواد
البناء وما يتصل بها من صناعة المواد الخشبية ، كالشراحيب^(١) ،
والنوافذ والأحواض الخشبية ، وغيرها^(٢) .

وقد اشتهرت اشبيلية بصناعة السفن بحكم كونها
أول مدينة أندلسية تقام فيها دار لصناعة السفن ، وذلك فى عهد
الأمير عبدالرحمن الأوسط . كما اشتهرت اشبيلية بصناعة الآلات
الموسيقية كما قلنا سابقا ، وكانت هذه الآلات تنقل منها الى مدن
الاندلس والى خارج الأندلس أيضا^(٣) .

التجارة :

ومن الطبيعى أن يهتم اشبيليون بتصريف انتاجهم
الزراعى والحيوانى والذى يفهم عن حاجتهم ، كما أن من الطبيعى أن
يحتاجوا الى استيراد ما ينقصهم من الضروريات والكماليات التى تزخر
بها المدن الأخرى ، ولذلك فقد اهتموا بالاعتناء بشبكة الطرق
البرية التى تربط مدينتهم ببقية مدن الأندلس . واهتموا أيضا
بانشاء الاسطول بحكم كون مدينتهم تطل على الوادى الكبير
أو نهر اشبيلية كما يعرف أيضا ، الذى يتصل بالمحيط الأطلسى .

- (١) : لعلمها الرواشيون كما تعرف فى الحجاز أو المشريات كما تعرف فى مصر .
- (٢) : محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ٩١ - ١٠٤ .
- (٣) : محمد بركات البيلى : نفس الرسالة ، ص ٩٨ - ١٠٣ .

وقد مررنا في حديثنا عن البحرية للعبادية ، أن العباديين
أنشأوا أسطولين ، حرسى وتجارى .

وقد شهدت اشبيلية في عهد بنى عباد حركة
تجارية كبيرة بفضل هذه العوامل ، وكانت لهم علاقات تجارية
مع مدن الأندلس ، ومع المغرب ، وبلدان المشرق الاسلامى (١).

ب - النقود :-

بقى أن نشير تماما للحالة الاقتصادية في الدولة
الى السكة العبادية ، فلقد ضرب العباديون عملة خاصة بهم
تحمل أسماءهم ، ويبدو أن أبا القاسم ابن عباد كان أول من ضرب
عملة عبادية من ملوك بنى عباد ، ولكن يظهر أنه لم يضربها باسمه ،
بل ضربها باسم خليفته المزعوم هشام ، وأضاف اليها لقب الحاجب
عباد . وكان لهذا العمل ولاشك منزى سياسى واضح . وقد
وجدت عملة مؤرخة في سنة ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ هـ ، كتب عليها في
الوجه الامام المؤيد بالله هشام ، اضافة الى اسم الحاجب عباد
في الجهة الأخرى من العملة . وقد ضرب المعتضد نقودا باسمه ،
مكتوب على الوجه الامامى فيها عبارة : المعتضد بالله ، وعلى الوجه
الاخر اسم أحد أبنائه ، كالحاجب اسماعيل ، أو الحاجب محمد ،
أو الحاجب الظافر محمد . الخ .

وكانت العملة تضرب حتى عام ٤٦٤ هـ تحت عبارة
(دار الضرب بالأندلس) . أما في عام ٤٦٥ هـ ، فقد بدأت تضرب
تحت عبارة (ضرب في اشبيلية) .

أما السكة في عهد المعتمد بالله ، فقد ضرب بعضها
في اشبيلية ، والبعض الآخر في قرطبة ، وكذلك ضربت نقود أخرى

(١) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ١٠٣ - ١٠٧ .

في مدينة مرسيية ، وكانت تحمل عبارة المعتمد على اللد في الوجه الأمامي
وفي الوجه الآخر كتب اسم أحد أبناء المعتمد كالحاجب سراج
الدولة ، وغيره .

ويبدو أن العملة العبادية قد استمرت تضرب حتى
عام ٤٧٨ هـ ، وهو العام الذي وقعت فيه موقعة الزلاقة ، ثم انقطع
أى ذكر لها بعد ذلك ، وربما يعود ذلك إلى أن ضغط الأحداث
التي أعقبت موقعة الزلاقة قد عرقل سكها أو ربما ذهبها
تتابع الأحداث تلك فأنعدم بعد ذلك العام أى ذكر النقود
عبادية (١)

(١) : للاطلاع على مزيد من التفاصيل عن العملة العبادية يراجع :
محمد بركات البيلى : الرسالة السابقة ، ص ١١٥ - ١١٧ .

الحياة العلمية والأدبية

الأثر الحضارى لقيام ممالك الطوائف :-

ذكرنا فيما مضى أنه رغم التفتت والانحلال والتمزق السياسى الذى ساد الاندلس فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى الا أن هذا القرن شهد اشراقا حضاريا وثقافيا كبيرا ، ولم تكن الثقافة الاندلسية كما يقول ليفى بروفنسال (فى يوم من الايام أكثر ازدهارا وخصبا منها خلال هذا القرن) (١)

وفى حقيقة الأمر فان الازدهار العلمى والأدبى الذى ساد الاندلس خلال عصر ملوك الطوائف كانت له ارهاصاته ومقدماته منذ عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، ثم عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر . وهى الفترة الزمنية السابقة مباشرة لعصر ملوك الطوائف .

وقد سما هؤلاء بالاندلس سياسيا وعلميا وأدبيا وعمرانيا الى درجات رفيعة من السمو والرفعة . وتجلت مظاهر ذلك السمو فى المنشآت العمرانية كعمارة جامع قرطبة ، وعمارة مدينة الزهراء والزاهرة ، كما تجلى ذلك التقدم فى الجانب الأدبى أيضا ، وشهد ذلك العصر بالإضافة الى ذلك تقدما علميا ليس أدل عليه من أن ملوك أسبانيا النصرانية كانوا يؤمنون بلاطات خلفاء بنى أمية طلبا للعلاج والشفاء (٢)

-
- (١) : حضارة العرب فى الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، ص ١٩ .
(٢) : للاطلاع على النهضة العلمية والأدبية والثقافية فى عصر الخلافة والدولة العامرية أنظر :
ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الاندلس ، ص ١٩ - ٢٠ .
مانويل جوميث مورينو : المرجع السابق ، ص ٧١ - ٢٠٠ .
أحمد هيكل : الأدب الاندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة : الفصل الرابع ، ص ١٩٥ الى نهاية الكتاب .
جودت الركابى : فى الأدب الاندلسى ، ص ١٩ - ٢٠ .
عبدالرحمن على الحجى : أندلسيات ، ص ١٩ - ٢٠ .

ولذلك فان القرن الخامس الهجرى يعد متمم لتلك الاتجاهات الحضارية . وأسهم ملوك الطوائف فى ازكاء ذلك ودفعه حتى ليصدق القول بأن جوانب الحضارة والتمدن (قد اكتملت أو كادت حتى وصلت الى مرحلة لا بد لها من جنوح أو هبوط) (١)

وقد أخذ ملوك الطوائف على عاتقهم مهمة ذلك الدفع الحضارى والثقافى لأغراض شخصية محضة لاضفاء هالات المجد والصيت على بلاطاتهم فى معظم الاحايين ، أو لارضاء نزعات علمية وأدبية وتاريخية ذاتية كما كان شأن بلاطات اشبيلية ويطليوس وسرقسطة . وكان تأثير عواصم ممالك الطوائف على الفن والعمران عظيمًا ، وذلك لأن كل عاصمة من هذه العواصم اندفعت جاهدة لتتفوق على العواصم الأخرى وتدل عليها بما حققته من تقدم عمرانى وأدى و علمى (٢) رفيع .

ولقد استوقفت هذه المفارقة التاريخية أى ظاهرة الاشراف الحضارى والثقافى فى قلب أزمنة الانحلال والتمزق السياسى الكثير من الادباء والمؤرخين فلفتوا النظر اليها فى دهشة واستغراب شديد (٣) وان لم يفتهم أن يستدرکوا أن هذه المفارقة التاريخية كانت تصدق دائما فى عصور الانحلال والتمزق . لأن تفتت أى نظام حكم مركزى الى ممالك وامارات متناثرة يفضى دائما الى ظهور تيارات من المنافسات والمشاحنات ، وتدفع هذه التيارات المتنافسة الممالك المتناحرة الى تشجيع العلم

(١) : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) : أنظر محمد عبدالعزيز مرزوق : المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) : أنظر ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى الاندلس ، ص ١٩ - ٢٠ .

وسلسلة محاضرات عامة فى أدب الاندلس وتاريخها ، ترجمة

عبد الهادى شعيرة ، ومراجعة عبد الحميد العبادى ، ص ١٣ - ١٤ .

— محمد كرد على : غابر الاندلس وحاضرها ، ص ٢١ وما بعدها .

والأدب • والحبو على رجالتهما وتكريمهما ، لتدل بذلك على غيرها
كما ذكرنا • ولتسبغ على شخصيات قادتها أكابيل المجد والنفار •

ونحن هنا في هذا المقام لا يعنيننا دراسة الأدب
والمعلوم والثقافة ، والتطور الذي رافق مسيرة الحضارة الاندلسية في
عصر ملوك الطوائف ، فليس ذلك في منهاجنا • وإنما ما يعنيننا هو
التأريخ لتلك الأوجه الحضارية لنخلص الى نتيجة ذات مساس ببحثنا
الا وهي معرفة الحياة العلمية والادبية في مملكة بني عباد موضوع بحثنا •

ومما نستطيع الخلوص اليه من كل ما قيل حول التطور
الحضاري في القرن الخامس الهجري ، هو التأكيد على حقيقة مفادها
أن بلاطات ملوك الطوائف قد أصبحت مراكز أدبية حامية حولها العلماء
والادباء والشعراء يقدمون الى الملوك نتاج عقولهم وقرائحهم ، ومكنونات
عواطفهم ومواهبهم ، وينالون على ذلك الأعطيات الجزيلة ، حتى
لقد دفع هذا التشجيع بعض الشعراء الى رفع أسعار أشعارهم
لدرجة جعلت أحدهم لكثرة المناقصات عليه يقسم أن لا يمدح أميراً
من الأمراء بأقل من مائة دينار (١) •

كما أن مما نستطيع استخلاصه من أشعر حضاري
لقيام ممالك الطوائف ، تلك الملاحظة التي دأب كثير من الادباء
والمؤرخين على ترديدها للاستدلال بها على النهضة الأدبية في
عصر ممالك الطوائف • هذه الملاحظة هي التي وردت على لسان
المؤرخ المشرقي القزويني مفادها أنه (من احدى عجائب مدينة
شلب ، أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً ، ولا يعاني الأدب ،
ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته
ما اقترحت عليه ، وأي معنى طلبته منه) (٢) •

(١) : اميليو غارسيا غومس : الشعر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ٤٦ •

(٢) : كامل كيلاني : نظرات في تاريخ الادب الاندلسي ، ص ٣٤٠-٣٤١ •

ومما نستطيع استخلاصه أيضا من أثر حضارى لقيام
ممالك الطوائف ، هو أن المعرفة والتراث الاندلسى فى عصر هذه الممالك
قد شهدا تطورا مطردا فى شتى المناحي . فزخر بوجود عدد
كبير من الاعلام فى شتى نواحي المعرفة ، فكان هناك علماء فى
الهندسة ، والفلك والرياضيات ، والرصد ، وحركات النجوم ، وكان
هناك علماء فى الفلسفة والطب ، والمنطق والصيدلة . الخ .

وفىما يتعلق بالعلوم العقلية كان هناك علماء فى
الفقه والتفسير والفرائض ، والنحو والتاريخ والجغرافيا . ولسنا
هنا فى وارد ذكر أسماء الاعلام الذين أسهموا فى هذه المجالات
الحضارية المختلفة لأن ذلك ليس من منهجنا أولا ، ولأن كثيرا من كتب
المحدثين قد كفتنا مؤونة ذلك من جهة أخرى (١)

وفىما يتصل بالحياة الادبية باعتبارها أهم مظهر
حضارى فى عصر ملوك الطوائف ، فان المقام يضيق بذكر اعلامها
الأفذاذ . وكانت أى الحياة الادبية فى الاندلس فى عهد ممالك
الطوائف مجالا رحبا لمصنفات حديثة أوسعتها بحثا وتنقيبا (٢)

(١) : أنظر مثلا :

— محمد كرد على : غابر الاندلس وحاضرها ، ص ٥١ — ٩٣ .
— عبدالمنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ط ٣ ، الفصل الثالث
والفصل الرابع من الكتاب . — حسين مؤنس : شيوخ العصر ،
ص ٨١ — ٨٤ .

(٢) : أنظر مثلا :

— احسان عباس : المرجع السابق . — مصطفى الشكعة : الأدب
الاندلسى موضوعاته وفنونه . — أنخل جنثالك بالثيا : تاريخ
الفكر الاندلسى . — اميليو غارسيا غومس : المرجع السابق
وغير ذلك .

على أننا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نفسح لبعض الاعلام الأنداز في هذا المقام ذكرا ، لأن أولئك الاعلام الأنداز الذين تنوعت اهتماماتهم وتباينت اتجاهاتهم ومشاربهم قد فرضوا أنفسهم على كل من اضطلع بدراسة أو تاريخ الحياة العلمية والأدبية والفكرية بوجه عام .

فمن هؤلاء العلماء الأنداز : ابن حزم الفقيه والمفكر الاندلسي المشهور ، وفي هذا ما يكفي للتعريف به ^(١) . ومن هؤلاء أيضا الفقيه الاندلسي المشهور ابن عبد البر الذي كان يقال له حافظ أهل القصر ^(٢) ومن الاعلام الذين خلدت أسماؤهم أيضا : الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ^(٣) أما أبرز شخصيات ذلك العصر الأدبية ، فهم ابن شهيد ^(٤) ، وابن زيدون ^(٥) ، وابن عمار ^(٦) ، وابن اللبانة ^(٧) وغيرهم .

(١) : أنظر ترجمته في :-

- ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٢٨ ، ترجمة رقم ٤٤٨ .
- ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٦ جزءا ، ج ١٢ ، ص ٩١-٩٢ .
- ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٧٥ .

(٢) : أنظر ترجمته في :-

- ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ترجمة رقم ٨٣٧ .
- ابن بشكوال : المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣) : أنظر ترجمته في :-

- ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ترجمة رقم ٢٠٥ .
- ابن شاکر : فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٥٦-٣٥٧ .

(٤) : أنظر ترجمته في :-

- ابن خلكان : نفس المصدر السابق ، مجلد ١ ، ترجمة رقم ٤٨ .
- احمد هيكل : المرجع السابق ، ص ٤١٠ - ٤١٩ .
- أميليو غارسيا غومس : نفس المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٥) : عن ابن زيدون أنظر :-

- على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله .

(٦) : عن ابن عمار أنظر :-

- صلاح خالص : محمد ابن عمار الاندلسي .

(٧) : أنظر بعد ، ص ٤١٢ .

بقى أن نشير إلى أن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا

ذوي علم وأدب ومعرفه ، وكان لكل واحد منهم ميزة اختصاصها دون
غيره ، (فامتاز التوكل صاحب بطليوس بالعلم الفيزيائي^(١) ، وامتاز
ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزوين
صاحب السهلة أفناده في الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود
صاحب سرقسطة بالعلوم وميز ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه
بالنثر الجميل المسجوع ، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم
جميعا ، يلقي منهم كل رعاية^(٢) .

ان ذلك القرن الحادي عشر الاندلسي لعالم عجيب

متدفق الحركة : عصر كانت الفاسلة فيه تنتقل من ضفة النهر
إلى المـرش^(٤) ، وكان الملوك فيه ينزعون عن عروشهم ويسلمون
إلى أياب المنية ، أو يلقي بهم في ظلمات المنفى ! ان اشارته
الغالبة عليه هي الانهيار^(٥) .

-
- (١) : أنظر قبل الباب الرابع ، ص ٢٥٥
 - (٢) : هي سهلة بنى رزوين أو شنتميرة الشرق كما كانت تعرف
في الجغرافيا الإسلامية أيضا .
 - (٣) : اميليو غارسيا غومس : المرجع السابق ، ص ٤٥ .
 - (٤) : المقصود بذلك اعتماد الرميكية زوج المعتمد بن عباد التي
تعرف عليها لأول مرة على ضفة نهر الوادي ، ثم اشتراها
من سيدها وتزوجها ، وأنجب منها كل أولاده المشهورين
في كتب التاريخ والأدب .
 - (٥) : اميليو غارسيا غومس : نفس المرجع أعلاه ، ص ٤٥ .

الحياة العلمية والأدبية في مملكة بني عباد :-

من أسف أن المؤرخين والأدباء القدامى رغم اهتمامهم الشديد ببني عباد وبدولتهم لم يسعفونا بالمادة التاريخية اللازمة لمعرفة الحياة العلمية والأدبية على وجه التخصيص . فكلما نشاهد من ذلك الحشد من الأشعار وأسماء عديدة لشعراء وأدباء وكتاب زخرت بهم دولة بني عباد لا يعد ونطاق أغراض الشعر والنثر التي كانت سائدة في الأندلس في هذه الفترة . كما لم نتح لنا سانحة المشور على أخبار عن المدارس والمعاهد والمكتبات التي أنشأها العباديون لخدمة العلم والمعرفة في المملكة .

فكل ما يمكننا الإشارة إليه - بالنسبة للحياة العلمية والأدبية في اشبيلية في عهد بني عباد - هو ذلك الثبت الجرم من الأسماء لأدباء وشعراء زخرت بهم بلاطات بني عباد . ومهمتنا في هذا الصدد تقتصر على رسم صورة واضحة المعالم للحياة الأدبية والعلمية في اشبيلية في هذه الفترة موضوع الدراسة .

العباديون في دولة الأدب :-

بادئ ذي بدء نجد أن الاتجاه الشعري هو الغالب على ملوك بني عباد ، فقد كان ملوك هذه الدولة ابتداءً من عهد القاضي أبي القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ومرورا بالمعتضد ابنه ، وانتهاءً بالموثق وأبنائه يقرضون الشعر وينظمونه على درجات متفاوتة في علو الكعب وسمو الدرجة .

وقد حفظت للقاضي أبي القاسم عدة أبيات يصف فيها الطبيعة بعناصرها المختلفة كالأزهار والرياحين (١) .

(١) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ ، وص ٣٧٢-٣٧٣

(نقلا عن ابن اللبانة - والفتح بن خاقان في مطمح الأنفس) .

ويبدو أن القاضي كان مقلا جدا في قول الشعر ونظمه ، فمندا ما ذكرنا عن تلك الأبيات التي نظمها في وصف الطبيعة ، لم يحفظ له شيء من الشعر سوى ما أثبتته ابن بسام له من أبيات عارض فيها بعض شعراء بلاطه (١) .

والظاهر أن مشاغل تأسيس الدولة من جهة ، والاهتمامات السياسية للقاضي نفسه من جهة ثانية حالت دون اهتمامه بالأدب في عهده بصفة عامة . وان كان هذا لم يكن أمرا مطلقا دائما ، فبلاط القاضي شهد أكثر من شاعر بلاطي متخصص ، كما شهدت الحياة الأدبية والعلمية صور من المعارضة الشعرية التي كانت تستهوي دائما ملوك تلك الفترة .

أما الممتضد فله شعر يضعه في مراتب الشعراء المبرزين ، وان كانت له أشعار تجعل المرء يشكك كما يقول على أدهم (٢) في شاعريته .

على أنه فاق أباه في نظم الشعر وقرضه ، والاجازة عليه وتشجيحه . وقد طرق معظم أغراض الشعر ، وأغرق كثيرا في مدح نفسه والتفاخر بأعماله (٣) ، ويقول أنخل جنثالت بالثيا عنه (وقد كان ذا مزاج متناقض غريب ، يجمع بين الدهاء والقسوة ، وكانت له - الى ذلك - ذاكرة واعية ، وقريحة شاعرية طيبة جعلت معاصريه يسمونه في صفوف المبرزين من القراء ، وأحاط الممتضد

(١) : أنظر الذخيرة ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ١٧٢ - ١٧٥ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٣) : عن شعر الممتضد بالله أنظر :

ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٧ - ٨٠ .

نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مدحه ، وأفرغ عليهم الأموال
فبدا في حياة خلافة من العظيمة ^(١) .

أما المعتمد فشهرته كشاعر أشهر منها كملك وكسياسي .
ولم يبلغ الشعر من الانتشار والاشراق مثلما بلغه في أيامه . وقد
أفردت لشاعريته وأدبه صفحات جمّة وفيرة في كتب المؤرخين
قد يما وحد يثا . ولم ينل ملك من ملوك بني عباد فضلا عن ملوك
الطوائف ما ناله المعتمد من عناية واهتمام الدارسين للأدب .

وهو في الواقع حقيق بذلك . فالجانب العاطفي من
شخصيته أسى كثيرا وأرق من الجانب السياسي . وهو جانب
(لا ينهض بحقه من غير شك) ^(٢) إذ أن هذا الجانب العاطفي
أشدّ خلافة وأسرا كما يقول ليفي بروغنسسال أيضا ^(٣) .

والمعتمد من أكبر شعراء الاندلس لا في عهد ممالك
الطوائف فحسب ، بل في كافة العصور الاسلامية الأخرى في الاندلس ،
لا بل هو من شعراء العربية الأندلسية على مستوى العالم الاسلامي
في العصور الوسطى .

ويحار المرء في اختيار المبارات التي يطرقها
لوصف شاعرية المعتمد ، وتزداد المهمة صعوبة لكوننا بعيدين
عن مجالات الأدب . ولكن يحسن بنا أن نشير الى أقوال القدامى
والمحدثين في شاعرية هذا الملك الذي أسربلاطه أولئك

(١) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٨٦ - ٨٧ . — الفتح بن خاقان :

القلائد ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) : ليفي بروغنسسال : سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها ،

ص ١٤ - ١٦ .

(٣) : نفس المرجع والصفحة .

المؤرخين والأدباء • يقول ابن الخطيب فيما ينقله عنه عبد الوهاب عزام (والمعتمد على الله محمد بن عباد نسيح وحده في الجود ، وأصلب نظرائه مكسر عود ، فذ في البلاغة ، طرف في الشعر والكتابة ، بارع النظم والنثر ، كثير الأدب ، جذل الألفاظ ، كثير المعاني ، حسن المآخذ ، له من معاطف الكلام ، رقيق الحاشية ، كثيف المتن ، كثير البديع ، رائق الديباجة ، لائق الاستعارة ، حسن الإشارة ، جَم التوليد ، لم ينشده من الوزراء والشعراء أشعر منه على كثرة ما اجتلب اليه من أعلامه الثناء ، ونثر عليه من در الحمد ، ووضع في يديه من حر القريض)^(١) .

تري هل يكفي هذا الحكم النقدي في ايقاء المعتمد حقه ؟؟ نعتقد أنه لا يكفي فما زال في جمعبتنا من أحكام الادباء والمؤرخين الكثير مما يؤيد ما جاء في المتن • غير أنه بحسبنا هنا أن نكفي بذلك ، لننتقل الى العصر الحديث فننقل اعجاب المؤرخين المحدثين به • يقول أنخل جنثالت بالنيثيا^(٢) (وكان الحال في اشبيلية شبيها بما كان عليه في ألمرية ، إذ حظى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب في ظل بنى عباد • ولقد كان المعتمد والمعتمد من أعلام الشعراء ، ومن ثم لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب • وقد وصلت الخمریات وشعر النسيب والنزل أعلى درجات الكمال في ذلك البلاط المصقول ، حيث عجز شعراء مجيدون من طبقة علي بن حصن وابن حمد يس الصقلي ، وأبي بكر بن زيدون ، وأبي بكر بن اللبانة ، وغيرهم كليون عن ادراك ما وصل اليه ابن عمار ، وزير المعتمد النابه الذكر المنكود الحظ من تحليق بعيد في سماء الشعر ، وقصروا كذلك في ملاحقة اعتماد نفسها زوج المعتمد وجارية رميك التاجر الاشبيلي قبله ، فضلا عن مجارة الملك الشاعر المعتمد فيما أبدعه من

(١) : المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، ص ١٧-١٨ .
(٢) : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٨٨ - ٩٠ .

رائع القصيد • والحق أن المعتمد وفق في أيام سموده ومجده ، الى درجة من التجويد مكنت له أن يصل بشعره - في أبواب الفزل ، ووصف مجالس السرور ، ووصف الحرب والنصر - الى آفاق استدرت اعجاب البدو أنفسهم ، فلما تنكرت له الأيام ، وعانى أوصاب السجن والهوان ، أخذت نفسه الفتانة تجود بدرر من الشعر لازالت تثير في أنفسنا الى اليوم الاجلال لهذا الملك الفارس الشهم الكريم) .

أما اميليو غارسيا غومس^(١) فيقول في معرض تقييده لمصر ملوك الطوائف (واذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة شخص واحد من أهله ، فليس أوفق لذلك من المعتمد ابن عباد صاحب اشبيلية (١٠٦٨هـ / ١٠٦٨م - ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) كان أبوه المعتضد (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م - ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) - صاحب الأفاعيل الشنيعة - وأبناءؤه جميعا ، وخاصة " الراضى " الرقيق صاحب زنده ، كلهم شعراء • ولكنه بزهم جميعا وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعرا يثير الاعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعرا حيا ، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس جميعين بل شعراء الغرب الاسلامى كله ، فالى بلاطه لجأ شعراء افريقية وصقلية ،^(٢) عند ما غزا النورمان بلادهم واستولوا على بعضها ، وتهددوا الباقي^(٣) .

بحسبنا هذه الأحكام لنستدل بها على علو درجة المعتمد الشاعرية وعلو كعبه الأدبى • وبالإضافة الى ذلك كان المعتمد ناقدا محللا عرف عنه ذلك واشتهر حتى كان الشعراء يخرجون عند القاء قصائدهم بين يديه وحتى كانوا يتحامونه لعلو كعبه فى النقد الأدبى^(٣) وبالإضافة الى ذلك كان شديد الاهتمام بالصلم والمعرفة ، شغوبا الى فهم ما استشكل

(١) : المرجع السابق ، ص ١٥ - ١٦ •

(٢) : المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ •

(٣) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١١ •

منها • وخير دليل على ذلك السؤال الذي وجهه المعتمد الى الاعلم الشنتمرى المذكور سابقا يستفسر فيه عن النطق الصحيح لكلمة (المسهب)^(١) •

وقد بقيت هذه الذكرى المطرة للمعتمد حية مشرقة ، تتناقلها الاجيال حتى الوقت الحاضر ، ودفع هذا الاعجاب للشاعر الكثير من القدامى والمحدثين الى تتبع حياته وأدبه وثقافته الواسعة العريضة • كما استهوت حياته البائسة وأشعاره الشجية الرقيقة الباحثين قد يما وحديثاً^(٢) • وظلت أشعاره تجتذب أنظار الأدباء والدارسين والنقاد وسائر غواة الأدب المحض والثقافة الحقة كما يقول على أدهم • وقد جمع شعره في ديوان أطلق عليه اسمه^(٣) •

هذا غيظ من فيض هذا الشاعر وقليل من كثير ألقه وأمجاده الأدبية • ولم يكن أبناء المعتمد ليشذون عن النهوض بالشعر لا بل تذوقه وقرضه عن آبائهم • ولعل أبرزهم ظهوراً فسي هذا الميدان : يزيد الراضى صاحب الأشعار الرقيقة الجزلة^(٤) •

-
- (١) : أنظر المقرئ : نفس المصدر والمجلد ، ص ٢١٦ - ٢١٨ •
(٢) : من المؤلفات التي ألفت حول شخصية المعتمد الشعرية أنظر :
عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، ص ٦٤٤ •
— على أدهم : المرجع السابق • — عبد الوهاب عزام : المرجع السابق • — صلاح خالص : المرجع السابق وغيرهم •
أما بالنسبة للذريات فهناك العديد منها التي تناولت شخصية المعتمد الأدبية نذكر منها على سبيل المثال : ابراهيم حركات : شعر المعتمد بالله في المغرب ، مجلة البحث العلمي ، ١٩٦٥ م • —
الصديق بن العربي : المعتمد في المغرب ، مجلة تطوان ، العدد ١٠ ، ١٩٦٥ م • —
عبد القادر زمامة : شعر المعتمد في المنفى ، مجلة البحث العلمي المغربي ، الرباط ، ١٩٦٤ م •
- (٣) : أنظر احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد : ديوان المعتمد بن عباد • —
رضا الحبيب السويسي : ديوان المعتمد بن عباد أيضا •
- (٤) : أنظر ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠ - ٧٦ •

أبرز شعراء الدولة العبادية :-

ذكرنا أن الحركة الأدبية في عهد القاضى أبى القاسم محمد أول ملوك الدولة العبادية لم تبلغ من التمكين والانتشار ما يصدق القول معها بأن ثمة نهضة أدبية كانت تعيشها الدولة فى عهده ، بيد أننا من خلال استطلاعنا لأحوال الدولة فى عهد القاضى لانعم وجود حركة فكرية وأدبية محدودة . وكان على رأس شعراء الدولة أبو الحسن ابن الأستجى ، وابن القوطية ، وأبو الأصمغ ابن عيسى (١) .

أما فى عهد المعتضد بالله فقد بلغت دولة الأدب فى عهده شأواً بعيداً بحكم عدة أسباب منها : اتساع رقعة الدولة واتساع خيراتهم بالتالى ، ومنها ميول المعتضد نفسه الميالة الى الأدب والمعرفة ، ثم التطور الطبيعى للأدب الذى شاهده بلاطات ملوك الطوائف آنذاك الى حد قاربت فيه مدارج الكمال . وأخيراً الى شيوع ظاهرة التنافس بين ملوك وأمراء الطوائف فى الاستئثار بالموهوبين من الشعراء والادباء لبلاطهم وحدهم .

والمتمم للحركة الأدبية فى اشبيلية فى عهد المعتضد يلحظ ثبتاً كبيراً من الأسماء لأدباء كان لهم وقتها صيتاً وذكر ، أحاط المعتمد بهم بلاطه . وان لم يتخل عن ممارسة سياسته فى الإيقاع بهم والتخلص منهم .

ونذكر فى اقتضاب بالغ بعضاً من هؤلاء الشعراء والادباء . فمنهم أبو الوليد حبيب بن عامر الذى ألف كتابه المسمى ب: البديع فى فصل الربيع . وقد توفى شاباً فى شرح الصبأ (٢) .

(١) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثانى - المجلد الاول ، ص ١٢٠ - ١٢٥ .

(٢) : ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

ومنهم أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم^(١)، ثم أبو بكر الخولاني^(٢)، ثم الشاعر المشهور ابن الأبار وهو غير ابن الأبار القضاعي صاحب الحلة السيرة، واسمه الكامل أبو جعفر أحمد ابن الأبار وهو أحد شعراء الخلاعة والمجون في دولة المعتضد بالله^(٣)

ومن مشاهير شعراء المعتضد أيضا الأديب أبي الحسن علي بن حصن الأشبيلي . وكان شاعرا مقلدا ، غير أن مكانته الأدبية كسفها ظهور الشاعر الأشهر ابن زيدون الذي التحق بالبلاط العبادي ، فبدأت المنافسات بين الرجلين ويبدو أن ابن حصن كان يلي بالاضافة إلى كونه أحد أبرز شعراء البلاط منصبا حكوميا هاما . ولذلك بدأ يعرض بالوزير الشاعر ابن زيدون ويتهكم عليه . وكان المعتضد نفسه يزكي هذه العداوة بين الشعارين حتى ارتكب ابن حصن خطأ فادحا - لانعلم كنهه - فقتله المعتضد وتخلص منه^(٤)

ومن شعراء دولة المعتضد بالله ابن جاح البطليوسي . وقد تولى في عهده رئاسة الشعراء . وقد استفدنا حق الاستفادة من ترجمة حياته في معرفة ناحية مهمة عن الشعر في عهد المعتضد بالله ، إذ يبدو أنه كانت هناك دار مخصصة للشعراء والأدباء أو قل ديوان للشعر يجتمعون فيه وينالون إعطياتهم من الملك جزاء أشعارهم ، بمعنى أنهم كانوا شعراء ملتزمون بخدمة السلطان برواتب معينة . كما عرفنا أن المعتضد كان يجتمع في ذلك الديوان بالشعراء في يوم معين من الأسبوع وهو يوم الاثنين ، فيستمع إلى أمداحهم فيه^(٥)

-
- (١) : أنظر ترجمته في :
ابن بسام : نفس المصدر والقسم والمجلد ، ص ١٠١ - ١٠٢ .
- (٢) : أنظر ترجمته في :
الحميدى : المصدر السابق ، ص ٣٩٢ .
- (٣) : أنظر ترجمته في :
صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري ، ص ١٦١ - ١٦٤ .
- (٤) : أنظر ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني - المجلد الأول ، ص ١٣٣ -
- (٥) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

أما أشهر كتاب النثر فى عهدِه فهو الكاتب المعروف ابن عبد البر ، وهو الذى حرر ارتجالا خطاب المعتضد لملوك الطوائف الذى يشرح فيه أسباب فتكه بابنه اسماعيل كما ذكرنا . وكان كاتبًا مفلحًا ، الا أنه تعرض لنزوة غضب المعتضد فحاول الفتك به . وكاد أن يفعل ذلك لولا وصول والده العالم الفقيه المشهور ابن عبد البر الذى توسط له عند المعتضد فعفا عنه (١).

ومن هؤلاء الشعراء أيضا ابن شرف القيروانى الذى تحاشى الوصول الى المعتضد بالله وكان يرسل له أمداحه من موطنه ، ورفض كل اغراءات المعتضد له للقدوم اليه خوفا على حياته من هذا الملك الذى لم يكن يؤمن له جانب (٢).

أما أبرز شعراء الدولة فى عهد المعتضد طرا وأبعدهم ذكرا ليس فى بلاط المعتضد فحسب ، ولا فى اشبيلية أيضا ، وانما فى الاندلس عامة ، فهو أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي القرطبي الذى ترك موطنه قرطبة لاجئا ببلاط المعتضد بالله . فأكرم وفادته هذا وبالغ فى تكريمه وتشجيعه . وادله ابن زيدون حبا بحب ، وكانت العلاقات بين الرجلين علاقة تفهم واكبار . وقد عهد المعتضد لأبى الوليد بن زيدون بمنصب ندى الوزارتين . وقد صاغ فيه ابن زيدون أجمل القصائد . وظل ابن زيدون موفور الكرامة ، عزيز الجانب - الا فيما ندر - حتى وفاة المعتضد ، وكان هذا شيئا غريبا ، ان لم يسلم أحد من شرور المعتضد وأحابيله (٣).

-
- (١) : انظر ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٠٦ .
وانظر كذلك ابن الابار : اعتاب الكتاب ، ط ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .
- (٢) : انظر ترجمته فى:
ابن بسام : نفس المصدر السابق ، القسم الرابع ، المجلد الاول ،
ص ١٣٥ - ١٤١ .
- (٣) : عن ابن زيدون أنظر :
على عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله . جمع فيه كل ما قيل
عن الشاعر وعن علاقته بدولة بنى عباد ومناصبه . . . الخ .

كما ظلت علاقة ابن زيدون بالمعتمد فوق كل شبهة وشك ، وبذلك حافظ على مكانته في بلاطه .

ثم الشاعر محمد ابن عمار الذي ذكرنا سابقا أنه اتصل بالمعتضد بادئ ذي بدء ، فمدحه ووصله ، ثم توثقت علاقته بالمعتمد بعد ذلك ، الى أن كانت نهايته على يديه كما سبق أن ذكرنا (١) .

أما في عهد المعتمد فقد كان شعراء البلاط العبادي أكثر من أن يحصيهم الفرد ، فقد أصبح بلاطه كعبة القصاد من كل مكان و صوب .

ولن نمضي طويلا في ذكر أسماء شعراء دولته . وبحسبنا أن نشير الى الاسماء الالأمعة جدا في سماء اشبيلية وفي حياتها الادبية مثل الشاعر عبد الجليل بن وهبون (٢) ، والشاعر الصقلي ابن حمد يس الذي كان أبرز شعراء دولته وقد زار المعتمد في منفاه ، ورثاه كثيرا (٣) .

ثم الشاعر المشهور المعروف بابن اللبانة وهو محمد بن عيسى الداني ، وكان ذا شعر جيد ، وكان المعتمد يميزه عن غيره ويعجب لما يأتي به من النادر الغريب ، وكانت علاقته بالمعتمد أقرب الى علاقات الأصدقاء منها الى علاقات المخدومين . وقد أوقف جل حياته في مدح العباديين والمعتمد بالذات ، وعندما خلع المعتمد زاره في منفاه بأغمت كثيره ورثاه أحر رثاء دل على شديده وفائه وكريم أصله (٤) .

(١) : انظر قبل الباب الثالث ، ص ٢٢٥ - ٢٣١ .

(٢) : انظر عبد الواحد المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) : انظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٤١ - ١٤٣ .

احسان عباس : ديوان ابن حمد يس ، ص ٦ - ٧ .

(٤) : عن ابن اللبانة : انظر :

ابن بسام : المصدر السابق ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، ص ٥٠ .
- ابن خاقان : القلائد ، ص ٢٨٢ . - عبد السلام الهراس : مقال بعنوان ابن اللبانة ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، السنة ١٩٦٥ م .

العميران

لعل من المؤسف أن نجد العمران هو أقل أوجه الحياة الحضارية في الدولة العبادية ذكرا ونصيبا في كتب الادب والتاريخ والفنون . فما ورد في هذه الكتب عن العمران في عهد العباديين ، إنما هو عبارة عن اشارات مقتضبة موجزة عن الانشاءات العمرانية التي تنسب لهم . وحتى القصور الملكية العبادية التي حرص المؤرخون على أن يذكروا لنا أسماءها لم تنل نصيبا من الوصف والتدقيق . ويشعر المرء بالاستغراب وهو يرى أن المؤرخين - على اهتمامهم الفائق بالدولة العبادية - لم يهتموا بذكر منشآتها العمرانية في الوقت الذي استطعنا أن نعرف المقدار العظيم من التقدم العمراني الذي بلغته بعض ممالك الطوائف الاخرى من خلال الوصف الدقيق لبعض منشآتها ، كقصر المأمون بن ذي النون ملك طليطلة ، وقصر الجعفرية في سرقسطة .

ومهما يكن ، فان الاشارات المقتضبة التي ورد ذكرها عن الناحية العمرانية في دولة بني عباد ، توضح أنه كان لبني عباد دورا لا بأس به في الاسهام في الناحية العمرانية في اشبيلية ، وقد تركزت هذه الأعمال الانشائية في القصور ، والمساجد بصفة خاصة ، ثم في بقية المرافق الأخرى للمدينة .

المساجد :-

بادئ ذي بدء يجب أن نشير الى أنه قد أنشئ في اشبيلية اiban الفتح مسجد جامع ، ويسمى مسجد روسينة ، وكان جزءا من كنيسة سانتا روفينا ، وهو الذي قتل فيه والى الأندلس عبد العزيز ابن موسى بن نصير في سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م^(١) وفي عهد الأمير عبد الرحمن ابن الحكم بنى قريبا من هذا المسجد ، مسجد آخر ، عرف بمسجد

(١) : عن هذا المسجد والمساجد الأندلسية الاخرى أنظر : مانويل جوميث مورنيو ، الفن الاسلامي في اسبانيا . - ليولود و توريس ريباس : بحث بعنوان الابنية الاسبانية الاسلامية ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، العدد الاول ، المجلد الاول ، السنة الاولى ، ١٣٧٢ / ١٩٥٣ م ، ص ١٠٠ .

ابن عدبس ، وقد أصبح المسجد الجامع الكبير في اشبيلية الذي تقام فيه الصلوات والجمع ، وظل كذلك حتى عهد الدولة العبادية ، وكانت البيوت تحيط به من جميع الجهات ، ويقع بالقرب منه قصر الامارة ، وقد سمي بمسجد ابن عدبس لأن الذي بناه هو عمر بن عدبس قاضي اشبيلية في عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩ - ٨٣٠ م بناءً على أمر الأمير عبدالرحمن ابن الحكم (الأوسط) وقد استخدم في بنائه أحجار مأخوذة من أنقاض السور الروماني القديم الذي بدأ يتهاوى بفعل الزمن من الفتح الاسلامي وكان مسجد ابن عدبس آية في روعة الهندسة والبناء . أما صومعته فقد كانت تحفة فنية نادرة أيضا ، وبنيت كذلك من أحجار السور الروماني المذكور (١) .

وقد رمت هذه الصومعة في عهد المعتمد ابن عباد ، ووجد الأثريون لوحة تذكارية تؤرخ لترميم المعتمد لهذه الصومعة مؤرخة في سنة ٤٧٢ هـ . وهذه اللوحة الجصية التي عشر عليها عبارة عن لوحة رخامية محفوظة بكنيسة (سلفادور) التي أقامها الأسبان على أنقاض جامع ابن عدبس بعد استيلائهم على اشبيلية من يد المسلمين في عهد فرناندو القديس . وهذه اللوحة مكتوبة بخط كوفي ونصها : (بسمه وصلى الله على محمد خاتم أنبيائه ، وخيرة أصفهائه وعلى أهله الطيبين الابرار ، وسلم تسليما . أمر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد ابن عباد أدام الله تأييد أموره ، ووصل اعزازه نصه أعلى هذا المنار ، ولا زال عزيزا بدعوة الاسلام عند انهدامه لكثير الزلازل الكائنة ليلة الأحد مستهل ربيع الأول من سنة اثنين وسبعين وأربعمائة (١٠٧٠ م) فتم بحول الله وتأييده في عقب الشهر المؤرخ . قبل الله فيه مشفاله ، وبنى له بكل حجر فيه مقرا في جنانه بمنه ولطفه) . كما توجد قطعة رخامية أخرى

(١) : انظر السيد عبدالعزيز سالم : المساجد والقصور في الاندلس .

كتيب في سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ - اكتوبر ١٩٥٨ م ،

ص ٤٤ - ٤٦ . - محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ،

ص ٢١ - ٢٥ ، مع الحواشي .

صغيرة مكتوب عليها (أبو القاسم محمد) (١)

وقد ظل هذا المسجد - المسجد الجامع الكبير في اشبيلية حتى عصر الموحدين ، عندما ضاق بالمصلين ، لتكاثف السكان ونمو المدينة ، فبنى الموحدون مسجد هم المشهور بصومعته المعروفة بالجيرالدا في سنة ٥٦٧ هـ / ١٠٧٢ م ، والذي تحول بعد ذلك الى كيسة عام ١٠٤٢ م ، وهي الكاتدرائية العظيمة الموجودة في اشبيلية حتى اليوم (٢)

مقد بنى العباديون عدة مساجد في اشبيلية ، مثل مسجد والدة المعتضد بالله الذي بنته في عهد ابنتها ، ثم مسجد الأميرة اعتماد زوجة المعتضد ، وقد وجدت لوحة رخامية محفوظة في كيسة سان خوان دي لا بالما مكتوبة بالخط الكوفي وتوجد الآن في متحف اشبيلية الاقليمي . ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، أمرت السيدة الكبرى أم الرشيد أبي الحسين عبد الله ابن المعتضد على الله المؤيد بنصر الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله تأييده ، وأمره واعزازه ، باقامة هذه الصومعة بمسجدها ، صانه الله ، طلبا لجزيل الأجر والثواب ، فتمت بعمون الله على يدي الوزير الكاتب الأهر أبي القاسم بن حجاج وفقه الله ، وذلك في شعبان من عام ثمانية وسبعين وأربع مائة (٣) وبالإضافة الى هذين المسجدين ، فقد كان هناك عدد آخر من المساجد في عهد بنى عباد ، مثل مسجد ابن خير ، ومسجد العريف ، وغيرهما . (٥)

-
- (١) : محمد عبد الله غان : الاثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، ط ٢ ، ١٣٨١ - ١٩٦١ ، ص ٦٦ - ٦٧ . السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور في الاندلس ، ص ٤٦ .
 - (٢) : محمد عبد الله غان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٦ - ٤٧ . السيد عبد العزيز سالم : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٦ - ٤٩ .
 - (٣) : عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الصلة والموصول ، تحقيق احسان عباس - قسطنطين - القسم الثاني ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .
 - (٤) : محمد عبد الله غان : نفس المرجع اعلاه ، ص ٦٦ - ٦٧ .
 - (٥) : محمد بركات البيلي : الرسالة السابقة ، ص ٢٧ - ٢٩ .

سور اشبيلية فى عهد الدولة العبادية :-

أشرنا آنفا الى أن المسلمين استخدموا فى بناء مسجدهم الجامع المعروف بمسجد ابن عبدس أحجارا من السور الرومانى القديم المتداعى . وكان هذا السور الرومانى القديم الذى جدد بنيانه فى زمن القوط قد تداعى وتهاوى بفعل الاحداث التى شهدتها اشبيلية منذ عهد القوط وحتى الفتح الاسلامى (١) .

وأول سور اسلامى بناه المسلمون هو ذلك السور الذى أنشأه الامير عبد الرحمن ابن الحكم (الوسط) بعد غزوة النورمان الاولى على الاندلس (٢) ويعتقد السيد عبدالعزيز سالم أن استخدم فى بنائه هو الآخر أحجار من السور الرومانى القديم (٣) وقد تهدم هذا السور فى أعقاب قضاء عبد الرحمن الناصر على ثورة المولد بن التى شهدتها اشبيلية طوال عهد الامراء الامويين الذين تعاقبوا على حكم الدولة الاموية بعد عبد الرحمن الاوسط وحتى عهد الناصر . وقد أمر الناصر قائده ابن السليم بهدم السور . فهدمه وألحق " اطلية بأسافله " للحيلولة دون أى محاولة للشغب يقوم بها المولد بن بعد ذلك . وقد بنى الناصر اثر ذلك قصر الحكم (وحصنه بسور صخرى وابراج ضيعة) .

وفى ابان الفتنة التى شهدتها الاندلس فى أعقاب انحلال الدولة الاموية فى بداية القرن الخامس الهجرى بنى حول اشبيلية سور ترابى لحمايتها من الغزو الخارجى . ويعتقد السيد عبدالعزيز سالم أن هذا السور قد بنى قبيل قيام دولة بنى عباد مباشرة . وهو السور الذى ظل يحيط بالمدينة طوال عهد الدولة العبادية وحتى الفتح المرابطى (٥) .

وقد مر بنا من قبل ان المرابطين استطاعوا احداث فجوة فى سور اشبيلية عند مهاجمتهم للمعتمد ابن عباد الذى تحصن بالمدينة . وقد استطاع المرابطون اقتحام المدينة بسبب العيب الاساسى الذى كان عليه سور اشبيلية الذى بنى فى ابان الفتنة . ان يقول السيد عبدالعزيز سالم وكان ارتفاع اسوار اشبيلية فى زمن الفتنة على ما يبدو متوسطا ، ان كان من اليسير على الناس تسنمها والترامى من اعلاها .

- (١) : السيد عبدالعزيز سالم : مقال بعنوان : تحقيق اسماء قصور بنى عباد باشبيلية الواردة فى شعر ابن زيدون ، نشر فى مجلة الاوراق التى يصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة ، عدد ١٩٧٩م ، ص ٣٤ .
- (٢) : انظر السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال اعلاه ونفس الصفحة .
- ولعل من المهم هنا أن نذكر بأن غزوة النورمان الثانية على الاندلس كانت فى سنة ٤٥١ هـ كما ذكرنا سابقا .
- (٣) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٢ - ٣٣ .
- (٤) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٣ .
- (٥) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٣ - ٣٤ .
- (٦) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٤ .

وعندما سقطت الدولة العبادية على يد المرابطين عام ٥٤٨٤هـ /
١٠٩١م • ظل السور العبادي يحيط باشبيلية حتى اضطر المرابطون تحت ضغط
هجمات النصارى الى بناء سور جديد في عام ٥٢٦هـ • وقد جدد هذا السور
على فترات متتالية من الزمن ورسم اكثر من مرة في عهد الدولة الموحدية (١)
بقي أن نشير الى أن سور اشبيلية المعروف بسور اشبيلية • كان له
في عهد بني عباد عدة ابواب منها : باب الفرج ، وهو الذي دخل منه المرابطون الى
اشبيلية في عهد المعتد وسقطت المدينة على ايديهم من ثم ويعرف اليوم بباب شريش
(Jerez) ، ثم باب جهور الذي عرف فيما بعد بباب اللحم Puerta de carne
في الجهة الشرقية من السور • ويقول السيد عبدالعزيز سالم في معرض ذكره لابواب
اشبيلية الاخرى : (•••••) ثم كان يليه باب قرمونة في القطاع الشمالي الشرقي من السور •
وكذلك وصل الينا باسم باب حميدة ، وكان يفتح في سور اشبيلية الغربي في العصر الاموي •
وكان هذا الباب يفضى الى مقبرة الفخارين ، كما وصلنا اسم باب آخر من ابواب سور اشبيلية
زمن الفتنة هو باب الصهاغين • وكان يفتح في السور من جهة القصر ، ولعله كان يقع
في الركن الجنوبي الشرقي من المدينة ما بين بابي الفرج وجهور • ونضيف الى هذه
الابواب بابا يعرف بباب عبر • ثم باب أبي القليس وكان من الابواب الغربية ومنه كان يتم
الخروج الى الشرق (٢)

القصور :-

أشرنا من قبل الى أنه قد بنى في بداية الفتح الاسلامي بجوار
المسجد الجامع ، قصر الحكم المعروف بدار الامارة • وقد تم بناؤه على فترات متتابعة
بدأت منذ الفتح الاسلامي لاشبيلية وقد وضع اساس هذا القصر عبدالعزیز بن موسى
بن نصير ، ثم قام ولاية اشبيلية بعد ذلك وعلى فترات متباعدة بتجديده وتوسيعه ، وقد
عمل له سور صخري وابراج منيعة حتى عهد العباديين •

(١) : عن الجهود المرابطية والموحدية في ترميم سور اشبيلية - انظر :

السيد عبدالعزيز سالم : المقال السابق ، ص ٣٥ - ٣٦ •

(٢) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال ، ص ٣٧ •

وقد سكن العباديون في بداية نشأة دولتهم في هذا القصر .
واتخذه القاضي ابن عباد مقرا وسكنا له (١) والواقع ان هذا القصر المعروف بالفنسة
الاسبانية الكازار ما زال كما يقول محمد عبدالعزيز مرزوق (في حاجة ماسة الى ابحاث
عميقة من الناحية الاثرية والفنية ، ومن الناحية التاريخية ايضا لاثبات ما اذا كان
من انشاء العرب او الاسبان بعد خروج العرب من البلاد) .

فعبد الرحمن الحجى ومحمد عبدالله عنان يعتقدان أن هذا
القصر هو ذاته قصر الامارة الذى اتخذه الذين قاموا بتجديده وتوسعته ، وأن
المعتمد بن عباد عندما تولى الملك زاد فيه ووسعه وأنقذه وفرشه بفاخر الاثاث
والرياش ، وسماه المبارك وهو الذى ورثه بعد ذلك الموحدون فالمسيحيون بعد
ما سقطت اشبيلية في ايديهم (٢)

أما محمد عبدالعزيز مرزوق فيرجح أن هذا القصر المعروف بالكازار
قد شيده في عهد ملوك الطوائف في عهد المعتمد بالله وأنه هو الذى شيده ،
وهو الذى ورثه الموحدون بعد ذلك وجدده وزينوه وزخرفوه ، ثم جاء
المسيحيون فزادوا فيه وزخرفوه بالزخرفة الاندلسية المغربية في عهد الملك
بدر والقاسى .

-
- (١) : عبد الرحمن على الحجى : أندلسيات ، نشر دار الارشاد للطباعة والنشر ،
ط ١ ، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .
- (٢) : الفنون الزخرفية في المغرب والاندلس : نشر دار الثقافة ، بيروت ،
لبنان ، حاشية رقم "١" ، ص ٩٢ .
- (٣) : عبد الرحمن على الحجى : نفس المرجع اعلاه ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .
- محمد عبدالله عنان : الاثار الاندلسية الباقية ، ص ٥٨ .
- (٤) : الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والاندلس ، ص ٩٢ .

أما السيد عبدالعزيز سالم فيرجح أن قصر المبارك هذا
أنشأه المعتمد ابن عماد • ويرجح كذلك أنه قد أقامه لمحاكاة خلفاء بني أمية
بقرطبة (١).

ويقول السيد عبدالعزيز سالم عن هذا القصر (وكان القصر المبارك يشتمل
على مجالس منها قصر الثريا الذي كان يتوسط المبارك توسط الخال في الوجه •
وقصر الوحيد الذي قرأناه في شعر ابن البانية • ونعتقد أن الوحيد مجلس من
المجالس الرئيسية بالقصر المبارك • أما الروضة فكانت تشغل ركنا من بساطين القصر •
وفيها دفن المعتمد ابن عماد أباه المعتمد في نفس التربة التي دفن فيها
القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل • ويغلب على الظن انها كانت تقع لصق قصر
الامارة القديم • وعلى نسق هذه الروضة اتخذ الموحدون لأنفسهم روضة
خارج باب جهور خصصت للسادة • وكان للقصر بركة نصب في جانبها تمثال
فيل يمشي الماء من فيه • وقد وصف عبد الجليل وهبون هذا التمثال فقال :

ويقرع فيه مثل البصل بدع من الانفال لا يشكو مالا
رعى رطب اللجين فجاء صلدا تراه قلما يخشى هذا

وكثيرا ما كان المعتمد يجلس على حافة البركة في الامسيات ويأمر بإيقاد الشموع
ويتمتع نظره برؤية المياه تنساب من الفيل الى البركة وضوء الشموع الباهت
يمتد شاحبا شحيحا فيها حوله (٢).

وقد تفنن الادباء والشعراء في وصف هذا المنظر • وفي وصف ذلك
القصر • ومنهم ابن زيدون الذي شبه قصر الثريا الذي يتوسط قصر المبارك كخال
يتوسط وجنة فيقول (٣):

أما الثريا فالثريا نصبة واقادة واناقة وجمالا
وتمثل القصر المبارك وجنة قد وسطت فيها الثريا خالا

-
- (١) : السيد عبدالعزيز سالم : المقال السابق • ص ٣٨ •
 - (٢) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال • ص ٣٩ •
 - (٣) : السيد عبدالعزيز سالم : نفس المقال • ص ٣٠ •

وأيا ما كان الأمر فقد كان قصر المملوك أحد القصور
المبادية الرائعة ، وقد تألق المعتمد في زخرفته وتأنيقه
وفرشه ، وهو الذي كان يتذكره دائما في منفاه بأغصات .

ومن القصور الاخرى التي أنشأها المعتمد بن عباد
القصر الزاهر (أو قصر التاج) ويقع بتجاج الشرف من اشبيلية
على الضفة اليمنى من الوادى الكبير (١) ويعرف أيضا بحصن الزاهر -
أو الحصن الزاهر . وكان كما يقول ابن خاقان من أجمل المواضع
لدى المعتمد ، ومن أحب قصوره اليه (لاطلاله على النهر
واشراقه على القصر وجماله فى العيون واشتماله بالشجر والزيتون) (٢)

ومن القصور الاخرى التي كان يرتادها المعتمد
القصر الزاهى وهو غير القصر الزاهر وهو الذى كان يتشوق اليه
حنينا فى منفاه بأغصات . وكان له قبة تعرف بسعد السمود
غاية الروعة والابداع (٣)

والاضافة الى هذا القصر كان للمعتمد عدة قصور
أخرى فى اشبيلية منها : المؤيد ، والمكرم وغير ذلك . وقد وصف
ابن بسام فيما ينقله عنه المقرئ قصرا للمعتمد لم يذكر اسمه يقول عنه
انه كان رائعا وانه قد أقيم فيه تمثال فيل من الفضة على حافة بركة
وقد أوقد بجواريه شمعتين . وكان الفيل يقذف بالماء ، وقد
تفنن الأدباء والشعراء فى وصف هذا المنظر ، وفى وصف ذلك
القصر (٤)

-
- (١) : السيد عبدالعزیز سالم : المقال السابق ، ص ٤٠ .
 - (٢) : ابن خاقان : قلائد العقیان ، ص ٢٧ .
 - (٣) : أنظر المقرئ : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١ ، وكذلك
حاشية رقم ٢ ، ص ١١ . — السيد عبدالعزیز سالم :
المقال السابق ، ص ٤٠ .
 - (٤) : المقرئ : نفع الطيب ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

ومن القصور الاخرى التي اتحفتنا كتب الادب بذكرها
قصر الشراحيب في مدينة شلب ، وقد رأينا الممتد ينظم عدة
أبيات يتفنى فيها بالأيام التي قضاهما هو وزيره ابن عمار في
ذلك القصر ، عندما ولاه أبوه حكم مدينة شلب بعد سقوطها في يده (١)

أما الممتد فلم تسعفنا كتب التاريخ والادب بذكر
أوصاف القصور التي بناها ، فضلا عن أسمائها ، وكلما عرفناه عنه
في هذا الصدد أنه كان مولعا ببناء القصور السامية الفخمة .

هذا كل ما نعرفه عن جهود العباديين العمرانية
على وجه التدقيق ، أما بالنسبة للمنشآت المدنية في الدولة ، فلا نعرف
عنها شيئا البتة ، وكلما نعرفه بهذا الصدد ما أورده ابن سعيد
عن مدينة طريانة إحدى المدن التابعة لمملكة اشبيلية ، فقد قال :
(هذه مدينة ممتدة على شاطئ النهر الأعظم في مقابلة النصف من
حضرة اشبيلية ، وهي مسورة من جهة الصحراء ، وفيها الحمامات
والأسواق الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها
التي من جهة النهر ، سنّ فيها الممتد بن عباد أن تبنيها للكلس
لئلا تنبو الصين عنها ومن لا ينهض الى ذلك ، فيبنى من جهة
الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة
المنظر أكثر شراحيبها منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون
فيها من أصناف الطرب في الليالي القمرية ما هو مشهور في
البلاد (٢)

(١) : أنظر محمد عبدالله عنان : الآثار الاندلسية الباقية ، ص ٤٤ .

— رضا الجيب السويدي : ديوان الممتد بن عباد ، ص ١٥٩ .

(٢) : المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .

(((خاتمة))))

كان القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى

- من القرون الفاصلة فى تاريخ أسبانيا الاسلامية والنصرانية معا .
- وقد شهد أحداثا جساما ، وترتب على هذه الأحداث نتائج خطيرة .
- ففيه سقطت الدولة الأموية التى كانت قد بلغت الأوج قوة وازدهارا ،
- صريعة أخطاء سياسية آنية ، وصريخة ظروف اجتماعية وعنصرية
- وجغرافية وسياسية أيضا . وترتب على سقوطها أن تصدعت
- والى الأبد وحدة الأندلس . وقام على أثر سقوطها أنظمة محلية
- اتخذت من كل مدينة أو معقل من المعامل مكانا أسست فيه دولة
- لها ، مستغلة تفتت وحدة الدولة وانتشار عقدها . هذه
- الأنظمة هى التى عرفت تاريخيا بممالك الطوائف . وقد تأسست
- آنذاك من الفئات الاجتماعية المتناحرة : العرب والبربر والصقالبة .
- وبلغ تعدادها أزيد من بضع وعشرين دولة .

وانتهجت هذه الدويلات سياسة خاطئة ،

- وممارسات بعيدة عن مصلحة الوطن والرعية وقضت أوقاتها فى حبك
- المؤامرات ضد بعضها البعض . حتى لقد كانت سياسة هذه
- الممالك الاقليمية الضيقة أحد عوامل زوال الوجود الاسلامى
- فى الأندلس .

وكان من جراء سقوط الدولة الأموية ومن ثم قيام

- ممالك الطوائف وما مارسته من سياسة خاطئة أن اشتد ساعد
- المقاومة النصرانية . فعملت وقد أتاح لها المسلمون ذلك على
- ابعاد المسلمين من أرض الأندلس . وانتهجت كل مملكة من الممالك

النصرانية سياسة تهدف الى عودة سيادة الأسبان على أراضيهم
فيما عرف تاريخيا بحركة الاسترداد النصرانية . حتى لقد صرح
مبلور حركة الاسترداد ومنظمها آنذاك فرديناند الأول ملك قشتاله
بهذا المطلب ، وخاطب ملوك الطوائف بقوله : انما نطلب
بلادنا التي غلبتمونا عليها قد يما في أول أمركم ، وقد سكتموها
ما قضى لكم . وقد نصرنا الآن عليكم بمرادكم فارجعوا الى عدوتكم
وأتركوا لنا بلادنا . الخ .

وترتب على ظهور حركة الاسترداد المسيحي عدة
نتائج منها : أن ممالك الطوائف قعدت بها خلافاتها الاقليمية ،
ومصالحها الذاتية الضيقة عن أن تقاوم تلك الحركة . فظلت
واقفة لا تحير شيئا أمام الضربات النصرانية التي توالى عليها ،
الى أن أدى بها تقاعسها وخلافاتها الى سقوط طليطلة واسطة
عقد الأندلس . كما ذكرنا مرارا . فهبت هذه الممالك متأخرة
طالببة النجدة من قوة العدو المغربية الفتية آنذاك وهي المرابطين .
فكان التدخل المرابطي الذي ترتب عليه تمديد

أجل البقاء الاسلامي في الاندلس أربعة قرون أخرى . وترتب على
ذلك بالاضافة الى هذا أن غدت الاندلس بعدة من التدخل المرابطي
وحتى زوال الوجود الاسلامي في أسبانيا في عهدى فرديناند
وايزابيلا تدور في الفلك المغربي . وبعث المغرب منقاط
أحلامها في كل خطب وملمة .

وبالاضافة الى ما استطعنا التوصل اليه في عرضنا
لاحداث ذلك القرن ، أي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .
توصلنا الى نتائج تاريخية منطقية . وهي أن الاندلس بحكم أوضاعها

الجغرافية والعنصرية كانت دائما في حاجة ماسة الى قوة مركزية
حازمة ، تمتد سلطانها على معظم ارض الاندلس مستندة على سواعد
ملوك أتقوا ذوى هممة وجأش غير عاديين . وهذا يقودنا بالضرورة
الى القول بأن القاعدة في اسبانيا التفكك . وما عداها فهو الشاذ .
ولذلك فهي في حاجة دائما الى قوة مركزية حازمة شديدة تحسّم
قبضتها على ذلك البلد المتشعب الأجناس والأعراق . الوعر
المسالك والدروب .

وخلصنا كما خلت غيرنا أيضا الى حقيقة مؤلمة وهي

أن أدوات السقوط لأي دولة قديما وحديثا واحدة ، تتمثل في الخيانة
والانحلال ، والأثرة . والمصالح الذاتية الضيقة . وان هذه الصفات
التي ذكرناها هي السبب المباشر في سقوط ممالك الطوائف . كما خلتنا
الى نتيجة مؤسفة ، وهي أنه على الرغم من أن التاريخ يعيد نفسه
الا أن ملوك الطوائف لم يأتوا الى تدارك أخطاء أسلافهم وأخطأ
بعضهم ، كما لم يعملوا على تحقيق الوحدة والتآلف فيما بينهم ازا
هذا الخطر النصراني الموجه اليهم جميعا كان ما كان يحدث
لاخوانهم من عنت وجور لا يفضى اليهم أو كأنهم في منأى عنه . ()

وقد قادنا هذا الى التذكير دائما بأن قدر المسلمين

هو الوحدة والتآلف وجمع الشمل ، وببذ الفرقة والخلاف ، بها وحدها
بعد المشيئة الالهية - يتم لهم التمكين والنصرة والمهزة ، وبدونها
لا تقوم لهم قائمة ، ولا يعز لهم جانب .

ذلك هو قدر المسلمين ، وتلك هي مشيئة الله فيهم .

وقد نسي الاندلسيون هذا أو تناسوه فباؤا بالخسران ، وسقطت بلادهم
أخيرا بيد النصارى ، وزال الوجود الاسلامي في الأندلس وأصبحنا ننتهبها
بالفرد وسالمفكود .

على أننا استطعنا وسط هذا الجو من التفكك والانحلال
السياسى أن نركز على مفارقة تاريخية حضارية وهى أنه بالرغم من ذلك
التفكك فقد شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى
أبرز صور الاشراف الحضارى والثقافى ، حتى أصبح - مع ما فى ذلك
من الفرابة - نقطة مضيئة فى تاريخ الاندلس تغطى بألقها
واشعاعها صفحات من التاريخ السياسى قاتمة داكنة .
وفىما يتعلق بأسبانيا النصرانية ، فقد استخلصنا
عدة نتائج منها ، انها قد انتهجت سياسة الاسترداد المسيحى
على مسمع ومرأى ، بل وفى بعض الأحيان مشاركة من المسلمين .
بل أن أهم ما استخلصناه بالنسبة لممالك النصارى . هو أنها كانت
محظوظة فما كانت لتحقق ما حققته لولا أن الاندلسيين أتاحوا
بسياستهم الخاطئة لها الفرصة لتحقيق سياستها الهادفة
الى انتزاع أراضى الآباء والأجداد ، كما كانوا يصرحون دائما .
ولاحظنا فى عجب أن ملوك الممالك النصرانية
لم يكونوا أصدق حس فى وطنيتهم من المسلمين . فلم يكن يحكم
تصرفاتهم الغيرة الوطنية والمصلحة القومية فحسب ، وإنما كانت
الأثرة والأهواء الشخصية هى التى تحكم تصرفاتهم وأفعالهم غالبا ،
فهذه هى روح العصر فى أسبانيا الاسلامية والنصرانية على السواء .
ومع ذلك فقد لاحظنا أن ملوك النصارى كانوا أكثر
وعيا وفهما لحقيقة الصراع بينهم وبين المسلمين . فقد كانوا ينظرون
الى الأمر وكأنه قضية حق وتراث شرعى لهم وقع قوة تحت يدهم
أجنبية . وعليهم أن يرفموا عنها تلك اليد .

لاحظنا ذلك من خلال تحليلنا لظروف قيام مملكة
بنى عباد . ولاحظناه من خلال سياسة هذه المملكة وغيرها من
ممالك الطوائف .

وفيما يتعلق بمملكة بنى عباد ، فقد أعطيناها حقها
من البحث والدراسة ، ولم نقصر أو نتوان في مناقشة سلبياتها
وايجابياتها . وناقشنا فيما يبدو لنا أنه ضرب من التحليل
الموضوعي التاريخي مسألة ظهور الخليفة الأموي هشام الذي ادعى
العباد يون أنهم مفوضون في حكم الاندلس من قبله ووضعنا فيما
يتراءى لنا ملوك الدولة العبادية وخاصة المعتمد بن عباد على
المحك ، وناقشناه في سياسته وأعماله ، وأنحينا بالآئمة عليه
في مواطن استحقها . وان كان هذا لم يبدف معنا الى اغفال
الإشارة الى ايجابياته وحسناته .

وقد قادنا هذا الى مناقشة مسألة الاستعانة
بالمرابطين . وشرحنا في تحليل واسع هذه القضية وخلصنا
الى القول بأنه لو لم يجادر الاندلسيون عامة والمعتمد خاصة
لاسيما بعد اشتداد حركة الاسترداد المسيحي باستدعاء
المرابطين الى الاندلس لكان المرابطون أقدموا على ذلك من
تلقاء أنفسهم تحت ضغط ظروف وأسباب دينية وسياسية
وأمنية .

*

(١)
ملحق رقم (١)

خطاب الفونسو السادس للمعمد بن عباد
الذى يتهدده فيه ويتوعده ويطلب منه أداء الجزية له

من الانبيطور ندى الملتين الملك المفضل الادفنش بن شانجه
الى المعتمد بالله سدد الله آراءه ومصره مقاصد الرشاد سلام عليك
من مشيد ملك شرفته القنى ، ونبئت فى ربه المنى ، باهتزاز الريح
بعامله ، والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بظليطة وأقطارها
وما حاق بأهلها حين حصارها ، فاسلمتم اخوانكم ، وعظمتم بالدعة
زمانكم ، والحذر من أيقظ باله ، قبل الوقوع فى الجباله ، ولولا
عهد بيننا تحفظ ذمامه ، ونسعى بنور الوفاء أمامه ، لنهض
بنا نحوكم ناهض المعزم ورائده ، ووصل رسول الفزو ووارده ،
لكن الانذار ، يقطع الاعذار ، ولا يعجل الا من خاف القوت
فيما يرومه ، وخشى الغلبة على ما يسومه ، وقد حملنا على
الرسالة اليك القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذى تلقى
به أمالك ، والعقل الذى تدبر به بلادك ورجالك ، ما أوجب
استنابته فيما يدق ويوجل ، وفيما يصلح لا فيما يخل ، وأنت
عندما تأتية من آرائك ، والنظر بعد هذا من ورائك ، والسلام
عليك ، يسعى بيمينك ، وسين يدك .

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٥ - ٢٦ .

ملحق رقم (٢)

رد المعتمد بن عباد على خطاب الفونسو
يعلن له فيه رفضه لمطالبه واستعداده هو
وملوك الطوائف المنزلة

من الملك المنصور بفضل الله ، المعتمد على الله ، محمد
ابن المعتض بالله ، ابي عمر بن عباد الى الطاغية الباغية اذفوش بن شانجه
الذي لقب نفسه بملك الملوك وسمها بندي الملتين قطع الله بدعواه ، سلام على من
اتبع الهدى أما بعد فانه أول ما نبدأ به من دعواه ، انه ذو الملتين والمسلمون أحق
بهذا الاسم لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد ، وعظيم الاستعداد ، ومحبي الملكة
لا تلبسه قد رتكم ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت سنة سعد أيظظ منها فناديك ،
وأعقل عن النظر السدي جميل مباديك ، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس ، ووطنناك
ككوس دعة قلت في أثنائها ليس ، ولا تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك ، وانا
لنمجب من استعجالك (١) لم نرأى لم تحكم أنحاؤ ، ولا حسن اتعاؤ ، وأعجابك
بصنع وافقتك فيه الاقدار ، واغتررت بنفسك أسوأ الاقرار ، أما تعلم أنا في المدد
والعدي ، والنظر السدي ، ولدينا من كمة الفرسان ، وحيل الانسان ،
وحماة الشجعان ، يوم يلتقى الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر ، وكرهوا القبر ،
تسيل نفوسهم على حد الشفار ، وينعاهم المنام في القفار ، يد يبرون رحي
المنون بحركات العزائم ، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم ، قد أعبدوا
لك ولقومك جلادا رتبته الاتفاق ، وشفارا حدادا شحذا الاصفاق ، وقد يأتي المحبوب
من المكروه ، والندم من عجلة الشره ، نيهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من
نومة تجدد أمانها ، ومتى كانت لاسلافك الأقدمين يد صاعدة ، أو وقفة متساعدة ،
الذي تعلم مقداره ، وتحقق مثاره ، والذي جرك على طلبه لا تدركه قوم كالحق
لا يقاتلونكم جميعا الا في قري محصنة أو من وراء جد (٢) طنوا المماقل تعقل ، والدول
لا تنتقل ، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما أوجب القعود عن نصرتهم ، وتدبير
أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتينا في أنفسنا وفيهم ، من ترك الحزم
واسلامهم لا عذ بهم ، والحمد لله الذي جعل قومتنا تويخك وتقريبك ، بما الموت
دونه وبالله نستعين عليك ، ولا نستبطأ في مسيرتنا اليك ، والله ينصرك بينه الكريم
ولو كره الكافرون والسلام على من علم الحق فاتبعه ، واجتنب الباطل وخذعه .

(١) : العبارة في الاصل : استعجالك ، فجعلتها استعجالك اقتضاء للسياق .
(٢) : الآية الكريم (لا يقاتلونكم جميعا الا في قري محصنة أو من وراء جد) ، وقد
جاءت في الاصل (حذر) ، سورة الحشر ، آية ١٤ .

(١)
ملحق رقم (٣)

خطاب المعتمد الى يوسف بن تاشفين
يطلب منه معاونة اخوانه المسلمين في الاندلس

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الى حضرة الامام أمير المسلمين وناصر
الدين ، محيي دعوة الخلافة الامام أمير المؤمنين ، أبي يعقوب يوسف
ابن تاشفين (من) القائم بعظيم اكارها ، الشاكر لجلالها ، المعظم
لما عظم الله من كريم مقدارها ، الايد بحزمها ، المنقطع الى سمو
مجدها ، المستجير بالله وطولها ، محمد بن عباد سلام الله
يخص الحضرة العلية ، المعظمة السامية ، ورحمة الله وبركاته وكتب
المنقطع الى كريم سلطانها من اشبيلية غرة جمادى الاولى سنة ٤٧٩ وأنه
أيد الله أمير المسلمين ، ونصر به الدين ، فانا نحن العرب في هذه الاندلس
قد تلفت قباثلنا ، وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ، بقطع المادة عنا
من صنيعتنا ، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر
فقل ناصرنا ، وكثر شامتنا ، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين
أذفئش وأناخ علينا بكل كاله ووطئنا بقدمه ، وأسر المسلمين وأخذ
البلاد والقلاع والحصون ونحن أهل هذه الاندلس ليس لأحد منا طاقة
على نصره جاره ولا أخيه ولو شاوروا لفعلوا الا أن الهواء والماء منعهم
عن ذلك وقد ساءت الاحوال ، وانقطعت الامال ، وأنت أيدك الله
سيد حمير ومليكها الأكبر وأميرها وزعيمها نزعتم بهمتي اليكم ،
واستتصرت بالله وكم ، واستعنت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو
الكافر وتحيون شريعة الاسلام ، وتذبون عن دين محمد عليه الصلاة والسلام ،
ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر الجسيم ، ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم ، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ، ورحمة الله وبركاته .
ومما كتب في استدعائه من انشاء كتابه وينسب لابي بكر
ابن الجند : الى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين ، وناصر الدين وزعيم
المرابطين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، نور الله به الآفاق ،

وجمل ببهائه الجيوش والرفاق ، من الملك المفضل بنعمة الله ، المستجيب
برحمة الله ، المعتمد على الله ، محمد بن عباد سلام على حضرة تجدد
أيمانها ، واشتهر أمانها ، أما بعد فان الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق
والائتلاف ، وحرم مسالك الشتات ودواعى الاختلاف ، وأنعم على عباده
بأمر جديد ، قوم أولى بأس شديد ، وتطول علينا بمعلوم جدك ، ومشهور
جدك ، وقد جعلك رحمة يحيى غيبتها رسوع الشريعة ، وخلقك سلما السى
الخير وذريعته ، وقد طرأ على الاسلام حادث أنسى كل هم ، وهمت النكبات
بوقوعه دهم ، وذلك عدو أطمعه فى البلاد شتات وبين ، واختلاف سببه
لم تطرق له فى الدعة عين ، يقوى ونضعف ، ويتفق ونختلف ، وننام
مطمئنين من أفات الزمان ، وتناسخ الأمان ، وقد جأنا ابراقه وارعاده ،
ووعده وايعاده ، لنسلم له المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقم
بها الصلبان ، ويستتیب بها الرهبان ، وما يطعمه استمالة ايباننا^(١)
بالدعة ، واملاؤه فى الرحب والسعة ، استجارا لما أبطنه ، واهجاما علينا
وطنه ، وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه جهادك ، وقيامك بحقه
واجتهادك ، ولك من نصر الله الخير باعث يبعثك الى نصر مفاره ، واقتباس
نوره وناره ، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته ، ويحضر
الحرب بآلاته ، فان شئت الدنيا فقطوف دانية ، وجنات عالية ، وعسبون
آتیه ، وان أردت الأخرى فجهاد لا يفتر ، وجلاد يجز الفلاصم ويهز
هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم ، واجمال معروفكم ، تستعين
بالله وملائكته وكم على الكافرين ، كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين :
قاتلوهم يعذبهم الله بأيدكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين •
والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها • ونعمة الاسلام نشكرها ، ورحمة
الله نتحدث بها وننشرها ، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين •
وانصر الدين ، ورحمة الله وبركاته •

-
- (١) : العبارة فى الأصل : وما يطعمه ، فجعلتها يطعمه اقتضاء للسياق •
(٢) : العبارة فى الأصل : وقد وطد الله له ، فجعلتها وطد الله لك
اقتضاء للسياق •

(١)
ملحق رقم (٤)

خطاب يوسف بن تاشفين الى المعتمد بن عباد
يخبره بموافقته على طلبه لنصرته ونصرة المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، من أمير المسلمين ، وناصر
الدين ، معيد دعوة أمير المؤمنين ، الى الأمير الأكرم المؤيد بنصر
الله ، المعتمد على الله ، أبي القاسم محمد بن عباد آدام الله
كرامته بتقواه ، ووقفه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
أما بعد فإنه وصل خطابكم المكرم فوقتنا على ما تضمنه من استدعائنا
لنصرتك ، وما ذكرته من كبرتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك فنحن
يمين لشمالك وعباد رون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك
من الشرع وكتاب الله تعالى وأنه لا يمكننا الجواز الا أن تسلم لنا
الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا
ممتى شئنا فان رأيت ذلك فاشهد به على نفسك وابعدنا بعقودها
ونحن في أثر خطابك ان شاء الله والسلام ورحمة الله تعالى
وبركاته .

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(١)
ملحق رقم (٥)

خطاب الفونسو السادس ليوسف بن تاشفين
الذى يتحداه ويتمهده هو وملوك الطوائف

من أمير الملتين أذفش بن فرتهاه الى الأمير يوسف بن
تاشفين أما بعد فلا خفاء على ذى عينين أنك أمير المسلمين بل
الملة المسلمية ، كما أنا أمير الملة النصرانية ، ولم يخف عليك ما عليه
رؤساؤكم بالاندلس من التخاذل والتواكل والاهمال للرعية والاخلاد الى الراحة وأنا
أسومهم الخسف فأخرب الديار ، وأهتك الاستار ، واقتل الشبان ،
وأسر الولدان ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرهم ان أمكتك فرصة هذا
وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى فرض على كل واحد منكم بعشرة
منا وأن قتالكم فى الجنة وقتلانا فى النار ونحن نعتقد أن الله أظفرنا
بكم ، وأطنا عليكم ، ولا تقدرن دفاعا ، ولا تستطيعون امتناعا ، وبلغنا
عنه أنك فى الاحتفال ، عن نية الاقبال ، فلا أدري أكان الجبن يبطئ بك ،
أم التكديب بما أنزل عليك ، فان كنت لا تستطيع الجواز فابصت الى ما عندك من
المراكب تجوز اليك ، وأناصرك فى أحب البقاع اليك ، فان غلبتني فتلك غيمة
جلبت اليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وان غلبتك كانت لى اليد العليا
واستكملت الامارة والله يثم الازادة .

فأمر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يكتب اليه على ظهر كتابه
جوابا يا أذفش ما تراه لا ما تسمعه ان شاء الله وأردف الكتاب بببيت
أبى الطيب المتنبي :

ولا كتب الا المشرفية والقنا ×××× ولا رسل الا الخميس الصرعوم

(١) : مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٩ - ٣٠ .

المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

ابن الآبار : (ت ٦٥٨ هـ) :

- (١) الحلة السيرة ، جزآن ، حققه وعلق حواشيه حسين مؤنس ،
الطبعة الاولى ، القاهرة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ،
١٩٦٣ م .
- (٢) أغصان الكتاب ، حققه وعلق عليه وقدم له صالح الأشتري ،
طبعة اولى ، دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٣٨٠ هـ -
١٩٦١ م .

ابن الاثير : عز الدين ابوالحسن على بن محمد الشيبانى الجزرى

(ت ٦٣٠ هـ) :

- (٣) : الكامل فى التاريخ ، ٩ أجزاء ، تحقيق نخبة من العلماء ،
مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

ابن بسام : (ت ٥٤٢ هـ) :

- (٤) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
- القسم الأول : المجلد الثانى ، نشر وتحقيق لجنة من جامعة
القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،
القاهرة ، ١٣٦١ هـ - ١٩٤٢ م .
- القسم الثانى : المجلد الاول ، تحقيق لطفى عبدالديع ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، مركز تحقيق التراث ،
القاهرة ، ١٩٧٥ م .
- القسم الثالث : المجلد الاول ، نشر وتحقيق لجنة من جامعة القاهرة ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،
١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

ابن بشكوال : (ت ٥٧٨ هـ) :

- (٥) الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، قسطن ، القاهرة ، الدار المصرية
للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م .
البكري : (ت ٤٨٧ هـ) :

- (٦) جغرافية الأندلس وأوروبا ، من كتاب المسالك ، تحقيق
عبد الرحمن علي الحجى ، طبعة أولى ، بيروت دار الارشاد ،
١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .

ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤ هـ) :

- (٧) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزء ، القاهرة ،
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ١٩٦٤ م .
الحميدى : (ت ٤٨٨ هـ) :

- (٨) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف
والترجمة ، ١٩٦٦ م .

الحميرى : (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) :

- (٩) صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المطار في خبر الأقطار ،
نشر وتصحيح وتعليق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ، ١٩٣٧ م .

ابن حزم : (ت ٤٥٦ هـ) :

- (١٠) طوق الحمامة في الألفه والآلاف ، حققه وصوبه وفهرس له حسن

كامل الصيرفى ، قدم له ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة .

- (١١) نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، بقلم شوقى ضيف ، فصله من مجلة كلية الآداب ،

المجلد الثالث عشر ، الجزء الثانى مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ديسمبر ١٩٥١ م .

ابن حيان : (ت ٤٦٩ هـ) :

(١٢) المقتبس من أنباء أهل الاندلس .

— قطعة تتناول عصر الحكم الرضى وجزءاً من عصر عبدالرحمن
الاوسط ، تحقيق ونشر وتعليق محمود على مكي ، القاهرة ، منشورات
المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة احياء التراث الاسلامى ،
الكتاب ٢١ — ١٣٩٠ هـ — ١٩٧١ م .
— قطعة تتناول عصر الحكم المستنصر ، تحقيق عبدالرحمن
على الحجى ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م .

ابن خاقان : (ت ٥٢٨ أو ٥٢٩ هـ) :

(١٣) قلائد العقيان فى محاسن الاعيان ، نسخة مصورة عن طبعة باريس ،
قدم له ووضع فهرسه محمد العنابى بدار الكتب الوطنية بتونس ،
منشورات المكتبة المتيقة ، تونس ، سلسلة من تراثنا الاسلامى
رقم ١ ، ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦ م .

(١٤) مطمح الأنفس ومسرح التانس فى ملح أهل الاندلس ، طبعة اولى ،
القسنطينية ، مطبعة الجوائب ، ١٣٠٢ هـ .

ابن الخطيب : (ت ٧٧٦ هـ) :

(١٥) الاحاطة فى اخبار غرناطة ، ٣ مجلدات ، تحقيق محمد عبدالله عنان ،
القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م .

(١٦) اعمال الاعلام ، تحقيق احمد مختار العبادى ، ومحمد ابراهيم الكنانى
(تاريخ المغرب فى العصر الوسيط) القسم الثالث من المخطوطة ،
الدار البيضاء ، دار الكتاب ، ١٩٦٤ م .

(١٧) القسم الثانى من اعمال الاعلام ، نشر أ . ليفى بروفنسال تحت
عنوان (تاريخ اسبانيا الاسلامية) بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ م .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ) :

(١٨) العبرود يوان المتدأ والخير في أخبار العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، ٣ مجلدات ، بيروت ،
دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ م .

(١٩) مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، ١٨٦٥ م .

ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ) :

(٢٠) وفيات الاعيان وأنباء أهل الزمان ، جزآن ، القاهرة ،
مطبعة بولاق ، ١٣٨٣ هـ .

ابن دحيمة : (ت ٦٣٣ هـ) :

(٢١) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى
وحامد عبدالمجيد ، مراجعة طه حسين ، بيروت ، دار العلم
للجميع للطباعة والنشر والتوزيع .

ابن زيرى : عبد الله بن بلقين بن زيرى (ت بعد ٤٨٣ هـ) :

(٢٢) مذكرات الامير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بفرنطة المسماة
بكتاب التبيان ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، دار المعارف ،
١٩٥٥ م .

ابن سعيد المغربي : (ت ٦٨٥ هـ) :

(٢٣) المغرب فى حلى المغرب . حقق شوقى ضيف فى جزئين
منفصلين ، القسم الثانى تحت عنوان وشى الطرس فى حلى
جزيرة الاندلس ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤ م .

السلوى الناصرى : (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٣٥ - ١٨٩٧ م) :

(٢٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق وتعليق جعفر
الناصرى ومحمد الناصرى ، ١٠ أجزاء ، الدار البيضاء ، مطبعة
دار الكتب ، ١٩٥٤ م .

السيوطى : (ت ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م) :

(٢٥) تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة الفجالة الجديدة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

ابن الشباط التوزرى : (ت ٦٨١ هـ) :

(٢٦) صلة السمط وسمة السرط . تحقيق احمد مختار العبادى ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بجديرى ، المجلد الرابع عشر ، مدريد ١٩٦٧ م .

ابن شاکر الکتبى : (ت ٥٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٦٣ م) :

(٢٧) فوات الوفيات ، جزآن ، القاهرة ، بولاق ١٢٩٩ هـ / ١٩٠١ م .

صالح بن عبد الحلیم : (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :

(٢٨) الانيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٣٦ م .

الضببى : (ت ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م) :

(٢٩) بنية الملمس فى تاريخ رجال أهل الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

ابن عذارى : (ت ٦٩٥ هـ) :

(٣٠) البيان المغرب فى اخبار الاندلس والمغرب ، ٣ أجزاء ، تحقيق ج . س . كولان ، وليفى بروفسال ، بيروت ، دار الثقافة .

ابن غالب الاندلسى : (محمد بن أيوب بن غالب الفرناطى) :

عاش فى القرن السادس الهجرى) :

(٣١) كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الاندلس . وهو قطعة من الكتاب تتعلق بجغرافية الاندلس ، نشر وتحقيق لطفى عبد البديع ، فصلة من مجلة معهد المخطوطات ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

الفيروز آبادى : (ت ٨١٧ هـ) :

(٣٢) القاموس المحيط ، ٤ أجزاء ، بيروت ، دار الجبل ،

ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكاظمى القاسمى ،

ت ٦٣٨ هـ - ١٢٣٠ م) :

(٣٣) نظم الجمان فى اخبار الزمان ، تحقيق محمود على مكي ، نشر

كلية الاداب بجامعة محمد الخامس ، الرباط ، الجزء السادس ،

١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

القلشندى : (ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م) :

(٣٤) صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، ١٤ جزء ،

ابن كـيـر : (ت ٧٧٤ هـ) :

(٣٥) البداية والنهاية فى التاريخ ، ١٦ جزء ، نشر مطبعة السعادة ،

القاهرة .

ابن الكردبوس : (ت أواخر القرن السادس الهجرى) :

(٣٦) الاكتفاء فى اخبار الخلفاء ، تحقيق احمد مختار العبادى ، مجلة

معهد الدراسات الاسلامية بمديرية ، المجلد الثالث عشر ،

١٩٦٥ - ١٩٦٦ م .

مجهول : (عاش فى القرن الثامن الهجرى) :

(٣٧) الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية ، نشرى . س علوش ،

الرباط ، مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية ، ١٩٣٦ م .

مجهول :

(٣٨) ذيل مضاف الى البيان المغرب ، يتعلق بأخبار بعض ملوك الطوائف بالاندلس والمغرب ، لمؤلف مجهول الاسم متهور الأول والاخر ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الثقافة .

مجهول : (عاش بعد سنة ٧١٢هـ "سنة تأليف الكتاب") :

(٣٩) نبذ تاريخية جامعة في اخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، نشر ليفي بروفنسال ، الرباط ، مطبوعات معهد العلوم المغربية ، ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤ م .

المراكشي : أبو محمد عبدالواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ) :

(٤٠) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، منشورات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة تحقيق التراث الاسلامي ، الكتاب الثالث ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣ م .

المراكشي : محمد بن عبدالملك (ت ٧٠٣هـ - ١٣٠٤م) :

(٤١) الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، قسمان ، قاموس عام لرجال الاندلس ومن وصل اليها من المغاربة والمشاركة في آخر القرن السابع الهجري ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة .

المقري : (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) :

(٤٢) نفع الطيب من فحسن الاندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان بن الخطيب ، تحقيق وتمليق محمد محي الدين عبدالحميد ١٠ أجزاء ، مطبعة السعادة ، طبعة أولى ، القاهرة ، ١٣٦٩هـ / ١٩٤٩ م .

الميداني : (ت ٥١٨ هـ) :

(٤٣) مجمع الامثال ، جزآن ، تحقيق وتمليق محمد محي الدين
عبد الحميد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٤هـ /
١٩٥٥ م .

النباهي : (كان حيا سنة ٧٩٣ هـ) :

(٤٤) تاريخ قضاة الاندلس (سماه المرقبة العليا فيمن يستحق
القضاء والفتيا ، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر
والتوزيع ، ١٩٣٧ م .

المراجع :

احسان عباس :

- ١ - تاريخ الادب العربي - عصر الطوائف والبرابطين ، سلسلة المكتبة الاندلسية رقم ٣ ، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٨ .
- ٢ - ديوان ابن حمد يس ، نشر دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م .

احمد ابراهيم الشعراوي :

- ٣ - الأمويون أمراء الأندلس الأول ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٥ م .

أحمد هيكل :

- ٤ - الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، القاهرة ، مكتبة الشباب ، طبعة ثانية ، ١٩٦٣ م .

أحمد مختار المبادي :

- ٥ - في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ،

أ . ليفي بروفنسال :

- ٦ - الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبدالعزيز سالم و محمد صلاح الدين حلي ، مراجعة لطفي عبد البديع ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ م .

٧ - حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ، مكتبة الحياة .

٨ - سلسلة محاضرات عامة في أدب الاندلس وتاريخها ، ترجمة محمد عبد الهادي شميرة ، و عبد الحميد العبادي ، القاهرة ، كلية الآداب ، جامعة فاروق الاول ، ١٩٥١ م .

أميليو غرسييه غومس :

٩ - الشعر الاندلسي ، بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ م .

آنخل جنثالت بالثيا :

١٠ - تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، طبعة أولى ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٥ م .

جودت الركابي :

١١ - في الادب الاندلسي ، ط ٤ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ م .

حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن :

١٢ - النظم الاسلامية ، ط ٤ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م .

حسن محمود :

١٣ - قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

حسين مؤنس :

١٤ - شيوخ العصر ، المكتبة الثقافية ، ١٤٦ ، القاهرة ، الـدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ م .

خالد الصوفي :

- ١٥ - تاريخ العرب في أسبانيا (جمهورية بنى جهور) ، دمشق ،
المطبعة التعاونية ، ١٩٥٩ م .

رجب محمد عبدالحليم :

- ١٦ - دولة بنى حمود في مالقة بالاندلس (رسالة ماجستير) ،
مقدمة لكلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ م . (لم تطبع) .

رضا الجيب السويسى :

- ١٧ - ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، تونس ، الدار التونسية ،
١٩٧٥ م .

رينهـرت دوزى :

- ١٨ - ملوك الطوائف ، وهو الجزء الذى ترجمه كامل الكيـلانى
من كتاب تاريخ مسلمى أسبانيا ، الطبعة الاولى ، ١٣٥١هـ / ١٩٣٣ م .

سميد عبدالفتاح عاشور :

- ١٩ - أوربا في العصور الوسطى ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

السيد عبدالعزيز سالم :

- ٢٠ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس من الفتح العربى حتى سقوط
الخلافة بقرطبة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢ م .

- ٢١ - المساجد والقصور في الاندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٨٠ ،
أكتوبر ، ١٩٥٨ م .

شكيب أرسلان :

- ٢٢ - الحلل السندسية في الاخبار والآثار الاندلسية ، ٣ أجزاء ،
بيروت ، دار مكتبة الحياة .

صلاح خالص :

- ٢٣ - محمد بن عمار الاندلسى ، دراسة أدبية وتاريخية لألمع شخصية
سياسية فى تاريخ دولة بنى عباد فى اشبيلية ، بغداد ،
مطبعة الهدى ، ١٩٥٧ م .
- ٢٤ - المعتمد بن عباد الاشبيلى ، دراسة أدبية وتاريخية لقطب
الحركة الادبية وأبرز سلاطين الاندلس فى عصر ملوك الطوائف .
بغداد ، نشر شركة بغداد للطبع والنشر والتوزيع المحدودة ،
١٩٥٨ م .
- ٢٥ - اشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، دراسة أدبية وتاريخية
لنشوء دولة بنى عباد فى اشبيلية وتطور الحياة الادبية
فيها ، ٤١٤ - ٤٦١ هـ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٥ م .

عبادة كحيله :

- ٢٦ - المولدون فى التاريخ الاندلسى منذ الفتح العربى حتى نهاية
عصر الامارة (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة
القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . (لم تطبع) .

على أدهم :

- ٢٧ - المعتمد بن عباد ، سلسلة أعلام العرب رقم ٢ ، القاهرة ،
مكتبة مصر ،

على جيبه :

- ٢٨ - مع المسلمين فى الاندلس ، طبعة ثانية ، جده ، دار الشروق
للنشر والطباعة ،

على عبدالعظيم :

- ٢٩ - ديوان ابن زيدون ورسائله ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ،
١٩٥٧ م .

عبدالحق حموش :

٣٠ - ابن تاشفين ، دار البيضا ، دار الكتاب .

عبدالرحمن على الحجى :

٣١ - أندلسيات ، الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩ م .

عبدالسلام الطود :

٣٢ - بنو عباد بأشبيلية ، مطبعة كريمادس ، ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م .

عبدالكريم التواتى :

٣٣ - مأساة انهيار الوجود المسمى بالاندلس ، الطبعة الأولى ، دار البيضا ، مكتبة الارشاد ، ١٩٦٧ م .

عبدالمعصم ماجد :

٣٤ - تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٣ م .

٣٥ - العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، مكتبة الجامعة العربية ، ١٩٦٦ م .

عبدالوهاب عزام :

٣٦ - المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٩ م .

عمر رضا كحالة :

٣٧ - معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ٥ مجلدات ، طبعة ثانية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

كامل كيلانى :

٣٨ - نظرات فى تاريخ الادب الاندلسى ، الطبعة الاولى ، نشر المكتبة التجارية بأول شارع محمد على ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

ل . أ . سيدىو :

٣٩ - تاريخ العرب العام ، امبراطورية العرب ، حضارتهم ، مدارسهم الفلسفية والعلمية والادبية ، ترجمة محمد عادل زعيتر ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م .

لطفى عبدالديع :

٤٠ - الاسلام فى اسبانيا ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ م .

محمد بركات البيلى :

٤١ - الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد ، (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م . (لم تطبع) .

محمد عبدالله عنان :

٤٢ - دولة الاسلام فى الاندلس : من الفتح الى عهد الناصر - العصر الأول ، القسم الأول ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٤٣ - دولة الاسلام فى الاندلس : الخلافة الأموية والدولة العاصمية ، العصر الأول ، القسم الثانى ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

- ٤٤ = دولة الاسلام فى الأندلس : الدولة العاصرية وسقوط الخلافة الأندلسية ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ،
١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .
- ٤٥ - دولة الاسلام فى الأندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح
المرابطى ، العصر الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٤٦ - دولة الاسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين ، العصر
الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الأندلس ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٤٧ - الآثار الأندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٤٨ - تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ،
مكتبة الخانجى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٤٩ - مواقف حاسمة : الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٣ هـ / ١٩٦٢ م .

محمد عبد العزيز مرزوق :

- ٥٠ - الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت ، دار الثقافة .

محمد كرد على :

- ٥١ - الاسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٥٢ - غابر الأندلس وحاضرها ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣ م .

- ٤٤ = دولة الاسلام فى الأندلس : الدولة العامرية وسقوط الخلافة الاندلسية ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية ،
١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .
- ٤٥ - دولة الاسلام فى الأندلس : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح
المرابطى ، العصر الثانى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٤٦ - دولة الاسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين ، العصر
الثالث من كتاب دولة الاسلام فى الأندلس ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٤٧ - الآثار الاندلسية الباقية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة
الخانجى ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٤٨ - تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ،
مكتبة الخانجى ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٤٩ - مواقف حاسمة : الطبعة الرابعة ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ،
١٣٨٣ هـ / ١٩٦٢ م .

محمد عبدالعزيز مرزوق :

- ٥٠ - الفنون الزخرفية الاسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت ، دار الثقافة .

محمد كرد على :

- ٥١ - الاسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ م .
- ٥٢ - غابر الأندلس وحاضرها ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٣ م .

مصطفى الشكمة :

- ٥٣ - الادب الاندلسى موضوعاته وفنونه ، الطبعة الثانية ، بيروت ،
دارالعلم للملايين ، ١٩٧٣ م .

مانويل جوميث مورينو :

- ٥٤ - الفن الاسلامى فى اسبانيا ، ترجمة لطفى عبدالديع
والسيد محمود عبدالعزيز سالم ، مراجعة جمال محرز ، الدار
المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٧٧ م .

هشام سليم عبدالرحمن أبورمييلة :

- ٥٥ - نظم الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة (رسالة ماجستير) ،
مقدمة الى كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م . (لم تطبع) .

يوسف أشباح :

- ٥٦ - تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد
عبدالله عنان ، القاهرة ، مؤسسة الخانجى ، مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م .

- J. B. BURY, M.A., F.B.A. , : THE CAMBRIDGE MEDIEVAL —^{5Y}
HISTORY. , VOLUME VI, CAMBRIDGE AT THE UNIVERSITY ,
PRESS. 1929.

- JAN READ : THE MOORS IN SPAIN AND PORTUGAL , LONDON. —^{5A}
1974 .

- JOSEPH. F. O'CALLAGHAN : A HISTORY OF MEDIEVAL —⁵⁹
SPAIN., CORNELL UNIVERSITY PRESS LONDON 1974 .

الدوريات :

ابراهيم حركات :

- ١ - حياة المعتمد بن عباد في الاندلس كشاعر • مجلة البحث
العلمي المغربي ، ١٩٦٥ م •

أحمد مختار العبادي :

- ٢ - دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية •
مجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية ، العدد الخامس ،
السنة ١٩٦٠ م •
- ٣ - الصقالية في أسبانيا ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية
بمدريد ، المجلد الثالث عشر ، السنة ١٩٥٣ م •

حسين مؤسس :

- ٤ - السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ،
المجلد الثالث ، العدد الاول ، سنة ١٩٥٠ م •
- ٥ - سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين ، مجلة معهد
الدراسات الاسلامية المصرية بمدريد ، المجلد الثاني ، العدد
١ - ٢ ، سنة ١٩٥٤ م •

خليل ابراهيم صالح السامرائي :

- ٦ - الدعوة الى توحيد الاندلس في أيام الطوائف ، مجلة زانكو
العلمية الانسانية ، نيسان ، ١٩٧٧ م •

خوسيه مارياس بيكروسا :

- ٧ - ابن بصال ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، زاوية
نقد وعرض ، المجلد الخامس ، العدد ١ - ٢ ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧ م •

السيد عبدالعزيز سالم :

- ٨ - مقال بعنوان : تحقيق أسماء قصور بني عباد باشبيلية الواردة في شعر ابن زيدون
مجلة ثقافية يهدرها المعهد الاسباني العربي للثقافة ، العدد الثاني ، ١٩٧٩ م •

الصديق بن العربي :

٩ - شعر المعتمد في منقاه ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ،
١٩٦٥ م .

عبد السلام الهراس :

١٠ - ابن البانة ، مجلة تطوان ، ١٩٥٥ م .

عبد القادر زمامة :

١١ - المعتمد بن عباد في المغرب ، مجلة البحث العلمي المغربي ،
١٩٦٥ م .

ليبولد و توريس بلباس :

١٢ - الأبنية الاسبانية الاسلامية ، مجلة المعهد المصري للدراسات
الاسلامية ، العدد الأول ، المجلد الاول ، السنة الأولى ،
١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

محمود علي مكى :

١٣ - وثائق تاريخية جديدة في عصر المرابطين ، مجلة معهد
الدراسات الاسلامية المصري بمديره ، المجلد السابع والثامن ،
مديره ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ م .

محمد الفاسى :

١٤ - المؤرخان ابن أبي زرع وابن عبد الحليم ، مجلة تطوان ، العدد
الخامس ، السنة ١٩٦٠ م .

مصطفى القصري :

١٥ - الشعر في خدمة الحقيقة والتاريخ . مجلة البحث العلمي
(المركز الجامعي للبحث العلمي) العدد الأول ، السنة الأولى ،
ابريل ، ١٩٣٤ م .

— ANGUS MACKAY AND MUHAMMAD BEN ABOUD : — 17

AL FONSO VI OF LEON AND CASTILE., AL IMBRATUR
DHU -L- MILLATAYN' in BHS, LVI, 1979, UNIVERSITY
OF EDINBURGH .

— MUHAMMAD BENABOUDLY ANGUS MACKAY : — 18

THE AUTHENTICITY OF AL FONSO VI'S LETTER TO
YUSUF B. TASUFIN, in AL-ANDALUS, VOL, XLIII,
1978, FASC, I .

(فهرست)

<u>رقم الصفحة</u>	<u>الموضوع :</u>
٢١ - ١	<u>مقدمة</u>
٢٧ - ٢٢	<u>تمهيد :</u> حالة الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية
٢٣	- سقوط الدولة الأموية •
٥٤	- قيام ممالك الطوائف وأشهرها •
١٠٢ - ٦٨	<u>الباب الأول :</u> قيام دولة بني عباد
٦٩	- أصل بني عباد •
٧٣	- الموقف السياسي في الأندلس قبيل قيام دولة بني عباد •
٧٦	- اشبيلية مسرحا للصراع بين بني حمود وسكانها •
٨٠	- دولة القاضي أبي القاسم محمد ٤١٤ - ٤٣٣هـ / ١٠٢٤ - ١٠٤٢ م •
١٧٦ - ١٠٣	<u>الباب الثاني :</u> الدولة العبادية في عهد المعتضد بالله
١٠٤	- تولى المعتضد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه •
١١٥	- التوسع العسكري على حساب الإمارات العربية الغربية المجاورة •
١٢٦	- انشاقق اسماعيل بن المعتضد وقضاء المعتضد عليه
١٣٠	- توقف المعتضد عن الدعوة لهشام المؤيد الأموي المزعوم
١٣٤	- التوسع العسكري على حساب الإمارات البربر في الجنوب
١٤٩	- نشاط حركة الاسترداد المسيحي في عهد المعتضد بالله
١٧١	- حياة المعتضد الخاصة ووفاته

الموضوع

رقم الصفحة

١٧٧-٢٤٣

الباب الثالث : الدولة العبادية في عهد المعتمد بالله

- ١٧٨ - تولي المعتمد السلطة بعد وفاة أبيه وآراء المؤرخين فيه
- ١٨٤ - الموقف السياسي في الاندلس غداة تولي المعتمد السلطة
- ١٨٩ - جهود المعتمد في توسيع رقعة دولته
- ٢١٧ - خروج الوزير ابن عمار على المعتمد والقضاء عليه آخر الأمر
- ٢٣٣ - حياة المعتمد العائلية والسمات المميزة لشخصيته

٢٤٣-٣٥١

الباب الرابع : تطور الأوضاع السياسية في الاندلس ونهاية دولة بني عباد

- ٢٤٤ - اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وسقوط طليطلة
- ٢٥٧ - تدهور العلاقات السياسية بين الفونسو والمعتمد وبقية ملوك الطوائف والتفكير بالاستعانة بالمرابطين .
- ٢٨٥ - موقعة الزلاقة
- ٢٩٥ - قضاء يوسف بن تاشفين على مملكة بسني عباد وعلى غيرها من ممالك الطوائف .

٣٥٢-٤١٥

الباب الخامس : أهم مظاهر التطور الحضاري في اشبيلية في عهد بني عباد

- ٣٥٣ - نظم الحكم
- ٣٧٩ - الحياة الاجتماعية
- ٣٨٩ - الحياة الاقتصادية
- ٣٩٤ - الحياة العلمية والأدبية
- ٤١٥ - العمارة

٤١٩

الخاتمة :

٤٢٤

الملاحق :

٤٣٠-٤٤٩

قائمة المصادر والمراجع والدوريات :

رقم الصفحة	الخطاب	الصواب
١١	قصوات أخرى تابعة	قصوات أخرى تابعة
٩٦	آمال وأمانى	آمال وأمان
١٠٥	الدم في الاخلاق	الدم في الاخلاق
١٠٥	نصار	نصار
٢٢٦	تأيد صلاح خالص	تأيد صلاح خالص
٢٢٧	هناك عدد من	هناك عدد من
٢٦٥	لسنا ممتنون	لسنا ممتنون
٢٧٩	كضرورة محاسة	كضرورة محاسة
٢٢٢	أمر حثيانه	أمر حثيانه
٢٢٨	وأجرى عليهم	وأجرى عليهم
٢٤٢	فرض الأجر	فرض الأجر
٢٦٥	بيت يدرسون فيه	بيت يجلسون فيه
٢٧٢	ضرورة باليسنة	ضرورة باليسنة